قصة الفن التشكيلي

تأليف

محمد زكريا توفيق

1

الفن المصري القديم

يقول رسكين: "الأمم العظيمة تكتب سيرها في ثلاث كتب. كتاب الوثائق، وكتاب الفكر، وكتاب الفنون. لا يفهم أيا منها إلا بعد قراءة الكتابين الآخرين. لكن أصدقها وأحقها بالثقة هو الكتاب الأخير، كتاب الفنون."

سنبدأ رحلتنا لدراسة تاريخ الفن التشكيلي بنظرة سريعة إلى الفن المصري القديم. لذلك، علينا أن نذهب إلى ضفاف النيل ونرجع بالزمن إلى الوراء آلاف السنين.

مصر هي مهد أعظم وأطول الحضارات التي عرفتها البشرية. عاشت المجتمعات الزراعية على ضفاف نهر النيل منذ العصر الحجري الحديث 7000 سنة قبل الميلاد. كان المصريون في ذلك الوقت، يصنعون الأواني الفخارية ويستخدمون الأدوات المصنوعة من الحجر وعظام الحيوانات والعاج.

كانت مصر منقسمة إلى دولتين، إلى أن توحدت على يد الملك مينا عام 3100 ق م. ينقسم تاريخ مصر الفرعونية إلى: ماقبل الأسرات، الأسرات الأولى، المملكة القديمة، المملكة المتوسطة، المملكة الحديثة، والأسرات الأخيرة. تتخللها فترات ضعف واضمحلال وحكم أجنبي.

بين فترة حكم المملكة المتوسطة والمملكة الحديثة، حكم الهكسوس(الملوك الرعاه) من أصل سامي. أدخلوا الحصان والعربة الحربية إلى مصر أول مرة. خلال عصر الأسرات الأخيرة، احتل الفرس مصر مرتين. الفترة 525-404 ق م، والفترة 343-332 ق م.

بعد ذلك، وقعت مصر تحت الحكم المقدوني (بداية من بطليموس الأول إلى كليوباترا)، ثم الاحتلال الروماني، فالعربي، فالعثماني، فالفرنسي، وأخيرا الإحتلال البريطاني، إلى أن استقلت.

تعلم اليونانيون في مدارس المصريين وعلى أيدي كهنتهم. ثم نقلوا علومهم إلى العالم الغربي وباقي المعمورة. لذلك، دراسة الحضارة المصرية القديمة، ومنها الفن المصري القديم، لها أهميتها البالغة، لفهم جذورنا الحضارية بصفة خاصة، وفهم الحضارة الغربية الحديثة بصفة عامة، وهي حضارة بدأت بذورها في مصر هبة النيل.

ربما تتساءل، وما دخل مصر بالحضارة الغربية؟ مصر هي التي شكلت الفكر الغربي الحديث. فمثلا، استخدام السنة الشمسية في التقويم، وتقسيم السنة إلى 12 شهر، وتقسيم الشهر إلى أسابيع، واليوم إلى 24 ساعة. واكتشاف دائرة البروج.

واكتشاف الكتابة، وكذلك الدولة بمفهومها الحديث، والحكومة والضرائب والمدارس والقياس والموازين والقانون ومفهوم العدل والحق.

والرب الخالق والتوحيد والحياة بعد الموت والثواب والعقاب والجنة والنار والمعابد التي يعبد فيها الرب ويمجد وتقدم له القرابين. والفلسفة بمعني التساؤل عن الخلق والخالق. والفن والموسيقى والمسرح والحفلات وأعياد الميلاد وعيد الربيع والأدب والقصة والشعر والأساطير.

وصناعة الورق والزجاج والملابس والعطور وأدوات التجميل والتجارة بين الدول والزراعة والري. واحترام آدمية الإنسان، قصة خوفو والسحرة وقصة الفلاح الفصيح.

والامتثال للقيم والأخلاق، قصة الأخوين التي تشبه النبي يوسف وامرأة العزيز، وقصة الملاح التائه التي تشبه السندباد البحري. وقصة الفأر والأسد التي تشبه قصص أيسوب أو ميكي موس.

وآداب السلوك والحوار والمائدة، والقائمة لا تنتهي، إلخ، إلخ، إلخ. فجذور الحضارة الغربية، هي جذور مصرية بالتأكيد. وكما قال العالم الأمريكي بريستد، مصر هي فجر الضمير.

على ضفاف نهر النيل أيام قدماء المصريين، فيما تبقى من مدينتي منف وطيبة الشهيرتين أيام زمان، نجد إلى الآن، المقابر والقصور والمعابد العظيمة الهائلة التي ليس لها مثيل في العالم.

بالقرب من مدينة منف (الجيزة)، على حافة الصحراء، يوجد الهرم الأكبر، هرم الملك خوفو. فكم من آلاف السنين المحملة بعبق التاريخ قد مرت بهذا الصرح العظيم؟ وماذا يخبرنا هذا البناء الجبار الرائع؟

الهرم الأكبر

الهرم الأكبر يخبرنا بطبيعة شعب منظم مرتب دقيق مثابر متفان في عمله ومخلص في حرفته وفنه. وإلا كيف نفسر بناء هذا العمل الجبار، وقطع ونقل ورفع هذه الكتل الصخرية ووضعها في مكانها الصحيح، بهذه الدقة، باستخدام آلات وأساليب بدائية.

الملك خوفو هو باني الهرم الأكبر، ربما لكي يكون معبدا دينيا أو قبرا للملك. استخدم في بناء الهرم مئات ألوف العمال، واستغرق بناؤه 20 سنة. في المركز داخل الهرم، يوجد تابوت من الجرانيت وجد فارغا.

الهرم من الخارج كان مغطى بطبقة ملساء من الحجر الجيري، استخدمت بعد نزعها في بناء مباني القاهرة القديمة. لكي تتسلق الهرم اليوم، عليك أن تصعد 200 سلمة. عندما تصل للقمة، سوف ترى نهر النيل والصحراء التي تحيط بالوادي.

بني الهرم الأكبر على أرض مسطحة أفقية ملساء على شكل مربع متساو الأضلاع، مساحته 13 فدان وارتفاعه عن سطح الأرض 481 قدم. أوجه الهرم الأربعة، كل منها على شكل مثلث.

درجة الخطأ في تسطيح القاعدة لا يتعدى أربعة أجزاء من الألف في المائة. أو بالقياس العملي، ليس هناك خطأ على الإطلاق .

كل وجه يقابل إحدى الجهات الأصلية، شرق وغرب وشمال وجنوب. الخطأ في اتجاه ضلعي القاعدة، الشمال والجنوب، يبلغ ثلاثة أجزاء من مائة جزء في المائة. الخطأ في اتجاه ضلعي الشرق والغرب لا يتعدى تسعة أجزاء من مائة جزء في المائة.

هل هناك دقة في المقاييس والصناعة أشد من هذه؟ أحجار الهرم يبلغ وزنها ستة مليون وربع طن. هي كافية لعمل سور يحيط بفرنسا كلها. هذه الأحجار وضعت مع بعضها بدقة، بحيث لا يزيد سمك الفراغ الموجود بين حجرين عن خمس البوصة.

داخل الهرم توجد غرفة الملك. تحتها غرفة الملكة. غرفة الملك بها نافذتان أو ممران هوائيان. الأول يسمح بمرور الضوء الساقط من النجم القطبي مباشرة، حتى يضئ جثمان الملك في رقاده الطويل على الدوام. لأن النجم القطبي ثابت في مكانه في السماء دون باقي النجوم التي تدور حوله .

من ثم، يظل جثمان الملك مضاء في الليل أو النهار بصفة دائمة. أما النافذة الأخرى، فتقع جهة الجنوب. تسمح بمرور الضوء الساقط من نجم الشعرى اليماني، "سيرس"، الذي كان يمثل عند قدماء المصرين الإلهة إيزيس. لكي يضئ تابوت الملك مرة واحدة فقط كل عام. بذلك تستطيع روح الملك في رقادها الأبدي، معرفة عدد السنين التي تمر .

كذلك وضعت الأهرامات الثلاثة في أماكنها، ليس على خط مستقيم كما هو المتوقع، إنما في شبه خط مستقيم، لكي تمثل وضع النجوم الثلاثة التي تتوسط برج الجبار "أوريون" والذي يمثل الإله أوزوريس .

لماذا يهتم المصري القديم بالدقة المتناهية في الصنع. ألا يكفي وضع الأحجار مع بعضها على شكل كومة ضخمة ترتفع قمتها نحو السماء. لماذا يهتم المصري القديم بالشكل الهرمي الذي تطابق أضلاعه الجهات الأصلية بدون خطأ يذكر، وأي سر في ذلك؟

لماذا يهتم بأن تكون نسبة نصف محيط قاعدة الهرم إلى ارتفاعه قريبة من نسبة طول

محيط الدائرة إلى قطرها والمعروفة لدينا بالقيمة "ط". ربما لأن هذه النسبة هي التي يكون فيها البناء مستقرا.

هل صحيح أنه قد تم اختيار موقع الهرم لكي يكون مركز الكرة الأرضية، بمعنى أن خط الطول الذي يمر بالهرم يمر في نفس الوقت بأكبر مساحة أرضية يمكن أن يمر بها خط طول آخر، وكذلك خط العرض الذي يمر بالهرم هو الآخر يمر بأكبر مساحة أرضية .

هل كان المصري القديم يعلم أن الأحجار الجيرية المستخدمة في بناء الهرم، هي تراكمات بيولوجية من الأحياء الدقيقة التي كانت تعيش في الماء منذ ملايين السنيين. أي أن كل ذرة في جسم الهرم كانت تنبض بالحياة في يوم من الأيام، مثل رفاة الملك والملكة اللذان يرقدان داخله. أم كل هذا من قبيل المصادفة؟

ما هي علاقة الهرم بالشمس؟ عندما تشرق الشمس في الأفق، تبدأ أشعتها الذهبية في تسلق وجه الهرم الشرقي، كأنها تصعد الدرج إلى السماء. عندما تبدأ في الغروب، ترى شعاعها القرمزي يهبط الوجه الغربي للهرم إلى أن يختفي رع في الأفق البعيد.

كيف وضعت هذه الأحجار مع بعضها بحيث لا يضغط ثقلها الرهيب على الغرف والنوافذ والممرات الموجودة داخل الهرم؟ كيف تتخيل ستة وربع مليون طن من الحجارة صنعت بمهارة الجواهرجي؟

إذا كانت دقة بناء الهرم تعتبر معجزة، فما بالك بعظمة الإدارة التي استخدمت لتشغيل هذا الجيش الغفير من العاملين في مشروع واحد، لكي تجعلهم يعملون في توافق وتجانس تامين دون تخبط أو تعارض في القرارات والأوامر.

التاريخ يخبرنا أنه لا يوجد ملك أو شعب، قد أخذ على عاتقه هذا العناء وبذل هذا الجهد في بناء صرح واحد بهذه الدقه والصبر ، لذلك جاء بمثل هذه العظمة.

تمثال أبو الهول، جسم أسد برأس إنسان. منحوت من حجر ضخم واحد. طوله 241 قدم و عرضه 63 قدم. يقال أنه يخص الملك خفرع باني الهرم الثاني. يمثل قوة الأسد الجسدية وذكاء الإنسان العقلي.

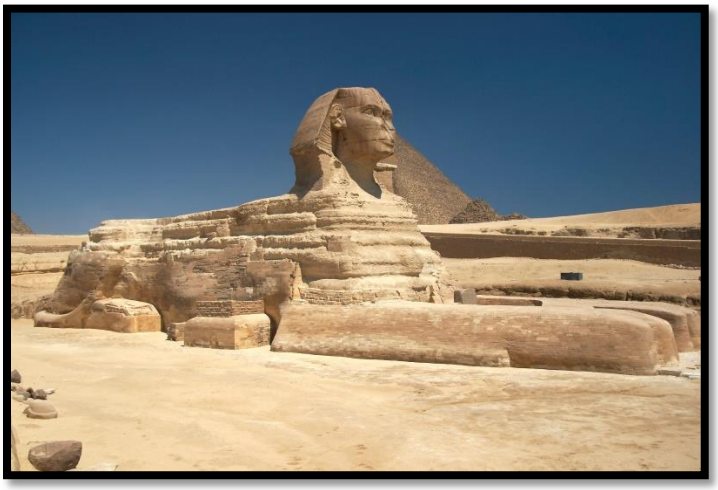

تمثال أبوالهول

على ضفاف النهر، بين مدينتي منف وطيبة، ترتص سلسلة من قبور قدماء المصريين غرب النيل. خاصة بملوك وأمراء ووزراء وعامة المصريين القدماء.

يبدو أن المصريين كانوا يقضون معظم أوقاتهم في إعداد مثواهم الأخير، كمكان مناسب لاستقبال رفاتهم المحنطة بعد الممات. يبنون معابدهم وقبورهم من الحجر ويبنون بيوتهم من الطمي. لأن الحياة الأخرى هي الباقية والخالدة.

هذه القبور قطعت من الصخر. تدفن الرفاة في الجانب الأسفل. الجانب الأعلى من القبر، عبارة عن مسكن مكون من عدة غرف. الجدران منقوشة بالرسوم والكتابات الهيروغلوفية، تحكي قصة المتوفي المدفون في تابوت أسفل القبر.

رسوم الجدران تبين رتبة ووظيف الفقيد ومركزه الاجتماعي. وأخرى تصوره وهو يبذر الحبوب ويجني الثمار ويجمع التين والعنب، أو وهو يصنع الملابس ويصب قوالب الآجر.

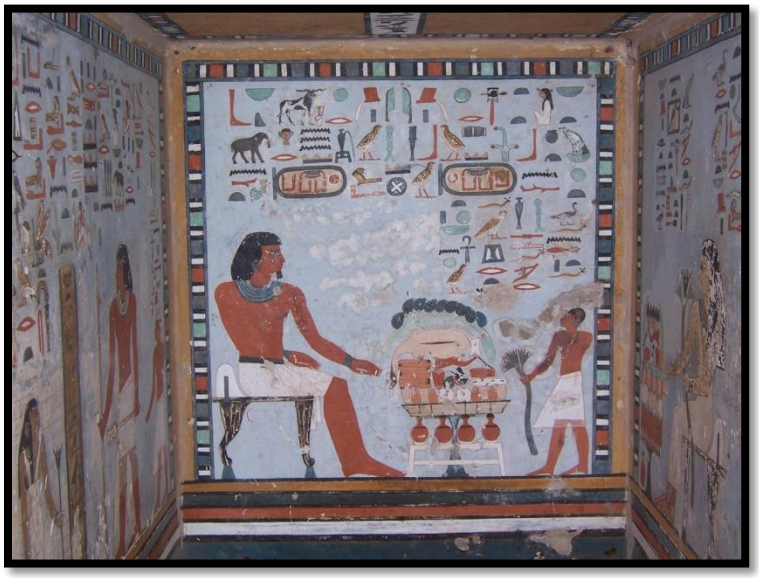

مقبرة في أسوان على الجانب الغربي من النيل

عربات وسفن، العاب وحفلات ومآدب للرجال والنساء. تبين أن المصريين القدماء كانوا شعبا سعيدا محبا للحياة. وتوضح أيضا أنهم كانوا على دراية بالفنون والعلوم.

في كل اللوحات، تجد صورة الملك هي الأكبر حجما من كل رعاياه. الفنانون لا يعرفون الرسم المنظوري. الذي يبين العمق في الصورة والذي يربط الحجم بالبعد في المشهد. طابور من الجنود ترسم في حجم واحد وتبدوا غير طبيعية كأنها تتكوم فوق بعضها البعض.

ماذا يريد أن يقوله الفنان المصري القديم؟ إنه يريد أن يخبرنا ببساطة عن قصة في شكل صورة. وهو قد نجح في ذلك. الألوان التي كان يستخدمها، لازالت نضرة لامعة.

الكتابة الهيروغلوفية المصاحبة للصور ظلت مغلقة على الفهم حتى نهاية القرن الثامن عشر واكتشاف حجر رشيد، الذي مكن شامبليون من فك أسرار اللغة الهيروغلوفية القديمة. فإذا عجزت الصورة عن توضيح القصة بالكامل، أكملت الكتابة ما نقص من تفاصيل.

نترك الآن الأهرامات في مدينة منف، ونبحر أعلى النيل. لنصل إلى مدينة طيبة ذات المئة بوابة. أعظم مدن العالم القديم قاطبة. المعابد بمدينة طيبة، حتى بحالتها الحاضرة، تعتبر من أبهى وأجل وأعظم المعابد التي عرفها العالم القديم أو الجديد.

المعبد المصري القديم، ليس ككل المعابد. تدخل المعبد عن طريق تماثيل أبي الهول على الجانبين. عند المدخل، توجد عادة مسلتان هائلتا الحجم. المسلة شكلها هرمي، لكنها طويلة جدا ونحيفة بالنسبة لطولها.

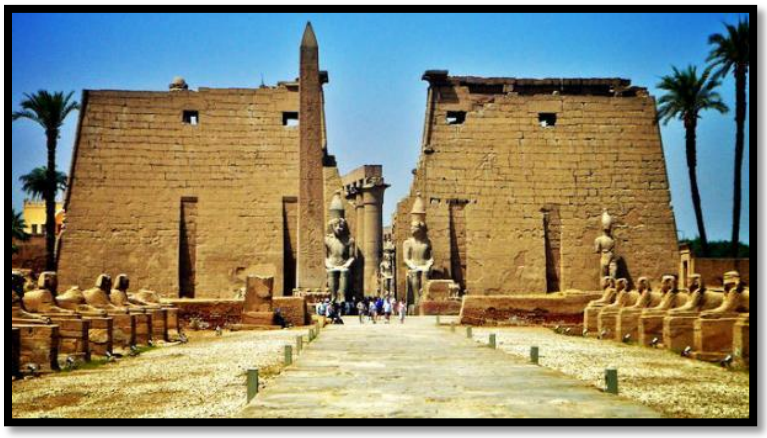

معبد الكرنك بالأقصر، أكبر دار للعبادة في العالم

ترتفع إلى السماء لتمثل شعاع الشمس. مكتوب على جدران المسلة كتابات باللغة الهيروغلوفية، أدعية وتسابيح الملك باني المعبد، موجهة إلى الإله الذي بني المعبد من أجله.

مسلات كثيرة خرجت من مصر بطرق قانونية أو غير قانونية، لتزين ميادين المدن الأوروبية والأمريكية. أحدها توجد في ميدان "سنترال بارك" بمدينة نيويورك. تعرف باسم ابرة كليوباترة. صنعت أيام الفرعون العظيم تحتمس الثالث عام 1500 ق م. ارتفاعها 21 قدم وتزن 180 طن ومصنوعة من حجر الجرانيت الأحمر.

مسلة كليوباترا بنيويورك

المعبد المصري القديم، يتكون من فناء أو أكثر، وصالات وأعمدة ومكان لإقامة الكهنة. في نهاية المعبد، توجد مقصورة أو غرفة الإله. وهي أقدس مكان في المعبد، لأن بها صورة أو تمثال الإله الذي بني المعبد من أجله.

قد يتقمص الإله صورة حيوان، قرد أو بقرة أو طائر أبو منجل أو تمساح. غرفة الإله تحظى بحراسة مشددة وتزين جدرانها بالنقوش والجواهر الثمينة. الكهنة فقط هم المسموح لهم بدخول هذه المقصورة. عامة الناس تؤدي طقوسها في الصالات أو الفناء الخارجي.

معبد الكرنك، بني خصيصا للإله آمون. بدأ بناؤه ستي الأول وأتمه رمسيس الثاني. تعني كلمة كرنك الحصن أو المكان الحصين. معبد الكرنك يقع على بعد 2 ميل من مدينة طيبة، الأقصر حاليا.

يعتبر من الروائع بين معابد الأقدمين. بهو الأعمدة هو أكبر الصالات في العالم. يبلغ المعبد من الكبر والإتساع ما يجعله يتسع لبناء عدة كنائس في فنائه الرحيب.

معبد الكرنك

عند بنائه، كانت به غابة من الأعمدة الضخمة عددها 122. الباقي منها الآن مئة عمود. مرتبة في تسع صفوف. أعمدة الوسط الإثنى عشر يبلغ ارتفاعها 60 قدم و30 قدم محيط مقطعها. الأعمدة الباقية لها نفس الحجم تقريبا.

تيجان الأعمدة على شكل زهرة اللوتس. زهرة اللوتس مقدسة لأنها تنمو على ضفاف نهر النيل المقدس. لهذا تستخدم أشكالها في تزيين الأعمدة والمعابد. أسطح الأعمدة وجدار المعبد مغطاه بالرسوم والحروف الهيروغلوفية.

زهرة اللوتس

المعابد المصرية القديمة، بنيت بطريقة تربط العابد برب المعبد وآلهته. المعبد يعتبر صورة مصغرة من الكون، بأرضه وسمائه. الأعمدة ما هي إلا نباتات وأشجار تمثل الأرض. في معابد الدولة الحديثة بالأقصر بالقرب من الكرنك، سقف المعبد مطلي باللون الأزرق ومرصع بالنجوم المضيئة ومزين بالطيور، هذا يمثل السماء.

العمود له قاعدة مستديرة وساق طويلة ورأس على شكل زهرة أو نبات. رأس العمود قد تكون على شكل زهرة اللوتس المقدسة، أو زهرة نبات البردي أو شكل جريدة النخل.

رأس العمود على شكل زهرة اللوتس

أبواب كل المعابد تواجه شروق الشمس، وشروق النجم الشعرى اليماني، سيرس، الذي يمثل الإلهة إيزيس. حتى تدخل أشعته من باب المعبد وهو يشرق مع بزوغ الفجر وقبل شروق الشمس مباشرة، إيذانا ببدء فيضان النيل والعام الجديد.

الحجم الضخم للمعابد وأعمدتها الكثيرة العدد، ذلك حتى تظهر ضآلة الإنسان بجانب عظمة وقدرة الخالق. كما أن تكرار التماثيل والأعمدة المتشابهة، يرمز إلى الخصوبة والوفرة وتكرار فيضان نهر النيل، فكما قال المؤرخ اليوناني هيرودوت، مصر هبة النيل. أيضا نجد نوافذ علوية تسمح للضوء بالدخول لكي تلقي ظلال الأعمدة بالمئات على الأرض والجدران.

يعتبر معبد الرامسيوم الذي بناه رمسيس الثاني، من أجمل المعابد في مصر. يتكون من بقايا طرق وأعمدة متكسرة وصرح ضخم تهاوى نصفه. رمسيس الثاني، هو أكثر الملوك الذين بنيت لهم المعابد.

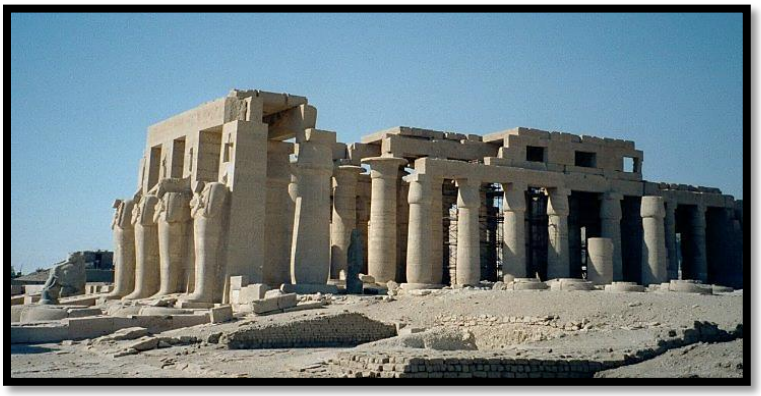

معبد الرامسيوم

يضم معبد الرامسيوم تماثيل ضخمة لرمسيس الثاني. جانبا مهما من النقوش على الأعمدة وجدران المعبد، تحكي طبيعة الحياة في تلك الفترة. تسجل وقائع معركة قادش الشهيرة التي انتصر فيها الملك على الحيثيين وكيفية استعداده وتخطيطه للحرب.

جدران الرامسيوم من الداخل

المهندس المصري القديم، صمم معبد أبوسنبل بحيث تخترق أشعة الشمس المعبد مرتين في السنة، يومي 21 أكتوبر و21 فبراير، لتضىء تمثال الملك داخل المعبد. هذه المواعيد يعتقد أنها تمثل عيد ميلاد الملك وعيد تتويجه ملكلا. لكن بسبب نقل المعبد، جاء هذا الحدث متأخرا يوما واحدا عما كان عليه الحال في الأصل.

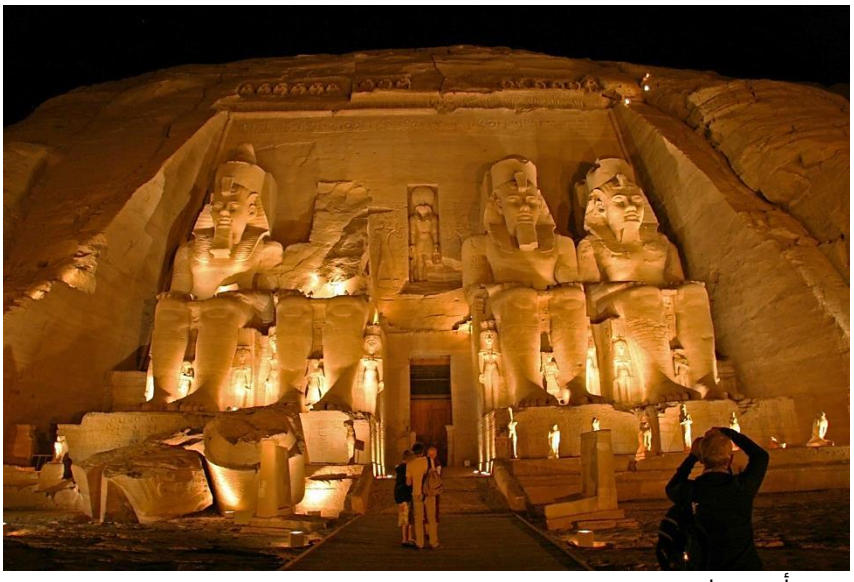

معبد أبوسمبل

ملوك المملكة القديمة كانوا يعتبرون آلهة أو أنصاف آلهة. تتحكم في مصير الناس وأقدارهم. وتتحكم في فيضان نهر النيل والخصب والنماء. مفهوم ابن الإله ليس مقصورا على الديانة المسيحية.

عندما يموت الفرعون، تقام مراسيم تحنيط جثمانه ولفه بشرائط القماش ووضعه في تابوت داخل الهرم استعدادا لرحلته إلى الحياة الأخرى. هذه المراسيم تستغرق 40 يوما. من هنا جاءت قداسة الرقم 40، التي لازلنا نستخدمها عندما نقيم أربعين الميت بتلاوة ما تيسر من القرآن.

لكن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن تحنيط جثمان الميت ليس كافيا. المطلوب شئ يشبه الملك أيضا، صورة أو رسم أو تمثال. بذلك نضمن عودة الروح "كا" للميت وعدم حدوث أي خطأ حتى يحيا حياة الأبدية. وكلما كان التمثال من الصخر أو الجرانيت الصلب، كان أضمن.

التمثال هو هذا الشئ الذي يساعد الميت على الخلود. في البدء كان التحنيط والخلود للملوك فقط. لكن سرعان ما انتقلت العادة للأمراء والوزراء ثم انتشرت بين الأثرياء وعامة الشعب.

تماثيل قدماء المصريين الخاصة بالمملكة القديمة والأسرة الرابعة، تعتبر من أجمل وأروع التماثيل بين كل الأعمال الفرعونية. تتسم بالبساطة والجمال والجلال. تعلق بالذاكرة، من الصعب نسيانها.

صانع التمثال، غير مهتم بتعبير معين للوجه، ولا يحاول ابهار المشاهد بفنه. لكنه يركز على الضروري والأساسي، ويحذف الباقي. تركيزه على الضروري فقط والأساسي هو الذي يجعل تماثيل المملكة القديمة فريدة ورائعة.

نظرة إلى تمثال خفرع الموجود في دار الآثار المصرية بالقاهرة والذي لا يضاهيه شئ، أو إلى تمثال منقرع وزوجته الموجود بمتحف بوسطن بالولايات المتحدة، توضح كيف كان الفنان والصانع في المملكة القديمة.

تمثال الملك خفرع

بالرغم من بساطتها وكونها مثل الرسوم الهندسية، إلا أنها ليست ساذجة وبدائية. إنها تشعرك بالتوازن الكامل بين الحقيقة والخيال، وبين ما نراه وما نحلم به. توازن ومزج بين الجسد الفاني والجسد الخالد.

منقرع وزوجته

المزج بين الأشكال الهندسة وما نلاحظه في الطبيعة هي شيمة كل الأعمال الفنية المصرية القديمة. الرسوم التي تزين جدران المعابد والمقابر توضح ذلك. هذه الرسوم لم توضع لكي نشاهدها نحن كما نشاهد الأعمال الفنية في المتاحف. لكنها رسمت لكي لا يراها أحد سوى ال"كا" أو روح الميت.

موسيقى ورقص

ليس الهدف هو التمتع بهذه الرسوم، بقدر ما هي تعليمات وإرشادات لروح الميت، حتى تأنس وتجد المجتمع والوسط الذي تركته في الحياة الدنيا. ممثلا في الرسوم والتماثيل، فتتعرف على المتوفي وتعود إلى جثمانه من جديد.

لكن الرسوم على الجدران تخبرنا، في نفس الوقت، بطبيعة الحياة في مصر القديمة بالتفصيل. النظر إلى رسوم القدماء قد يصيبنا بالحيرة. بسبب أننا لم نتعود على الرسم بهذه الطريقة. السبب هو أن القدماء كانوا يرسمون الأشخاص والأشياء لأسباب، تختلف عن أسبابنا نحن عندما نرسم اللوحات.

لم تكن رسوم القدماء بغرض إظهار الجمال والتكوين الفني فقط، إنما كانت بهدف اظهار الكمال والتمام أيضا. كل شئ يجب أن يظهر إلى ال "كا" بوضوح وبدون أي لبس أو نقصان.

لذلك كانوا يرسمون من الذاكرة وفقا لقواعد صارمة تظهر كل شئ بكل وضوح. طريقتهم في الرسم كانت تشبه طريقة رسم الخرائط الجغرافية.

عازفي الهارب

مثلا، منظر حوض ماء رخامي محاط بالأشجار، كان يرسم الحوض كما يرى رأسيا من أعلى، والأشجار المحيطة بالحوض، ترسم كأنها ترى أفقيا من الجنب.
كل شئ يجب أن يظهر من أفضل زاوية يمكن أن تراه منها. جسم الرجل أو المرأة ترسم بنفس الطريقة. الرأس تظهر كبروفيل جانبي، العين تظهر من الأمام في مواجهة المشاهد. بذلك تكون كاملة الشكل.

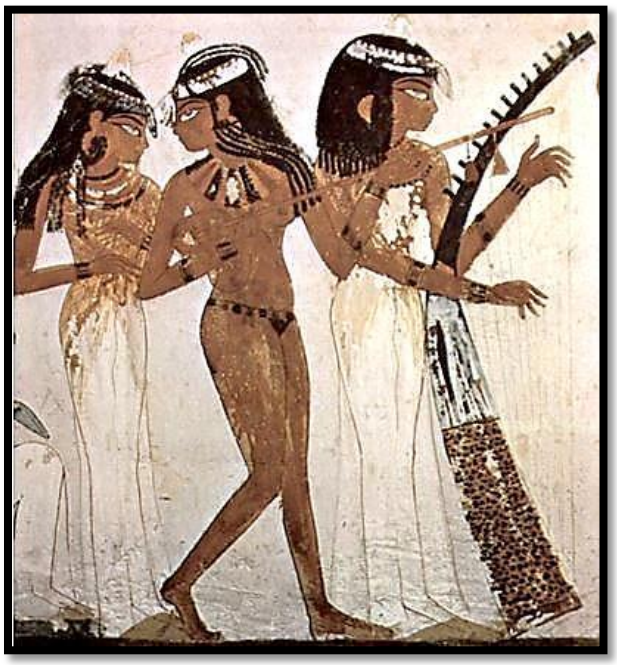

ملابس شفافة وبواريك وعزف موسيقى

الصدر والكتفان، يظهران من مسقط أمامي. الذراعان والساقان والقدمان من مسقط جانبي. القدمان كلاهما شمال. الفنان المصري القديم يعرف جيدا أن الإنسان البالغ لا يظهر هكذا. لكنه يتبع قواعد صارمة تجعله يحافظ على كل شئ هام بالنسبة لجسم الإنسان دون مساس.

إذ كيف يتثنى لرجل أن يقدم القرابين للإله ويقف أمامه وهو بذراع أو ساق واحدة أو ذراع أقصر من ذراع؟

تقديم القرابين للإله

الفنان المصري القديم لا يرسم ما يرى، إنما يرسم ما يعرف. ويرسم كل شخص حسب أهميته ومركزه الاجتماعي. الإله أكبر حجما من الملك، والملك أكبر في الحجم قليلا من الملكة، دليلا على أهميتها الاجتماعية. الرئيس أكبر حجما من العامل، وهكذا.

لا شئ في هذه الصور حدث بالصدفة. لا شئ يمكنك تغيير وضعه، في أي صورة، بدون الإخلال بتوازنها وتكوينها الفني وجمالها. حاول أن تقلد طريقة المصريين القدماء في الرسم. ستجد من الصعوبة بمكان حفظ النسب وملء الفراغات والحفاظ على التكامل والتوازن. الرسوم المصرية القديمة خير ما توصف به هو التناسق والهارمونية والجمال.

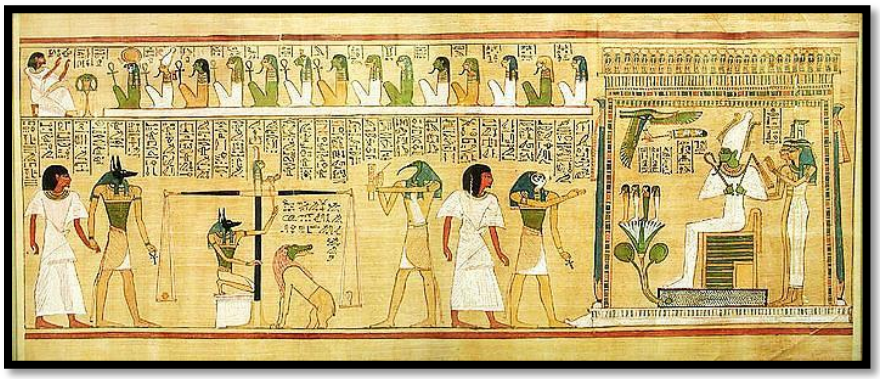

الإله حورس يقدم الميت إلى الإله أوزوريس في الحياة الأخري بعد وزن أعماله

في كل اللوحات، يثبت لنا الفنان المصري القديم، أنه لا تنقصه قوة الملاحظة أو تعوزه دراسة الطبيعة من حوله. كل طائر في الصورة أو سمكة مرسومة، تجد فيها الدقة والتفاصيل الرقيقة، التي تمكنا من معرفة نوع الطائر أو السمكة بدون عناء.

كل يد، بها أصابع، والأصابع في نهايتها أظافر مرسومة أو منحوته بكل دقة. ثياب النساء شفافة لا تنقصها التفاصيل الرقيقة.

بالنسبة للتماثيل، هناك قواعد أيضا وأصول يجب أن يلتزم بها الفنان. التمثال الجالس، توضع يداه على ركبتيه. والرجل يطلى جسده بصبغة أغمق من لون المرأة. الإله حورس يرسم في هيئة الصقر أو في شكل إنسان برأس صقر. الإله أنوبيس إله الموت في شكل ابن آوى.

الإله حورس

لا أحد من الفنانين يريد أن يكون فريد عصره وأوانه، مميزا عن الآخرين. لكن يكفيه فخرا، أن يكون عمله في مستوى من سبقوه من الفنانين العظام. لذلك ظل الفن المصري القديم قرابة 3000 سنة بدون تطور أو تغيير يذكر.

لكن هناك رجل واحد، هو الذي هز الأسلوب الراسخ للفن المصري القديم من الأعماق. هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر المعروفة بالمملكة الحديثة. وهي المملكة التي ظهرت بعد كارثة غزو مصر بالهكسوس وبعد التخلص منهم.

هذا الملك هو أمينوفيس الرابع. خرج على الآلهة المتعددة ودين الآباء والأجداد. وخرج أيضا على التقاليد المتبعة في فنون الرسم والنحت. نادى بالتوحيد وعبادة الرب الواحد. آتون، المعبود الذي يمثله قرص الشمس. وقام أيضا بتغيير اسمه إلى إخناتون. ثم قام بنقل ديوانه وحاشيته إلى تل العمارنة بعيدا عن العاصمة طيبة.

اخناتون وزوجته وبناته

صور إخناتون على جدران معابد تل العمارنة لابد أنها أدهشت المصريين في وقتها، لخروجها على التقاليد والأصول المرعية. فهي صور خالية من القداسة والصرامة والجلال التي كانت تتسم بها صور وتماثيل الفراعنة العظام الذين سبقوه.

الصور والتماثيل الجديدة، تبين إخناتون وهو يحمل ابنته ويجلسها في حجره، أو وهو يتنزه مع زوجته في الحديقة، أو وهو يستند على عصاه. بعض صوره تبينه كرجل قبيح الخلقة بجسم غير متناسق الأعضاء.

ربما أراد إخناتون أن يصوره الفنانون على أنه إنسان نبي لا إله أو نصف إله. أو ربما كان مقتنعا كنبي، بالالتزام بالصدق والأمانه، حتى لو كانت في الأعمال الفنية.

لكن انفتاحة إخناتون في الفن المصري القديم لم تدم طويلا. ففي عصر توت عنخ آمون خليفة إخناتون، تم استرجاع ديانة الأجداد من جديد. ومعها، عاد الفن المصري القديم إلى سابق عهده. ألف سنة قبل إخناتون، وألف سنة أخرى بعده أو أكثر، لكن بدون أي تقدم أو تغيير يذكر.

إلا فترة أخذ وعطاء، وتأثر وتأثير، بالفن في جزيرة كريت والمدن اليونانية القديمة، بين ثورة إخناتون الفنية والفنون في هذه البلدان للتشابه الشديد بينهما.

2

الفن الإغريقي القديم – النحت

كيف يختلف الفن الإغريقي، في العصر الذهبي أيام بركليز وازدهار الديموقراطية في مدينة أثينا، عن الفن المصري القديم أيام الملك خوفو باني الهرم الأكبر أو أيام الرعامسة العظام؟

الإغريق، مثل المصريين، يعيشون في الهواء الطلق، يحبون الطبيعة. الأرض والبحار والسماء عندهم، مأهولة بالآلهة وأنصاف الآلهة. عندهم أيضا أبطال أساطير قاموا بأعمال خارقة، واقتربوا من أن يصبحوا آلهة هم أيضا.

عند الإغريق أدباء وشعراء، مستعدون دوما لتمجيد الآلهة والأبطال. المهندسون والمثالون الإغريق، لا يدخرون وسعا في إقامة التماثيل وبناء المعابد لتكريمهم وتخليدهم.

ما تبقى من آثار الإغريق، مجرد حفريات وشظايا حطام تماثيلهم ومعابدهم. لكن لا يختلف اثنان على أنها كانت تمثل أجمل وأروع ما عرفته البشرية من فنون.

لنا أن نتخيل، أيام العصر الذهبي لأثينا، عندما كانت التماثيل سليمة بكاملها، والمعابد متاحة للجميع، للتسبيح وتلاوة التراتيل، وأداء الفرائض والطقوس وتقديم القرابين.

كما ذكرنا، الإغريق كان لديهم العديد من الأبطال والآلهة. الحديث عنهم كلهم يحتاج إلى مجلدات ومجلدات. لكننا سنتحدث في هذا الباب عن بعض الآلهة كمثال.

الإلهة "منيرفا" كما يعرفها الإيطاليون، و"أثينا" كما يعرفها اليونانيون. لماذا منيرفا؟ لأنها الإلهة المختصة برعاية مدينة أثينا، مركز وبؤرة الفن الإغريقي كله. سوف أستخدم الإسم الإيطالي، منيرفا، بدلا من أثينا، حتى لا يختلط اسمي أثينا الإلهة وأثينا المدينة.

سنبدأ أولا بسرد حكاية منيرفا الشيقة. بعد ذلك سنقوم بالنظر في التماثيل والمعابد والمعالم التي أقيمت لتمجيدها.

آلهة الإغريق كانوا يعيشون أعلى قمة جبل الأوليمب شمال بلاد الإغريق. جوبيتر (بالإيطالي)، وزيوس (باليوناني)، كان هو رئيس الآلهة. جونو (التي أخذنا منها اسم شهر يونية)، اسمها باليوناني حيرا، هي زوجة جوبيتر.

آلهة الأوليمب، كبيرهم زيوس وزوجته حيرا

كل يوم يجتمع مجمع الآلهة لرعاية شئون الكون. يجلسون لتناول شرابهم المفضل من رحيق الأزهار. عندما يقرر أحدهم النزول إلى الأرض، يأتي على متن السحاب.

في أحد الأيام، عندما كان مجلس الآلهة منعقدا يحتسون فيه الشراب، أصاب كبير الآلهة جوبيتر صداع شديد. هل الآلهة تصاب بالصداع؟ معلهش، نفوت ديه، وياما فوتنا حاجات كتير في حياتنا.

من شدة الصداع، لم يجد جوبيتر بدا من الاستعانه بالإله فولكان، الإله القميء الأعرج الذي يعمل بالحدادة. أمره جوبيتر بأن يأتي بمطرقته ويدق على رأس جوبيتر بشدة، حتى يخفف من ألم الصداع.

بالطبع "فولكان" (الذي اشتقت من اسمه كلمة بركان بالإنجليزية)، ليس في مقدوره سوى طاعة أوامر كبير الآلهة جوبيتر. بعد خبطتين في الرأس أو ثلاثة، إذا بدماغ كبير الآلهة تنفتح وتخرج منها الإلهة منيرفا بحلتها الحربية ودرعها ورمحها في يدها وخوذتها على رأسها.

منيرفا (أثينا) – معبد البارثنون

بالطبع هذه طريقة ميلاد نادرة الحدوث. لكن الميلاد من الرأس، له دلالة بالغة الأهمية. منيرفا جاءت من رأس جوبيتر، إذن لابد أنها تكون ذكية عبقرية حكيمة عليمة. في الواقع، كانت حكمتها تعادل حكمة أبيها جوبيتر أو تزيد. جاءت وهي مسلحة بالرمح والدرع، إذن لها علاقة بالحرب والصيد.

الميلاد عادة يمر بمرحلة الطفولة والصبا والشباب، ثم النضج والشيخوخة، لكن في حالة منيرفا، هي ولدت كاملة متعلمة حكيمة منذ البداية، مثل الحشرات. فالحشرة، هي أيضا، تولد كاملة منذ خروجها من الشرنقة، ولا تولد صغيرة ثم تكبر مثل باقي المخلوقات.

البومة هي طائر منيرفا المفضل. شجرتها المميزة، هي شجرة الزيتون. لذلك نجد البومة هي رمز الحكمة عند الغربيين. ونسمع تعبير بومة منيرفا، الذي جاء في "فلسفة الحق" لهيجل، حيث يقول: " إن بومة منيرفا لاتبدأ بالطيران إلا بعد أن يرخي الليل سدوله". أما الشرقيون، فالبومة عندهم تمثل طائر شؤم وخراب.

بعد ميلاد منيرفا مباشرة، التحقت بمجلس الآلهة، التي كانت تناقش عملية تسمية إحدى المدن الإغريقية. نظرا لأن آلهة الإغريق، لها عيوب البشر أيضا، لم يتمكنوا من الاتفاق على اسم واحد للمدينة.

لذلك، قرروا عمل مسابقة بينهم، لمعرفة من له شرف إطلاق اسمه على المدينة. أسفرت التصفيات النهائية عن فوز إلاهين: نبتون ومنيرفا. قررت الآلهة، لحسم الأمر بينهما، أن الفائز بهذا الشرف، هو من يأتي بعمل، يكون من أكثر الأشياء فائدة للإنسان.

سارع نبتون بإلقاء رمحه ذا الثلاث شعب على الأرض، لكي يظهر في التو واللحظة حصان جميل الشكل بصحة جيدة. بهرت الآلهة بجمال الحصان، واعتقدت أن نبتون هو الفائز بدون أدنى شك.

نافورة نبتون في برلين

جاء دور منيرفا، فقامت بضرب الأرض بعصاها. على الفور، نبتت منها شجرة زيتون مباركة. أرادت منيرفا أن تخبر الآلهة بطريقة بليغة، أن شجرة الزيتون هي الأفيد.

لأن منها نستخرج الزيت الذي يستخدم في الأكل والإضاءة، ومن ثمرها نأكل وبأوراقها نستظل من الحر والقيظ. لأهمية أشجار الزيتون في الحضارات القديمة، جاءت في الإنجيل والقرآن.

هنا تأكدت الآلهة بحكمتها من فوز منيرفا بالجائزة. لأن شجرة الزيتون أفضل من الحصان جميل الشكل. لذلك، خلعت على منيرفا شرف تسمية المدينة الجديدة.

منيرفا يعني اسمها بالإيطالي "الحكمة". أما اسمها بالإغريقي، فهو "أثينا". لذلك، تم تسمية المدينة الجديدة "أثينا"، تكريما للإلهة منيرفا أو أثينا، ابنة جوبيتر أو زيوس.

المدن الإغريقية تبنى عادة على تل محصن ومرتفع عن الأرض، يسمى أكروبوليس. على التل يوجد مكان مقدس مخصص لحماية رموز العقيدة، باقي المكان يعتبر ملجأ للناس حينما يشتد الخطب ويعم الخطر.

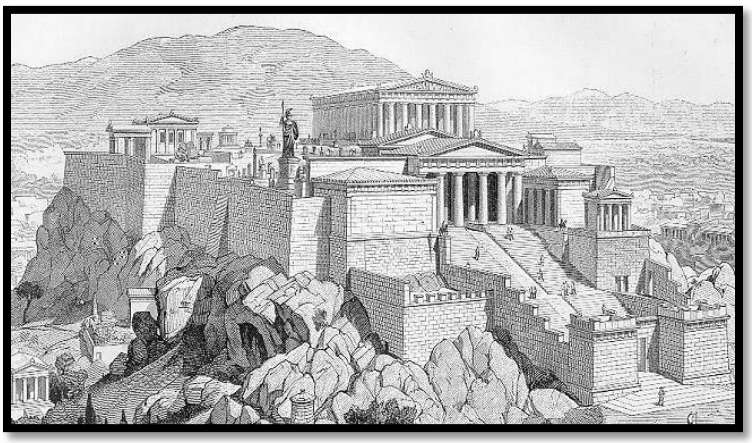

رسم توضيحي لأكروبوليس أثينا

في أكروبوليس أثينا، يوجد تمثال صغير من خشب شجرة زيتون للإلهة منيرفا. هذا التمثال يعتبر تمثالا مقدسا، لأن الاعتقاد هو أنه سقط من السماء. وما أكثر الأشياء التي تسقط علينا وتأتينا من السماء.

الحجر الأسود في الكعبة، يعتقد أنه جاء من الجنة، ويرى العلماء أنه حجر من أحجار الشهب التي تسقط على الكرة الأرضية طوال الوقت. كان لونه أبيض، ثم اسود بعوامل الأكسدة. لذلك، كان تمثال منيرفا يغسل بالماء المقدس ويعطر ويعتنى به كل يوم.

أثبتت الأيام أن منيرفا هي الراعي والحارس الأمين لمدينة أثينا. فقد قامت منيرفا بتعليم الصبايا غزل ونسج الملابس، وقامت بتلقين الشباب فنون القتال والحرب.

عندما قامت حرب طروادة بين أثينا ومدينة طروادة بآسيا الصغرى، تركيا حاليا، كانت حماية وشفاعة منيرفا هي سبب نصر الإغريق. سبب الحرب، هو خطف باريس للجميلة هيلين زوجة مينالوس ملك اسبرطة.

هذه الحرب، تعتبر من أهم أحداث الميثولوجيا الإغريقية. جاءت في ملحمة هوميروس: الإليازة والأوديسة، وجاءت في معظم التراجيديات الإغريقية القديمة، وأيضا ذكرها الشعراء الرومان أمثال فيرجل وأوفيد.

يعتقد الإغريق أن منيرفا إلهة الحرب والحكمة، قد ساعدتهم أيضا في انتصارهم على الفرس، في معركة الماراثون الشهيرة. هذا جعلهم مغتبطين وممنونين، لوفاء منيرفا لهم ووقوفها إلى جانبهم طول الوقت.

لذلك، قرروا التعبير عن اغتباطهم هذا ببناء معبد يليق بالإلهة الجميلة، على هضبة الأكروبوليس. هذا المعبد، يجب أن يكون أجمل المعابد في العالم. كان هذا في مقدورهم، لأن المدينة أصبحت غنية بالمغانم والأسلاب التي أسفرت عنها حروبهم مع الفرس.

بجانب الغنى والثراء، كان وجود رجل الدولة الحكيم بيركليز عاملا مهما. فعندما أوكله الأثينيون مشروع بناء معبد منيرفا، طلب بيركليز على الفور، مساعدة أفضل المهندسين، إكتينيوس وكاليكراس، وأشهر الفنانين المتخصصين في صناعة التماثيل، فيدياس. ثم قام فيدياس بدوره بتجنيد العديد من الفنانين المشهورين من كل أنحاء بلاد اليونان، لمساعدته في اتمام هذا العمل الجبار.

معبد منيرفا يختلف عن المعابد المصرية القديمة. هو أصغر حجما ولا يقارن بمعبد الكرنك مثلا في الضخامة والحجم. لكنه بني من الرخام والمرمر الأبيض الخالص. بعض أجزائه ملونة، وسقفه مدبب.

السقف مرفوع بأعمدة جميلة. نوعان من الأعمدة تم استخدامهما في الأكروبوليس. العمود الدوري (Doric) البسيط الخالي من النقوش، والعمود الأيوني (Ionic)، تشبه رأسه قرني الكبش.

يوجد نوع ثالث من الأعمدة الإغريقية، العمود الكورنثي. نسبة لمدينة كورنث في اليونان. هو طراز أكثر تعقيداً من الدوري والأيوني. حيث يبنى تاج العمود على شكل زخارف نباتية. يوجد مثل هذا النمط في الحضارة المصرية بكثرة.

إضاءة المعبد من الداخل تأتي من السقف. مقصورة الإله بها تمثاله كما في المعابد المصرية الفرعونية.

الأكروبوليس أو الأكروبول الإغريقي، يقع على تل يرتفع عن مدينة أثينا ب 150 قدم. كلمة أكروبوليس تعني المدينة العليا. طريقان من السلالم الرخامية العريضة تقود إليه. بينهما طريق ثالث للدواب والعربات الحربية.

البوابة أو المدخل، البروبليون، الواقعة في غرب التلة، عبارة عن معبد محاط بالأعمدة الدورية. ثم نجد معبدا متواضع الحجم على اليمين مدعما بالأعمدة الأيونية خاص أيضا بالإلهة منيرفا.

في المواجهة، سوف نرى تمثالا ضخما من البرونز ، هو تمثال الإلهة المحاربة منيرفا. ارتفاعه 70 قدم، أعلى بكثير من سقف المعبد، يمثل منيرفا وهي مسلحة بالرمح والدرع وعلى أهبة الاستعداد للقتال.

تمثال منيرفا يقف شامخا في الأكروبوليس أعلى من كل معابدها. يمكن أن تراه المراكب من بعيد وهي في عرض البحر. منظر تمثال منيرفا المستعد للقتال، لابد أنه يرهب الأعداء، ويطمئن البحارة العائدين إلى ديارهم بعد طول غياب.

هناك أيضا، في أكروبوليس أثينا، معبد ارخثيون الذي بني لكي يحمل اسم ارخثيون الملك الإغريقي العظيم. به تمثال خشبي مصنوع من شجرة زيتون مباركة. ومدعم سقفه بتماثيل الحوريات بدلا من الأعمدة المعتادة.

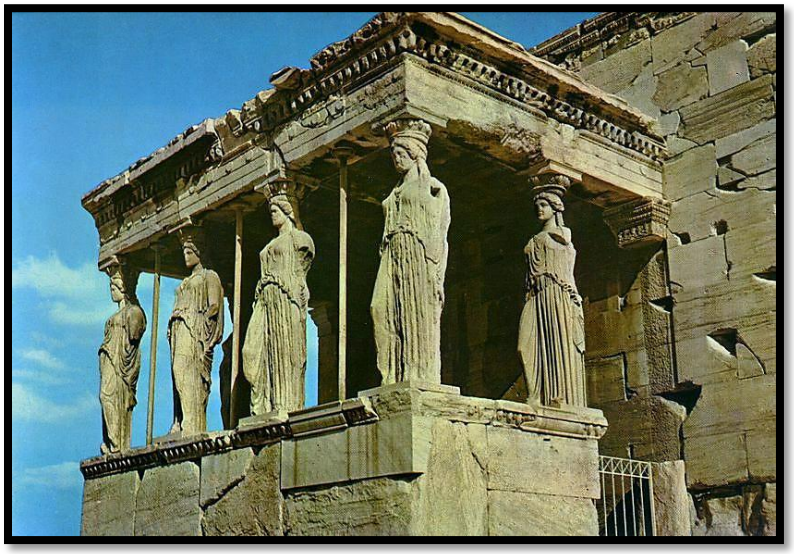

معبد ارخثيون بالأكروبوليس

معبد البارثينون المدعم بالأعمدة الدورية، هو أعظم وآخر المعابد التي أنشأها اليونانيون لتكريم الإلهة منيرفا في الأكروبوليس وأكبرها نسبيا. كلمة بارثينون تعني بيت الفتاة العذراء.

معبد منيرفا بالأكروبوليس، البارثينون

الإفيز الخارجي الذي يعلو الأعمدة ويحيط بالسقف، عليه نقوش جليلة مليئة بالحركة والحيوية. على أحد الجوانب، ترى منيرفا وهي تبزغ من رأس جوبتر وهي بكامل عدتها وعتادها. على الجانب الآخر، تشاهدها وهي تباري نبتون على أحقية أيهما في تسمية المدينة. خلف الأعمدة، ترى نقوشا أخري تحيط بالمعبد كله.

معبد البارثينون كان مثوى تمثال آخر لمنيرفا، صنعه المثال العظيم فيدياس من الخشب، مطعم بالعاج والذهب وارتفاعه بلغ 37 قدما. الرأس واليدين والقدمين من العاج. العينين من الأحجار الكريمة، الملابس من الذهب الخالص. صدر منيرفا مرصع بالأحجار الكريمة. تقف منتصبة القامة، وتلبس الخوذه على رأسها.

يأتي الناس من كل أنحاء الإغريق لمشاهدة هذا التمثال الرائع. ما نعرفه عن التمثال، من كتابات أدباء الإغريق وشعرائهم. أو من تماثيل صغيرة وجدت في الحفريات تقلد التمثال الأصلي لمنيرفا.

البارثينون الأعجوبة المعمارية والفنية، تحول عام 500م إلى كنيسة مسيحية. بعد استيلاء الأتراك على المدينة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، تحول إلى مسجد تركي. ولنا أن نتخيل تأثير ذلك على التماثيل والنقوش داخله وخارجه. مباني أخرى في الأكروبوليس دمرتها العقيدة المخالفة أو الحقد أو الزلزال أو الإهمال أو الحرب.

في عام 1687م، أثناء حرب تركيا والنمسا، كانت تركيا تستخدم المبنى كمخزن للبارود. وعندما ألقت النمسا قنبلة على سقف البارثينون، تحول ما تبقى من هذا المبنى الرائع الذي ليس له مثيل، إلى فتات ومئات القطع الصغيرة. ثم نقل ما أمكن نقله من أثار إلى متحف الأكروبوليس في أثينا والمتحف البريطاني في لندن. ولم يبق من المباني غير الأطلال.

شوارع أثينا في العصر الذهبي، كانت مليئة بالتماثيل والمعابد. الأكروبوليس يطل على المدينة من عل كمتحف رائع. عندما تشرق الشمس وتحتضنه بأشعتها الذهبية، تتلألأ أجزاء المرمر والعاج والرخام الأبيض والذهب والبرونز التي تكون هذا العمل الفني الرائع من بعيد، لكي تبهر الناظرين. عمل لا أقل من كونه تاجا على راس الحضارة الإنسانية بصفة عامة، والفن الإغريقي القديم بصفة.

لكن دوام الحال من المحال. يبدو أن منيرفا قد تخلت أخيرا عن مدينتها الرائعة. فقد توالت هزيمة الإغريق في المعارك الحربية، وفقدت الكثير من أعمالها وتراثها الفني، بالتدمير أو السلب والنهب.

بعد الإنتهاء من بناء البارثينون، أغضب الأثينيون فيدياس المثال الشهير الذي أشرف على الأعمال الفنية بالأكروبوليس. مما أثار سخطه وجعله يترك المدينة.

ذهب فيدياس إلى مدينة أولومبيا، غرب اليونان حيث تقام الألعاب الأولومبية. سبقته شهرته، فاستقبله الأولومبيون استقبالا حافلا. لم يضع وقتا، فور وصوله، شمر عن ساعديه وقام بتكليف جيشا من الفنانين والمهندسين والجواهرجية والصاغة لمساعدته في عمل تمثال لكبير الآلهة جوبيتر (زيوس).

تمثال الإله جوبيتر في أولومبيا

بعد إتمام هذا العمل الجبار وإقامة التمثال على قاعدته، سرعان ما أصبح أعجوبة من أعاجيب الدنيا السبعة. أعاجيب الدنيا السبعة في ذلك الوقت، كما جاءت بكتاب فيلون، والتي لم يبق منها أثر سوى الهرم الأكبر، هي:

الهرم الأكبر، حدائق بابل المعلقة، تمثال جوبيتر أو زيوس في أولومبيا، معبد ديانا أو أرتميس في إفيسوس، ضريح هاليكارناسوس الفارسي في تركيا، تمثال أبولو العملاق في رودس، فنارة الإسكندرية.

لنا أن نتخيل كيف كان تمثال جوبيتر الذي عمله فيدياس، من معلومات تركها لنا الأدباء الأوائل ومن نسخ تقليدية لهذه الأعجوبة التاريخية التي وجدت على العملة الإغريقية القديمة.

تمثال جوبيتر، يشبه تمثال منيرفا، مصنوع من خشب شجرة زيتون مباركة. مطعم بالعاج وشرائح الذهب الخالص ومرصع بالأحجار الكريمة. ارتفاعه بلغ 40 قدما.

يجلس جوبيتر على كرسي عرشه الرائع. يحمل في يد، مطرقته التي يعلوها نسره المفضل، وفي اليد الأخرى، تمثال من العاج. يقول هومير وهو يصف لنا التمثال:
"لا بد أن كبير الآلهة جوبيتر، كان يوجه يد الفنان أثناء صناعة تمثاله."

المعبد الذي يحتضن التمثال كان ضخما كبير المساحة، أعمدته مرتفعة. إلا أن تمثال جوبيتر وهو جالس، كان أعلى من ارتفاع المعبد. يظهر لمن يريد أن يراه من بعيد.

لأن الناس في ذلك الوقت، كانت تعتقد أن الحج إلى تمثال جوبيتر ورؤية الإله وجها لوجه، تزيل الهم وتذيب الغم وتخفف المتاعب وتلبي الدعاء. هذا ما نشعر به عندما نقوم بالحج إلى بيت المقدس أو الكعبة، والوقوف أمام الحجر الأسود.

بعد أن أنهى فيدياس وفريق عمله صناعة التمثال، رفع يديه إلى السماء مخاطبا جوبتر وجها لوجه قائلا: "اللهم إن كان عملي هذا يروقك وينول رضاك وقبولك، فتقبله مني وأرني علامة رضاك وغفرانك."

تقول حكاية فيدياس، أن جوبتر استجاب لدعائه وصلاته على الفور. وإذا بسنا برق وضياء ساطع يضئ التمثال من كل جوانبه. بذلك، يكون فيدياس قد نال رضاء الرب، وانتقم لنفسه من الأثينيين الذين لم يقدروه حق قدره.

رفض فيدياس أن يعود إلى أثينا. وأصبح تمثال جوبتر رمزا لبلاد الإغريق كلها، بعد أن كان تمثال منيرفا، رمزا لمدينة أثينا وحدها.

دعنا نتحدث الآن عن باقي أعمال الإغريق الخالدة.

الإغريق يعشقون صناعة التماثيل لآلهتهم من المرمر الخالص. تمثال فينوس دي ميلو، قيل عنه أنه وحده يثبت أن الإغريق هم أعظم شعوب الأرض في الفنون وإقامة التماثيل.

تمثال فينوس ميلو

فينوس كما نعلم، هي إلهة الحب والجمال. هذا يجعلها الموضوع المفضل لدي الفنانين والنحاتين. فهل هناك شئ أهم من الجنس والحب والجمال في حياتنا؟

حكاية فينوس تقول إنها بعثت من زبد البحر الأبيض الناصع، ثم حملها النسيم العليل إلى معرش الآلهة بجبل الأوليمب. بهتت الآلهة بجمالها ودلالها وكبريائها، لذلك لم يكفوا عن مطاردتها وإغوائها، وكانت فينوس ترفضهم وتنهرهم جميعا.

لكن الكبير جوبتر أراد أن يعطيها درسا في التواضع، فأمر بزواجها من الإله الحداد الأعرج المقزز فولكان، (هو الذي ضرب رأس جوبيتر بمطرقته لكي تخرج منها منيرفا).

تمثال فينوس المسمي "فينوس دي ميلو"، وجد في جزيرة ميلوس منذ أكثر من 200 سنة مضت. وجده فلاح مخبوءا في فجوة في حائط مسرح قديم مهجور، مدفونا تحت الركام أكثر من 2000 سنة. وجد مكسورا قطعتين.

بعد ترميم التمثال، تم بيعه للملك لويس الثامن عشر، ملك فرنسا. الآن يوجد التمثال بمتحف اللوفر بباريس. الشعب الفرنسي يقدر الفنون. أثناء الحرب الفرنسية مع بروسيا، ولخوفهم على التمثال، وضعوه في صندوق حديد ودفنوه تحت الأرض.

جمال وجه تمثال فينوس دي ميلو يفوق الوصف، لا تستطيع الصور إظهار سحره ورقته. ملمس الرخام في التمثال ناعم مثل القطيفة، لا يشبهه تمثال آخر.

تمثال آخر لفينوس، هو "فينوس دي ميديشي". وجه فينوس هنا ليس له سحر وجمال، ولا يقارن بوجه "فينوس دي فيلو". لكن روعة تمثال "فينوس دي ميديشي" تأتي من جمال وتناسق وتكوين نسب البدن.

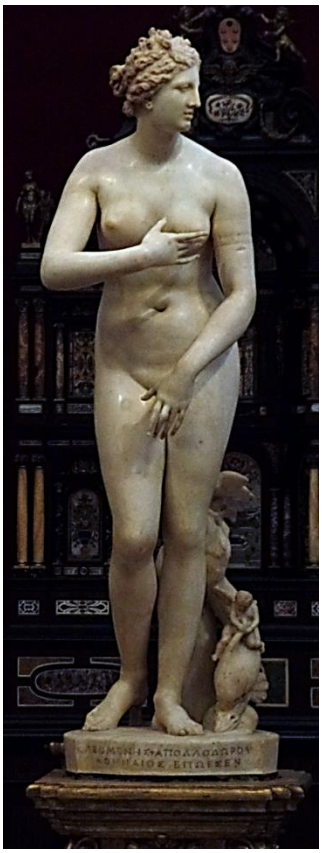

فينوس دي ميديشي

هذا التمثال كان مدفونا أيضا. تم استخراجه وترميمه من بين أنقاض رواق روماني قديم في القرن السابع عشر الميلادي. بعد ذلك، وجد طريقه إلى أحد قصور عائلة ميديشي الشهيرة بفلورنسا. الآن موجود بأحد متاحف فلورنسا.

تمثالان آخران وجدا عام 1875م، تحت اسم "النصر". أحدهما على قاعدته اسم صانعه "باكونيوس". الأخر صنعه "بايونيوس". عادة تماثيل النصر، تلبس إكليل النصر في رأسها، وتحمل جريدة نخل أو درع الحرب، في بعض الأحيان يكون لها أجنحة.

هذان التمثالان، وجدا بدون رأس أو ذراعان. لكن ما تبقى من البدن، يظهر روعة ديناميكية وانسياب طبيعي للملابس، جعلاهما يبلغان شهرة عالمية.

هناك أيضا تمثال هيرميز أو عطارد من المرمر الخالص، صنعه المثال الإغريقي "براكسيتيليس". هيرميز هو الرسول بين الآلهة. يتسم بالسرعة والمكر.

لذلك سمي أقرب الكواكب إلى الشمس عطارد، لأنه سريع الحركة، وسمي الفلز الوحيد، الزئبق، الذي يوجد في الحالة السائله بدون تسخين في اللغلة الإنجليزية (Mercury)، وتعني أيضا عطارد.

تمثال هيرميز يبينه وهو يستند إلى جذع شجرة، طارحا عباءته بدون اكتراث على ذراعه، الذي يحمل به الطفل باخوس. ربما يحمله إلى الحوريات، اللاتي سيقمن بتعليم وتربية هذا الإله الصغير، إله الخمر والغناء عند الإغريق.

تمثال الإله هيرميز يحمل الطفل باخوس

تمثال هيرميز غير جامد، وجه التمثال معبر، يبدي عطفا وحنانا دافقين نحو الطفل. يعتقد كثير من النقاد أن هذا التمثال من أجمل ما أبدعه الإغريق من تماثيل.

نأتي الآن إلى تمثال أبوللو بلفيدير الذي لا يقل روعة عن تمثال هيرميز السابق. أبوللو، هو إله الشمس عند الإغريق. هو أيضا إله رمي السهام، والموسيقى، والشعر، والشباب، والجمال. لذلك، يظهر في الأعمال الفنية في صور كثيرة.

أبوللو بلفيدير

تمثال أبوللو بلفيدير، عثر عليه في القرن الخامس الميلادي، بين خرائب مدينة رومانية قديمة. بلفيدير تعني "معرض بلفيدير" بالفاتيكان في روما، حيث يوجد التمثال.

تمثال أبوللو يذكرنا بالشباب، وما أدراك ما الشباب، وما يصاحبه من حيوية وطاقة متدفقة وجمال. عباءة أبوللو تنساب برقة ويسر على صدره وكتفه وذراعه. تظهر طياتها الرقيقة ناعمة الملمس.

رأسه في غاية الجمال والتناسق. ذراعه تستند إلى جذع شجرة. الذراع الأخرى، ترتفع كأنه لتوه قد أطلق سهما نحو هدف بعيد، يتابعه بنظره عن كسب وفضول.

بعد أبوللو، إله الشمس، لا يسعنا سوى الحديث عن اخته التوأم الرائعة "ديانا" أو "أرتميس". ديانا هي إلهة الليل والقمر، والصيد والقنص. لاحظ التشابه في الوظيفة بينها وبين أخيها التوأم أبوللو.

في شهر أكتوبر من كل عام، عندما يظهر القمر، إيذانا ببدأ موسم الحصاد، تنزل ديانا من عربتها الحربية المصنوعة من الفضة الخالصة، وتحمل قوسها ونشابها، تصاحبها العذارى والحوريات، ويذهبن جميعا للصيد.

لاحظ هنا أن عربة أبوللو ذهبية وعربة ديانا فضية، لأن أبوللو إله الشمس، وديانا إلهة القمر. الشمس لونها ذهبي، والقمر لونه فضي.

تمثال "ديانا والإيل"، يوجد في متحف اللوفر مثل تمثال "فينوس ميلو". هنا ديانا تمارس هوايتها المفضلة، هواية الصيد، تلبس الصندل أو نصف حذاء. تحمل في كتفها جعبة سهام. بيد تمسك الإيل من قرنه (حيوان يشبه الغزال)، ويدها الأخرى تمتد لسحب سهم من جعبتها خلفها.

ديانا والإيل

كانت هواية الإغريق، عمل تماثيل لأبطال الرياضة، مثل رياضة الجري والمصارعة ورمي الرمح والقرص. تمثال رامي القرص "ديسكوبولوس"، للمثال "ميرون"، كل جزء من أجزاء التمثال تبين حركة وتأهب. العظام تتحرك والعضلات تنتفض من تحت الجلد الأملس الناعم مثل القطيفة.

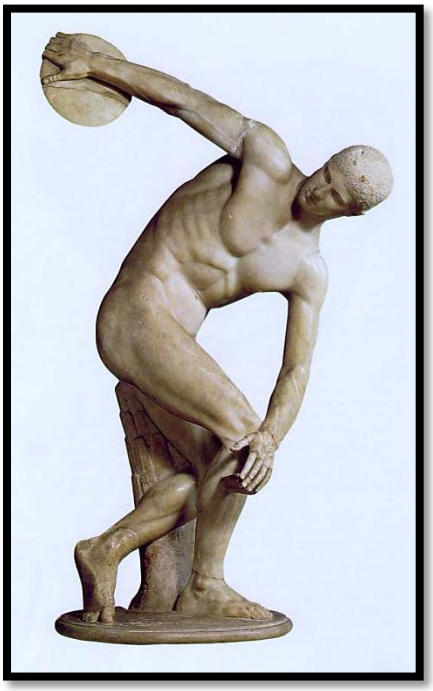

رامي القرص للمثال ميرون

رامي القرص ينحني إلى الأمام لكي يكسب عزم وطاقة تساعدة على رمي القرص أبعد ما يمكن. كيف نجح ميرون المثال في نقل كل هذه الانفعالات والحركة إلى قطعة رخام أصم، فجعلها تنطق بالحياة والدفئ؟

هذا بالطبع يختلف عن فن صناعة التماثيل عند قدماء المصريين. لأن وظيفة التمثال عند الفراعنة تختلف عن وظيفة التمثال عند الإغريق. الفنان الإغريقي يصنع التمثال كما يراه على الطبيعة، لكي يشاهده المشاهد ويعجب به.

بينما الفنان المصري القديم يصنع التمثال من الذاكرة، وفقا لقواعد دينية صارمة. إنه يصنع التمثال كما يعلم، وكما يجب أن يكون، لكي تتعرف عليه روح الميت ال "كا"، وليس للمشاهدة والإعجاب.

3

الفن الإغريقي القديم – الرسم

الفن الإغريقي القديم بصفة عامة يعتبر انتصارا للفطنة والذكاء، قبل أن يكون تعبيرا عن الإحساس والعاطفة. الفن الإغريقي يتمتع ببساطة شديد ومنطقية فائقة. إنه يوضح في كل عمل، درجة عالية من حب التوازن والتماثل والتناسق بين الأجزاء.

أبسط النقوش الإغريقية، تستشف منها امتزاج العناية بالتناسق والمنطق. نقوش الأعمدة الأيونية عندهم، مثلا، ليست مجرد أنصاف دوائر. إنما أقواس مركبة تعطي بهجة للناظرين. الخطوط منحوته بدقة رائعة. الفنان، قبل أن يبدأ العمل، يفكر ويأخذ كل شئ في الحسبان.

لم يبق من رسوم الإغريق القدماء سوى القليل. الألوان المستخدمة سوف تتحلل وتبهت ثم تختفي للأبد. لم يبق أيضا سوى بعض القصص والحكايات عن فنانين رسامين عظام إغريق عاشوا قبل الميلاد.

لم يكن يدور بخلدهم أننا الآن وبعد آلاف السنين، نكتب عنهم وعن أعمالهم وحكاياتهم. ربما تكون القصص بها بعض المبالغات، لكن هذا يجعلها أكثر إثارة ومتعة.

أول الرسامين الإغريق كان يستخدم لونا واحدا. ثم جاء من أضاف لونا آخر. الملابس كانت في أول الأمر جافة خشنة متصلبه، لكن بمرور الوقت، أصبحت مرنة ناعمة منسابة لها طيات وتموجات طبيعية.

أحد القصص الظريفة عن فن الرسم الإغريقي كانت تخص ابنة صانع أواني فخارية. في أحد الليالي، رأت خيال رأس حبيبها، المضاءة بالمصباح، تسقط على الحائط المقابل.

لكي تحتفظ بصورة الظل على الحائط كما هي بدون تغيير، قامت بتحديد ظل الرأس وملء المساحة بلون غامق. يقال أن هذا هو أصل رسم الظلال في اللوحات الفنية.

الرسام بوليجنوتوس، كان محل احترام وإعجاب الأثينيين. هذا لأنه كان يزين أروقة أثينا بالرسوم التاريخية الإغريقية. قدم الإغريق لرسامهم العظيم مبلغا كبيرا من المال تعبيرا منهم لفنه وإخلاصه. لكنه رفض قائلا: "يكفيني منكم احترامكم وإعجابكم". لكن الأثينيون أصروا وأعطوه بدلا من المال، قصرا جميلا لكي يعيش فيه.

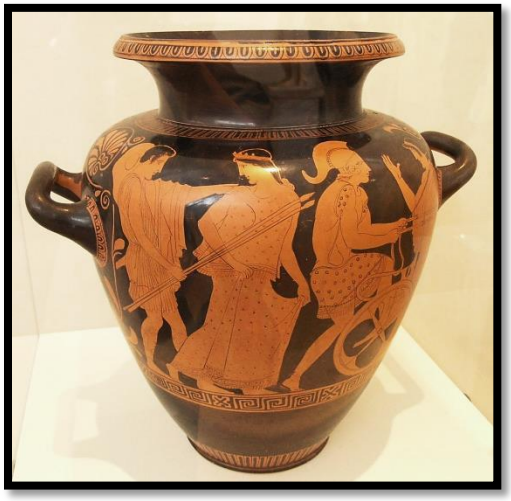

رسومات بوليجنوتوس على الأواني الفخارية

أيضا، أعفته مدينة أثينا من الضرائب. وعندما كان يسافر، كان يعامل معاملة الملوك. يذكرنا بمقولة: "الملوك تحكم بالقوة، لكن الفنانين تحكم بالموهبة". وياريت تقدر شعوبنا الفن والفنانين ودورهم في حياة الشعوب.

الفنان زيوكسيس كان من أوائل الرسامين الإغريق. كان يرسم لوحاته ببطء شديد. وكان يعلل ذلك بقوله: "الفن يا سادة عبارة عن أعمال خالدة، وأنا أصنع الخلود".

كانت الناس معجبة بفنه ولوحاته، لدرجة أنها كانت تباع بمثل وزنها ذهب خالص. لذلك أصبح زيوكسيس واسع الثراء. تملكه الكبرياء إلى درجة أنه بدأ يقول: "أنا لوحاتي ليست للبيع، لأنها لا تقدر بثمن. وإذا أردت التخلص منها، سوف أمنحها هدايا لأصدقائي".

زيوكسيس يختبر الموديلات من خلف الستار(لوحة لموتيس 1858م)

كان يظهر في الأماكن العامة، لابسا أفخر الثياب والأرواب باهظة الثمن. مزينة بالنقوش والحروف الذهبية التي تكون اسمه "زيوكسيس".

يقال أن زيوكسيس، عندما كان يبحث عن موديل جميلة لرسم هيلين بطلة الإلياذة، لم يجد بين النساء الجميلات من تستحق لقب جميلة الجميلات. وكان مضطرا إلى اختيار أجمل خمسة، لكي يأخذ من كل جميلة منهن أجمل مافيها.

في نفس الوقت، كان يعيش في أثينا رسام آخر له معجبين كثر، لا يقل شهرة واعتدادا بالنفس عن زيوكسيس. كان يظهر هو أيضا للعامة بملابسه الفاخرة البراقة. اسم الفنان هذا "بارهاسيوس".

نتوقع بالطبع أن لا يكون هناك عمار بين هاذين الفنانين، بسبب الغيرة المتبادلة بينهما. كان كل منهما يرضى غروره بادعائه أنه وحده هو الأفضل. أما الآخر، فلا يرقى لفنه وصنعته.

لذلك، قررا حسم الأمر بعمل مسابقة بينهما لمعرفة الأفضل والأقدر. اتفقا على أن يرسم كل منهما لوحة فنية موضوعها من اختياره، وعرضها في مكان عام. ثم ترك الأمر لمجموعة حكام، تقرر وتختار أي العملين أفضل وأحسن، من ثم يتقرر الفائز بالمسابقة.

اختار زيوكسيس أن يرسم صورة طفلة صغيرة، تحمل فوق رأسها سلة مملوءة بالعنب. شكل العنب في الصورة كان طبيعيا لدرجة أن الطيور كانت تأتي لتلتقط حباته، لتفاجأ بانها رسم لا حبات حقيقية.

الجماهير كانت ملتهبة بالسرور والإعجاب، وكانت متأكدة أن زيوكسيس هو الفائز لا محالة. الفنان الآخر بارهاسيوس، كان واقفا صامتا أمام لوحته. حكام المسابقة ينتظرونه بفارغ الصبر لكي يرفع ستارة حريرية كان يبدو أنه يغطي بها لوحته.

أخيرا، بعد أن مل من الانتظار، اقترب زيوكسيس غاضبا من بارهاسيوس وخاطبه بحده قائلا: "لماذا هذا التأخير؟ ارفع الستارة ودع الحكام تحكم بيننا"

أجاب بارهاسيوس بكل هدوء: "لكن الستارة، يا عزيزي زيوكسيس، هي لوحتي، وهي رسم لا حقيقة". لم يصدق زيوكسيس عينيه، ومد يده لكي يزيح الستارة جانبا. ثم صرخ قائلا: "لقد هزمت. أنا خدعت الطير، لكن بارهاسيوس خدعني"

زيوكسيس يقر بهزيمته من بارهاسيوس

قصة أخرى أخيرة وصلتنا عن زيوكسيس. تقول أنه رسم صورة مضحكة لامرأة عجوز. عندما رأها بعد تمامها، ظل يضحك ويضحك إلى أن توقف قلبه ومات من الضحك.

بروتوجينيس كان أيضا رساما إغريقيا. كان دائم العودة إلى لوحاته لإضافة رتوش هنا ورتوش هناك، وتعديل هنا وإضافة أو حذف هناك، إلى درجة أنه لا يعرف متى يتوقف. قام برسم صورة صياد وكلبه، وظل يعدل فيها ويراجعها مدة سبع سنوات كاملة.

عندما يقوم بروتوجينيس برسم لوحة من لوحاته، كان يعيش على الغذاء النباتي والماء القراح. إنه كان يخاف من أكل اللحوم وشرب الخمور، لأنها قد تؤثر في قدرته الذهنية ودرجة تركيزه العقلية، ومهارته في التحكم في حركة يده وهو يرسم.

بطل العالم في الشطرنج الروسي "اسكندر الخين"، كان يفعل نفس الشئ، ويضيف إلى ذلك اعتزاله للنساء، عندما يكون لديه مسابقة يريد أن يكسبها.

أعجبت الجماهير بلوحة بروتوجينيس "الصياد والكلب"، لكن بروتوجينيس نفسه لم يكن مقتنعا. لأن فم الكلب لم يظهر بطريقة طبيعية في الصورة، إذ يجب أن يكون مبتلا عليه لعاب وبعض الرغوة.

حاول إضافة هذه اللمسة الأخيرة إلى الصورة، ولكنه فشل في كل مرة، وكلما أحدث تعديلا، كان للأسوأ. في يوم من الأيام، بلغ اليأس والغيظ من بروتوجينيس مبلغه، فقام بقذف فرشة الرسم بكل قوته إلى اللوحة.

إذا بهذه الحركة العشوائية، تضع اللمسة الأخيرة التي كان يبحث عنها بروتوجينيس، وإذا بفم الكلب ينطق بالحياة، ويصل الرسام بالصدفة إلى مناه.

كان بروتوجينيس يعيش في جزيرة رودس. بينما كان يقوم برسم أحد لوحاته، كان العدو يهاجم الجزيرة. لكن الفنان لم يتوقف عن الرسم. وكان يقول بأن العدو يحارب الرودسيين لا الفن. بعد ذلك بقليل، فك الحصار عن الجزيرة، ولم تصب لوحته بأي أذى.

أشهر الرسامين الإغريق على الإطلاق، هو الفنان الحكيم أبيليس. كان يعيش مثل بروتوجينيس في القرن الرابع قبل الميلاد. كان يحب الفن منذ طفولته. عندما اكتشف والده موهبته المبكرة، أوكله لأفضل المدرسين لتدريبه وتعليمه.

لوحة معركة إسوس منسوبة إلى أبيليس

أبيليس كان سريع البديهة فطن. تعلم بسرعة ولم يضع أي وقت. كانت نصيحته لكل من يريد أن يتقن عمله من الفنانين، أن لا يمر يوم بدون أن تخط على الأقل خطا واحدا في لوحة.

هي نصيحة تصلح لكل من يريد أن يكون أديبا أو شاعرا أو عالما. وهي نصيحه أيضا لكل من يريد أن يتقن عمله أيا كان.

كل لوحات أبيليس كانت رائعة. رسومه "البورتريه" للأشخاص كانت صادقة كاملة وفيه للأصل. لم يكن أرعنا مغرورا مثل زيوكسيس أو باهاسيوس، إنما كان يقبل بصدر رحب النقد والنصيحة.

عندما ينهي رسم لوحة، كان يعرضها في معرض للرسوم، ثم يختبئ خلف ستارة لكي يسمع نقد المشاهدين. في يوم من الأيام، جاء اسكافي كان مارا بالصدفة. توقف لكي يلقي نظرة على لوحة أبيليس.

وجد الاسكافي شيئا ناقصا في صندل يلبسه أحد الأشخاص في اللوحة. شعر أبيليس أن الاسكافي أدرى منه بعالم الصنادل. فقام في نهاية اليوم بتصحيح الخطأ وإضافة ما يلزم.

في اليوم التالي، مر الاسكافي باللوحة، وكان سعيدا مليئا بالفخر عندما وجد أن أبيليس لم يتوان عن تصحيح الخطأ وتقبل النقد، حتى لو جاء من اسكافي. في غمرة نشوته، نظر الاسكافي إلى مكان آخر في الصورة، ثم أبدى نقدا آخر في غير موضعه، بعيدا عن شغلة الصنادل والجلود.

حينئذ، قفذ أبيليس خارجا من وراء الستارة، ورتب على كتف الاسكافي قائلا: "الاسكافي يجب أن يلتزم بما يعرف ويتقن". وهي نصيحة تصلح لكل النقاد.

ذهب أبيليس يوما لزيارة بروتوجينيس في رودس. لم يكن بروتوجينيس بالبيت. قام أبيليس برسم خط مستقيم على لوحة فارغة كانت منصوبة أمامه. عندما عاد بروتوجينيس، وجد الخط مرسوما بدقة متناهية واستواء كامل. صرخ بوتوجينيس متعجبا وقال: "أبيليس كان هنا". لقد عرفه من مجرد خط رسمه.

قام بوتوجينيس برسم خط يتوسط الخط المستقيم الأول بلون مختلف لكي يقسمه بالطول إلى خطين. ترك اللوحة قائمة. عندما عاد أبيليس لزيارة بروتوجينيس مرة أخرى، ووجد أن خطه قد قسم بالطول إلى نصفين، قام برسم خط ثالث طولي لكي ينصف أحد النصفين.

حينئذ، صرخ بوتوجينيس معلنا أن أبيليس هو أعظم فنان في العالم. بعد ذلك، قامت بين الفنانين صداقة وموده وحب نادر الوجود.

أبيليس كان هو رسام البلاط في قصر الاسكندر الأكبر. قام برسم عدة بورتيرات للملك المقدوني. في أحدها، رسم الاسكندر وهو يمسك بالبرق. الاسكندر كان مسرورا باللوحة، لأنه كان يحب أن يقارن نفسه بالإله جوبيتر. بالطبع لم يبخل على أبيليس بما يريد من مال.

عندما رسم أبيليس الاسكندر الأكبر مع حصانه المفضل "بوسيفالس"، لم يكن الاسكندر سعيدا باللوحة، وقال لأبيليس، إن الحصان في اللوحة لا يشبه الحصان الطبيعي.

تخبرنا القصة، أنه بينما كان الاسكندر وأبيليس يتناقشان في موضوع اللوحة والحصان، مر حصان آخر. وقف أمام اللوحة، وأخذ في الصهيل. نظر أبيليس إلى الاسكندر قائلا:

"هل يمكن أن يكون هذا الحصان في حكمه على اللوحة، أفضل من ملك مقدونيا؟" تيقن الاسكندر من خطئه وأمسك بيد أبيليس.

أشهر لوحات أبيليس، تمثل فينوس وهي تبعث من زبد البحر. فينوس في الصورة تضغط برفق على شعرها المبتل بالماء. بعد مئات السنين، نقل الامبراطور الروماني أغسطس اللوحة إلى روما، وقام بتخفيض الضرائب للمدينة التي كانت تملكها.

لوحة يعتقد أنها مرسومة على نمط لوحة أبيليس الأصلية

هذه هي قصة الرسم والرسامين الإغريق. وكما يقول الموسيقار فيلكس ميندلسون:
اعشق الجمال
اطلب الصدق
ارجو الخير
يتحقق الأفضل

4

الفن الروماني

أخيرا، هزمت بلاد الإغريق الجميلة وتخلت عنها آلهتها المقدسة. بينما كان جنود الرومان الغالبون ينهبون ويغتصبون بلد الحضارة والثقافة والرقي في الزمن القديم، أدهشتهم كمية التماثيل واللوحات والمعابد الجميلة الرائعة التي ليس لها مثيل في بلادهم أو في أي بلد آخر.

لذلك، قرروا حمل كل ما يستطيعون حمله ونقله لبلادهم. لو كانوا يستطيعون نقل معابد الأكروبوليس الإغريقية كلها لفعلوا. كانوا يملأون العربات بالأعمدة الدوري والأيونية والكورنثية والتماثيل التي يسهل نقلها على عربات، تجرها الثيران.

الكثير من الأعمال الفنية المنهوبة، كانت بمثابة جوائز ورموز نصر للرومان. حاول الرومان أنفسهم عمل تماثيل لتقليد الإغريق. لكنهم، بالرغم من شهرتهم في رصف الطرق وبناء الجسور، لم يستطيعوا عمل تماثيل لأبطالهم وآلهتهم.

من ثم، قام الرومان بنقل الفنانين والمثالين الإغريق ومعهم أدواتهم، إلى روما. لذلك، سوف تجد أن أجمل التماثيل وأروعها، المقامة في مدينة روما، هي التي كانت من صنع الفنانين الإغريق.

لكن الرومان كانوا بناة طرق وجسور كما أسلفنا. إلى اليوم، نجد بين آثارهم طرقا وجسورا وقنوات ري ومعابد، بنيت أيام الحكام الأوائل. عندما نزور روما القديمة، وهي أقدم من قاهرة المعز، نرى معالم يبلغ بعضها من العمر أكثر من 2000 سنة.

تحت سماء إيطاليا الزرقاء الصافية، نرى آثار الرومان الباقية تدل، بالمقارنة بالمباني الحديثة، على أصالة وروعة في البناء. كل حجر وضع بحرص وعناية لكي يبقى ليتحدى الزمن.

مدينة روما، مليئة بمثل هذه المعالم. الرومان كانوا يحبون المباني المستديرة ذات القبة العالية. وكانوا يحبون أيضا أقواس النصر والأقواس أعلى الأبواب والشبابيك.

استخدام الأقواس في المباني، أعلى النوافذ والشبابيك، طريقة عبقرية للبناء بدون دعامات. أعلى الشباك إذا كان على شكل قوس، لا يحتاج دعامة. أما إذا كان الشباك على شكل مستطيل أو مربع، فهو يحتاج إلى دعامة في السقف لحمل مواد البناء أعلاه.

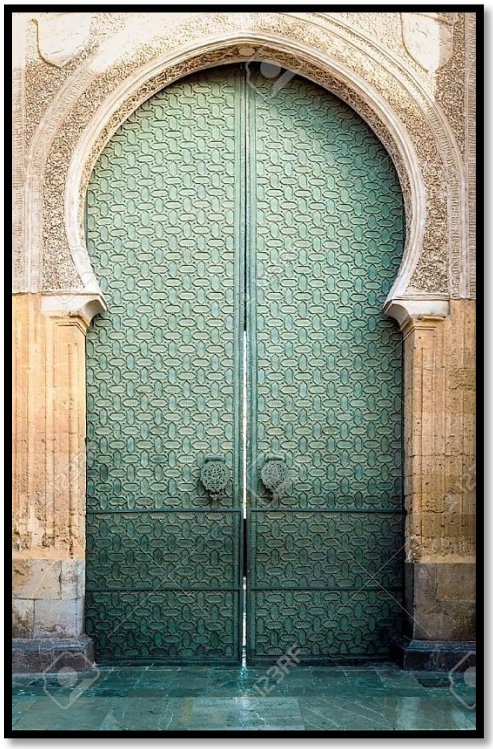

أعلى فتحة الباب على شكل قوس، كاتيدرائية جامع قرطبة

القوس لا يحتاج إلى دعامة، لسبب هندسي بحت. الضغط الواقع على القوس، يتوزع على الجوانب ولا يؤدي إلى انهيار القوس. لهذا، بيضة الطائر، رغم هشاشتها، صعب كسرها نسبيا من الخارج.

لكن الكتكوت الصغير، لا يجد أية صعوبة في نقرها من الداخل والخروج من البيضة. لذلك، تصنع مقدمة البوارج التي تستخدم في كسر الجليد، على شكل أقواس. حتى لا يتسبب ضغط الثلوج الرهيب في كسر مقدمتها.

الرومان اقتبسوا من الإغريق فكرة بناء معابدهم، لكنهم أقاموها على أعمدة رخامية إغريقية مسروقة من بلاد اليونان. هذه الأعمدة تختلف في الشكل عن الأعمدة الدورية أو الأيونية التي بنيت بها معابد الأكروبوليس. إنها أعمدة الكورنث المفضلة عند الرومان والأكثر تعقيدا.

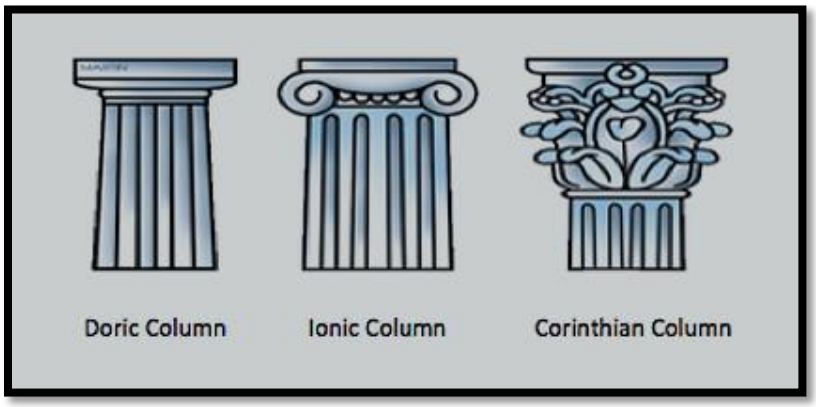

من اليمين، العمود الكورنثي، الأيوني، ثم الدوري

هناك قصة طريفة تحكي لنا حكاية العمود الكورنثي. كورنث مدينة تقع في وسط جنوب بلاد الإغريق. كان ياما كان أيام زمان، هناك صبية جميلة توفاها الله ودفنت في كورنث. ترك الأهل على قبرها سلة من الفاكهة، كعادة أهل زمان عند زيارة المتوفي.

بمرور الوقت، نما بجوار السلة نبات شوكي يسمى (Acanthus)، احتضنت أوراقه السلة من كل جوانبها. أثناء مرور أحد المثالين بالقبر، لفت انتباهه جمال الأوراق وهي ملتفة حول السلة في تناسق وبهاء. حفظ المثال الصورة في ذهنه، ثم قام بنقلها إلى رأس العمود. من ثم، جاءنا العمود الكورنثي.

أروع المباني القديمة في روما، هو المعبد المعروف ب "البانثيون". المعبد مستدير له قبة مرتفعة. أعمدته هي الطراز المفضل عند الرومان، الأعمدة الكورنثية.

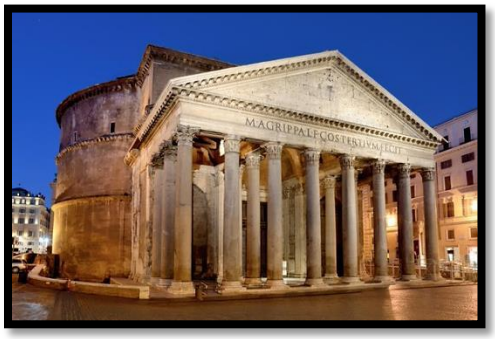

مبنى البانثيون في روما

ربما يكون البانثيون قد بني في الأصل لكي يكون حماما عموميا. الآن هو كنيسة مسيحية. من أمر ببناء البانثيون هو الامبراطور الروماني العظيم أوغسطس، أكثر من 2000 سنة مضت.

بالرغم من أن البانثيون مبنى مستدير، إلا أن واجهته تشبه واجهة المعابد الإغريقية القديمة. من الداخل، صالة واحدة كبيرة مستديرة. مدعمة بالأعمدة الكورنث. القبة مهولة ومرتفعة جدا. الفتحة الدائرية، التي تبدو صغيرة في مركزها، عندما تنظر إليها من أسفل. يبلغ قطرها 26 قدم.

البانثيون من الداخل

لا يوجد نوافذ جانبية، وكذلك المعابد المصرية القديمة. المعابد بصفة عامة، يجب أن تعزل الإنسان عن الحياة الأرضية وتربطه بالسماء. لذلك، إضاءة البانثيون تأتي فقط من أعلى، أي من السماء.

معبد آخر عظيم من المعابد الرومانية القديمة، هو معبد فستا. سقفه هو الآخر مدعم بالأعمدة الكورنثية. فستا هي إلهة النار المقدسة الرومانية. والمعبد يسمى أيضا معبد عذارى فستا. هن كاهنات الإلهة المكلفات بحفظ النار موقدة على الدوام في مدفأة المعبد.

عذارى الإلهة فستا

أول من استخدم العذارى للعناية بالنار المقدسة تكريما للإلهة فستا، هو الملك الروماني "نوما بومبيليوس" في القرن السابع قبل الميلاد. ظلت النار المقدسة مشتعلة داخل المعبد، حتى عام 394م. عندما أمر الامبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول بتسريح العذارى وإخماد النار المقدسة.

دخلت الأميرة المسيحية "سيرينا"، بنت أخ الامبراطور، المعبد فور سماعها بهذا الأمر. نزعت من تمثال الإلهة عقدا ثمينا، ووضعته حول جيدها. جاءت آخر العذارى المكلفات بالعناية بالنار المقدسة لتصب غضبها على الأميرة، وتتوعدها بأشنع عقاب.

تقول القصة، كما يرويها لنا الكتاب الرومان، أن الأميرة سيرينا، ظلت تطاردها الكوابيس في منامها، لتنذرها بموتها المبكر الذي تحقق. يخبرنا القديس أوغسطين، أن سبب سقوط روما وأفول الحضارة الرومانية، هو عدم التسامح وقبول المسيحيين للأديان الأخرى والآلهة القديمة، التي دافعت عن روما أكثر من ألف سنة.

أروع ما تركه الرومان بين خرائبهم، هي قناطر الري التي بنيت على شكل أقواس لنقل الماء من مسافات بعيدة إلى روما. الرومان كانوا يحتاجون إلى كميات كبيرة من الماء لزوم الحمامات العامة. بعض الحمامات كانت كبيرة تستوعب الآلاف.

الحمامات كان بها صالات منفصلة من الرخام لمن يريد الاستحمام بمياه فاترة أو سخنة، أو من يريد دعك جسمه أو تنشيفه، أو مجرد التسلية ومقابلة الرفاق.

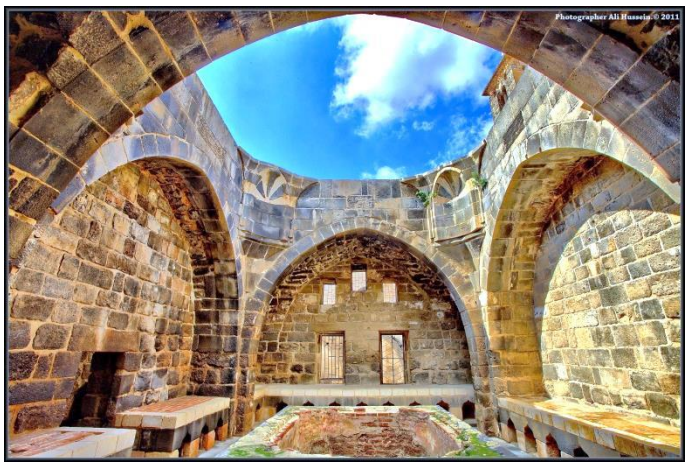

حمام روماني في بصرى بسوريا

كان لدى الرومان أيضا، بجانب الحمامات الضخمة، الجيمنيزيم وحلبات السباق والمصارعة، وقاعات فسيحة لعرض التماثيل واللوحات. جدران الحمامات والأرصفة، كانت مطعمة ومنقوشة بالفسيفساء وقطع الأحجار والزجاج والرخام الملون. مرصوصة ومجمعة بطريقة تكون بها صورة أو شكل هندسي أو منظر طبيعي جميل.

حمام روماني بمدينة باث بإنجلترا

عندما يكون الرومان في أجازة من المعارك والقتال، لابد أنهم كانوا يقضون وقتا ممتعا في حماماتهم. أشهر حماماتهم، حمامات كراكلا، كان يتسع الواحد منها لأكثر من 1600 زائر.

جدران الحمامات من الرخام، والأرض مرصوفة بالفسيفساء. النقوش والتماثيل تزينها من الداخل والخارج. كل حمام محاط بحديقة قد تصل مساحتها إلى 11 هكتارا، مزينة بالزهور وكروم العنب وأشجار الزينة والمشايات والنوافير.

الحمامات الرومانية "كاراكلا"، نسبة إلى الامبراطور الروماني كاراكلا الذي حكم في الفترة (211-217م). كان والده من أصل ليبي أمازيغي وأمه سورية. عرف عنه أنه كان مريضا نفسيا، وأنه قتل أخاه. إلا أنه كان يساوي بين رعايا الامبراطورية الرومانية، وأصدر قانونا بمنح الجنسية الرومانية لكل الرعايا الأجانب.

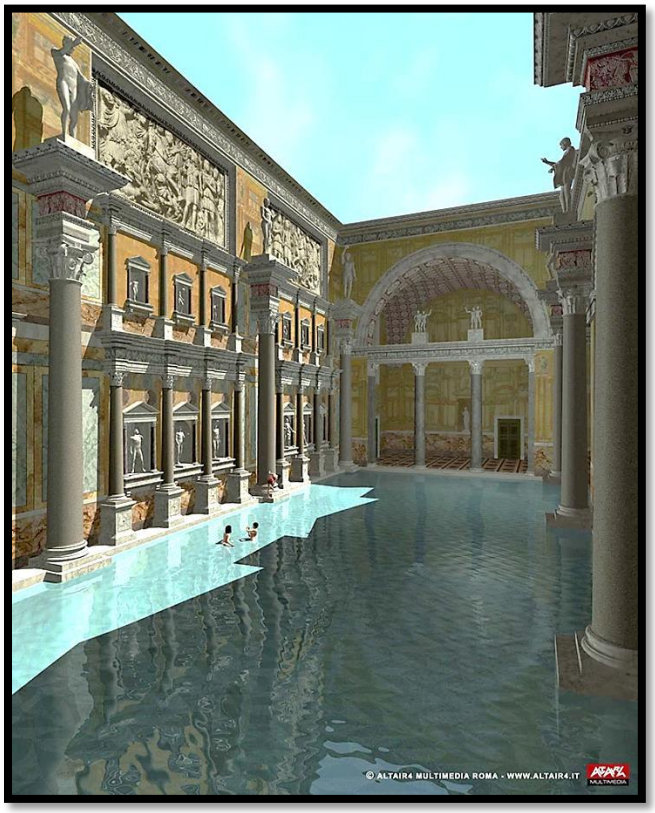

الحمام الروماني كاراكلا

كانت متعة الرومان المفضلة، سباق العربات الحربية وصراع العبيد مع أنفسهم حتى الموت أو مع الأسود. لذلك قاموا ببناء ساحات دائرية أو بيضاوية، في شكل الاستاد الرياضي، وسطها حلبة كبيرة.

الكلوسيوم أو المدرج الفلافي الروماني الشهير، هو مدرج عملاق يقع وسط مدينة روما. كان يتسع ل 80 الف مشاهد أو أكثر. بني عام 72 ميلادية. أمر ببنائة الامبراطور فيسباسيان.

مدرج الكلوسيوم بروما

الكلوسيوم مدعم بثلاثة أنواع من الأعمدة الإغريقية. الدورية والأيونية والكورنثية. أعلى الجدار، توجد أماكن لتثبيت دعامات تحمل مظلة كبيرة من القماش، لحماية المشاهدين من الشمس الحارقة أو المطر.

المقاعد على شكل صفوف، صف يعلو صف، مثل مقاعد التياترو. كان الامبراطور يجلس، بجانبه أعضاء مجلس الشيوخ، وإلى جوارهم عذارى فيستا وباقي ال 80 ألف روماني، جاءوا في أيام العطلات الرسمية، يلبسون أفخر ثيابهم، لمشاهدة المتصارعين والسباق.

لا شئ كان يعطي الرومان متعة أكثر من مثل هذه العروض. كلما كانت العروض وحشية دموية، كلما التهبت أكف المشاهدين بالتصفين، وبحت أصواتهم بالهتاف.

لا يتم احتفال ديني أو قومي بدون هذه العروض. المسيحيون الأوائل رجالا ونساء، المؤمنون بدينهم، كانوا يلقون في الحلبة لكي تفترسهم الوحوش الضارية.

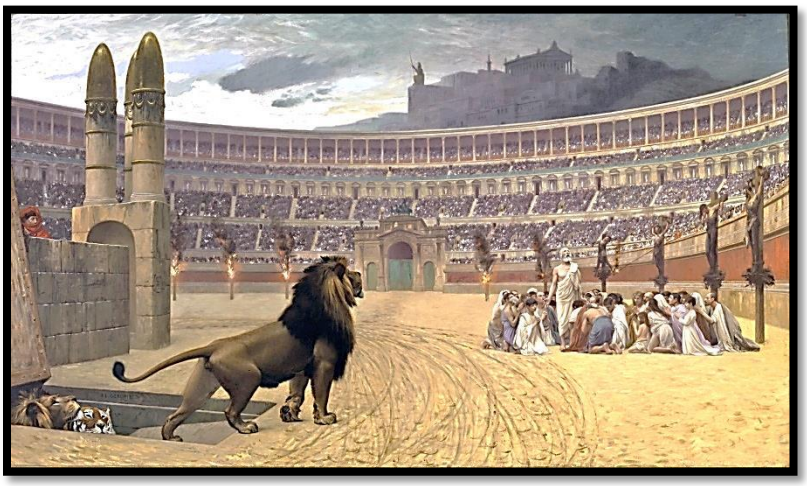

الصلاة الأخيرة للمسيحيين في الكلوسيوم، بريشة جيروم 1834م

لقرون عدة، كانت مباني الكلوسيوم ونقوشها تستخدم كنموذج يحتذى به، في بناء القصور والكنائس في روما.

الرومان كانوا فخورين برؤسائهم وقوادهم الحربيين. وكانوا يبنون لهم أقواس النصر لتكريمهم وتخليد ذكراهم. كان القائد المنتصر، يقود جيشه العائد من أتون المعارك، عبر شوارع روما المزينه بالأعلام، ويقومون بالمرور من تحت قوس النصر المقام لقائدهم البطل، بينما الجماهير تقوم بالهتاف والتصفيق وإلقاء الزهور والورود على الموكب.

من كل الأقواس الرومانية الباقية، قوس تيتوس، هو أكثرها إثارة للاهتمام. تيتوس هو القائد الروماني الذي فتح مدينة القدس، ونهب كنوزها، ودمر المعبد الثاني اليهودي بها، ونقل كل ما خف حمله وغلا ثمنه إلى روما عام 70 الميلادي.

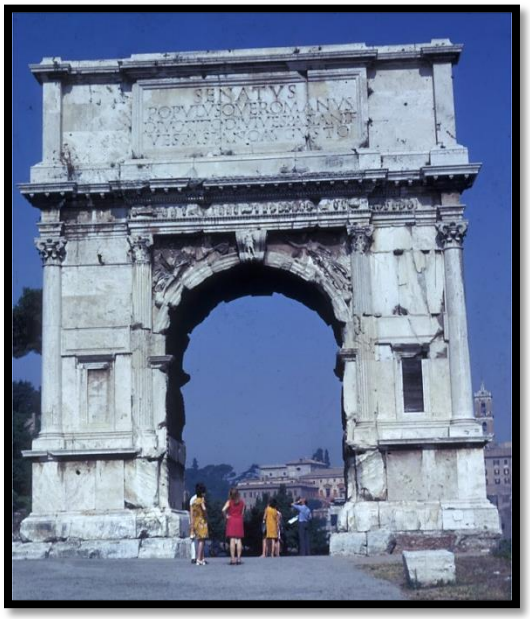

قوس تيتوس

المعبد الأول اليهودي، أو هيكل سليمان، الذي بناه النبي سليمان، تم تدميره وتهجير السكان اليهود إلى بابل على أيدي الفرس، بعد حصار القدس في عصر الملك بختنصر، أو نبوخذ نصر الثاني، عام 587 ق م.

أكثر هذه الكنوز المنهوبة قيمة وقداسة، هو شمعدان من الذهب الخالص من سبعة أفرع، المينوراة. وحكايته حكاية. تقول كتبنا المقدسة، أن الذهب الذي صنع منه الشمعدان، جاء من حلي وذهب المصريين، التي سرقها اليهود أثناء هروبهم مع النبي موسى من مصر.

الشمعدان السباعي، المينوراه

هذا الشمعدان يعد أعظم رمز ديني عند اليهود. كان يوضع داخل خيمة الاجتماع في هيكل سليمان، ولا تكتمل قداسة الهيكل إلا بإنارة الشمعدان داخله. ولا يسمح باستخدام الشمعدان خارج المعبد.

فروع الشمعدان السبع، هي رمز ديني عند اليهود، تشير إلى أيام الخلق الستة، مضافا إليها يوم السبت. ربما تمثل أعين الإله الجائلة في الأرض، كما جاء بسفر زكريا.

يفسر بعض اليهود شعلات الشمعدان السبع، بأنها ترمز إلى الكواكب السبعة، عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، مضافا إليها الشمس والقمر، يصبح المجموع سبعة.

هناك شمعدان آخر يهودي مكون من 9 فروع. يسمح باستخدامه خارج المعبد. له علاقة بعيد الأنوار اليهودي، الحانوكا الذي يحتفل به اليهود لمدة ثمانية أيام.

الشمعدان التساعي، الحانوكا

نقوش قوس النصر الروماني تيتوس الكثيرة، تحتوي على صورة بارزه للشمعدان السباعي. بعد مدة ولسبب ما، فقد الشمعدان. ربما لأن الرومان كانوا قد ألقوا به، مع أشياء أخرى ثمينة، في نهر التيبر المقدس، لكي لا يستولي عليه القوط، قبائل جرمانية اسكندنافية، عندما قاموا بالإغارة على روما.

يقول المؤرخ اليهودي، يوسيفوس، أن الرومان وضعوا الشمعدان السباعي في معبد السلام بروما. ثم قام الفاندال، قبائل جرمانية شرقية، عندما غاروا على روما عام 455م، بسرقة الشمعدان الذهبي ونقله إلى دولتهم التي أقاموها شمال أفريقيا وصقلية.

بعد ذلك، قام الجيش البيزنطي عام 533م بنقله إلى القسطنطينية، عاصمة الدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة). ويقال أن الشمعدان عاد ثانية إلى القدس، ومن هناك اختفى ولا يعرف مصيره أحد.

العمود الروماني تراجان، من المعالم التي لاتزال قائمة، كرمز من رموز انتصار الرومان في الزمن القديم. ارتفاعه 106 قدم. كان يعتليه تمثال الامبراطور تراجان. الآن تمثال القديس بطرس يأخذ مكانه.

عمود تراجان يعتليه القديس بطرس

الجدار الخارجي للعمود، عليه نقوش بارزة تمثل مشاهد من 100 معركة حربية انتصر فيها الرومان. بها أكثر من 2000 جندي وحصان وحصن. العمود مرتفع جدا بحيث من الصعب مشاهدة النقوش أعلاه بدون استخدام سلم.

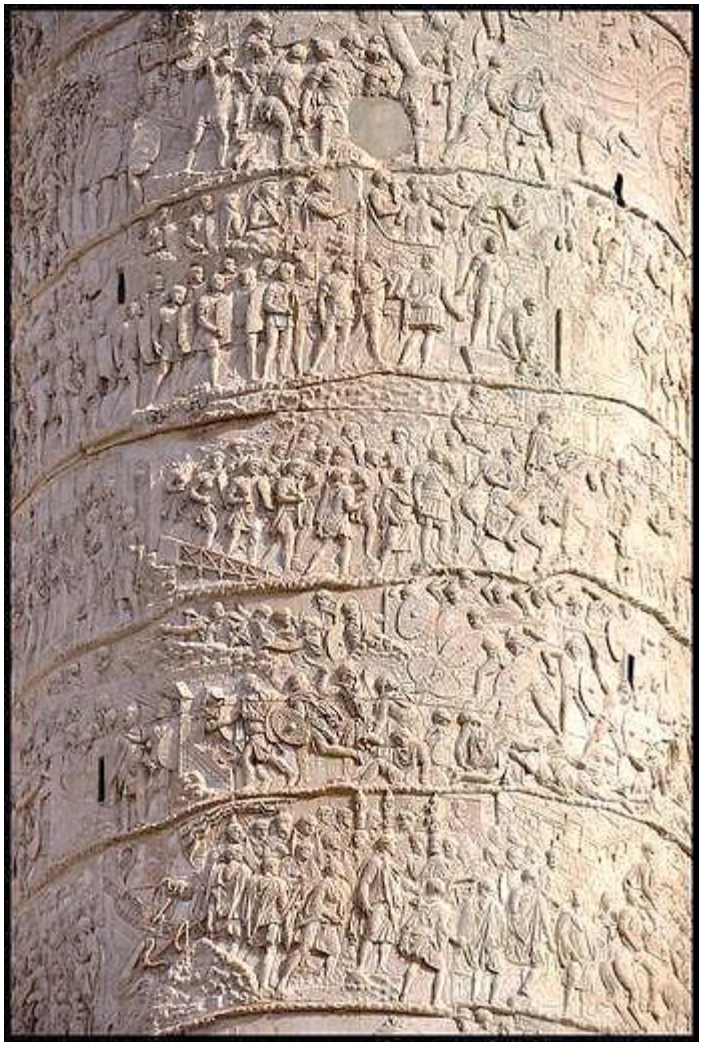

جدار العمود يبين معارك نصر الرومان

هناك، في مركز روما القديمة، يوجد أيضا آثار وخرائب عددها يبلغ 42. كل منها له قصة وحكاية لا يتسع المجال لسردها هنا.

عندما كانت الامبراطورية الرومانية في أوج مجدها، بعض الأباطرة كان يتملكهم الغرور والغطرسة، فظنوا أنفسهم آلهة أو من نسل الآلهة. لذلك، قام الرومان بعمل التماثيل تمجيدا لهم.

بعض تماثيل الأباطرة، وخصوصا تمثال الامبراطور يوليوس قيصر، الذي تزوج ملكة مصر كليوبترا، مليء بالروح والحياة. تماثيل أخرى لأباطرة رومان ضعفاء، تجد وجوهها تعبر أيضا عن الضعف أو الشر.

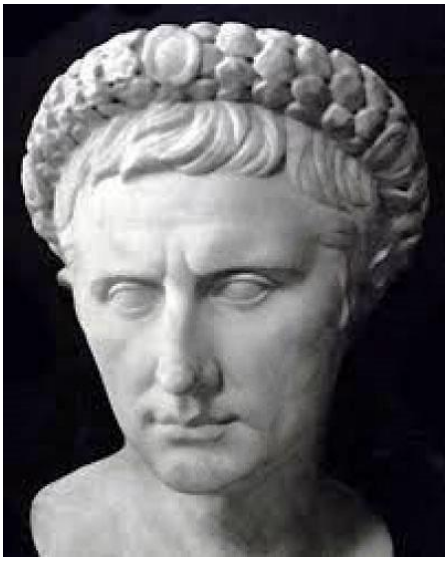

يوليوس قيصر

لذلك لا نندهش إذا علمنا أن الامبراطورية الرومانية كانت في عهودهم ضعيفة هزيلة. استمر هذا الضعف والهزال إلى أن سقطت الامبراطورية الرومانية برمتها تحت سنابك خيل البرابرة غزات الشمال.

كتاب "تاريخ اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية" لجيبون، كتاب ممتع لمن يعشق التاريخ ويبغي دراسة مثل هذه المواضيع.

الفيلات الرومانية تبني بطريقة معكوسة. يبنونها حول حوش فارغ مثل منازل أهل الشام. الرومان لا يهتمون بخارج الفيلا. لكن من الداخل، تجدها فخمة جدا. بها مكتبة وصالة لعرض اللوحات ونوافير وحديقة أعلى السطح. الحوائط مزينة بالرسوم الزاهية، الأرض مرصوفة بالفسيفساء.

نموذج لفيلا رومانية

القصور الرومانية مثل المدينة الصغيرة. بداخلها توجد فيلا ومعبد وفناء، أو أكثر، وحمامات وحديقة جميلة. الرومان يعشقون الحدائق.

الرسامون وعمال الديكور تجدهم مشغولين على الدوام بأعمل النقش ورسم جدران الفيلات والقصور. هذه الرسوم مع مرور الوقت، خبت ألوانها الجميلة الزاهية.

أحد المدن الإيطالية القديمة، مدينة بومبي، دفنت بكاملها لقرون عديدة، تحت أنقاض بركان غاضب يقع جنوب إيطاليا. بعد التنقيب وإزاحة الحمم والأتربة عن المدينة، ظهرت لنا فيلات وقصور روما القديمة ونقوشها ورسومها وتماثيلها في أبهى صورة. لقد أنقذت الحمم، آثار المدينة من نهب البرابرة، الجيرمان.

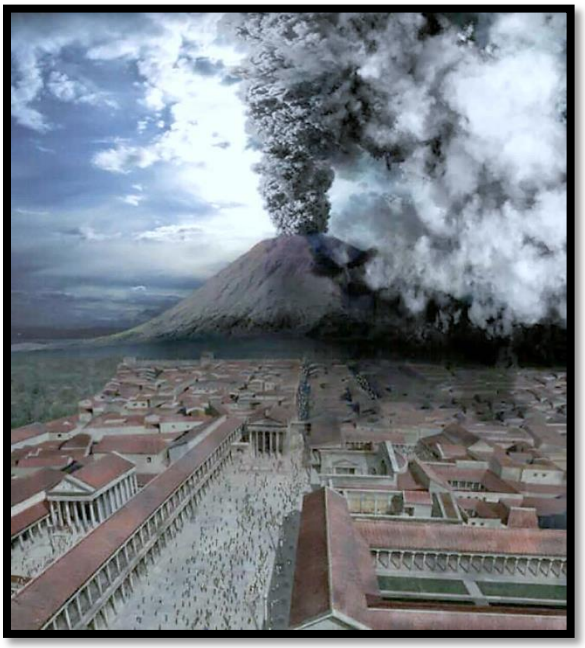

الحمم البركانية تدفن مدينة بومبي

بدت مدينة بومبي للعالم الحديث، بعد انتشالها من مدفنها، كما كانت أيام المجد الروماني القديم. النقوش والرسوم على جدران المسارح والأروقة والفيلات والقصور، ظهرت لنا زاهية لامعة.

الرسوم داخل براويز أنيقة وخلفية حمراء أو صفراء. مناظر طبيعية ومشاهد من قصص الأساطير الرومانية القديمة. بنات وراقصات بحلل رقص زاهية الألوان شفافة.

منظر جداري من مدينة بومبي

مدينة روما في حد ذاتها، مثل مدينة القاهرة، مليئة بعبق التاريخ والفن. يمكن أن تقضي حياتك كلها في روما، ومع ذلك ستجد كل يوم شيئا جديدا يستحق الفرجة والدراسة.

هناك قصة مشهورة عن سائح، ذهب لمشاهدة معالم روما في خمسة أيام. في نهاية الرحلة ظن أنه قد شاهد كل شئ في روما. لكنه، بعد نصيحة أحد الأصدقاء، قرر أن يمد أجازته إلى 5 أسابيع.

في نهاية المدة، اكتشف أنه لم يشاهد كل شئ. لذلك قرر أن يمكث 5 شهور. الخمسة شهور امتدت إلى خمس سنوات، والسنوات الخمسة امتدت إلى باقي العمر.

5

الفن في بداية المسيحية

مدينة روما، في القرن الأول الميلادي، كانت تعتبر عشيقة العالم. اهتم بها الامبراطور الروماني العظيم أغسطس. زينها بالمباني الفاخرة والتماثيل الجميلة. كان يفتخر بأنه استلمها مدينة مبنية بالآجر، وسلمها مدينة مشيدة بالرخام والمرمر.

في ذلك الوقت، بينما كان النحاتون منشغلين بعمل التماثيل لآلهة الرومان الوثنية، والمهندسون يخططون لبناء معابد جديدة لتكريمها وعبادتها، حدث شئ خطير.

هناك بعيدا في مدينة بيت لحم، في الشرق الأوسط، ولد السيد المسيح. مع مجيئه، بدأ تغيير موضوعات الفنون من الوثنية إلى المسيحية.

بدلا من بناء معابد بها تماثيل لكبير الآلهة جوبيتر، أو لإلهة الحكمة والصيد منيرفا، ظهرت الكنائس المسيحية وزينت بالتماثيل واللوحات التي تمثل السيدة العذراء والطفل، والمسيح والقديسين والملائكة، إلخ. بالطبع، هذا التغيير لم يأت طفرة واحدة، إنما استغرق من الوقت عدة قرون.

بعد صلب السيد المسيح، كان أتباعه المسيحيون يضطهدون بقسوة بالغة من أباطرة الرومان الوثنيين. الأباطرة الرومان كانوا يدعون أنهم آلهة أو أنصاف آلهة، يجب على الرعآيا عبادتهم. لذلك، لم يرحبوا بالديانة المسيحية الوليدة ودعوة المسيح.

عاش المسيحيون الفقراء منهم، في خوف وكبد. لجأوا إلى المعاقل والمحاجر والكهوف تحت الأرض يختبئون فيها. عاشوا وماتوا فيها ونصبوا داخلها المصليات وأماكن العبادة.

داخل هذه السراديب المظلمة، يمكننا تتبع بداية الفن المسيحي. لم يعد، ما تبقى لنا منها، سوى نحوتا بسيطة هنا، أو صور على الجدران ذهب لونها أو كاد هناك. تمثل قصصا دينية عن النبي موسى وهو يضرب بعصاه البحر أو الصخر، أو النبي دانيال وهو في عرين الأسد، أو يونس في بطن الحوت.

المسيح نفسه، يظهر في هذه الرسوم على أنه راع حنون يحمل بين ذراعية حمل وديع. بعض الأحيان، ترى صورة الصليب على الجدران كرمز لمعانات وآلام المسيح. أو ترى رسما لكرمة عنب وفروعها، رمزا للمسيح والكنيسة. أو شجرة نخيل يحملها الشهداء، علامة للنصر. أو حمامة للدلالة على الروح القدس.

بعد مئات السنين من اضطهاد المسيحيين وغبن الرومان لهم، حدث شئ عجيب وخطير للغاية. في يوم من الآيام، كان الامبراطور الروماني العظيم، قسطنطين، يخوض أحد معاركه الحربية.

تمثال رأس للإمبراطور قسطنطين

وقف الامبراطور قسطنطين على شاطئ نهر التيبر. سجد للصلاة ثم نظر إلى السماء، فوجد شكلا على هيئة صليب متوهج فوق قرص الشمس. عندما ذهب للنوم في المساء، سمع صوتا يبشره بالنصر في معركة اليوم التالي.

عندما انتصر قسطنطين في معركة جسر نهر التيبر، أرجع الفضل لإله المسيحية. منذ ذلك الحين، تغير وجه العالم الغربي. اعتنق واحتضن قسطنطين المسيحية منذ ذلك التاريخ، وأصبحت جيوشه تحمل شعار الصليب في كل معاركها إلى النصر.

ابتهج المسيحيون وخرجوا من جحورهم ومخابئهم المظلمة تحت الأرض. يبغون مكانا على السطح تحت الشمس، يمارسون فيه طقوسهم وصلواتهم بطمأنينة وأمان. لكن أين؟

الغرف العادية لم تعد تسع أعدادهم الكبيرة المتزايدة. المعابد الوثنية لا تصلح، لأنها لا يوجد بها صالات كبيرة، العبادات الوثنية كانت تتم خارج المعبد. داخل المعبد كان يوجد فقط غرفة صغيرة بها ضريح أو تمثال للإله.

البازيليكا هي إحدي المباني الهامة في حياة سكان المدن الرومانية. أخذها الرومان عن الإغريق في العصر الهيلنسيتي(ما بعد الاسكندر الأكبر). كانت موجودة أيضا في مدينة الاسكندرية، آيام حكم البطالمة، تستخدم كصالة الملك أو العرش أو القاعة الملكية.

بازيليكا الجسمانية بالقدس بعد ترميمها

كانت البازيليكا في روما في العصر الروماني، تبني لغرض تجاري بالقرب من الأسواق، وبجانب الطرق الرئيسية والميادين العامة. ثم بدأت تستعمل كدار قضاء، تجري فيها المحاكمات والمرافعات، أو مكان لعقد الصفقات وتصديق العقود.

بعد انتشار المسيحية وتزايد أعداد المسيحيين، أضحت البازيليكا مكانا فسيحا مناسبا يمكن أن يستغله المسيحيون لكي يقيمون فيه صلواتهم وشعائرهم المسيحية. ثم قامت والدة الامبراطور الروماني قسطنطين بالتوسع في بناء البازيليكا للمسيحيين.

شكل البازيليكا المعماري مستطيل. مقسم إلي ثلاثة أجزاء، هي:

الصحن المركزي يتوسط المبني، وجناحين تفصل بينهما الأعمدة. تغطى بسقف وقبة، أو قباب، وتزين بالمنحوتات والثماثيل الجميلة والأرضيات الرخامية والجدران المكسوة بالرخام. نهاية المبنى على شكل نصف دائرة، مرتفعة عن المستوى العام للأرضية.

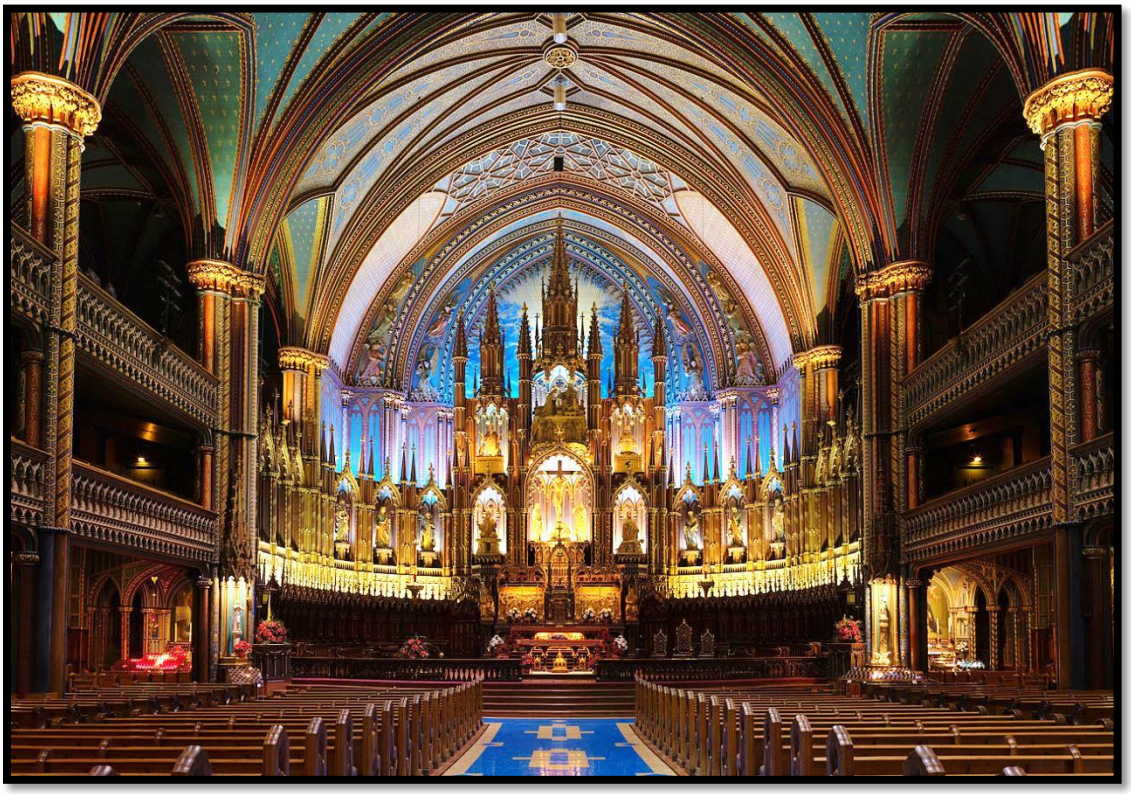

بازيليكا نوتردام بكندا

من أقدم البازيليكات في العصر الروماني في روما، بازيليكا إيميليا وبازيليكا جوليا، من عصر الجمهورية، وبازيليكا ميدان تراجان، من عصر الامبراطور تراجان. أجملها، بازيليكا سبتيميوس سويروس بمدينة لبدة العظمي في ليبيا.

آثار باقية من المسرح الروماني وبازيليكا بمدينة لبدة الكبرى، ليبيا

عندما بدأ المسيحيون يبنون كنائسهم، بنوها في شكل البازيليكا وهذا شئ طبيعي. في بعض الكنائس، كان كرسي الأسقف، "الكاتيدرا"، يوضع في نصف الدائرة المرتفعة، لكي يراه كل الموجودين بالصالة. الكنيسة التي بها مثل هذا الكرسي، تسمى كاتيدرائية.

كل كنيسة، كانت مخصصة لقديس بعينه. كذلك كان الحال بالنسبة للمعابد الوثنية، كل منها كان مخصصا لإله معين. سرعان ما أصبحت الكنائس شئ مألوف، وأصبحت بالغة الثراء بسبب تبرعات الملوك والأمراء ومنح الأثرياء. وبدأت تزداد زينة ونقوشا ورسوما.

الكنيسة المعلقة بمصر القديمة. بنيت بالطابع البازيليكي أيضا، المكون من 3 أجنحة وردهة أمامية، وهيكل يتوزع على 3 أجزاء. صحن رئيسي وجناحين صغيرين ، بينهما ثمانية أعمدة على كل جانب. مستطيلة الشكل، صغيرة نسبيا. حوالي 23.5 متر طول، 185 متر عرض، 95 متر ارتفاع .

الكنيسة المعلقة بالقاهرة

بين الصحن والجناح الشمالي، صف من ثلاثة أعمدة رخامية، أحد الأعمدة من البازلت الأسود. بها عدد من تيجان الأعمدة الكورنثية. في الجهة الشرقية من الكنيسة توجد ثلاثة هياكل هي: الأوسط يحمل اسم العذراء مريم ، و الأيمن باسم القديس يوحنا المعمدان، و الأيسر باسم القديس مار جرجس.

عرفت هذه الكنيسة باسم الكنيسة المعلقة، لأنها تقوم على أنقاض برجين كبيرين من أبراج الحصن الروماني الذي بناه الامبراطور تراجان في مستهل القرن الثاني الميلادي، حصن بابليون.

تعتبر من أقدم الكنائس المصرية وأجملها. لها أهمية خاصة عند أقباط مصر، لأنها كان ينتخب فيها بطاركة الكرسي المرقسي حتى القرن الثاني عشر الميلادي.

يعتقد أن أصل هذه الكنيسة، هي مغارة، اختبأت فيها العائلة المقدسة أثناء رحلتها الى مصر. رأى آخر يقول أنها بنيت في بداية العصر الإسلامي كخلوة لراهب، أقام في هذه المنطقة، شأنها شأن السراديب المنحوتة في صخر جبل الفسطاط.

العائلة المقدسة، من الكنيسة المعلقة

بسبب ثراء الكنائس، بدأت توظف أشهر وأفضل الفنانين للرسم على جدرانها صور القديسين الذين خصصت الكنائس لهم. هذا لأنه من الأسهل للعامة معرفة قصة القديس عن طريق الرسم، لأن معظمهم كانوا لا يعرفون القراءة.

منذ البدأ في بناء الكنائس، ظهرت عدة تصميمات معمارية مختلفة. لكن في كل التصميمات، تجد بقآيا من التصميم الأول البازيليكا، لايزال باديا في كل كنيسة.

الكنائس في العصور الوسطى، التي استمرت قرونا عديدة، كانت تحت إشراف الرهبان والكهنة. كانت تبنى على النمط البيزنطي أو الروماني أو القوطي أو طراز عصر النهضة الأحدث، لكن كلها كانت تشيد بهدف واحد. هو العبادة وتمجيد كلمة الرب.

آيا صوفيا، التي تقع في مدينة اسطنبول (القسطنطينية سابقا) بتركيا، كانت في الماضي كاتدرائية، ثم قلبت مسجدا، الآن هي متحف. تعد من أبرز الأمثلة على العمارة البيزنطية والزخرفة العثمانية.

آيا صوفيا، كاتدرائية ثم مسجد وهي الآن متحف باسطنبول

آيا صوفيا من الداخل

بناها الامبراطور الروماني الشرقي (البيزنطي)، جستنيان في خمس سنوات، وتم افتتاحها عام 537م. لم يشأ جستنيان أن يبني كنيسته على الطراز المألوف، وكان يبحث عن طراز بيزنطي جديد. لذلك كلف مهندسين معماريين من آسيا الصغرى لبناء هذا الصرح الضخم.

يقال أن ملاكا ظهر للامبراطور في المنام وأمره ببناء هذه الكاتيدرائية. من هنا جاء اسمها: آيا صوفيا أو "الحكمة الإلهية". الامبراطور نفسه كان مهندسا معماريا. وكان يلبس ملابس العمال التيل ويشرف على البناء ويوجه آلاف العمال بنفسه يوميا.

الكاتيدرائية من خارج البناء تبدو عادية، لكنها من الداخل شئ رائع. لأنها بنيت لكي تنافس هيكل سليمان الذي كان موجودا بالقدس قبل تدمير الهيكل.

في الوسط، توجد قبة عظيمة، حولها أنصاف قباب وأقواس. الجدران مزينة بالفسيفساء والصور، تبين مشاهد من الإنجيل وتحكي قصصا عن حياة القديسين.

بالنسبة لرسم الفسيفساء، الأشكال غالبا ما تكون متجمدة، من الصعب بيان الحركة بها وانسياب طيات الملابس وتوزيع الإضاءة والظلال بين حنآياها، وهي أمور توجد عادة في اللوحات الزيتية العظيمة.

لكن هنا على جدران الكاتيدرائية، نجد النقوش والفسيفساء مع خلفيتها الذهبية، تعطي للمشاهد بريقا ولمعانا رائعين. عمل فسيفساء حقيقي يبغي الخلود.

رسوم بالفسيفساء على جدران آيا صوفيا

المعابد الوثنية تم نهبها وتجريف نقوشها ونقل أعمدتها لكي تبني بها آيا صوفيا. هنا أعمدة من الرخام على كل شكل ولون. المنابر والهياكل والأبواب من العنبر والعاج وخشب الأرز.

المذبح الذهبي، مطعم بالعقيق واللؤلؤ والياقوت والماس. الكنيسة توجت بصليب من الذهب الخالص. في ليلة كريسماس عام 548م، وهب جستينيان كنيسته بعد اتمامها إلى الرب. نزل من عربته الحربية، فاردا ذراعيه ودخل الكنيسة وهو يجري نحو المذبح قائلا: "المجد للرب. يا سليمان، لقد تفوقت عليك"

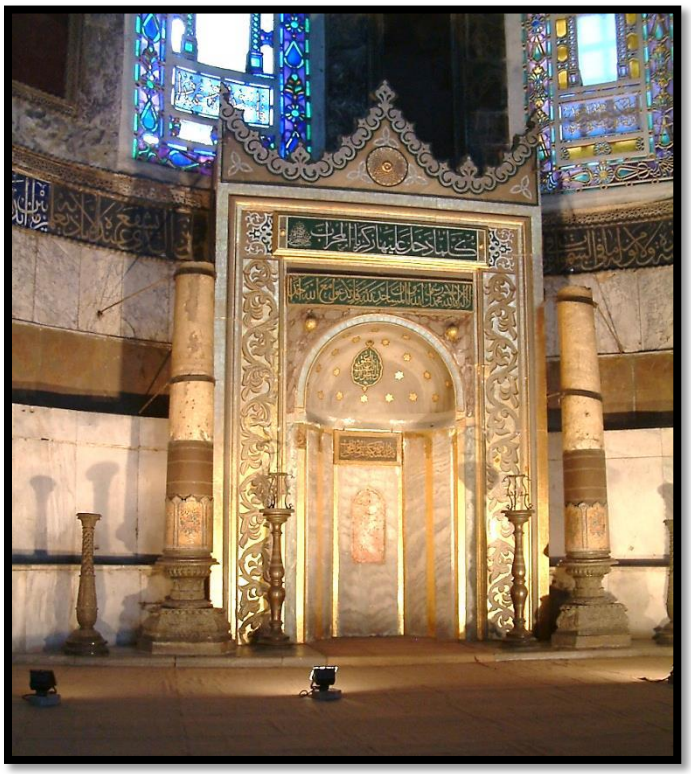

محراب آيا صوفيا بعد أن تحولت إلى مسجد

ظلت آيا صوفيا، لقرون عديدة، أجمل الكنائس البيزنطية في العالم. إلى أن فتح الأتراك القسطنطينية عام 1453م. ماذا يفعل الأتراك المسلمون بكنيسة مسيحية حتى وإن كانت آيا صوفيا؟

قاموا بغسل الكنيسة من الداخل بماء الورد. صور القديسين تم طلاؤها باللون الأبيض، وعليها ركبت صفائح مكتوبة بآيات قرآنية. الصليب المصنوع من الذهب الخالص الذي

كان يعتلي قبة الكنيسة، بدل بالهلال رمز الإسلام. آيا صوفيا تم تحويلها من كنيسة مسيحية إلى جامع إسلامي.

كاتدرائية القديس مرقس، في مدينة البندقية بإيطاليا، هي مثال آخر للعمارة البيزنطية. كانت أصلا مصلى لحكام البندقية. ثم أصبحت مقرا لبطريرك البندقية عام 1807م. عرفت منذ القرن الحادي عشر بكنيسة الذهب.

كاتيدرائية القديس مرقس بالبندقية

لكن، ما هي حكاية القديس مرقس؟

مار مرقس، ماركوس، هو صاحب إنجيل مرقس، السفر الثاني من العهد الجديد. لذلك يلقب بالانجيلي. ولد في ليبيا، جاء مع صحبة المسيح عبر اليونان إلى مصر عام 55م، لكي يؤسس الكنيسة الأرثوذكسية وكان أول بطريرك لها.

بعد أن قام القديس مرقس بالوعظ في مصر، ركب البحر متوجها إلى ليبيا. لكنه، بسبب عاصفة هوجاء في البحر الأبيض المتوسط، رست مركبه على جزيرة. عندما خطت قدميه على رمالها، ظهر له ملاك الرب يخبره أنه سوف يكون له أتباع في مدينة البندقية.

بعد وفاته في الاسكندرية على أيدي الوثنيين المتعصبين، سرق الرومان جثته ووضعوها في سلة أعلى صاري المركب. في أثناء العودة، داهمت المركب عاصفة مدمرة أدت إلى ارتطامها بالصخور. يقال أنه ظهرت للبحارة روح مرقس الرسول، وقادت السفينة إلى بر الآمان.

استقبل جثمان مرقس الرسول استقبالا كبيرا في البندقية، وأصبح مار مرقس، راعي مدينة البندقية. وأصبح شعاره هو الأسد المجنح. البندقية كانت مركزا للتجارة. وكانت مدينة في غاية الثراء. لذلك قرر أهلها بناء كنيسة رائعة لمار مرقس.

استورد تجار البندقية لكنيستهم الأحجار الكريمة والرخام الملون من كل أنحاء العالم. الواجهة، لوحة فسيفساء ضخمة. الأقواس مطعمة بالصور المرسومة بقطع الفسيفساء. فوق الواجهة، ترتفع أبراج طولية تحمل أعلاها تماثيل القديسين. بها قباب وصلبان مربعة يونانية الشكل.

تحت النافذة الرئيسية، يقف تماثيل برونزية لأربع أحصنة، حكايتهم حكاية. وزن كل منها تقريبا 2 طن. الأحصنة، جاءت إلى روما من مصر، وربما صنعت هناك. كانت تستخدم في أقواس النصر في روما. بعد ذلك، نقلها الامبراطور قسطنطين إلى القسطنطينية.

ثم نقلت إلى البندقية مرة ثانية أثناء الحروب الصليبية. بعد ذلك، سرقها نابليون ونقلها إلى مدينة باريس لكي يزين بها قوس النصر هناك. عندما هزم نابليون، عادت

الأحصنة البرنزية مرة ثالثة إلى البندقية، لكي تستخدم في تزيين كنيسة مار مرقس، هذا هو موطنها الأخير.

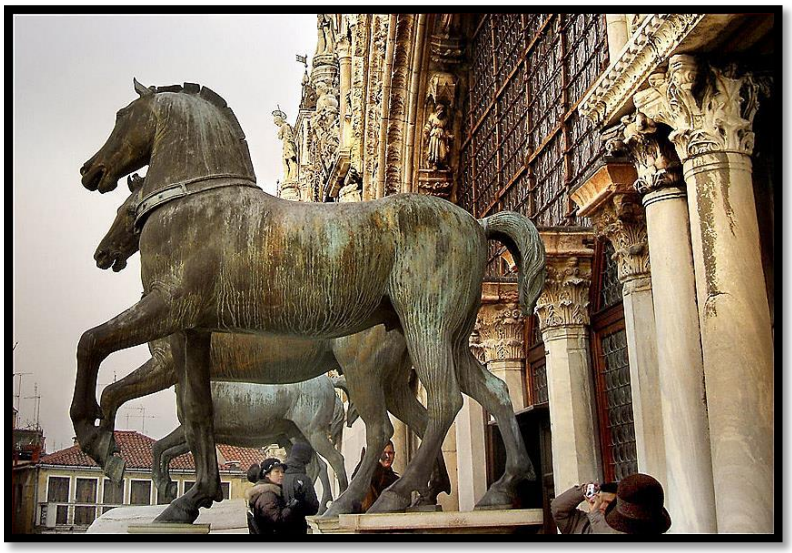

الأحصنة الأربعة التي تزين كاتيدرائية مار مرقس بالبندقية

داخل الكنيسة، سوف نجد أعمدة جميلة من الرخام، مطعمة بالعقيق والأحجار الكريمة. الحيطان، مغطاة بصور من الفسيفساء، لقضاة مشهورين وقديسين وملائكة ومشاهد قصص من الإنجيل.

كاتيدرائية مار مرقس بالبندقية من الداخل

كنيسة مار مرقس، حقيقة، عبارة عن متحف لشغل الفسيفساء. التماثيل الرخام ال 14، التي تفصل الجوقة من الصحن، تمثل السيدة العذراء ومار مرقس وباقي الرسل ال 12.

تحت القوس الموجود أعلى المذبح، يوجد تمثال ضخم للسيد المسيح وهو يبارك شعبه. قبر مار مرقس تحت المذبح، مطعم بالذهب والجواهر وأعمدة المرمر.

في الساحة أمام الكنيسة، يوجد برج أجراس رائع. ارتفاعه 300 قدم، منقوش بالرسوم البارزة. في عام 1092م، عندما سقط برج الأجراس وتحطم، حزنت البندقية ومعها كل من يهتم بالفن الرفيع في كل أنحاء العالم.

برج الأجراس بجوار كاتيدرائية مار مرقس بالبندقية

ساحة الكنيسة في البندقية، ظلت لأكثر من ألف سنة، المكان المفضل للحمام والزوار. هنا أحداث كثيرة مرت. بحّارة من جميع أنحاء العالم كانت تتجمع لعرض بضاعتهم وسرد حكاياتهم ومغامراتهم.

عندما تترك الجندول في البندقية، وتقف وسط هذه الساحة التاريخية، لتنظر إلى كنيسة الفسيفساء، كنيسة مار مرقس، سوف تكتشف أن لها سحر وجمال خاص. إنها بمثابة علم وتاج مجد لمدينة البندقية.

الكنائس البيزنطية، بقبابها العظيمة وسطها، استخدمت كثيرا في بلاد الشرق. لكن في بلاد الغرب، إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، ظهرت كنائس مبنية بطراز معماري مختلف، رومانسيكي وقوطي.

رومانسيكي تعني روماني، الكنائس الرومانسيكية، تصميمها له علاقة بالبازيليكات التي استخدمها المسيحيون الأوائل. لكنها أكبر وأعلى وأفخم.

البازيليكا، يكون فيها برج الأجراس إلى جانبها. لكن الكنيسة الرومانسيكية، يكون برج الأجراس في برج أو برجين مربعين من أبراجها العلوية.

الطراز الرومانسيكي تم تطويره في غرب وجنوب أوروبا خلال القرن التاسع والثاني عشر .اتسم بالأقواس الدائرية والقباب، واستخدام الزخارف الكثيرة في الداخل والخارج. خصوصا على الأبواب والنوافذ. الجدار الخارجي مزين برؤوس الحيوانات المختلفة.

داخل الكنيسة أو الكاتيدرائية الرومانسيكية، تستخدم الأقواس الكبيرة بدلا من الأعمدة. ممراتها مصممة في شكل الصليب اللاتيني (الجزء الرأسي أعلى من الجزء الأفقي). تصميم الكنيسة بصفة عامة يبدو مدببا بعض الشئ، وتقترب في الشكل من التصميم القوطي، وهو أروع التصميمات كلها.

كنيسة القديس بطرس بروما، مثال للعمارة الرومانسيكية

هناك العديد من الكاتيدرائيات القوطية الجميلة. أحدها في ميلانو بإيطاليا وأخرى في كولونيا بألمانيا. كاتيدرائية ميلانو مبنية على الطراز القوطي الإيطالي.

كاتيدرائية ميلانو، العمارة القوطية

مغطاه بالرخام الأبيض الصافي. المحجر الذي قطعت منه شرائح الرخام، كان مملوكا للكاتيدرائية. عندما كان المثالون يريدون شراء رخام خام، كان يطلب منهم عمل تماثيل للكاتيدرائية في مقابل الثمن.

من الخارج، ترى العديد من الأبراج المدببة ترتفع إلى عنان السماء. مدعمة بالأحجار المنحوتة لكي تعطيها صلابة وجمالا في نفس الوقت. بها أكثر من 7000 تمثال، براويز الحجر التي تحتضن النوافذ الزجاجية الملونة، منحوتة على شكل زهور مختلفة، عدد أنواعها 1500 نوع.

كاتيدرائية ميلانو من الداخل

السقف محمول من الداخل بأعمدة طويلة. الأعمدة التي تحيط بصحن الكاتيدرائية من الداخل، ارتفاعها 72 قدم. تيجان الأعمدة مختلفة الشكل. كل تاج به أشكال مختلفة. الأقواس العلوية منحوتة برقة تعادل شغل الدانتيلا.

في الكاتيدرائيات القوطية، قصص القديسين ترسم فوق النوافذ وعلى زجاجها، بدلا من تطعيم الأشكال بالفسيفساء على الحيطان. ألوان النوافذ الرائعة، تعطي الشعور بالدفئ والثراء حتى وقت الغروب.

كاتيدرائية ميلانو لونها أبيض، تبدو بأبراجها وقممها المدببة متلألئة في وضح النهار، ساحرة أسطورية في ضوء القمر.

هنا في مدينة كولونيا بألمانيا، على ضفاف نهر الراين، بنيت كاتيدرائية أخرى بأبراجها المدببة على النمط القوطي. براويز النوافذ الحجرية، التي تحتضن الزجاج الملون، منقوشة بأشكال أنواع عديدة من الزهور وأوراق النباتات والحيوانات والملائكة المجنحة.

كاتيدرائية كولونيا بألمانيا، العمارة القوطية

في الواقع، كل نقش جميل في حجر، تجد له مثيلا هنا. الأبراج ترتفع إلى 513 قدما نحو السماء، وهي مشغولة أيضا بالحجر المنقوش. السقف من الداخل كأنه ارتفع لكي يناطح السحاب. يعطي الزائر شعورا بالضآلة، ويجبره على التواضع. الأقواس تتقابل وتتشابك فوق الرؤوس مثل أشجار الغابة الكثيفة.

كاتيدرائية كولونيا من الداخل

مثل أشعة الشمس المتسربة من بين أشجار الغابة، أرض الكاتيدرائية مفروشة تفيض بكل أطياف الضوء البراقة المنكسرة من زجاج النوافذ الملون. صور القديسين والعائلة المقدسة تشع بالنور والضياء. النوافذ الدائرية الكبيرة الملونة ببتلات النباتات، تضوي مع ضوء الشفق.

الكاتيدرائية مليئة بالكنوز التي لا تقدر بثمن. أحدها، الذي جعل الكاتيدرائية لها هذه الشهرة الكبيرة، هو ضريح ذهبي مرصع بثراء بالغ. محفوظ بخزانة الكنوز خلف المذبح العالي.

في خزانة الكنوز هذه، يوجد صندوق به ثلاث جماجم بتيجانها المرصعة بالجواهر. يقال أنها تخص ملوكا من الشرق. الملوك الثلاثة، كما يخبرنا الإنجيل، قدموا من بلاد بعيدة، لكي يقدموا هدآياهم للمسيح الطفل. علموا أن المسيح قد ظهر، عندما رأوا النجم الساطع. ساروا مع النجم حتى توقف عند مكان ميلاد المسيح.

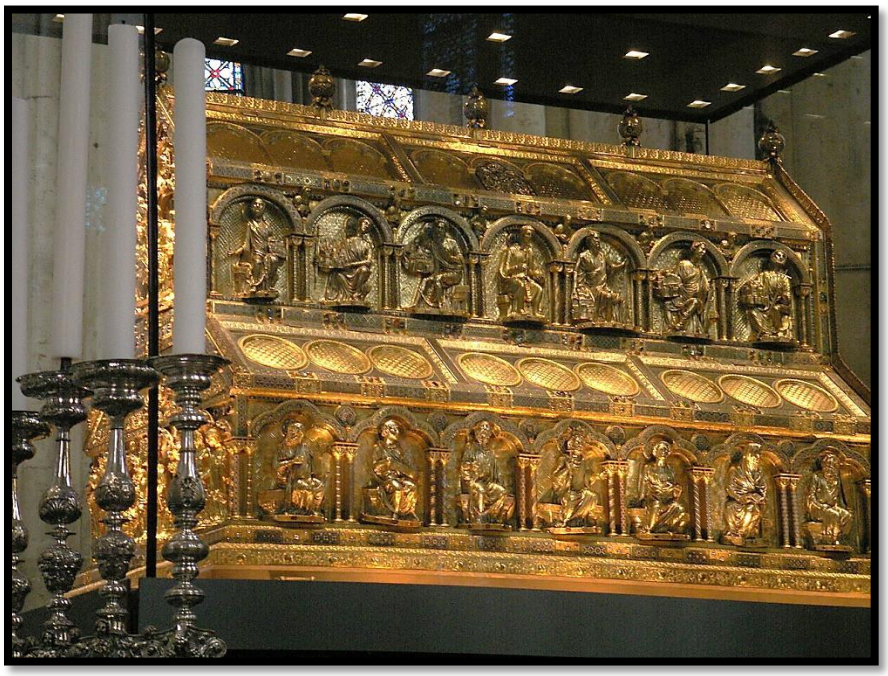

ضريح ملوك الشرق الثلاثة بكاتيدرائية كولونيا

خلع الملوك الثلاثة تيجانهم وأروابهم الرسمية، ليتفرغوا للدعوة وهداية الفقراء. بعد وفاتهم، وجدت جماجمهم، ونقلت إلى القسطنطينية، ثم إلى ميلانو، وأخيرا إلى كولونيا.

هناك قصص وحكآيات وأساطير كثيرة أخرى تخص كاتيدرائية كولونيا. فهي قد بدأ بناؤها في القرن الثالث عشر، لكن لم يتم البناء إلا في شهر أكتوبر 1880م. عندما وضع امبراطور ألمانيا آخر حجر فيها، معلنا للأمة أنه تم بناؤها أخيرا. لكي تصبح من

أهم الصروح المعمارية والدينية في المانيا. كانت تعتبر أعلى بناء في العالم في ذلك الوقت، حيث يبلغ ارتفاع برجيها 157 مترا.

استمر العمل في بنائها أكثر من 600 سنة. لنا أن نتخيل طول المدة، إذا علمنا أن الهرم الأكبر تم بناؤه في 20 سنة فقط. عام 1996م، اختارت اليونيسكو الكنيسة، كأحد مواقع التراث العالمية. في عام 2004 م، تم إدراجها في قائمة مواقع التراث العالمي المهددة، بسبب كثرة أعمال البناء حولها.

6

الفن الإيطالي(1)

العمارة القوطية، نسبة إلى قبائل القوط شرق ألمانيا، هي آخر عمارة أصلية. بمعنى أن تصميمها لم يدخله مزج أو تقليد من تصميمات أصلية أخرى (المعابد اليونانية القديمة، البازيليكا، البيزنطية، الرومانسيكية). العمارة التي تختلف عن ذلك، بمعنى أنها خليط من أنماط مختلفة، توصف بعمارة عصر النهضة.

في القرون الأولى من بناء الكنائس، لم يكن الفن بمعناه العام متقدما جدا. لا ننكر وجود أشياء لا تقدر بثمن، مثل الصلبان الذهبية المطعمة بالجواهر وتماثيل العاج، وكتب القداس المنمقة والمزينة بالرسوم والمطعمة بالأحجار الكريمة.

كان يوجد أيضا تماثيل للسيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين، لكن كلها كانت تخلو من الحركة ومن نبض الحياة والطاقة، إذا قورنت بالتماثيل الإغريقة القديمة الرائعة. لكن في القرن الثالث عشر، حدثت عملية إحياء للفن في مدينة بيزا غرب إيطاليا.

كل مدينة إيطالية، كانت تمتاز بسحرها الخاص. مدينة بيزا، مثلا، لا تشذ عن ذلك. شهرتها تنبع من مبان أربعة رائعة، تقع بساحة المعجزات المعلنة كأحد مواقع التراث العالمي.

المبنى الأول: مدفن "كامبو سانتو" أو "الأرض الطاهرة". طاهرة لأن أرض المبنى مفروشة بتراب مقدس، أحضر خصيصا من المدينة المقدسة "القدس". الأرض المقدسة محاطة بالأديرة، ومزينة بالتماثيل.

مدفن كامبو سانتو

المبنى الثاني: كاتيدرائية بيزا. مبطنة بالرخام الملون، وتعتبر أجمل مبنى في إيطاليا كلها. لكن، ماذا يقول تصميمها المعماري؟ في نهايتها محراب على شكل نصف دائرة على الطراز البازيليكي.

كاتيدرائية بيزا

بها أقواس لحمل السقف مثل الطراز الرومانيسكي (الروماني). بها قبة مثل الطراز البيزنطي (الإمبراطورية الرومانية الشرقية). المبني على شكل الصليب، مثل الطراز

الرومانيسكي أو القوطي (قبائل المانيا الشرقية). يعني بالبلدي، كاتيدرائية بيزا واخدة من كل طراز معماري حتة. وهذه شيمة معمار عصر النهضة.

المبنى الثالث: برج بيزا المائل. بني لكي يكون برج جرس كاتيدرائية بيزا التي تقع بجواره. كان أحد عجائب الدنيا السبع وقت بنائه. لأنه يميل عن المسقط الرأسي مسافة 18 قدما (حاليا). مبني من الرخام الأبيض. رغم ميله، هو جميل رشيق رائع. بياضه الناصع، يتلألأ في وهج الشمس أمام السماء الزرقاء الصافية.

برج بيزا المائل

بدأ الميل بعد البدء في بنائه مباشرة عام 1173م. مكون من ثمان طوابق من الرخام على الطراز الرومانيسكي، كل دور عبارة عن بهو بجدار دائري، مدعم بالأقواس المعمارية المحمولة على أعمدة من الخارج. به درج يتكون من 300 سلمة.

سبب الميل رخاوة في الأرض وهبوط في التربة. ظهر الميل عندما كانوا يبنون الدورين الرابع والخامس. حاول المهندسون نقل مركز الثقل في الأدوار العلوية لتلافي تأثير هذا العيب، لكنهم لم يفلحوا في ذلك.

كان الحل النهائي لتصحيح ميل البرج المستمر، هو إزالة 38 مترا مكعبا من التربة من تحت الطرف المرتفع من قاعدته. وتم الإعلان بأن البرج أصبح مستقرا في وضعه النهائي، لثلاثمئة عام قادمة على الاقل.

المبنى الرابع: معمودية كاتيدرائية بيزا، أو معمودية يوحنا (جون) المعمدان. مبنية على شكل دائري، على نمط الحمامات الرومانية القديمة. الخارج مغطى بالبراويز القوطية الرائعة. يعلوها تمثال يوحنا المعمدان وهو يحمل في يده الصليب. لعدة قرون، كان مواليد بيزا يتعمدون هنا.

معمودية كاتيدرائية بيزا

هنا أيضا مصباح قديم برونزي معلق مشهور. شهرة هذا المصباح ترجع إلى أنه كان موجودا أيام العالم الإيطالي العظيم جاليليو. تأرجح المصباح حول مركز التعليق، أوحى إلى جاليليو فكرة بندول الساعة.

المصباح البرونزي بالمعمودية، ربما لا يكون الأصلي الذي كان يوقد بالشموع

داخل المعمودية، تشاهد حروف الكتابة الجميلة المنحوته من الرخام. وتسمع صدى صوت رائع. حيث تمتزج الأصوات في هارمونية جميلة لاتنسى. المنبر بالقرب من الحائط، منقوش برسوم بارزة هي الأولى من نوعها.

هذه النقوش البارزة، تمثل أول عهدنا بتغير الفن من مرحلة الرسوم الجافة البدائية المتخشبة، إلى النقوش والرسوم المليئة بالحياة والطاقة والجلال.

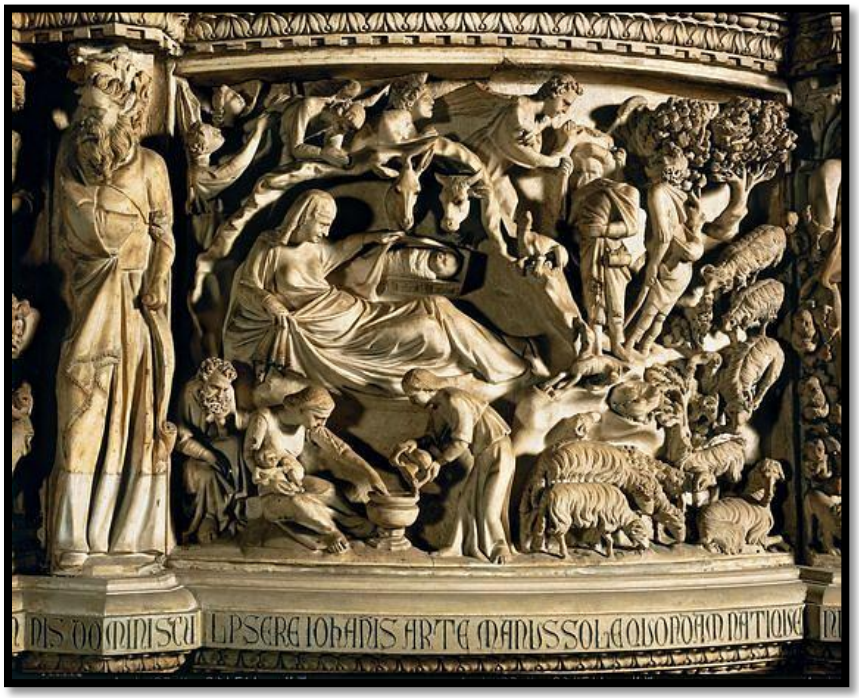

نقوش رخام بارزة بمعمودية بيزا، جيوفاني بن نيقولا بيزانو

الرجل الذي نحت رسوم المنبر، في القرن الثالث عشر، اسمه "نيقولا بيزانو"، نسبة إلى مكان مولده مدينة بيزا. بيزانو كان رجلا مؤمنا مخلصا للمسيحية. لذلك نتوقع أن تكون كل موضوعاته مشاهد دينية تصور حياة السيد المسيح. كان ابنه جيوفاني يساعده. أعمال الابن أكثر حيوية وحداثة من أعمال الأب.

المنبر مدعم بأعمدة كورنيثية، بعضها محمول بتماثيل أسود، تمثل يقظة الكهنة. النسر، فوق منضدة القراءة، يمثل سمو وعلو الهمة. يوجد أيضا 5 نقوش بارزة إلى جانب المنبر. أحدها، والأكثر إعجابا، يمثل زيارة الملوك الثلاثة الذين قاموا بتتبع النجم وزيارة المسيح الطفل فور ولادته.

المنبر بمعمودية بيزا

هذا النقش، يبين الأم، السيدة العذراء، والمسيح الطفل وهو يجلس في حجرها. الطفل يميل إلى الأمام نحو الملوك الثلاثة وهم يقتربون، يباركهم بإشارة من يده، ويتقبل منهم الهدايا التي أحضروها معهم.

في الخلف إلى اليمين، يظهر القديس يوسف، وملاك الرب. إلى اليسار توجد أحصنة ثلاثة، ربما لتؤكد أن المسيح ولد في إسطبل، أو أنها تخص الملوك الثلاثة، جاءت هي الأخرى لكي تنظر إلى المسيح.

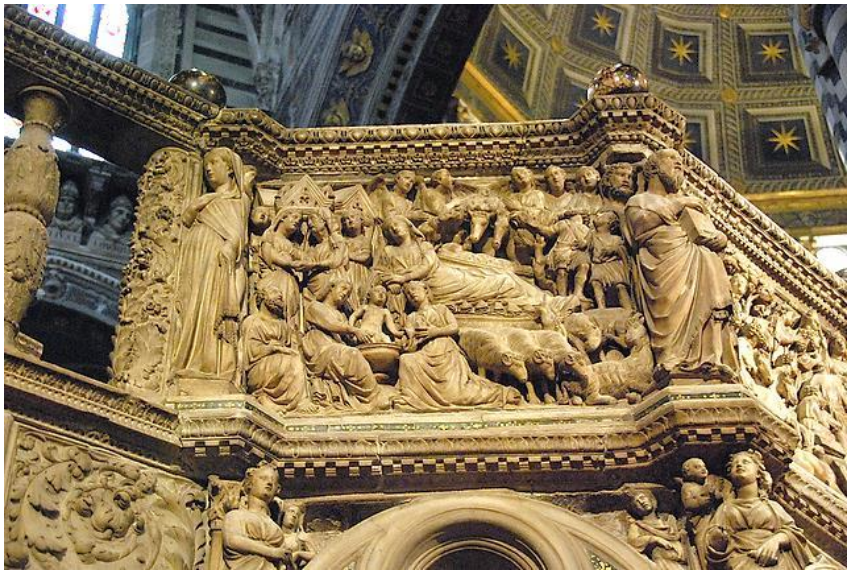

السيدة العذراء والسيد المسيح الطفل

كُرّم الفنان بيزانو التكريم اللائق به، كمهندس معماري ونحات. كان يُطلب إلى المدن المختلفة في إيطاليا، لكي يزين وينقش بالبارز المنابر والكنائس وغيرها، لكن نقوش منبر معمودية بيزا، سوف تظل تحفته الخالدة.

أكثر المدن الإيطالية سحرا هي مدينة البندقية. في العصور الوسطى، كانت تسمى "مدينة الزهور". هي المهد لعصر النهضة، ومركز الفنون الراقية في العالم.

الأسطورة تقول أن مدينة البندقية نبتت من حقل للزهور. لذلك، سميت مدينة الزهور. يعشق سكانها الزهور. الزهور في كل مكان بإسراف. أوراق الزيتون الخضراء الفضية، تضيف بهجة وبهاء للبساتين.

الزهور توجد في لوحات الرسم وشغل الفسيفساء. توجد أيضا مرتبة بعناية ومثبتة كجزء من البوابات البرونزية. سوف نزور ثلاث معالم رائعة في المدينة:

أولها، أحد قصور عائلة الميديشي التي حكمت مدينة البندقية في العصور الوسطى. القصر يشبه من بعيد، الأبراج الحربية. يذكرنا بكفاح أهل البندقية ومعاركهم الحربية.

داخل القصر، أو البرج، يوجد ناقوس قديم يسمى "البقرة". صوته الأجش، يأمر الناس بالخروج للقتال.

هنا برج آخر أقرب لكاتيدرائية البندقية، مبني من الرخام. في متانة القلاع، لكنه من الناحية الفنية، في رقة النسيم. هذا هو برج الأجراس الذي صممه وبناه الرسام "جيوتو".

برج الأجراس بكاتيدرائية البندقية، تصميم وبناء جيوتو

عندما بنيت كاتيدرائية البندقية، قرر جيوتو بناء برج أجراس جديد لدعوة الناس للصلاة، بدلا من الجرس القديم المعروف ب "البقرة". جيوتو، 58 سنة، يعمل رساما طول عمره. لكن، من اللافت للنظر، أنه استطاع بسهولة ويسر التحول من الرسم إلى شغل العمارة والنحت.

بعد بناء البرج الرائع من الرخام الملون، قام جيوتو بمساعدة تلاميذه في نحت التماثيل الرائعة في كل أركانه. أهل البندقية فخورون جدا ببرج جيوتو، وكان لديهم مثل يقول:"أجمل من كامبانيل"، وتعني: أجمل من برج الأجراس.

كارلوس الخامس، ملك إسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، قال عندما رأى البرج أول مرة: "يجب أن يحفظ في صندوق من الزجاج، ولا يرى إلا في الأعياد".

بالقرب من برج جيوتو، تقف معمودية ثمانية الشكل. في القرن الخامس عشر، أصاب مدينة البندقية وباء طاعون مريع شديد الوطأة. بعد انقشاع الوباء والبلاء، قام أهل البندقية بشكر السماء، وقرروا إهداء المعمودية، مجموعتين من الأبواب البرنزية.

استدعي الفنانون والصناع من كل أنحاء إيطاليا للتنافس في الحصول على شرف تصنيع هذه البوابات المقدسة.

"لورينزو غيبيرتي"، شاب يافع كان يعمل حدادا في مدينة البندقية. كان يتجول بين مدن أخرى لتصنيع تماثيل من البرنز. بلغ غيبيرتي، وهو في غربته، خبر المسابقة. قام أحد معارفه، بالاشتراك فيها نيابة عنه. ثم طلب منه العودة بأسرع ما يمكن.

عاد غيبرتي إلى البندقية. أسرع بتقديم رسومه الأولية للمشروع مع منافسين آخرين. قبلت رسوم غيبيرتي، ثم بدأ في تصنيع البوابات. أتم صناعتها في 50 سنة تقريبا.

أول بوابتان مشغولتان بالنقوش البارزة على الطراز النصف عميق المسمى (bas-reliefs). تمثل مشاهد من الإنجيل، العهد الجديد. ثاني بوابتان مشغولتان بمشاهد من العهد القديم وهما الأجمل. قال الفنان مايكل أنجلو أن هذه البوابات جميلة تستحق أن تكون بوابات للجنة.

بوابات لورينزو غيبيرتي بكاتيدرائية البندقية

الأشكال على البوابات تمثل حفر غائر وحفر نصف غائر وحفر ضحل. وكان غيبيرتي موفقا وهو يجمع بين أنواع الحفر الثلاثة بطريقة بارعة. المناظر مدهشة تبدو كأنها رسم بالزيت.

البوابات بها 10 لوحات. تحكي قصة خلق آدم وحواء، حكاية قابيل وهابيل، النبي ابراهيم واسحق، يعقوب وأخوه عيسو، يوسف وأخواته، موسى وجبل سيناء، يوشع بن نون وأريحا، داود وجالوت، سليمان وملكة سبأ. البراويز مزينة بالتماثيل الصغيرة وأشكال الفاكهة والحيوانات.

عاش غيبيرتي حتى بلغ سن الشيخوخة. ترك بعد موته ثروة طائلة وأحفادا تحمل اسمه. لكن لولا هذه البوابات الأسطورية، التي تستحق أن تكون بوابات للجنة، لما تحدثنا عنه الآن.

بين الناقوس القديم البقرة و برج جيوتو، توجد القبة العظيمة. توجد قباب كثيرة في كل أنحاء العالم، لكن هذه هي الأكبر والأجمل. تسمى قبة "برونيليسكي".

قبة برونيليسكي من الخارج

برونيليسكي وهو صبي، كان صغير البنية عادي الملامح، لكنه كان كثير الكلام محبا للفن. عمل كحداد، وكانت أسعد أوقاته، عندما كان يصب تماثيل الأشكال الصغيرة البرنزية. من هذه المهنة، بدأ في رسم تصميمات معمارية للمباني.

بدأ بناء كاتيدرائية البندقية العظيمة منذ سنوات عديدة. بعد أن قام المهندس المكلف ببنائها بتجليد جوانبها بألواح الرخام المصقول الفاخر، وبعد أن قام بتصميم قبتها، توفاه الله.

ظل البناء بدون سقف سنوات عديدة. تساءل الناس عمن يستطيع أن يصمم قبة كبيرة تغطي هذه الكاتيدرائية العظيمة. كان برونيليسكي كلما يمر بالكاتيدرائية الغير

مكتملة البناء، يفكر في كيفية إتمامها بالرغم من حجمها المهول. في يوم من الأيام جاءته الفكرة، واعتقد أنه يستطيع اتمام هذا العمل.

ذهب إلى مدينة روما وأخذ معه صديقه الوفي، دوناتيلو. وأخذ يتأمل لمدة ساعات في مبنى البانثيون. كان يفكر في كيفية بناء قبة أكبر وأعلى وأجل من قبة البانثيون.

بعد ذلك، أخذ برونيليسكي يبحث بين خرائب روما، عن شئ يمكن أن يساعده في هذا العمل الجبار. لأن روما كانت تهاجم بالبرابرة والكثير من كنوزها، كان قد دفن تحت الأنقاض.

سكان روما ظنوا أن برونيليسكي مجرد باحث عن كنز. أطلقوا عليه "صائد الكنوز". لكن الكنز الذي يبحث عنه، كان مجرد فكرة. ظل الحال هكذا لمدة عدة سنوات. أخيرا، قرر المسئولون عن الكاتيدرائية أنه جاء وقت إتمامها على الفور.

في عام 1420م، ظهر إعلان عام عن جائزة لأحسن تصميم لاستكمال الكاتيدرائية. جاء المتنافسون بتصميماتهم. بعضها كان مجرد كلام فارغ. أحدها كان يقترح إقامة عمود مركزي لكي يدعم القبة. لكن تصميم برونيليسكي، صائد الكنوز" كان هو الفائز.

اختار برونيليسكي طاقم عمله، وبدا في البناء. قلبه مع مشروعه لا يفكر في شئ آخر. يوما بعد يوم، والقبة ترتفع شيئا فشيئا نحو عنان السماء. يشاهدها سكان البندقية بكل فخر وإعزاز. لأنه لا شئ مثلها، قد بناه الإنسان من قبل.

بلغت القبة من الكمال الدرجة التي ظن البعض أنها تشبه قبة السماء الزرقاء. توفى برونيليسكي قبل الإنتهاء من بناء الكاتيدرائية. لكن قبته الرائعة ظلت على الدوام تاج النصر لمدينة البندقية الجميلة. اليوم، ينتصب تمثاله الحجري بجوار الكاتيدرائية. يمثله وهو جالسا فاردا في حجره الرسم الهندسي، ناظرا إلى عمله العظيم.

قبة برونيليسكي من الداخل

القرن الخامس عشر، هو بداية العصر الذهبي لفن النحت الإيطالي. في هذا القرن، صنع غيبيرتي بوابات المعمودية، وظهر فيه نحاتون مرموقون، مثل "لوكا ديلا روبيا".

بدأ لوكا ديلا روبيا حياته كحداد. لكنه كان شغوفا بعمل تماثيل من الصلصال. كانت مشكلته الوحيده، هي أنه لا يعرف كيف يلصق أجزاء تمثاله مع بعضها. لكنه حل هذه المشكلة بطريقة مبتكرة.

كان يعمل ليلا ونهارا بهمة لا تعرف الكلل، بالرغم من أن أطرافه كادت تتجمد في بعض الأوقات. أخيرا نجح في انتاج نوعا من الصمغ يجعل الصلصال متماسكا. أصبح هذا الصمغ معروفا باسم "سلعة روبيا" أو "الطين النضيج".

كانت تماثيل لوكا بطريقة الحفر البارز. لونها أبيض ناصع مع خلفية زرقاء. تماثيل الأطفال ساحرة. يبينهم وهم في حالة مرحة ويظهر جمالهم وبراءتهم، كما تظهر في لوحات الرسم بالزيت.

تماثيل أطفال يمرحون من أعمال النحات لوكا ديلا روبيا

تعبيرات وجوه الأطفال طبيعية، انفعالاتهم مليئة بالحيوية كأنهم أطفالا حقيقيون. يبدون وهم يرقصون أو يغنون أو يلعبون أو يعزفون على آلات موسيقية. مثل هذه الأطفال، لم توجد من قبل في أي عمل فني من هذا النوع. لذلك كان فن لوكا مجديا جدا من الناحية المالية.

كان يساعده في مكان عمله، إخوته وأولاده. وكان يصنع مئات من "سلع روبيا" ويرسلها لكل أنحاء أوروبا، التي كانت تستخدم بكثرة في أعمال الديكور.

كانت سرعة إنتاجه لسلعته لا تكفي لتلبية الطلبات. لم يبح بسر صنعته لأحد. وكان يبغي أن يدفن هذا السر مع وفاة آخر أفراد عائلته. الأعمال المصنعة من "سلعة روبيا" نادرة لا تقدر بثمن.

نحات آخر ساهم في العصر الذهبي، هو "دوناتيلو". هو أيضا قام بعمل تماثيل للأطفال. لكنه لم يكن يصنعها بصلصال "سلعة روبيا". لأنها كما نعلم غير معروفا سر صنعتها. أنما كان شغله بالنحت في الرخام، أو بالبرونز المصبوب. البرنز لمن لا يعرف، هو نحاس مخلوط بالقصدير.

دوناتيلو كان يعمل مع برونيليسكي وهم أطفال في مدينة البندقية. وكانا صديقين حميمين. عندما نحت دوناتيلو أول تمثال خشبي للمسيح والصليب، كان فخورا بنفسه. عرض التمثال على برونيليسكي طالبا رأيه.

برونيليسكي، المعروف بصراحته، أخبره أن التمثال يشبه عامل أجرة ولا يشبه المسيح على الصليب. رد دوناتيلو بغضب: "إذا كان الأمر بهذه البساطة، كما تعتقد، خذ قطعة من الخشب وأرني شطارتك".

على الفور، قبل برونيليسكي التحدي وبدأ العمل. بعد عدة شهور، أتم عمل تمثال من الخشب للمسيح فوق الصليب. وضعه بحيث يراه دوناتيلو في منزله. ثم قام بدعوته للغذاء. قبل الذهاب للمنزل، ذهب الصديقان للسوق لشراء بيض وعيش وفاكهة لزوم العزومة المتواضعة، وعادا إلى المنزل يحمل دوناتيلو الأكل.

دخل دوناتيلو المنزل أولا، عندما رأى التمثال الخشبي، دهش من جمال التمثال، وهو في غمرة انبهاره، رفع يديه إلى أعلى من شدة الإعجاب، تاركا ما يحمله من غذاء وبيض ليسقط على الأرض.

تبعه برونيليسكي قائلا:"تعرف يا دوناتيلو، لقد أفسدت علينا غذاءنا". أجاب دوناتيلو: "لقد تناولت الكفاية من الطعام". منذ ذلك اللحظة، علم دوناتيلو بتفوق برونيليسكي. لكن دوناتيلو كان مقتنعا بفنه، وله الحق في ذلك. كان على علم بالمنظور (perspective) وتطبيقاته أفضل من غيره من النحاتين.

تماثيله صادقة تنبض بالحياة. يقال أنه كان معجبا بأحد تماثيله والتعبير الذي يمثله، اسمه "دافيد" أو "زوكون"، إلى درجة أنه كان يضربه لكي ينطق بالكلام.

طلب أحد تجار جنوة من دوناتيلو عمل تمثال له. بعد الانتهاء من عمل التمثال، وضعه دوناتيلو في البلكونة لكي يراه المارة لحين تسليمه لصاحبه. أعجب التاجر بتمثاله لكنه لم يوافق على الأجر المطلوب.

قال دوناتيلو: "أنا أعرف كيف أحطم نتيجة سنوات دراسة عديدة في لمح البصر". ثم قام بإلقاء التمثال من البلكونة لكي يتفتت مئة قطعة.

ندم التاجر، وعاد يرجو دوناتيلو أن يعيد صنع التمثال، مع استعداده لدفع ضعف الأجر المطلوب. لكن لا شئ استطاع أن يثني دوناتيلو عن عزمه ورفض التعامل مع هذا التاجر.

لم يكن يلهث وراء الثراء. كان يحفظ النقود في سلة يعلقها على عمود حديد في منزله. وعندما كان أصدقاؤه أو عماله يحتاجون إلى نقود، كانوا يذهبون بأنفسهم إلى السلة وأخذ ما يحتاجون إليه.

عمل دوناتيلو تمثالا للقديس، راعي الفروسية، مار جرجس. التمثال يمثله وهو في كامل حلته الحربية حاملا درعه. لكي يزين به كنيسة فلورينتين من الخارج.

يقف التمثال بقدمين ثابتتين كأنه لا توجد قوة تستطيع أن تزحزحه من مكانه. كان مايكل أنجلو مندهشا من قدرة التمثال على التعبير الحي، لدرجة أنه أمر يوما تمثال مار جرجس بالسير.

تمثال مار جرجس للنحات دوناتيلو

7

الفن الإيطالي(2)
مايكل أنجلو

على ربوة صخرية، تطل على قرية كابريزي شمال إيطاليا، نجد بقايا قلعة قديمة. في أحد الغرف، لوحة مكتوب عليها، إن مايكل أنجلو ولد هنا عام 1475م.

مايكل أنجلو فنان عبقري، معروف للعالم كمهندس ونحات ورسام. عظيم في كلٍ هذه المهن. والده كان يعمل في بلدية كابريزي، ثم انتقل مع عائلته إلى فلورنسا.

تُرك الطفل في رعاية زوجة أحد البنائين. كان مايكل يلعب منذ طفولته في المحاجر. يشاهد العمال وهي تقطع الصخر بالأزميل والشاكوش. كان يعشق النظر إليهم وسماع ضجيجهم. عاد بعد ذلك إلى فلورنسا لكي يبدأ تعليمه.

لم يكن مايكل سعيدا بدراسته. كانت متعته في الرسم والنحت بالأزميل. له صديق يدعى جراناسكي، كان يمده بألوان الرسم والفرش. جراناسكي كان يدرس الفن على أيدي رسام يدعى غيرلانداجو.

عندما رأى الرسام "غيرلانداجو" رسومات مايكل أنجلو الصغير، أخبره بأن عليه أن يترك دراسته التقليدية، ويأتي لكي يدرس الفن على يديه. لم يوافق الأب على ترك مايكل للمدرسة. لكنه وافق مضطرا تحت إلحاح الصبي، الذي كان يبلغ من العمر في ذلك الوقت 13 سنة.

كان مايكل أنجلو يدرس الفن مع أستاذه الجديد بهمة ونشاط بالغين. كان يبتكر نماذج جديدة لا يجرؤ عليها تلميذ آخر. في يوم من الأيام، قال أستاذه: "هذا التلميذ يعرف في الفن أكثر مني".

في ذلك الوقت، كانت المدن الإيطالية مليئة بالعائلات الثرية. أشهر وأقوى عائلة حكمت أي مدينة هي عائلة ميديشي. كانت بالغة الثراء والنفوذ، وكانت لحسن الحظ، مهتمة بالفن. أسدت خدمات عظيمة للفن والفنانين، لها اسهامات جليلة وتبرعات كريمة للأعمال الفنية بمدينة فلورنسا.

كان "لورينزو دي ميديشي" أكثر أمراء العائلة حبا للفن. عرض على "غيرلانداجو"، صاحب مدرسة الفنون، أن يرسل له طالبين لكي يقوما بدراسة التماثيل الإغريقية والرومانية الجميلة التي تملأ حديقته. تم اختيار "مايكل أنجلو" و صديقه "جراناكسي" لهذه الدعوة.

كانت أمنية لورينزو دي ميديشي هي إحياء الفن الإغريقي والروماني، هذا ما جعله يجمع مجموعة رائعة من هذه التحف، التي أصبحت مادة للدراسة لدى مايكل أنجلو وصديقه.

لنا أن نتخيل كم كانت سعادة الصبي مايكل بمشاهدة تلك التماثيل الرائعة عندما كان يسير في الحديقة. عالم جديد من السحر والجمال والجلال كان قد تفتح أمامه. هكذا كانت التماثيل الإغريقية والرومانية.

من خلال هذه التماثيل والرسوم، استطاع مايكل أنجلو أن يحدد المعايير والمقاييس الحقيقية للفن الأصيل. قام مرة بتقليد بعض الأعمال الكلاسيكية الرومانية بإتقان، لدرجة أنه تم تداولها على أنها أصلية.

كان هناك في قصر الأمير الميديشي كمية وافرة من الرخام الخام وما يلزمه من أدوات النحت. بدأ مايكل على الفور بنحت تمثال لرأس الإله "فون"، إله الحقول والقطعان عند الرومان.

في يوم من الأيام، كان الأمير العظيم لورينزو، يتنزه في حديقته. توقف لكي يشاهد الصبي وهو يعمل. بعد فترة من المراقبة عن كثب، قال الأمير للصبي: " تمثالك يبين

الإله وهو عجوز. في مثل هذه السن، عادة لا توجد أسنان". لم يجب الصبي، وواصل الأمير سيره.

في اليوم التالي، عاد الأمير ووقف أمام الصبي لينظر أمام التمثال، ليكتشف أن أحد أسنان الإله فون قد خلعت. سر الأمير لسماع مايكل الكلام والأخذ بنصيحته. في ذلك الوقت، كان الأمير قد سمع الكثير عن مايكل، فدعاه لكي يعيش معه في قصره.

أعترض الأب. لأنه كان يعتقد أن الفن لا يصلح إلا للفقراء والفلاحين، أما ابنه مايكل، فهو ينتمي إلى طبقة النبلاء بالوراثة. بالإضافة إلى أن الأب، كان يعول أسرة كبيرة ودخله لا يكفي تغطية النفقات، وكان يأمل أن يعمل ابنه بتجارة الأقمشة، لكي يساعده ماليا.

لكن الأمير أصر على الدعوة، وكان على الأب الامتثال للمرة الثانية لرغبة ابنه. الآن نجد النحات الصغير يعيش في قصر الميديشي، ويلبس الملابس الفاخرة التي تليق بسكان القصر. يأكل على مائدة الأمراء، ويخصص له راتب شهري.

ظل مايكل أنجلو يدرس ويعمل في قصر الميديشي عدة سنوات، إلى أن توفى كفيله وولي نعمته الأمير لورينزو. كان مايكل ممتنا جدا للأمير. لذلك، كان حزنه لوفاته حزنا بالغا. لم يجد مايكل بدا من العودة إلى بيت أبيه، واستخدامه كاستوديو له.

خلف الأمير لورينزو، الأمير بيترو دي ميديشي. لكن الأمراء ليست ميولهم واحدة. بيترو لم يكن عاشقا للفنون مثل سلفه. كل ما طلبه من مايكل أنجلو، هو عمل تمثال له من الثلج. ذاب في اليوم التالي من حرارة الجو.

مايكل أنجلو، كان دائم العمل. يوجد إما في روما، أو في فلورنسا. عندما كان عمره 24 سنة، صنع تمثالا في روما، يعتبر، باعتراف النقاد، الأروع. اسمه بيتا (Pieta). يصور المسيح وهو ملقى بين ذراعي والدته.

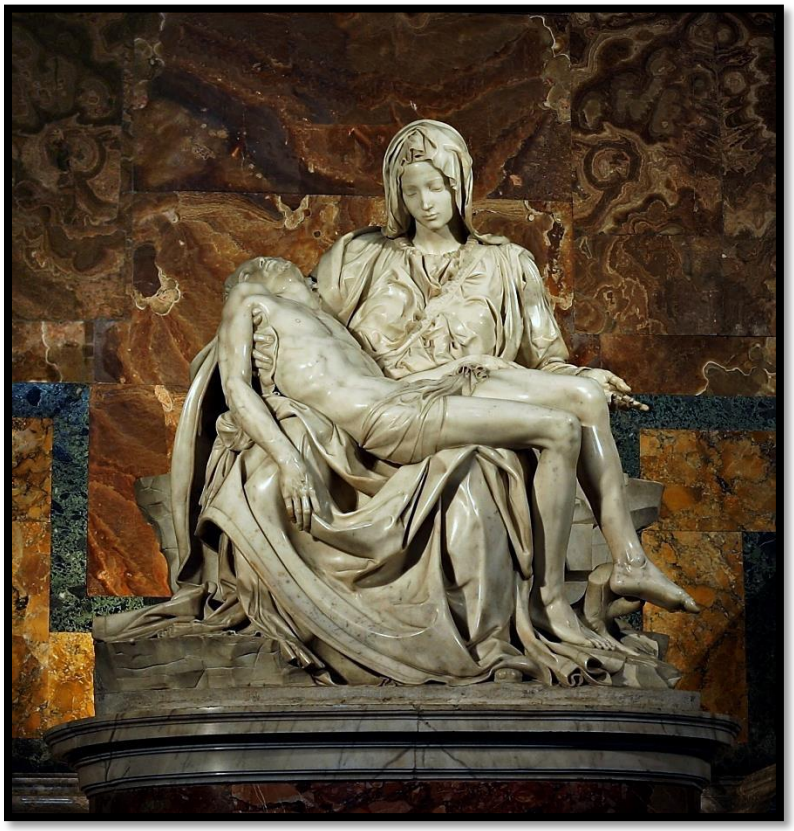

السيدة العذراء وابنها السيد المسيح لمايكل أنجلو

هذا التمثال الرائع، جعل شهرة مايكل أنجلو تبلغ الآفاق. عندما علمت مدينه فلورنسا بهذا العمل، طلبت من مايكل أنجلو العودة للمدينة لعمل بعض الأعمال الفنية المطلوبة.

هناك في مدينة فلورنسا، كانت توجد كتلة ضخمة من الرخام الخام، عمرها مئات السنين. حاول أحد النحاتين عمل شئ منها، لكنه تركها قبل أن يكمل عمله.

أعطت المدينة كتلة الرخام إلى مايكل أنجلو، مع مرتب 12 دولارا في الشهر ومهلة سنتين، لعمل تمثال. بدأ مايكل أنجلو بعمل نموذج من الشمع. ثم قام ببناء برج حول قطعة الرخام، حتى يمكنه العمل داخل البرج بدون أن يراه أحد.

كان يعمل بهمة ونشاط كأنه يريد أن يخلص تمثاله من أسر قطعة الرخام المحبوس داخلها. فما أجلها مهنة، التي تستطيع أن تحول كتلة من الحجر الأصم إلى آية من الجمال والروعة.

الآن نجد تمثال "دافيد". يقف على ارتفاع 18 قدما من الرخام الأبيض الخالص. تطلب نقله من مكان صناعته إلى ميدان وسط المدينة، أربعين رجلا وأربعة أيام كاملة. ظل هناك حتى عام 1874م، ثم نقل، خوفا من تقلبات الجو وعوامل التعرية، إلى الأكاديمية حيث يمكن مشاهدته الآن.

تمثال دافيد لمايكل أنجلو

يقف الشاب دافيد (داود)، منتصب القامة ووجهه ملئ بالتعبير. لقد اختار مايكل أنجلو اللحظة التي أوشك فيها دافيد أن يقذف العملاق جوليات بحجره. أعجب أهل المدينة بالتمثال وكانوا فخورين به.

في ذلك الوقت، كان البابا يوليوس الثاني، المحارب والمحب للفن، يرغب في بناء مدفن فخم له، بحيث يكون أفخم مدفن في أوربا كلها. وبما أن مايكل أنجلو صاحب تمثال دافيد، هو الآن أحسن نحات في العالم، لذلك دعي إلى روما لكي يبني المدفن.

المدفن يجب أن يكون بالمواصفات الآتية: ارتفاع ثلاثة طوابق، مزين ب 40 تمثالا، يبنى في فناء كنيسة القديس بيتر (بطرس). إذا لم يتسع الفناء، تبنى كنيسة جديدة بفناء أوسع لكي تسع المدفن.

كان مايكل أنجلو مغتبطا جدا بهذا التكليف. ذهب إلى محجر الرخام وقضى ثمانية شهور لكي يختار بنفسه نوعية الرخام المناسب. عندما نقل الرخام الخام إلى روما، كان يملأ الميدان أمام الكنيسة. وهو ميدان فسيح جدا.

الفاتيكان، قصر البابا، كان بجوار الكنيسة. وكان مسموحا لمايكل أنجلو بدخول الفاتيكان في أي وقت. كل الأمور سارت على ما يرام في بادئ الأمر. لكن لسوء الحظ، كان هناك الحساد ومن يحقدون على الفنانين.

أوعز هؤلاء الحساد وغيرهم من الأعداء إلى البابا للنيل من مايكل أنجلو، وأوغلوا صدره ضده. أقنعوه أنه من الفأل السيئ أن يبنى القبر وهو لايزال على قيد الحياة. بعد ذلك، أوصدت أبواب الفاتيكان في وجه مايكل أنجلو.

تُرك مايكل أنجلو في حالة يرثى لها. لا يملك ولا يستطيع أن يأتي بنقود يسدد بها ثمن الرخام الذي يملأ الميدان. لذلك، ترك روما ساخطا، ولا نستطيع أن نلومه في ذلك. ولم يعد إلا بعد أن أرسل البابا المراسيل يطلب منه العودة.

لكن ما هي النتيجة، غير 40 سنة من الكد والمتاعب. بدلا من صرح عظيم، نجد مجموعة أعمال فنية موضوعة في كنيسة صغيرة، امكاناتها لا تسمح بعرض أعماله العرض اللائق.

التمثال الرئيسي في هذه الأعمال هو تمثال النبي موسى، يبينه وهي عائد لتوه من الجبل. ترى على وجهه الغضب المصحوب بالرعب وهو ينظر إلى العجل الذهبي الذي صنعه بنو اسرائيل لكي يعبدوه.

يده اليمنى تستند إلى لوحين من الحجر، أحضرهما معه من أعلى الجبل. يده اليسرى تضغط على لحيته أسفل بطنه، كأنه يحاول التغلب على حالة السخط التي يمر بها. ما يشبه القرون التي تنبت من رأسه، ترمز إلى شعاعي النور والسلطة.

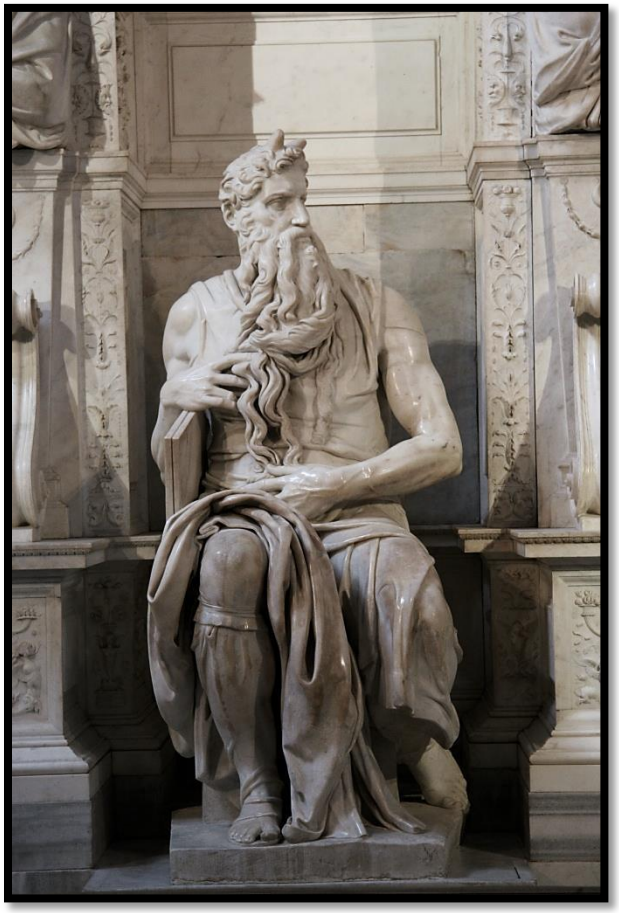

تمثال النبي موسى لمايكل أنجلو

تمثال النبي موسى، لا يمثل الجمال، إنما يدل على البراعة والإتقان. حالة السخط واليأس التي كان يمر بها مايكل أنجلو، ربما انعكست في تمثال موسى. تعبير وجه موسى يبين خيبة أمله وحالته النفسية، عندما شاهد العجل الذهبي.

من عادة الفاتيكان دعوة أحسن الفنانين في إيطاليا لعمل ديكورات مختلفة للمقر البابوي. لذلك نجد البابا يوليوس الثاني يطلب من مايكل أنجلو، ويلح في الطلب، لكي يقوم برسم سقف كنيسة سيستينا، وهي كبرى كنائس الفاتيكان.

لكن مايكل أنجلو كان يرفض قائلا: "أنا نحات، ولست رساما". لكن البابا كان يجيبه: "رجل مثلك، يستطيع أن يكون أي شئ يريده". ويرد مايكل أنجلو: "دي شغلة رافائيل، الرسام. أعطوه هذه الغرفة لكي يرسمها، واعطوني جبلا لكي أنحته".

لكن البابا كان حازما، والنحات مايكل أجبر على أن يترك أزميله ويمسك الفرشة. سقف المصلى بالكنيسة كان محدبا. طلب منه البابا ملء المساحات بصور القديسين.

ووعده بمبلغ من المال لكل قديس يرسمه. لكن مايكل أنجلو، كفنان بحق، لم يستطع قبول مثل هذا العرض. في النهاية، تركه البابا كي يختار بنفسه موضوعاته.

صنع مايكل أنجلو لنفسه خوذه من الورق المقوى. بها مكان لشمعة مشتعلة. حتى يمكنه العمل ليلا ونهارا. معظم اللوحات كانت ترسم وهو ملقى على ظهره، مستلقيا على درج بناه بنفسه.

كان مجبرا على النظر إلى أعلى بصفة دائمة، إلى درجة أنه كان يجد صعوبة في النظر إلى أسفل. مايكل أنجلو كان يحب قراءة الإنجيل. ومن الإنجيل جاءه الإلهام وكل موضوعاته.

قام بتقسيم السقف إلى أجزاء. على كل جزء، قام برسم حكاية من الإنجيل. كل منظر محاط بالقديسين والقديسات. أكثر من 300 شخصية، معظمهم أكبر من الحجم الطبيعي. شخصية آدم هي أروعهم.

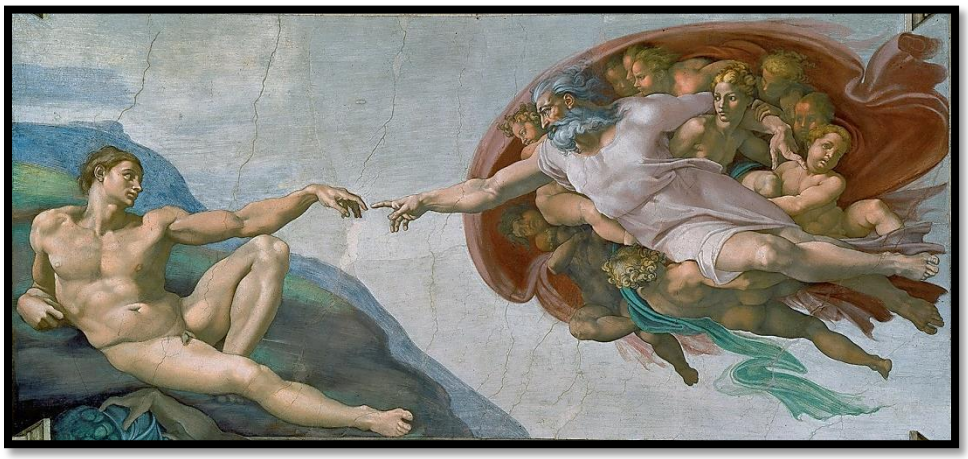

خلق آدم من رسوم كنيسة سيستينا، لمايكل أنجلو

مجموعة الرسوم كلها تبين الرفعة والسمو، ومعرفة رائعة بتكوين جسم الإنسان. اكتسبها مايكل بالطبع من خبرته بالنحت. بالرغم من حبه للنحت أكثر من الرسم، إلا أن كثير من النقاد يعتقدون أن هذه الرسوم هي الأروع بين أعماله. هذه الرسوم تبين قدرته المدهشة وشخصيته الحقيقية.

رسوم مايكل أنجلو لسقف كنيسة سيستينا

البابا يوليوس الثاني، كان يعتقد بأن الملابس في اللوحات، ليست زاهية براقة بما فيه الكفاية. وكان يرغب في اعادة رتوش ملابس بعض الشخصيات وتطعيمها باللون الذهبي. كان يقول: "إنها تبدو فقيرة جدا في اللوحة". فيجيب مايكل أنجلو: "لأنهم ناس فقراء، لايلبسون الملابس الفاخرة المذهبة".

البابا التالي كان من عائلة ميديشي. أرسل مايكل أنجلو إلى مدينة فلورنسا لكي يبني مجموعة مدافن لعائلته. تم بناء مدفنين، أحدهما للأمير لورينزو حفيد ولي نعمته لورينزو الجد. وزينهما بتمثالين.

تمثال لورينزو لم يكن يشبه الأمير، لكنه أكثر أعماله ابداعا. اسمه (Il Penseroso) "المفكر".

تمثال الأمير لورينزو دي ميديشي، لمايكل أنجلو

بعد عدة سنوات، جاء إلى عرش البابوية بول الثالث. كان يقول: "لمدة 10 سنوات، كنت أتمنى أن أصبح بابا لكي أجعل مايكل أنجلو يعمل من أجلي فقط، والآن لن يخيب رجائي".

بعد ذلك، استدعي مايكل أنجلو إلى روما مرة أخرى، لكي يواصل أعماله في خدمة الباباوية، التي مارسها طيلة حياته. هذه المرة، كانت لرسم مشهد يوم القيامة في كنيسة سيستينا.

مشهد يوم القيامة، من رسوم مايكل أنجلو لكنيسة سيستينا

اللوحة ضخمة جدا، فيها مئات الشخصيات. المسيح يبدو فيها في منتهى القوة. في الأصل، كانت اللوحة مليئة بالألوان. الآن بدأت تظهر بها الشقوق، والتصقت بها ذرات الأتربة والدخان عبر السنين.

كان لمايكل أنجلو منافسا قويا في ذلك الوقت. هو الرسام العظيم رفائيل. إلا أنهما كانا، بدون قصد، يساعدان بعضهما البعض. كان يستمد رفائيل القوة من مشاهدته لأعمال مايكل أنجلو. وكان مايكل أنجلو يستمد العذوبة والرقة من لوحات رفائيل.

ترك مايكل أنجلو مدينته الحبية فلورنسا، بسبب القلاقل السياسية التي مرت بها، وذهب لكي يقضي بقية عمره في روما. مر بشيخوخة هادئة سعيده. لم يتزوج وكان يقول أن الفن هو زوجته وأعماله هي أولاده. كان واسع الثراء، لكنه كان يحى حياة بسيطه. كان بارا بعائلته، يرسل لها مبلغا كبيرا من المال شهريا.

أعماله الأخيرة في روما، كانت في المعمار. كنيسة القديس بيتر، تقرر إعادة بنائها. لأن هذه الكنيسة كانت تخص البابا شخصيا، كانت أفضل مواد البناء تأتيها من كل البلاد الكاثوليكية. وأحسن الفنانين تخصص لبنائها.

عين مايكل أنجلو مهندسا للبناء الجديد. قبل الوظيفة ولكنه رفض تقاضي أي أجر. وكان يقول: "لقد وهبت جهدي لله". لم تنفذ تصميماته سوى في القبة الذهبية للكنيسة. كان يحب التأمل في قبة برونيليسكي بفلورنسا، وقام باقتباس نسبها الهندسية. وكان يقول: "سوف أعمل قبة أخت لها، أعلى ولكن ليس أجمل".

مع ارتفاع قبة مايكل أنجلو إلى السماء، علم أن فن المعمار يمكنه أن يمجد الرب أكثر من فن النحت أو الرسم. قبة الكابيتول في العاصمة واشنجطن، بنيت على نمط قبة كنيسة القديس بيتر.

قبة كنيسة القديس بيتر(بطرس)، تصميم مايكل أنجلو

توفي مايكل أنجلو عن عمر يناهز التسعين عام 1564م. نقل جثمانه وسط أنوار المشاعل إلى مسقط رأسه فلورنسا. دفن في كنيسة سانتا كروز (الصليب المقدس). على قبره توجد تماثيل لثلاث نساء. تمثلن ثلاثة فنون، هي: المعمار، النحت، والرسم.

قبر مايكل أنجلو بكنيسة سانتا كروز

8

الفن الإيطالي(3)
سيليني،بولونيا،برنيني

بعد وفاة مايكل أنجلو، بدأ فن النحت يتراجع ببطء. المقارنة بأعمال أنجلو كانت ظالمة. كان الفنانون الجدد يبحثون بين الخرائب الرومانية عن تماثيل إغريقية أو رومانية قديمة يمكن تقليدها. من هؤلاء الفنانين، سنختار ثلاثة: "سيليني" و"بولونيا" و"برنيني".

كان سيليني معجبا بمايكل أنجلو. وكان أنجلو، في شيخوخته، لا يبخل بنصح صديقه الشاب. سيليني كان له طبع حاد. حياته مليئة بالمغامرات، وكان دائم الهرب من منزل عائلته.

كانت له مهارة خاصة في صناعة ونقش الخزف والفازات. وكان يصنع وينقش أيدي السيوف والدروع والأسلحة. كذلك تماثيل صغيرة من الذهب والفضة والبرنز.

لا يجاريه أحد في شغل المجوهرات وتصميم الحلي. أجمل أعماله، تمثال بيرزيوس في فلورنسا. التماثيل الصغيرة التي تزين القاعدة، هي الأخرى رائعة مليئة بالتفاصيل.

تمثال بيرزيوس وهو يحمل رأس المدوزة، للنحات سيليني

مدينة فلورنسا بها ساحة كبيرة. في أحد الجوانب، متحف به مجموعة تماثيل، "لوجيا دي لانزي". طلب أمير ميديشي من سيليني عمل تمثال لكي يزين المبنى. قبل سيليني، وخصص له مسكنا وراتبا شهريا أثناء عمل التمثال، تمثال بيرزيوس.

صناعة التمثال، أخذت من سيليني 9 سنوات. بينما كان التمثال على وشك الانتهاء، ولم يبق إلا مرحلة صب البرنز في القالب. مرض سيليني مرضا كان يعتقد معه أنه سيموت. كان يملأه الخوف والأسى من فكرة ترك عمله لكي يكمله أحد غيره.

في أحد الليالي، وهو على فراش المرض، جاءه رجل يصيح قائلا: "تمثالك قد دمر". قام سيليني بسرعة وجرى إلى الموقد الذي يصب فيه التمثال. وجد أن النار على وشك أن تطفأ ويتجمد البرنز المصهور، ولا يصلح للصب، ويفسد القالب.

بعد مجهود كبير أعاد إشعال النار في الموقد، ومعها أعاد صهر البرنز. بذلك، يكون قد أنقذ التمثال ومجهود 9 سنوات. ركع على ركبتيه شاكرا الرب. عاد إلى منزله، وأكل وجبة دسمة، ثم ذهب إلى سريره لينام حتى الصباح. استيقظ كأنه لم يمرض قط من قبل.

بيرزيوس، أو برشاوش عند العرب، هو ابن جوبيتر، كبير الآلهة والإنسية داناي. أخبرت العرافة والد داناي أن حفيده بيرزيوس سوف يقتله يوما ما.

لذلك وضع الجد ابنته داناي مع ابنها الصغير بيرزيوس على جذع شجرة مقطوعة، وأنزلهما في اليم المتلاطم الأمواج، لكي يتخلص منهما، أو يرسلهما التيار إلى مكان لايستطيعان العودة منه.

ألقت الرياح والأمواج بجذع الشجرة وعليها الأم والابن الرضيع بالقرب من جزيرة. رآهما أحد الصيادين فقام بانتشالهما من الماء. عاشت دناي وابنها في الجزيرة إلى أن كبر الطفل وصار شابا يافعا.

في يوم من الأيام، رأى ملك الجزيرة داناي، وكانت لاتزال جميلة، فأرادها لنفسه. لكنه وجد بيرزيوس عقبة في طريق رغبته الملحة. لذلك، أرسله في مهمة خطرة لكي يتخلص منه. كانت هذه المهمة هي قتل المتوحشة المدوزة.

كانت المدوزة امرأة جميلة جدا بشعر طويل ناعم وقد ممشوق وملامح ساحرة. كانت تتيه فخرا بجمالها وتناسق قدها. بلغ بها الغرور أن قارنت نفسها بالإلهة مينيرفا، إلهة الحكمة والفنون والحرب.

غضبت مينيرفا وحولت المدوزة إلى وحش مخيف يعيش في المستنقعات. تبدل شعرها الطويل الناعم إلى أفاعي تفح السم من أنيابها. تغيرت ملامحها وجسمها إلى درجة مخيفة تجعل من يراها من الإنس أو الحيوانات يتجمد من الرعب ويتحول إلى تمثال من الصخر.

كان بيرزيوس مفضلا عند الإلهة مينيرفا والإله هيرميز. أعطت مينيرفا درعها المصقول إلى بيرزيوس، وأعطاه هيرميز حذاءه المجنح. أخذ بيرزيوس سلاحه ودرع مينيرفا ولبس حذاء هيرميز المجنح، وطار في الهواء يبحث عن المدوزة.

عندما وصل بيرزيوس إلى المدوزة، كانت نائمة. أدار لها ظهره، وأخذ يرجع إلى الخلف وهو طائر في الهواء، مستعينا بحذائه المجنح، حتى لا يحدث صوتا يوقظ المدوزة. أخذ يقترب منها وهو لا ينظر إليها مباشرة.

كان ينظر إلى صورتها منعكسة في درعه المصقول. في لمح البرق، أطاح سيفه البتار برأس المدوزة. ثم أغمض عينيه وتحسس المكان حتى وجد رأس المدوزة، فوضعها في كيس كان قد أحضره معه. أعطى بيرزيوس الكيس لمينيرفا لكي تضعه وساما على صدرها.

نحات آخر هو بولونيا. كانت رغبته هي أن يكون مثل مايكل أنجلو. وقد نجح في ذلك أكثر من أي نحات آخر في عصره. كان، يتسم بالنبل والخلق الكريم، ومحبوبا من كل أصدقائه.له تمثالين في متحف "لوجيا دي لانزي"، وهو نفس المتحف الذي به تمثال بيرزيوس.

لكن تمثاله الرائع، هو "عطارد الطائر"، الموجود في متحف "بارجيلو" بمدينة فلورنسا. هو الأجمل من بين تماثيل "عطارد" الكثيرة. ويعتبر منافسا لتمثال عطارد للنحات الإغريقي القديم "بايونيوس".

لكن التمثالين مختلفان. عطارد (Mercury)، كان مرسال أو ساعي الآلهة. سريع الحركة في همة الريح. لذلك سمي أقرب الكواكب إلى الشمس وأسرعها حركة عطارد. والمعدن الوحيد السائل في درجة الحرارة العادية، الزئبق، نظرا لسرعة حركته، يسمى أيضا (Mercury).

تمثال عطارد لبولونيا

تمثال بولونيا يبين عطارد وهو على وشك الإقلاع في الجو مثل الصاروخ، مستعينا بقوة الدفع التي يأخذها من إله الرياح "زفير" تحت قدمه اليسرى. عطارد يظهر وهو مجنح بجناحين مثبتين بقبعته وجناحين آخرين مثبتين بحذائه. يحمل عصا سحرية اسمها، كاديوسيوس، لها قدرة خارقة، إذا ألقيت بين جيشين متحاربين، فإنها توقف على الفور القتال.

ذات مرة، رأى عطارد حيتين تتقاتلان. ألقى عصاه المسماه كاديوسيوس بينهما، فتوقفا في الحال عن القتال، وإلتفا بكل الحب والوداد حول العصا السحرية.

ثالث الثلاثة، هو "بيرنيني". عاش في مدينة روما، في القرن السابع عشر. عمل في خدمة عدة باباوات. كان يكرم ويستقبل أحس استقبال أينما يذهب. له أسلوب خاص به يسمى الأسلوب ال"بيرنينيسكي".

أفضل أعماله الكثيرة كانت في مدينة روما. من السهل التعرف عليها نظرا لحيويتها ودراميتها. دائما يختار موضوعاته، لكي تمثل مواقف مثيرة. في الواقع، أسلوبه هذا جعل موضوعات كل الأعمال الفنية في القرن السابع عشر، تتسم بالإثارة والحساسية والمبالغة.

كان بيرنيني يسرف في استخدام الأقمشة والملابس المنسابة في تماثيله. داخل كنيسة القديس بيتر(بطرس)، تجد أعمدة و 162 عمل من تصميمه.

أعمدة وأعمال داخل كنيسة بيتر للنحات بيرنيني

صمم نافورة "تريفي". لها أسطورة تقول أنه، من يزور روما ويشرب من ماء النافورة ويلقي فيها عملة معدنية، فإنه سوف يعود ثانية لزيارة روما.

نافورة تريفي، لبيرنيني

أجمل أعمال بيرنيني هي تمثال "أبوللو ودافني". صنعه عندما كان عمره 18 سنة. لكن، ماهي اسطورة "أبوللو ودافني" الحزينة؟

هي قصة جاءت في كتاب "التحولات" لأوفيد. تقول أن الإله أبوللو رأى إله الحب كيوبيد يلعب بالقوس والسهام. نهره قائلا: "أنت تلعب بسلاح خطير، اتركه لمن يستطيع استخدامه".

غضب كيوبيد وأراد أن يلقن أبوللو درسا في أصول مخاطبة الآلهة. أصاب كيوبيد، أبوللو بسهم ذهبي جعله يقع في غرام حورية جميلة ويحبها بجنون، هي دافني ابنة إله النهر بينيوس. في نفس الوقت، أصاب كيوبيد، دافني بسهم من الرصاص، جعل دافني تكره أبوللو كرها شديدا وتعزف عنه. وهو أمر في منتهى القسوة للطرفين.

أبوللو المجروح بسهم الحب، أخذ يتوسل لدافني لكي تبادله شعوره، لكنها كانت تصده وتهرب منه. وكلما بعدت عنه، كلما اشتعل الغرام في قلبه وأصبح مفتونا بجمالها أكثر وأكثر.

نفذ صبر أبوللو. وفي يوم من الأيام، أخذ يطاردها ويسرع خلفها وهي تفر أمامه إلى أن لحق بها. أخذت دافني تصرخ وتستغيث بالآلهة. عندما مسك بها أبوللو، تحول جلدها إلى لحاء، وشعرها إلى أوراق، وذراعيها إلى أفرع وقدميها إلى جذور.

استجاب الأب، إله النهر، والإلهة جايا، إلهة الأرض، لصراخ دافني وحولاها إلى شجرة غار. لكن أبوللو الذي لايزال الحب يتقد في قلبه، أخذ يقطع الفروع والأوراق ليشكل منها إكليلا جميلا، ويعلن أن شجرة الغار شجرة مقدسة.

الغار نبات عطري، تستعمل أوراقه الطازجة أو المجففة (Bay Leaf) كنوع من التوابل في المطبخ للاستفادة من الرائحة والنكهة المميزة. تمثال بيرنيني يصور اللحظة التي أمسك فيها أبوللو ب دافني. وهي اللحظة التي بدأت تتحول فيها إلى شجرة الغار. لقد حزن لفقدها حزنا لا يعرفه إلا من فقد حبيبه.

تمثال أبوللو ودافني لبيرنيني

كنوع من العزاء، أعلن أن شجرة الغار، يجب أن تكون مقدسة لكل الشعراء والموسيقيين والفنانين. قال بأنه سوف يلبس إكليلا من ورق الغار. هذا ما يجب أن يفعله كل من ينهج درب الفن، هو الآخر يجب أن يتتوج بإكليل الغار. أسوة بالملوك والأباطرة.

تمثال برزيوس لسيليني، وعطارد لبولونيا، وأبوللو ودافني لبيرنيني، تبين قوة الحركة المصحوبة بالجمال والدراما الجليلة. لكن ما هو الفرق بين هذه التماثيل وأعمال مايكل أنجلو؟

مايكل أنجلوا لم يكن يفكر في إظهار الجمال والرقة، بقدر تفكيره في إظهار القوة والسلطة. تمثال النبي موسى لمايكل أنجلو الذي تحدثنا عنه في الباب السابق، خير دليل على ذلك.

الفن هو صراع الإنسان ضد العشوائية والقبح، وتشوقه للكمال والجمال.

9

الفن الإيطالي(4)
كانوفا

في منتصف القرن الثامن عشر، عاش الحجّار "باسينو كانوفا" في مدينة بوسانيا شمال إيطاليا، لا تبعد كثيرا عن مدينة البندقية. كان يعيش معه حفيده اليتيم "تونين كانوفا". قرر الجد أن يعمل الحفيد مثله في مهنة المحاجر. لذلك علّمه استخدام الأزميل والشاكوش منذ نعومة أظافره.

تونين كان يحب هذا العمل. عندما لا يكون مشغولا بكتب المدرسة، كان يُسمح له بعمل تماثيل من الصلصال. كان الجد فخورا بحفيده، يأخذه معه أينما يذهب.

في ذلك الوقت، كان "سينيور فاليرو"، أحد رؤساء مدينة بوسانيا، يثق في الجد، ويعهد إليه بأعمال كثيرة. بعض الأحيان، كان يدعوه إلى بيته في المناسبات للعشاء.

أحد أيام الأعياد، دُعي الجد والحفيد لمنزل سينيور فاليرو، للاحتفال بالمناسبة. في اللحظة الأخيرة، اكتشف الخدم أن التورتة الكبيرة التي تقدم للضيوف، سادة غير مزخرفة. تملك الخدم الأسى والحيرة ولم يدروا ماذا يفعلون.

هنا هب تونين الصغير للنجدة. طلب كمية مناسبة من الزبد، وشكل منها تمثالا لأسد. وضع الأسد كزينة على وجه التورتة وأنقذ الموقف. عندما حمل الخدم التورتة إلى مائدة الضيوف، صرخ المدعون من الإعجاب بجمال الأسد.

استدع الضيوف تونين، 12 سنة، لكي يعبروا له عن إعجابهم وتقديرهم. منذ ذلك اليوم، علم سينيور فاليرو أن تونين الصبي سوف يصبح نحاتا.

خصص له مدرسا، ثم ضمه كفرد إلى عائلته. كان تونين يعمل بكد وعزيمة، يشكل تماثيل صغيرة من الصلصال في شكل أصدقائه. صنع أيضا تمثالين لملاكين كما تخيلهما. بعد ذلك، أُرسل إلى البندقية. هناك كانت أعماله تنافس أعمال مدرسيه.

في القرن السادس عشر، قام المهندس المعماري والنحات "سانسوفينو"، بعمل ديكورات مدينة البندقية. كما قام بيرنيني بعمل ديكورات مدينة روما. لكن أسلوب سانسوفينو كان أنقى وأنبل من أسلوب بيرنيني.

بعد سانسوفينو، لم تر البندقية نحاتا مشهورا. لذلك، كان من الطبيعى أن تعجب البندقية بفن تونين كانوفا. قام بعمل عدة تماثيل بها في شبابه. ما تقاضاه من أجر أحد التماثيل، كان كبيرا إلى درجة، أغرته بالذهاب إلى روما. أخذ معه خطابات تذكية، وقوبل في روما بكل احترام وتقدير.

كانت روما، في ذلك الوقت، مدينة رائعة بالنسبة ل"كانوفا". أعطته الفرصة لدراسة أعمال مايكل أنجلو المبكرة والمتأخرة. وساعدته في دراسة كل ما تم اكتشافه حديثا، من تماثيل الإغريق الرائعة. تجده، مع بذوغ فجر كل يوم، في المواقع بجوار التماثيل العظيمة ومعه كراسة إسكتشات.

خلال هذه الدراسة، استطاع كانوفا استرجاع فن النحت الإيطالي الأصيل، وإنقاذه من الإرهاق والروح الاستعراضية التي أصابته، وتوجيهه إلى عالم الجمال والتكوينات الإغريقية القديمة.

أراد كانوفا القيام بعمل فني كبير لكي يثبت لأهل روما ماذا يستطيع أن يقدمه لهم. خُصص له الرخام الخام وورشة عمل. اختار موضوعا من الأساطير الرومانية القديمة. كان بطله الأسطوري هو: "ثيوزيوس".

ثيوزيوس هو البطل الإغريقي، الذي قتل الوحش "المانيتور". المانيتور وحش مرعب من وحوش الأساطير اليونانية القديمة. يأكل الأطفال والشبان، نصفه الأسفل حصان والنصف الأعلى إنسان. هذه هي قصته:

"باسيفي" زوجة "مينوس" ملك كريت، كانت لديها عدة أطفال. أكبرهم "أندروجيوس"، ذهب إلى أثينا لكي يشترك في مسابقات الألعاب الرياضية التي تقام هناك كل 5 سنوات.

لصغر سنه ومهارته، أبلى بلاء حسنا في المباريات وفاز بعدة جوائز. بسرعة، أصبح نجما رياضيا التفت حوله الجماهير. مما أثار غيرة عائلة حاكم المدينة "بالاس"، فتآمروا عليه وقتلوه. هذا بالطبع، أغضب والده "مينوس" غضبا شديدا.

لكي ينتقم "مينوس" لمقتل ابنه، أرسل أسطوله بكامل عدته وعتاده إلى أثينا، عازما على القصاص وتدمير المدينة. لإنقاذ المدينة، وافق ملكها على أن يسلم، كل سبع سنوات، سبعة شبان من أشجع شباب أثينا، وسبعة شابات من بين أجمل الصبايا، إلى ملك كريت، يتركهم للوحش "المانيتور" الذي يعيش في مغارة التيه لكي يفترسهم.

في المرة الثالثة، تطوع ثيوزيوس ابن ملك أثينا لقتل الوحش. أخذ مكان أحد الشبان وأقلع مع باقي الشبان والصبايا فاردا الشراع الأسود. واعدا والده "إيجيوس" بالنصر، والعودة سالما فاردا الشراع الأبيض.

عند وصولهم إلى جزيرة كريت، وقعت "أريادني" بنت الملك "مينوس" في غرام ثيوزيوس. أعطته كرة خيط، لكي تساعده في الخروج من مغارة التيه. عندما دخل ثيوزيوس المغارة مع رفاقه، ربط طرف الخيط بالباب، وأخرج سيفه الذي كان يخبئه في ملابسه.

عمل ثيوزيوس بنصيحة حبيبته "أريادني"، بالتقدم إلى الأمام فقط. وصل ثيوزيوس إلى قلب المغارة، فوجد الوحش يغط في سبات عميق. استيقظ الوحش ودارت بينهما معركة رهيبة، لكن فاز فيها ثيوزيوس بفضل قوته ومهارته، وطعن الوحش في حلقه بسيفه، أو بهراوته في رواية أخرى.

ثيوزيوس يقتل المانيتور بهراوته لكانوفا

بعد مقتل الوحش "المانيتور"، قاد ثيوزيوس الشبان والصبايا، وتتبع الخيط، إلى خارج التيه بسلام. هرب ثيوزيوس من الجزيرة ومن "أريادني" أيضا.

أثناء العودة، نسي أن يرفع الشراع الأبيض دليلا على الانتصار. ظن والده أنه أخفق في مهمته، عندما شاهد الشراع الأسود، أقدم على الانتحار. ظلت الحبيبة المظلومة تبكي حبيبها "ثيوزيوس" الخاين، إلى أن رق لحالها الإله "ديونيسوس" إله الخمر والعنب، وتزوجها هو.

هل يعني هذا أن الخمر هي العلاج الشافي المعافي للفشل في الحب؟. ديونيوسوس لا يقل روعة في الشكل عن البطل ثيوزيوس، بالإضافة إلى كونه إله أيضا.

هذا تمثال رائع روماني، من القرن الثاني الميلادي، على الطراز الهيلينيسكي، للإله "ديونيوسوس" إله الخمر. عثر عليه في إيطاليا وموجود حاليا، بعد الترميم، في متحف اللوفر بفرنسا.

تمثال إله الخمر ديونيوسوس

نرجع إلى صديقنا النحات كانوفا وفنه. كانوفا، في تمثال ثيوزيوس والمانيتور، اختار اللحظة التي قام فيها ثيوزيوس بقتل الوحش. عندما عرض التمثال، الذي يعتبر رائعة أعماله، للجمهور أول مرة، قوبل بالمديح والابتهاج، مما أكد وثبت شهرة كانوفا كنحات وفنان عظيم.

كانت شهرة كانوفا أيضا في إقامة الصروح الضخمة. منها مدفن البابا كليمينت الثامن، في كنيسة القديس بيتر (بطرس)، في روما. الصرح مزين بتمثالين رائعين لأسدين نائمين، أصبحا نموذجين يتم تقليدهما في جميع أنحاء العالم.

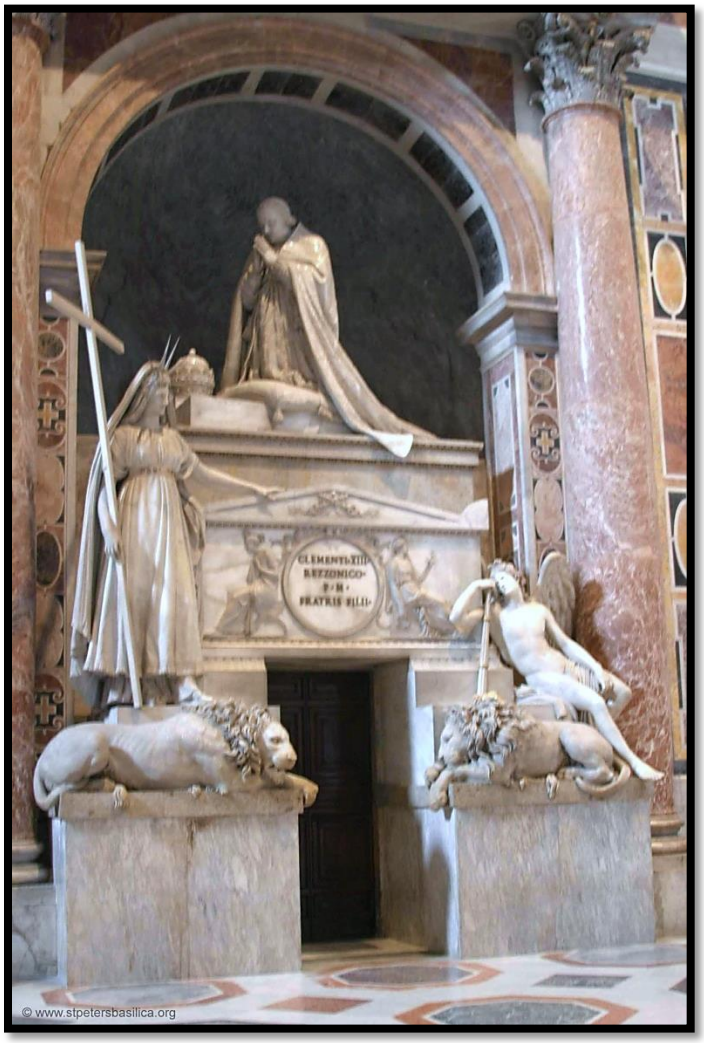

مدفن البابا كليمينت الثامن بكنيسة القديس بيتر، من أعمال كانوفا

في فيينا،هناك تمثال آخر من صنع كانوفا من الرخام، للملكة "ماري كريستينا" وهي تصعد الدرج. هو الآخر من الروائع ويعتبر من أهم الأعمال بالنسبة لهذه المرحلة التي تسمى: "الكلاسيكية الجديدة".

تمثال الملكة كرستينا وهي تصعد الدرج لكانوفا

نحت كانوفا أيضا تمثالا للإلهة "هيبي"، إلهة الشباب، وساقية الآلهة. التمثال يصورها وهي تصب رحيق الأزهار، شراب الآلهة المفضل، أثناء احتفال على قمة الأوليمب.

الإلهة هيبي، إلهة الشباب وساقية الآلهة. كانوفا

تمثال آخر من صنع كانوفا لنابليون بونابرت، وتمثال للرئيس الأمريكي بطل الاستقلال، جورج واشنجطن. وهو أول تمثال، وأشهرها، يأتي أمريكا من أوروبا.

تمثال رأس نابليون لكانوفا

غزا نابليون بونابرت مدنا كثيرة في إيطاليا، وسرق كمية كبيرة من الأعمال الفنية الرائعة ونقلها إلى باريس العاصمة الفرنسية. عندما هزم في معركة ووترلو، كان من الواجب استرجاع كل هذه المسروقات.

تمثال جورج واشنجطن لكانوفا

طلب من كانوفا الإشراف على عملية إعادة المسروقات وترتيبها مع الحكومة الفرنسية. وهي مهمة كانت صعبة، لكنه أتمها بنجاح. لذلك، أنعمت عليه روما بلقب ماركيز.

ذهب كانوفا إلى مسقط رأسه بوسانيا، أشرف على جمع التبرعات لبناء كنيسة هناك دفن فيها عند وفاته عام 1822م. ثم نقلت رفاته إلى كنيسة فراري بالبندقية لاحقا.

لقد كان كانوفا إنسانا متواضعا كريما عادلا. لم يتزوج قط، مثل مايكل أنجلو. كان معجبنا بفتاة جميلة، كان يقابلها يوميا في صالون الفن، حيث كانت تدرس الفن هناك.

فجأة، توقفت عن الحضور إلى الصالون، وانقطعت أخبارها. عندما سأل عن سبب تغيبها، علم أنها قد توفيت. لم يسأل من هي أو عن ماضيها أكثر من ذلك. ظلت ملهمة له، وبات خيالها في ذاكرته حتى وفاته.

أهمية كانوفا، والسبب الذي جعلني أفردت له بابا كاملا، هو أنه يمثل روح حديثة وبعث جديد للفن الإغريقي القديم. هذا يعني الجمال والبساطة. يعرف بأنه أمير النحت الإيطالي الحديث.

10

الفن الإيطالي(5)
بداية عصر النهضة

تاريخ فن الرسم الإيطالي، هو تاريخ رسم السيد المسيح-الطفل والسيدة مريم العذراء والدته. دائما يظهران سويا في لوحات الرسم بالزيت، التي يطلق عليها: "مادونا والطفل". كلمة "مادونا" بالإيطالية تعني "سيدتي". لكن الآن تعني "الأم المقدسة".

المادونا تحمل الطفل في بعض الأحيان، أو تنحني أمامه في خشوع. في مثل هذه اللوحات، يظهر لنا حب الأم المقدس الغير محدود. غالبا ما يكون المشهد في حظيرة حيوانات، زريبة، مع أحصنة أو ثيران، ومحاطا بفقراء ومساكين.

لوحات أخرى ترى فيها الأم تحمل الطفل أمام رعاة بسطاء، جاءوا بعد أن سمعوا بالبشرى العظيمة. حاملين معهم هداياهم من فاكهة وحملان وحمائم. لإعطاء اللوحة لمسات من الإشعاع والمجد والفخار، يضاف إليها الملائكة. التي تسبح قائلة: "المجد للرب في علاه".

في لوحات أخرى نرى الحكماء الثلاثة، الملوك الذين أتوا من أقاصي الشرق، يتبعون النجم إلى أن وقف عند مكان ميلاد المسيح. جاءوا ومعهم هدايا ثمينة من الذهب واللبان والمر.

يلبسون الثياب والأرواب الفاخرة، في تباين رائع بين ألوان ملابسهم ودرجة بريقها ولمعانها، وبين ما يحيط بالطفل المولود، من فقراء ومساكين. جاءوا هم أيضا

بملابسهم المتواضعة الممزقة وألوانها الفاترة الباهتة لرؤية المسيح الطفل. بالإضافة إلى الإضاءة الخافتة التي توحي بالإسطبل أو الزريبة مكان الميلاد.

في بعض اللوحات، تجد أيضا صورة طفل آخر. هو القديس جون (يوحنا) وهو طفل. عادة يكون لون جلده غامق، يحمل الصليب. ترى أيضا صورة الحمل. الذي تلعب معه الأطفال عادة. شكله يبدو ساحرا معهم في الصور.

في البداية، كانت لوحات المادونا والطفل من الطابع البيزنطي (الإمبراطورية الرومانية الشرقية). الأشكال والملابس تبدو جافة متخشبة. الوجوه تخلوا من التعبيرات، لكن الألوان زاهية براقة.

في القرن الثالث عشر، بداية عصر النهضة، ظهر في إيطاليا رسام يدعى "شيمابيو". المادونا والطفل في لوحاته، يبدوان أقرب للرسوم الطبيعية من الرسومات السابقة. لذلك، يسمى شيمابيو أبو فن الرسم الإيطالي.

في البداية، درس شيمابيو الرسم البيزنطي، ثم الطبيعة، قبل أن يبدأ في الرسم. الأشكال في لوحاته ليست رشيقة. لكنها أكثر حيوية وأقرب للحقيقة من الرسم البيزنطي.

الوجوه أكثر تعبيرا. والملابس تبدو مقنعة أكثر، والألوان أقل حدة. في الصورة المرافقة الموجود أصلها بكنيسة فلورنسا بإيطاليا، الأم تلبس رداء أحمر وعباءة زرقاء.

تجلس المادونا على كرسي يشبه كرسي العرش. مدعوم بملائكة ستة. تحمل المسيح الطفل، الذي يبارك بأصابع يده اليمنى. خلفية الصورة مذهبة. الرؤوس محاطة بهالة من النور، مثل اللوحات القديمة، كرمز للقداسة.

المادونا لشيمابيو 1270م

بينما كان شيمابيو يرسم هذه اللوحة، لم يكن يسمح لأحد أن يدخل عليه مرسمه. في يوم من الأيام، جاء الدوق أنجو، أخو ملك فرنسا، لزيارة فلورنسا. النبلاء المرافقون، عملا بواجب الضيافة، أخذوا الدوق الزائر لمشاهدة معالم المدينة.

ذهبوا بالدوق إلى استوديو شيمابيو. قام الرسام، تكريما للزائر العظيم، بإزاحة الستار عن لوحته لأول مرة. وإذا بالناس تتوافد من كل أنحاء فلورنسا لكي تشاهد اللوحة التي يتحدث عنها الجميع.

قوبلت لوحة شيمابيو بالإعجاب، وحصلت على شهادات تكريم. كان الناس يصطفون في طوابير طويلة لمشاهدتها. وكانوا يقومون بالرقص والغناء والعزف بالآلات الموسيقية ونثر الزهور ولبس أكاليل الغار. الحي الذي وضعت فيه اللوحة سمي حي البهجة، والشارع سمي شارع السرور.

شيء نبيل يستحق إعجابنا، هو اهتمام شيمابيو بمزارع صغير اسمه "جيوتو". تخبرنا القصة، أنه في يوم من الأيام، كان الرسام العظيم شيمابيو يسير بين الحقول، رأى صبي صغير أسمر يرعى الغنم.

كان الصبي يسلي نفسه برسم صورة لأحد الأغنام على حجر مسطح. نظر شيمابيو إلى رسمة الصبي، فرأى فيها لمسة عبقرية. تأثر شيمابيو بشدة لدرجة أنه طلب من الصبي أن يترك غنمه ويذهب معه إلى فلورنسا لكي يعلمه كيف يرسم بالزيت.

وافق الأب. أخذ شيمابيو الصبي جيوتو إلى بيته، ليصبح أستاذه ومعلمه. دربه بأمانة وعلمه أسرار المهنة، إلى الدرجة التي جعلت جيوتو رساما عظيما، فاق حتى أستاذه.

عندما كبر الصبي جيوتو، تجول في كل أنحاء إيطاليا. كان يحى حياة سعيدة صادقة متزنة. لكنه، كريفي الأصل، كان يرسم في كل مكان، كلما نزل عليه الوحي والإلهام.

كان معجبا بشاعر إيطاليا العظيم "دانتي". بينما كان يرسم على جدار بمدينة فلورنسا مشهدا من مشاهد الجنة، وضع صورة دانتي في اللوحة. بعد ذلك، حدث أن نفي الشاعر دانتي من المدينة، بعد كتابته للكوميديا الإلهية، التي وصفها بأنها سياحة وبحث في فلسفة الجنة والنار.

بعد نفي دانتي، قام أهل فلورنسا بطمس لوحة الجدار بالبوية البيضاء، احتقارا لأفكار الشاعر المتحررة (نحن الآن في العصور الوسطى).

ظلت اللوحة مطموسة لعدة قرون، حتى عام 1841م. عندما كُشطت البوية من فوق اللوحة، لكي تظهر لنا صورة الشاعر دانتي من جديد.

كان جيوتو يحب قصة المادونا والطفل. وكان يدرس لوحة شيمابيو المادونا لمدة طويلة. أخيرا، رسم لوحة للمادونا بنفسه، جاءت طبيعية أكثر من لوحة شيمابيو.

المادونا لجيوتو (1320-130م)

جيوتو كان مهتما أيضا بقصة القديس فرنسيس الأسيزي (1182-1226م). إذا أردنا فهم لوحة القديس فرنسيس لجيوتو، وجب علينا قراءة القصة أيضا. فمن هو القديس فرنسيس الأسيزي؟

هو أحد فرسان الحركة الروحية في العصور الوسطى. ولد في مدينة أسيس عام 1182م. أبوه تاجر منسوجات إيطالي وأمه فرنسية، ورث عنها حب الموسيقى والغناء. أطلق عليه اسم فرنسيس بسبب تعاطفه مع الفرنسيين.

كان في بدء حياته مسرفا محبا للأناقة والملابس الفاخرة. كان محبا في نفس الوقت للفقراء والمساكين، دائم العطف عليهم. انخرط في سلك الجيش وأظهر شجاعة نادرة. أسر في أحد المعارك بين مدينتين إيطاليتين متحاربتين.

أصيب في شبابه بمرض شديد، جعله يكتشف تفاهة هذه الحياة. مما أغراه بالتحول من الفروسية إلى خدمة الفقراء والمحتاجين والمرضى. اهتم بتعمير الكنائس القديمة، وكانت لديه رغبة عارمة في أن يهب نفسه لخدمة الرب.

بسبب سلوكه هذا، غضب عليه أبوه وحاول أن يثنيه عن عزمه، لكن الأب فشل في إقناعه. لذلك، اعتبره أبوه عاقا، قد أصابه مس من الخبل أو الجنون.

مما جعل فرانسيس يرفض مال أبيه وممتلكاته، وأخذ يهيم على وجهه ويجول البلاد كرجل فقير حافي القدمين يسكن في العشش أو ينام في الطل.

اعتبر نفسه، بعد سماعه قداس الأحد في أحد الكنائس، أنه مكلف بتكريز بشارة الملكوت. لبى الدعاء، وأخذ يعظ الناس لابسا جلبابا أحمر اللون من الصوف، يربط حبلا حول وسطه بثلاث عقد. ترمز إلى الفقر والعفة والطاعة. كان يستمد مصداقيته، من كونه زاهدا في الدنيا وما فيها.

القديس فرانسيس لجيوتو

حياته كانت ملئية بالحب والخير والعطف على المخلوقات الضعيفة. أسس جماعة الرهبان الفرنسيسكيين. بنيت كنيسة له بمدينة أسيس مسقط رأسه. على جدرانها، قام جيوتو برسم عدة مناظر تبين أعمال القديس.

لوحة جدارية للقديس فرانسيس من كنيسة أسيس، لجيوتو

قصص جيوتو الدينية رسمت ببساطة وحب وواقعية. مما جعل أسلوبه، الذي يقترب من تقليد الطبيعة، ينتشر بين الرسامين. كل الناس أحبت جيوتو. لأنه كان طيب القلب مرحا وكان أيضا قبيح المنظر. له مدرسة في الرسم لها أتباع. كان يسمى الأستاذ العزيز العظيم.

رآه ملك نابلس يرسم في يوم حار فقال له: "لوكنت مكانك لما اسطعت الرسم في الجو الحار". أجاب جيوتو: "وأنا كمان يا سيدي، لو كنت مكانك". بمعنى أنني لوكنت الملك لما استطعت الرسم.

أراد البابا دعوة أفضل الرسامين إلى روما لعمل بعض الديكورات. أرسل المراسيل طالبا عينات من رسومهم لكي يختار بنفسه بينهم. دخل المرسال إلى جيوتو بينما كان يرسم لوحة، وطلب منه عينة من رسومه.

مع ابتسامة على وجه جيوتو، رسم دائرة بالفرشة باللون الأحمر على قطعة من الورق وأعطاها للمرسال. قال له المرسال: "هية دي كل حاجة؟" أجاب جيوتو: "أيوه، ودي أكثر كمان من اللازم". أرسلت العينات إلى البابا، وقيل أن البابا أعجب بكمال الدائرة ودعى جيوتو إلى روما.

كانت حياة جيوتو حياة شغل ومرح. عندما بلغ من العمر 58 سنة، ترك الرسم واشتغل بالعمارة والنحت. بنى برج الأجراس بفلورنسا، سماه الشاعر والناقد الفني "رسكين"، برج "الراعي"، نسبة إلى عمل جيوتو الأول. يعتبر جوهرة أعماله.

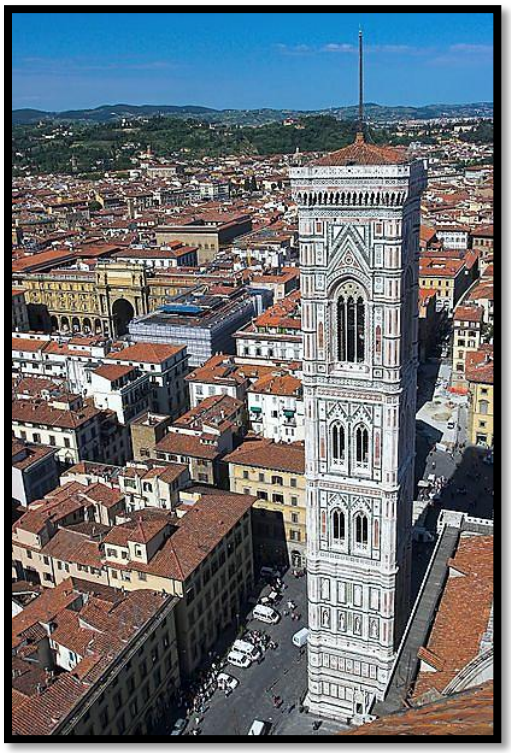

برج الراعي تصميم جيوتو

عندما نقارن رسم شيمابيو ، برسم بوتشيلي للمادونا، نرى كيف تطور فن الرسم بالزيت من القرن 13 إلى القرن 15، ومدى اقترابه من الأشكال في الطبيعة كما نراها.

الأم المقدسة أصبحت ترسم كأم جميلة تلبس الحجاب الرقيق والملابس الأخاذة الرشيقة. لها ملامح جميلة لكنها حزينة، كأنها ترى المستقبل. هالات النور تتوهج وتحتضن الرؤوس.

المادونا لبوتشيلي، القرن الخامس عشر

الطفل ينظر إلى الأم ويمسك بعنقها، تعبيرات وجهه تأخذ شيئا من حزن وجدية تعبيرات وجه الأم. القديس جون يدخل مواسيا ومخففا للشعور الحزين للإثنين. الوجه الذي يحبه بوتشيلي، يكرره في العديد من لوحاته مع شئ من التغيير. المشهد ملئ بالنور والحياة والحركة. خلفية اللوحة بها أشجار وزهور.

كان بوتشيلي محبا للرسوم الدينية، لكنه كان شغوفا بأساطير الميثولوجيا والمناظر الطبيعية. أجمل لوحاته هي لوحة "الربيع".

لوحة الربيع لبوتشيلي

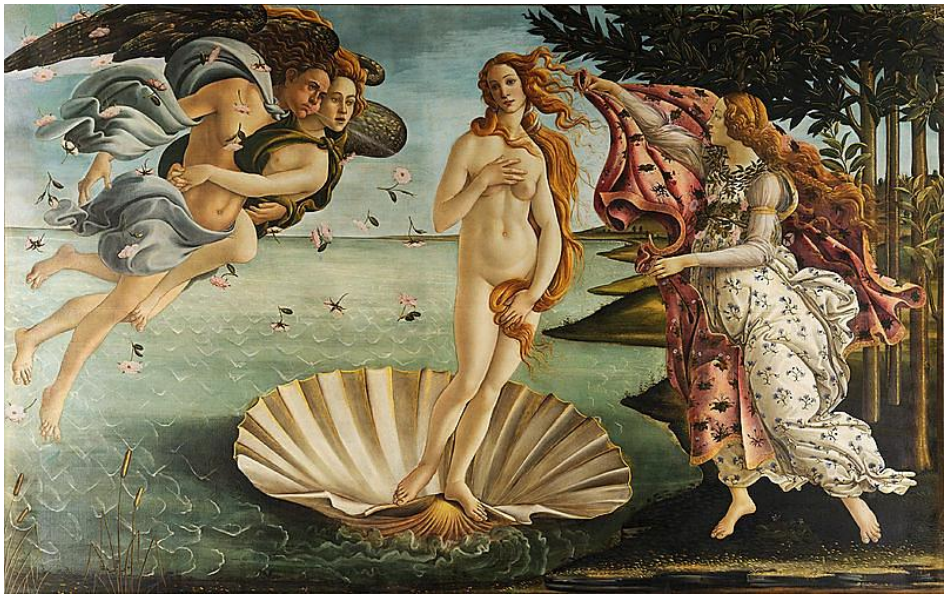

ميلاد فينوس لبوتشيلي

"فيليبينو ليبي"، تلميذ بوتشيلي، يعتبر من أشهر رسامي القرن الخامس عشر. كان رجلا رقيقا ورعا. تعلم الكثير من أستاذه العظيم. الوجوه التي كان يرسمها، لم تكن بالحزن الذي تتسم به وجوه بوتشيلي.

لوحة ظهور العذراء للقديس بيرنارد، لفيليبينو ليبي 1480م

في صورة ليبي، المادونا والطفل، الخلفية تبين عدم الدراية باستخدام المنظور (المناظر القريبة كبيرة، والبعيدة صغيرة). لأن الفنانين في ذلك الوقت، كانوا قد بدأو في رسم المناظر الطبيعية، لكنهم لا يعرفون كيف يرتبوها في لوحاتهم.

المادونا والطفل لفيليبينو ليبي

نأتي الآن إلى رسام من السهل تذكره. لأن حكايتة حكاية، تختلف عن باقي الحكايات. اسمه الحقيقي هو "جيودو". لكنه يعرف باسم "البيتو"، وتعني المبارك، أو "فرا أنجيليكو"، وتعني "الأخ الإنجيلي". دائم الصلاة للإلهام قبل القيام بالرسم. يعتقد مخلصا أن الرب هو الذي يقود فرشته. لا يغير أو يعيد خطا سبق أن رسمته فرشته.

في بعض الأحيان، يركع وهو يرسم كأنه يصلي بالرسم. يطلب لوحاته الكثير من الناس، ويذهب ثمنها تبرعات للدير الذي كان يعيش فيه الرسام. يعتقد أن الغنى الحقيقي هو الفقر مع الطمأنينة. "فرا أنجيليكو" له طباع رقيقة. لا يحب السلطة والتحكم في الآخرين. يعتقد أنه من الأفضل أن تطيع، بدلا من أن تطاع.

عندما عرض عليه البابا منصب رئيس الأساقفة، رفض قائلا: "أنا أستطيع الرسم بالزيت، لكنني لا أستطيع حكم الناس". لا يرسم مشاهد غير دينية، أو مناظر تُظهر الأسف والأسى. يرسم فقط، قديسين وملائكة. هذه هي حكايته:

ولد "فرا أنجيليكو" في بلدة فيكيودي موجيلّو قرب فلورنسا عام 1387م. عاش حياة سعيدة. كان يحب الأشجار والزهور والطيور. كان يعتني بأخ له، يحى حياة دينية عميقة مثله. في سن العشرين، دخل الدير لكي يصبح راهبا.

الأديرة لعبت دورا هاما في الزمن القديم. بها كنوز من المخطوطات واللوحات الفنية النادرة. كانت مركزا رئيسيا للمعرفة في القرون الوسطى.

الراهب مندل، قام باكتشاف قوانين الوراثة، بينما كان يعيش في دير. الدير في الواقع، كان يشبه القرية الصغيرة. به قسم قانوني تحفظ به القوانين التي تحكم الأديرة وسلوك الرهبان.

يوجد داخل الدرير، مطعم أو غرفة طعام. على الجدران تجد لوحات زيتية مثل لوحة "العشاء الأخير". تجد أيضا غرفة الكتابة بمنضدة كبيرة ودولاب لحفظ المخطوطات. وأواني ألوان وفرش رسم. أيضا مكان للمشي، وصوامع للنوم.

يوجد بين الرهبان وعاظ، ومدرسين، لأن الدير كان بمثابة مدرسة في العصور الوسطى. يوجد فنانون يقومون بالرسم، ومزارعون يقومون بالزراعة. القاعدة، هي أن يقوم كل كاهن بعمل ما إلى جانب الصلاة والعبادة.

كل دير كان مخصصا لقديس بعينه. الدير الذي كان يوجد فيه "فرا أنجيليكو"، مخصص للقديس "دومينيك". القديس دومينيك يظهر في اللوحات وعلى جبهته صورة نجم. في يد زهرة زنبق، وفي اليد الأخرى كتاب، وبجواره صورة كلب.

هؤلاء الذين يتبعون النجم، يسمون ب "الدومينيكيين". هو الذي استخدام المسبحة، نقلا عن الكاثوليك الرومان الذين كانوا يعدون بها صلواتهم.

عندما دخل "فرا أنجيليكو" دير الدومينيكيين في "فيسول"، أخبر الرهبان بأنه يستطيع الرسم. استقبل ذلك باستحسان بالغ، لأن قدراته يمكن أن تستخدم في نسخ المخطوطات ونقشها.

المطبعة لم تكن معروفة في ذلك الوقت. كتب الصلاة والأدعية كانت كلها منسوخة باليد. كما أن الكاتدرائيات كانت تزين بالتماثيل واللوحات، كانت الكتب الدينية تنمق وتزخرف بالديكورات لتمجيد الرب.

لذلك، كان الرسام، يبدأ بالبرواز لكل صفحة، ثم يرسم داخله الزهور البراقة والصدف والأسماك والطيور الإستوائية والريش الجميل. في بعض الأحيان صور للقديسين والملائكة. كان يزين أيضا أول الحروف، وباقي المخطوطة بالحبر الأسود.

يوم بيوم، وشهر بشهر، وسنة بسنة، يقوم الكاهن المكلف بهذا العمل، بصبر بالغ، بإضافة الزخرفة والرسومات إلى كل صفحة حتى يتم المخطوط. لا يمكن أن تتخيل جمال هذه المخطوطات، قبل أن تضعها في يدك وتتأمل في نقشها.

بعضها من الدقة، يحتاج إلى عدسة مكبرة لكي تظهر تفاصيلها الرائعة. هذه الكنوز الفنية، جعلت قيمة المخطوطة منها تعادل ثمن بيت مكتمل.

مخطوطة لرسام مجهول

بعد أن عمل "فرا أنجيليكوا" في نسخ المخطوطات بعض الوقت، انتقل لأعمال أهم. كل رسام كانت له اهتمامات بموضوع معين. فرا أنجيليكو، كان مهتما برسم القديسين والملائكة. أجاد رسمهم وتفوق على جميع الرسامين في رسمهم.

تتويج العذراء مريم، لأنجيليكو

السماء خلقت لكي تكون خلفية لهم في الصورة. اللون الأزرق والذهبي كانت ألوانه المفضلة. ملائكة تعزف الموسيقى. ملائكة تنساب في يسر حول أحواض الزرع، كما يبدون في مشهد "منظر الجنة".

وجوه مشرقة، وأجنحة، وهالات نور تحيط برؤوسهم. يلبسون ملابس حمراء أو روبية، لوني العواطف. وآخرون في ملابس خضراء، لون الربيع. أو زرقاء لون السماء والحب.

المادونا والطفل، فرا أنجيليكو

أسطورة تروى عن فرا أنجيليكو تقول، أنه كان مجهدا فغلبه النعاس وهي يرسم لوحته. بينما هو نائم، جاءت الملائكة لتكملها له.

أخيرا، وصلت شهرة "فرا أنجيليكو" روما. دعاه البابا إلى العمل في الفاتيكان حيث قضى ما تبقى له من عمر هناك. قام بديكورات ورسوم مصلى البابا نيكولاس الخامس. أفضل أعماله، رسمه للقديسين الشهيدين لورانس وستيفين.

عاش فرا أنجيليكو إلى سن الثمانين في فيسول. مات في روما عام 1455م. دفن في دير الرهبان الدومينيكيين، القريب من كنيسة سانتا ماريا سوبرا منيرفا، حيث لا يزال ضريحه موضع إجلال وتعظيم لمكانته الدينية والفنية.

اختلف النقاد في نسبة فنه إلى واقعية العصر الوسيط، أو إلى إبداع عصر النهضة. إلا إنهم قد اتفقوا جميعاً على أثره في تطوير الرسم الديني، وأثره فيمن أتى بعده من الفنانين.

11

الفن الإيطالي(6)
ليوناردو دافنشي

في قلعة، لا تبعد كثير عن فلورنسا، ولد طفل مدهش معجزة. اسمه ليوناردو. أطلق عليه دافنشي، لأنه كان يعيش في قلعة "فنشي". كان وسيم طويل الشعر يصل إلى وسطه. يلبس الحلل الفاخرة.

له ذاكرة مدهشة، ساعدته كثيرا، لأنه أراد أن يعرف كل شئ. درس التاريخ بحماس بالغ، وكذلك الجغرافيا والرياضيات والموسيقى وهندسة المعمار والرسم بالزيت. أجادها كلها إلى درجة أبهرت أساتذته، الذين أدهشتهم وحيرتهم أسئلته.

كان قوي البنية، يستطيع أن يحني خاتما من المعدن بأصابعه. كانت له قدرة عجيبة على ترويض الخيول الشاردة والحيوانات الضالة. كان لا يتحمل رؤية عصفور أو أي كائن ضعيف يعامل بقسوة.

لذلك، كان يشتري طيور الزينة، ثم يطلقها إلى رحاب الفضاء الفسيح وعالم الحرية، كي تحيا حياتها الطبيعة. لا يأكل اللحوم رأفة بالحيوانات.

كان سعيدا بشوشا كريما له شخصية مميزة وأخلاق ساحرة، لذلك أحبه الجميع. كانت رغبة والده أن يكون كاتبا عموميا أو موثق عقود، لكن الابن اكتشف حبه للفن. لذلك أرسل الوالد ابنه إلى صديقه الرسام "فيروتشيو" في فلورنسا، لكي يقضي معه عدة سنوات.

في يوم من الأيام، كان "فيروتشيو" متعجلا في إكمال أحد لوحاته، فطلب من لوناردو أن يكملها بدلا منه، بإضافة رأس لأحد الملائكة في اللوحة. أكمل لوناردو اللوحة بكل سرور.

ذهبت اللوحة للعرض، وفوجئ ليوناردو، بإعلان النقاد أن رأس الملاك التي رسمها، هي أجمل ما في اللوحة.

لم يتحمل المسكين "فيروتشيو" المفاجأة. بلغ به الغضب، عندما علم بتفوق تلميذه عليه، فقام بحرق فرشه وتدمير ألواح ألوانه وأعلن أنه لن يقترب من الرسم مرة ثانية.

لوحة لفيروتشيو. الخلفية والملاك على يمين اللوحة من رسم دافنشي

بعد ترك "فيروتشيو"، عاش ليوناردو مدة طويلة في فلورنسا. قام خلالها بتأليف الشعر واختراع عدة آلات موسيقية. وقام أيضا بالرسم وعمل تماثيل من الصلصال. صمم طرقا وكباري وقنوات وقلاعا. في الواقع، تنبأ بالكثير من مخترعاتنا الحديثة. منها فكرة استخدام البخار في الآلات البخارية.

حاول إختراع الطائرة، وألعاب في هيئة عربات تسير بالزمبرك. وأشياء أخرى كثيرة. لكن عيبه الخطير، كان في عدم إكماله للأعمال والأفكار العظيمة التي يبدأها. ما تركه لنا، لوحات قليلة، بعض الخطط والرسومات التوضيحية، ومجموعة من الكتابات، ورسوم تفصيلية رائعة لأجزاء جسم الإنسان.

كان ليوناردو يحب أن يدعى رساما. كان يرى في الشوارع والطرقات يراقب الناس ويرسم اسكتشات. عندما يرى وجها يروق له، يتبعه حتى يتمكن من نقل ملامحه إلى كراسته. ثم يعود إلى منزله لكي يرسمه بالزيت.

في بعض الأحيان، كان يدعو المزارعين إلى منزله، يحكى لهم حكايات مسلية ومضحكة. يشاهدهم وهم يضحكون، ثم ينقل ضحكاتهم بالقلم على كراسته.

كان يحصل نظير أعماله في فلورنسا على أجر جيد. بعد مدة، أصبح ثريا يعيش في بيت فاخر، له خدم وخيول. كتب إلى دوق ميلانو لكي يساعده على العمل في المحاكم الإيطالية.

وافق الدوق، واستقبل ليوناردو بحفاوة. كان الدوق منبهرا بشخصية ليوناردو. وكان ليوناردو، عندما يقيم الدوق الحفلات، يقوم بالغناء والعزف على آلات موسيقية صنعها في أشكال مختلفة. قام بتصميم لعبة للحفلات، في شكل أسد، يعمل بالزمبرك. يسير بين المدعويين ثم يفتح فمه لكي يخرج منه باقة زهور.

في ميلانو، أنشأ لوناردو أكاديمية للفنون. بداخل أحد الأديرة الدومينيكية، وبطلب من الدوق، رسم ليوناردو رائعته "العشاء الأخير" على الجدار الداخلي للدير.

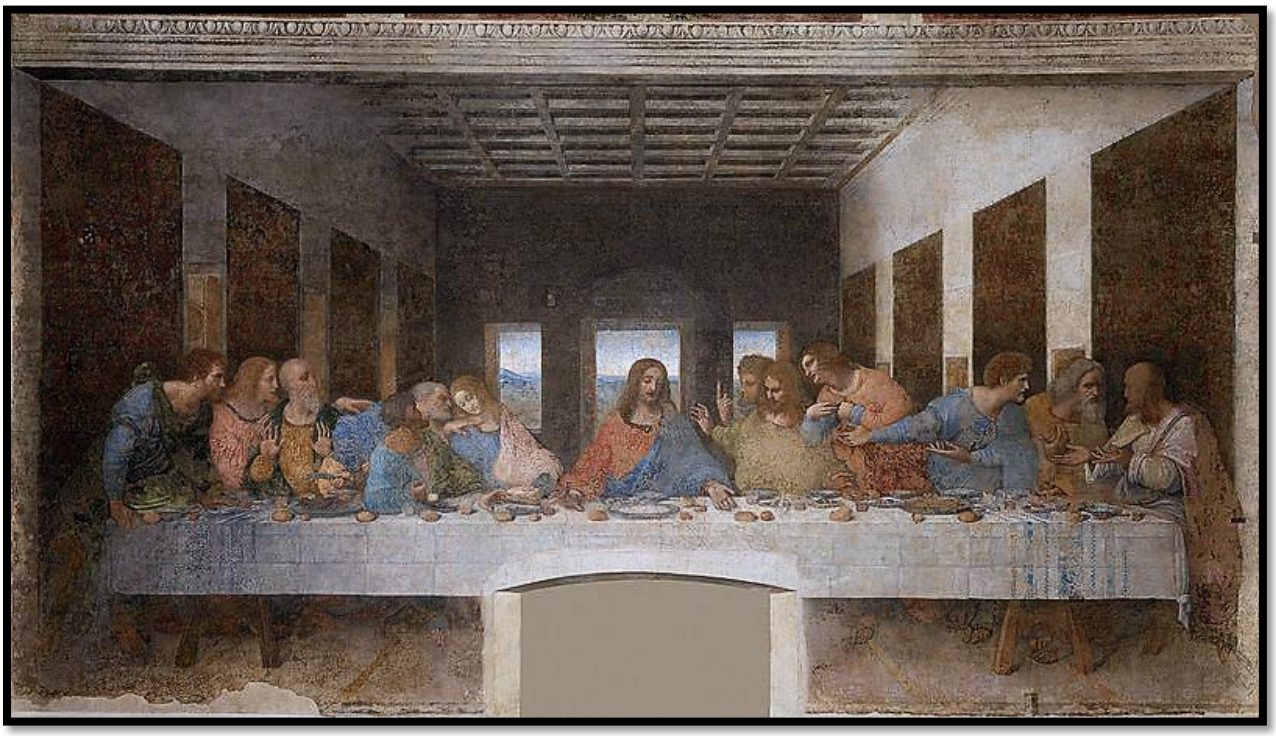

العشاء الأخير للوناردو دافنشي

لوحة "العشاء الأخير" للوناردو دافنشي، هي باكورة أعماله، تبين السيد المسيح في أهم مشاهد حياته. في خلفية الصورة، توجد نافذة يظهر منها تلال مدينة الخليل من بعيد.

يجلس على مائدة ممتدة ثلاثة عشر رجلا، يتوسطهم السيد المسيح. حجم الأشكال أكبر من الحجم الحقيقي. شكل مفرش المنضدة والأطباق، منقول بعناية من مائدة الدير، دير القديسة ماريا ديليه جراتسيه بميلانو.

وجه المسيح في الصورة، يبدو عليه جلال القداسة والحزن العميق، بالرغم من كون الصورة باهتة الآن. لأن ليوناردو كان يجرب الرسم بالزيت على الجص، مما أدى إلى سرعة إتلاف اللوحة. في عام 1977م، تم استعادة معظم تفاصيل اللوحة باستخدام التقنية الحديثة.

فكر ليوناردو كثيرا عندما كان يرسم وجه المسيح، أكثر من أي جزء آخر بالصورة. يده كانت ترتعش، ولم يكن راضيا أو مقتنعا أنه أكمل رسم الوجه. على جانبي المسيح،

توجد مجموعتان، كل مجموعة ستة أفراد. لا تجد وجهين متشابهين. كل وجه يبدو، إما حزين أو مندهش أو متسائل.

المسيح كان قد أخبر تلاميذه منذ لحظات بأن أحدهم سوف يخونه. اختار ليوناردو هذه اللحظة التي يتساءل فيها الجميع عمن يكون هذا الخائن. جون (يوحنا)، في المجموعة التي على اليسار، يضرب كفا بكف في حزن شديد.

بيتر (بطرس)، يميل على جون مستفسرا عمن ذكر المسيح اسمه. يجلس أمامهما يهوذا ومعه كيس النقود. ينظر إلى بيتر وجون بعصبية. على الجانب الأيمن، نرى وجه توماس (توما) المتحمس. يومئ بأصابعه وينحني خلف تلميذين آخرين.

ظل ليوناردو يرسم لوحة العشاء الأخير مدة عامين. في بعض الأوقات، كان منغمسا في العمل إلى درجة أنه كان يرسم منذ شروق الشمس إلى مغربها، فوق سقالة بدون أكل أو شرب. وكانت تمر أيام دون أن تلمس فرشته اللوحة.

كان ليوناردو يرسم ببطء، دائم التغيير وإضافة الرتوش، ينتظر الإلهام. كان مسئول الدير يحثه على الإسراع دون فائدة. في أحد المرات، أثاره المسئول وهدده وهو يرسم لوحة العشاء الأخير، فقال له ليوناردو: "أستطيع أن أسرع في رسمها إذا وافقت على أن تجلس كموديل ليهوذا الخائن".

بعد العشاء الأخير، ظل ليوناردو في ميلانو. عندما وقعت المدينة في يد الغزو الفرنسي، جال في كل أنحاء إيطاليا، ثم عاد أخيرا إلى فلورنسا.

من اللوحات التي رسمها في فلورنسا، لوحة لوجه امرأة سوف يبقى عالقا بذاكرة الإنسان مدة طويلة. لوحة موناليزا، أو "السيدة ليزا"، زوجة أحد كبار التجار في فلورنسا، يدعى "فرانسيسكو ويل جيوكوندو". لذلك يطلق على اللوحة في بعض الأحياء "جيوكندا".

ظل يرسم ليوناردو هذه اللوحة مدة أربع سنوات. ضعف المدة التي رسم فيها العشاء الأخير. لابد أنها صورة بورتريه هامة إلى الدرجة التي يرسمها رسام في أربع سنوات.

الموناليزا لدافنشي

الموناليزا تجلس في كرسي رخام. تلبس ملابس زرقاء وذهبية اللون، طياتها في انسياب طبيعي رشيق. الوجه رائع والعيون تتبع المشاهد. الشعر طبيعي جدا، لأن ليوناردو أستاذ في رسم الشعر. اليدان جميلتان والجلد مثل لون الجلد الطبيعي.

بينما كانت تجلس الموناليزا أمام ليوناردو لرسمها، الزهور كانت منثورة حولها، والحيوانات الأليفة قريبة منها لكي تداعبها. فرق الموسيقى، كانت تعزف أعزب الحان.

لوحة الموناليزا، بالرغم من كونها فقدت الكثير من بريقها وألوانها، إلا أنها لاتزال فاتنة غاية في الروعة. لكن لماذا لها هذه الابتسامة الغامضة الغريبة؟ فهل تعجبك هذه الإبتسامة؟

بعد موناليزا، وخلال إقامته الطويلة في ميلانو، قام برسم العديد من اللوحات. إلا أن أغلبها فُقد أو ضاع. كما قام بنحت بعض التماثيل، وبإنشاء تصميمات لمسارح ومباني معمارية ونماذج لقبة كاتدرائية ميلانو.

أخيرا، دعي مايكل أنجلو إلى فلورنسا. "ليوناردو" و"مايكل أنجلو"، معا، طلب منهما عمل رسومات كاريكاتيرية للعرض بقاعة المدينة هناك.

بعد العرض، قيل أن رسومات مايكل أنجلو كانت أفضل وأدق من رسومات ليوناردو. لم يتحمل ليوناردو أن يتفوق عليه مايكل أنجلو أو حتى رفائيل. وبدأ يسمع الهمس بأن ليوناردو كبر في السن.

فرنسيس الأول ملك فرنسا، كان عاشقا للفن الإيطالي. كان يرغب في نقل لوحة العشاء الأخير إلى فرنسا. عندما تعذر عليه الأمر، لأن اللوحة مرسومة على جص الحائط، دعا ليوناردو إلى فرنسا لكي يعيش هناك.

قبل ليوناردو الدعوة، وودع شمس إيطاليا المشرقة. لم يستطع بيع لوحته موناليزا، لذلك أخذها معه إلى فرنسا. اشتراها فرنسيس الأول منه بمبلغ 9000 دولار. مبلغ ضخم في تلك الأيام، يدفع للوحة بورتريه.

وضعت ال"موناليزا" في قاعة متحف اللوفر بباريس، ويمكن رؤيتها هناك اليوم. وقام فرنسيس الأول، في نفس الوقت، بالإنعام على ليوناردو بقصر وسط المزارع، وكان يعتبر ليوناردو بمثابة مدرس وأب له. كان فرنسيس معجبا به ويقلده في اختيار موديلات ملابسه والعناية بشكل لحيته.

لم يعش لوناردو أكثر من ثلاث سنوات في فرنسا. توفي عام 1519م، وبكاه ملك فرنسا، فرنسيس الأول، عندما علم بوفاته. بجوار كاتيدرائية ميلانو، أقيم له نصب تذكاري من الرخام تخليدا لذكراه وأعماله.

شئ جيد أن يكرم في ميلانو. لأنه عاش هناك مدة طويلة من حياته. كما أن دير ميلانو به رائعته "العشاء الأخير". التي كتب يصف لنا كيف رسمها فيقول:

"لذلك، كنت أنتظر وأنا أغوص في جادة أفكاري بخصوص هذه اللوحة. إلا أن الأفكار لم تكن واضحة في ذهني. لذلك لم أجرؤ على الرسم، قبل أن تنضج هذه الأفكار داخلي. عمل اليد والرأس وحدهما لا يكفي. فقط، عندما تطلق الروح إشارة البدأ، سوف أبدأ".

موناليزا، هي أشهر بورتريه في تاريخ فن الرسم. اختار ليوناردو الشكل الهرمي للموناليزا. شكل الاستقرار والهدوء الذي ينعكس أيضا على وجهها. الصدر والعنق والوجه يشع بالضوء الذي يضئ أيضا اليدين.

موناليزا تجلس منتصبة القامة، دليلا على الوقار والجدية. تنظر إلى المشاهد بوجه مشرق محاط بظلام الشعر والحجاب والظلال. ترحب بالقادم بدون ابتذال أو نظرة حميمية. لكن نظرة وقورة لكسر عالم الصمت الذي يغلف اللوحة.

موناليزا تبدو حية في الصورة، لأن ليوناردو لم يستخدم الخطوط لكي يحدد الأشكال. وخصوصا في زوايا الفم والعينين. يدها اليمنى تستند على اليسرى. بدون خواتم أو حلي في العنق، لإظهار الوقار والجدية والإخلاص للزوج.

الخلفية ليست ستارة كما هي العادة في لوحات البورتريه، لكن الخلفية عبارة عن منظر طبيعي. يظهر فيه استخدام المنظور، الذي يبين المناظر القريبة أكبر من المناظر البعيدة. تموجات شعر المونا ليزا، تجد لها صدى في منحنيات الوديان والأنهار في المنظر الطبيعي خلفها.

"مونا ليزا" في الصورة ليس لها حواجب. كان الاعتقاد، بأن هذا بسبب العادة الشائعة بين النساء في ذلك الوقت. لكن الأبحاث الجديدة واستخدام التصوير بالأشعة الفوق بنفسجية، أثبتت أن موناليزا كان لها رموش وحواجب، لكن الألوان بهتت بمرور الوقت والتنظيف المستمر.

ابتسامة مونا ليزا الغامضة والتي حيرت النقاد، يمكن تفسيرها بعلم النفس. عندما كان ليوناردو في المهد، رأى نسرا ينزل عليه ويفتح له فمه ويضربه بذيله على شفتيه عدة مرات.

ابتسامة الأم المفقودة والأسرار المحيطة بحياة ليوناردو العاطفية، ربما كان لها، حسب قول فرويد، تأثير على حياته وفنه، وعلى ابتسامة موناليزا الغامضة.

12

الفن الإيطالي(7)
رفائيل

ظل الفن التشكيلي الإيطالي يتطور على مر القرون، إلى أن وصل إلى أوجه في القرن السادس عشر. رسامون عظام وتلاميذهم يتكدسون في مدينة فلورنسا، منذ زمن شيمابيو وجيوتو، مما جعلها تلقب بالمدينة الجميلة.

روما، أيضا، كانت ولا تزال مركزا عالميا للفنون التشكيلية، بسبب الصروح المعمارية العظيمة الكثيرة، والفازات والتماثيل والنوافير، التي تملأ الكنائس والشوارع، والتي تزين بيوت الملوك والأثرياء.

إلى جانب الموروث والمنهوب، والمنقذ والمكتشف من تحت الأنقاض، من روائع الفن الإغريقي القديم. كما أن البابا في روما، كان دائما يستدعي أحسن الفنانين في البلاد للعمل في الفاتيكان.

كان مايكل أنجلو ورفائيل، من أشهر الفنانين في كل من فلورنسا وروما في القرن السادس عشر المتلألئ بالفنون. رفائيل كان من أحسن النحاتين الذين عرفتهم البلاد. ، وكان أيضا مهندسا معماريا ورساما من الراز الفاخر. لكن كرسام، أحبه الإيطاليون وكل محبي الفنون الراقية في كل أنحاء العالم. هذه هي حكايته:

ولد رفائيل في يوم الجمعة العظيمة عام 1483م. في قرية أوربينو الجبلية وسط إيطاليا. الطفل كان جميلا رقيقا لذلك سمي رفائيل، وهو اسم أحد رؤساء الملائكة السبعة.

كان والده رساما ووالدته سيدة رقيقة. توفيا بينما لا يزال رفائيل صغيرا. عندما وصل إلى سن السابعة عشر، أُرسل إلى رسام يدعى "بيروجينو"، نسبة إلى مكان إقامته "بيروجيا".

عندما رأى "بيروجينو" رسومات رفائيل، قال: "دعوه لكي يكون تلميذي، لأنه سوف يصبح في القريب العاجل أستاذي". وبالفعل، بعد فترة صغيرة، لم يعد يمكن التفرقة بين رسومات الأستاذ وتلميذه رفائيل من ناحية الجودة.

رسم من كنيسة سيستين بالفاتيكان في روما للفنان بيروجينو 1481م

مثل كل الشباب الذي كان يدرس الفن في إيطاليا في ذلك الوقت، كان الحلم هو زيارة فلورنسا. عندما علم رفائيل بما أبدعه ليوناردو دافنشي هناك، لم يعد يتحمل الانتظار. ترك "بيروجيا" متوجها إلى مدينة الفن فلورنسا.

أثناء تجوال رفائيل بالمدينة، توقف أمام لوحات الرسام "ماساشيو" لدراستها. تعلم منها كيف يرتب وضع المجموعات في اللوحة. "ماساشيو" رسام إيطالي، من كبار فناني عصر النهضة في إيطاليا. جعل الرسم أقرب إلى الأشكال الطبيعية . كان محل إعجاب كثير من فناني إيطاليا المشهورين، منهم مايكل أنجلو.

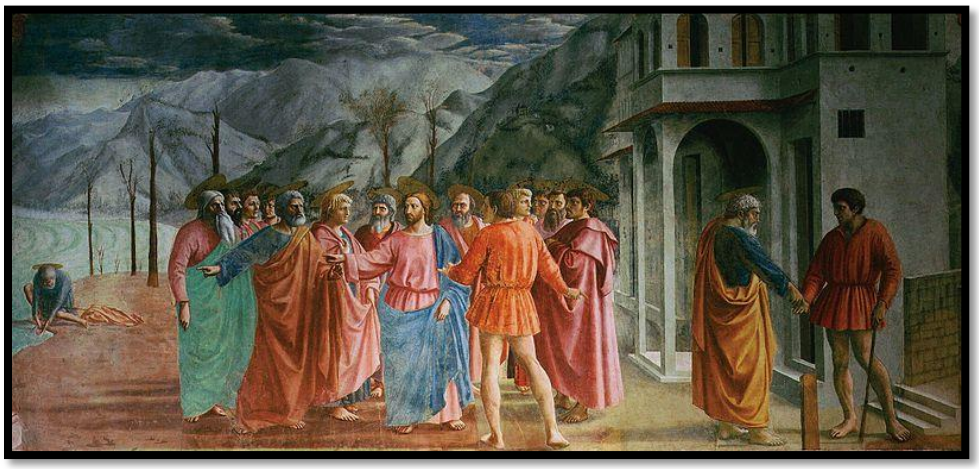

رسم ديني لماساشيو بكنيسة فلورنسا

من أعمال مايكل أنجلو، تعلم روفائيل تكوين جسم الإنسان من الناحية التشريحية. وقام رفائيل أيضا بزيارة الراهب الرسام "فرا بارتولوميو" في صومعته، الذي اعتزل الرسم منذ أربع سنوات، لكي يتفرغ للصوم والصلاة في الدير.

توطدت العلاقة بين رفائيل والراهب وقامت بينهما صداقة متينة. جعلت الراهب يمسك بفرشة الرسم من جديد، لكي يُعلم صديقه الشاب أسرار التلوين وخلط الأصباغ ورسم الأقمشة وطيات الملابس في اللوحات وفن البورتريه الذي ينبض بالحياة والجمال.

لكن لوحات ليوناردو دافنشي، وخصوصا لوحة الموناليزا، التي قام روفائيل بدراسة وجهها بعناية، كان لها التأثير الأقوي على كل أعماله.

كان رفائيل وسيما عطوفا، مشرق السجية، ساحر الشخصية. له قدرة كبيرة على تكوين الصداقات والمعارف. كان أهل فلورنسا يسمونه "الأستاذ الشاب".

عاش رفائيل 37 سنة فقط. أثناء حياته القصيرة، رسم 287 لوحة. الموضوع المفضل عنده كان "المادونا والطفل"، لذلك رسم منها الكثير من اللوحات. المادونا تعني الأم المقدسة. أشهرها رُسم في فلورنسا تحت عنوان "لا بيلا جاردينير"، وتعني فتاة الزهور الجميلة.

فتاة الزهور الجميلة (لابيلا جاردنير) لرفائيل

الأم هنا تجلس في الحديقة تنظر إلى أسفل بحنان إلى طفلها، والطفل ينظر إلى الأم بشغف. القديس جون الطفل، والذي يحب رفائيل أن يضعه في لوحاته، بجوار قدم الأم. خلفية الصورة، منظر طبيعي به بحيرة وشجر وجبال وقلاع وسحب.

كان عمر رفائيل 25 سنة، عندما دعاه البابا يوليوس الثاني لكي يترك فلورنسا ويذهب إلى روما. لكي يساهم في ديكورات الفاتيكان. البابا يوليوس الثاني وخليفته البابا ليو العاشر، كانا مسحورين برفائيل. صور البورتريه التي رسمها لهما، هي الأصدق في تاريخ الرسم بالزيت.

بورتريه البابا يوليوس الثاني لرفائيل

بوتيريه البابا ليو العاشر لرفائيل

قام رفائيل بتزيين حوائط أربع صالات في الفاتيكان بلوحات رائعة. قصص دينية وأساطير من الميثولوجيا الإغريقية أو الرومانية، وموضوعات فلسفية وقانونية، ومعاني جاءت في أقوال الشعراء والحكماء. تقريبا كل الموضوعات التي تهم البابا وحكماء العصر.

في كل مكان، تجد نسخ من هذه اللوحات العظيمة. أشهرها هي اللوحة المعروفة باسم "مدرسة أثينا".

مدرسة أثينا لرفائيل

اللوحة تبين 52 من الحكماء والمعلمين والتلاميذ الإغريق القدماء. أمامنا صالة بقباب. أفلاطون وأرسطو يسيران سويا في الوسط بينما يتناقشان. أفلاطون يشير إلى أعلى، بينما أرسطو يشير إلى أسفل.

أفلاطون، يفضل الأشياء النظرية المجردة، والعلوم الرياضية، والمنطق والأشياء المثالية. وهي كلها أفكار علوية سامية. أما أرسطو، فهو ينزل من السماء إلى الأرض، ويفضل العلوم العملية والتجريبية.

توزيع المجموعات في اللوحة يأتي طبيعيا. كل مجموعة بها معلم محاط بالتلاميذ. المجموعة التي على اليسار أعلى الدرج، بها الفيلسوف سقراط، يستمع إليه مجموعة من التلاميذ منهم الاسكندر الأكبر بملابسه الحربية.

المجموعة التي على اليسار أسفل الدرج، بها فيثاغورث، يقرأ من كتاب، وخلفه يقف منحنيا الفيلسوف العربي ابن رشد. هناك فلاسفة آخرين مثل إقليدس وبطليموس القلوذي وهما من علماء الإسكندرية. كما أن رفائيل نفسه وليوناردو دافنشي تجدهما أيضا في الصورة.

الذي يجلس وحده على الدرج وسط اللوحة، هو "ديوجين الكلبي"، فيلسوف إغريقي. كان شحاذا يقطن شوارع أثينا. يعيش في برميل ويمشي يحمل مصباحا في النهار، يبحث عن رجل فاضل ولا يجده.

كان يؤمن بأن الفضيلة تظهر في الأفعال، لا في الأقوال والنظريات. السعادة ليست في المادة، والفقر فضيلة. يكره حياة المدينة ويحب الحيوانات ويعتبرها أفضل خلقا من الإنسان. كان يعتبره أفلاطون "سقراط المجنون". هذه لوحة رسمها فنان آخر، ووترهوس، لديوجين يعيش في برميل:

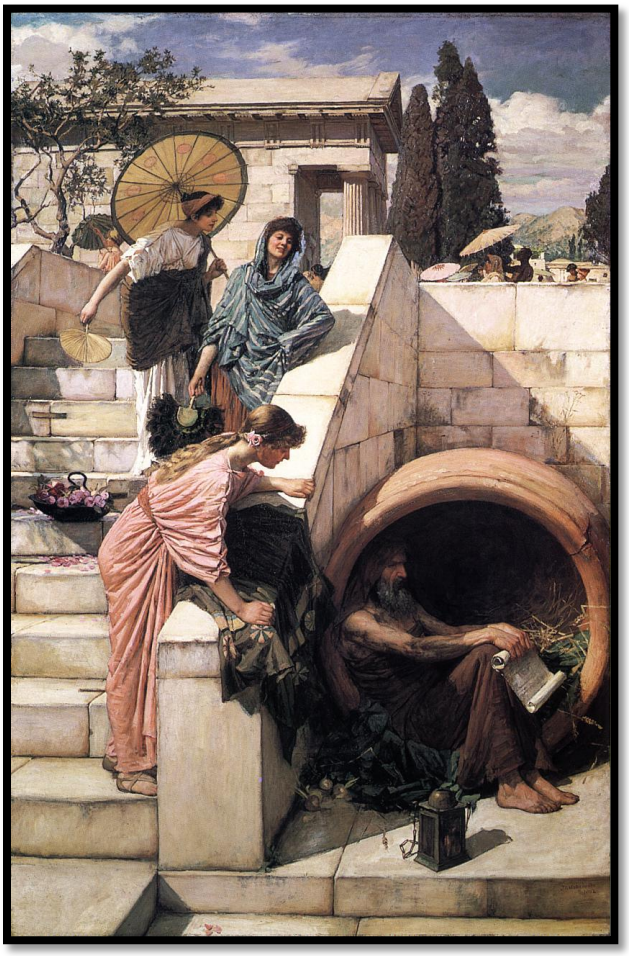

الفيلسوف ديوجين يعيش في برميل، ووترهوس

رسم رفائيل أيضا بعض المشاهد الدينية على سقف معرض في الفاتيكان. تسمى "إنجيل رفائيل". وقام بتصميم رسومات لأبسطة(جمع بساط)، وسجاجيد للفاتيكان.

من هذا نرى أن الفاتيكان كان بمثابة معرضا كبيرا لرفائيل. كان محل إعجاب كبير في فلورنسا وروما. يقال أنه كان يُرى في صحبة خمسين رسام في وقت واحد، جاءوا من بلده إلى الفاتيكان. بعكس حياة الوحدة التي كان يعيشها مايكل أنجلو في نفس المدينة في نفس الوقت.

رفائيل كان مشغولا دائما. بالرغم من مساعدة تلاميذه له، إلا أنه لم يكن يستطيع الوفاء بكل الطلبات التي تنهال عليه كالمطر من كل أنحاء إيطاليا.

لوحته المسماه "القديسة سيسيليا"، رسمت في روما ونقلت إلى بولونيا. هذه هي حكاية القديسة سيسيليا:

سيسيليا كانت غادة من نبلاء روما، كرست حياتها لخدمة الرب. كانت تجيد الغناء، إلى درجة تجعل الملائكة تأتي لكي تصنت إليها. لم تجد من الآلات الموسيقية ما يناسب قدراتها الروحية، لذلك اخترعت آلة الأرغن، لكي تستخدم في خدمة الرب.

تزوجت من شاب ثري من النبلاء. تحت تأثيرها، تحول هو أيضا لخدمة الرب. فقام ملاك الرب بتتويجهما معا بإكليل من ورود الجنة.

القديسة سيسيليا لرفائيل

تظهر سيسيليا كغادة رشيقة. وجهها المشرق ينظر إلى أعلى وهي مستغرقة في سماع موسيقى وأصوات جوقة من الملائكة، تظهر أعلى الصورة. أثناء ذوبانها في الموسيقى والنغم السماوي، تنسى نفسها وتنسى آلتها الأرضية، التي على وشك أن تسقط من يدها.

تحت أقدامها، نجد الكمان وآلة الناي والدف والصاجات. كلها آلات لم تعد تصلح، لمجارات هذه الأصوات الملائكية، فألقيت جانبا. على اليسار، نجد القديس بول والقديس جون (ليس هو المعمدان)، إنما أحد التلاميذ. القديس بول شارد الفكر يستند إلى سيفه.

القديس جون بشعره الطويل، مستغرق في السماع مثل سيسيليا، يحني رأسه في اتجاهها، يكاد يذوب في الموسيقى وأصوات الكورال. هذه من أروع الأشكال التي جاءت في رسوم روفائيل.

القديس أوغسطين يقف على اليمين وفي يده عصا الأسقفية. يليه مريم المجدلية. في يدها قارورة الطيب التي كانت تدهن به قدمي المسيح. وجه مريم المجدلية في اللوحة، هو نفس الوجه الذي رسم لاحقا في لوحة "سيستين مادونا". وهو وجه الفتاة التي عرفها رفائيل طول حياته.

نرى نسخا كثيرة من لوحة "مادونا ديلا سيديا" أو "مادونا الكرسي". نسخ اللوحات الفنية أو تصويرها الفوتوغرافي، لا يقارن عادة بالأصل. إننا نفقد دقة الألوان وروعتها بالنسخ مهما حاولنا الدقة. بمعنى أنه لا شئ يغني عن رؤية العمل الأصلي وألوانه الأصلية.

مادونا ديلا سيديا لرفائيل

الأم بوجهها الجميل تلبس طرحة رومانية على الرأس، وتضع شالا أخضر على كتفيها. الطفل ساحر. رسم رفائيل كثيرا من الأطفال، لكن هذا الطفل هو أجملها وأحبها على الإطلاق.

الأم تحتضن طفلها بحنان بالغ. والطفل يلتصق بأمه كأنه يخشى أن يفارقها. جون، يوحنا المعمدان، يظهر في اللوحة أيضا. يصفق بيديه الصغيرتين. ينظر إلى الأم وابنها نظرة لا تتكرر كثيرا، وليس من السهل نسيانها.

حكاية طريفة عن ناسك لم يكن له سوى صديقتين. الأولى، هي ماري ابنة صاحب بستان كروم، تعطيه عنبا عندما يجوع. الأخرى، شجرة بلوط تظلل كوخه من حمّارة القيظ ولهيب الشمس. يشجيه صوت حفيف أوراقها، عندما يداعبها النسيم العليل، فتؤنس وحدته.

في يوم ريح صرصر عاتية، ذهبت بكوخه، ولم تبق فيه شيئا يذكر. لم يجد الناسك المسكين ملاذا يأوي إليه سوى شجرته، فتشبث بأغصانها وفروعها بكل قوته، حتى لا تعصف به الأعاصير وتذروه الرياح.

بعد أن خمدت الريح، جاءت ماري وأخذت الناسك إلى منزلها. ثم قطعت الشجرة وعملت من خشبها براميل. الناسك كان ممتنا لماري والشجرة، قبل أن يموت، طلب من الرب أن يبقي ذكرى ماري والشجرة على الدوام.

تستمر الحكاية، أو الأسطورة إن شئت لتقول، إن ماري قد تزوجت. في أحد الأيام، بينما كانت تجلس مع طفليها في الحديقة، مر الرسام العظيم رفائيل. رأى رفائيل ماري وطفليها وهم يلعبون ويكونون مجموعة فنية تصلح للرسم.

توقف رفائيل أمامهم، لكنه لم يكن معه كراسة الإسكتشات. لم يجد سوى برميل كان بالحديقة صنع من الشجرة المقطوعة. رسم فوق الغطاء اسكتش للمجموعة.

عاد رفائيل إلى مرسمه ليرسم لوحته الخالدة "مادونا ديلا سيديا"، التي تحدثنا عنها منذ قليل. بذلك يكون دعاء الناسك قد تحقق، في لوحة من أشهر اللوحات في العالم، التي لا تقدر بثمن. مغطاة بالزجاج في حراسة مشددة، كأحد كنوز قصر "بيتي" في فلورنسا.

"سيستين مادونا"، الموجوده أعلاه، هي آخر لوحات العائلة المقدسة التي رسمها رفائيل. قد يختلف الناس عن جمال أعماله الأخرى، لكن هذه اللوحة، لا يختلف في شأنها أحد، يحبها ويقدرها الجميع.

سيستين مادونا لرفائيل

كرمت هذه اللوحة، بأن خصصت لها قاعة بمفردها في متحف "درستن" بألمانيا. أمام جلالها لا تملك سوى الخشوع، وأن تخفض الصوت وتغض البصر.

الستائر الاستبرق الخضر مسحوبة جانبا. تؤذن بافتتاح مشهد من مشاهد السماء والضياء. الأم ليست من هذا العالم الأرضي، كما رأيناها في مشهد "مادونا ديلا سيديا".

هي الآن ملكة السماء، تطفو على متن السحب. السماء من خلفها مرصعة بوجوه صغيرة لملائكة كثيرة تكاد تبدو للمشاهد. لا تحتضن طفلها كالعادة، إنما تتوجه على كرسي عرش ذراعيها.

وجهها صافي مليء بالعزة والكرامة، مع مسحة حزن دفين. عيناها ينظران إلى بعيد بعيد جدا. كأنها تستشف المستقبل وما يخبئه لها ولابنها من آلام. وجه الطفل جاد، كأنه مثل الأم، يري ما تراه.

يظهر في الصورة أيضا، القديس "سيكستوس" الذي سميت اللوحة "سيستينا" على اسمه. كان يعيش في القرن الثالث ثم استشهد. ترى جزءا من غطاء رأسه في ركن اللوحة الأيسر. صورة رائعة لشيخ عجوز. ينظر إلى الأم وابنها بكل احترام وتبجيل، طالبا البركة للناس.

في الصورة أيضا، القديسة باربارا. تعرفها من البرج الذي يكاد يظهر خلفها. لماذا نجدها غالبا في الصور إلى جوار الأم؟ هذه هي قصتها:

باربرا غادة سليلة نبلاء. خشي عليها والدها أن يفتن بها أحد فيختطفها. لذلك، حبسها في برج عال. داخل البرج، وتحت تأثير قديس مسيحي، اعتنقت باربرا المسيحية.

طلبت أن يكون للبرج ثلاثة نوافذ مطلة على الخارج حتى يمكنها استقبال نور الأب والابن والروح القدس. هي أيضا، مثل القديسة سيسيليا والقديس سيكستوس، استشهدت دفاعا عن إيمانها.

الملاكان الصغيران أسفل اللوحة يكملانها. وجهيهما، كما يقال، وجهي طفلين جائعين كانا يستندان بذراعيهما على افريز، ينظران إلى الخبز في دكان خباز. الوجهان رغم رقتهما، يبدو عليهما الحزن والجوع.

معروف عن رفائيل قدرته الفائقة على رسم القماش وطيات الملابس. ستجد هذه المهارة واضحة في هذه اللوحة، لوحة سيستين مادونا، أكثر من أي لوحة غيرها.

آخر لوحة رسمها رفائيل، هي لوحة التجلي للمسيح في الفاتيكان.

لوحة التجلي للمسيح لرفائيل، توجد الآن في الفاتيكان

من روائع الفن العالمي بدون منازع. وجه المسيح في هذه اللوحة أكثر من رائع. اللوحة بها مشهدان، واحد سماوي وآخر أرضي. فوق الجبل، في السحاب المبهر للنظر، يظهر المسيح في السماء. على جانبيه، يظهر النبي موسى والنبي إيليا.

وجه المسيح في اللوحة رائع، إلا أن رفائيل لا يعتبره مكتملا. هذه كانت مشكلة ليوناردو دافنشي أيضا في رسم وجه المسيح، في العشاء الأخير. دائما كانت يده مرتعشة.

ثلاثة تلاميذ، بيتر وجيمس وجون، هم الذين ذهبوا مع المسيح إلى الجبل، يبدون في حالة ذهول، فخروا سجدا. على الجانب الأيسر منهم، نجد القديس جوليان والقديس لورانس. أسفل اللوحة في تباين رائع، نجد صبي مسه الجنون جاء مع والده يبغي الشفاء، وتسعة من تلاميذ المسيح. يستمعون للحكاية، لكنهم عاجزون عن فعل أي شئ.

اثنان منهما، يشيران إلى الجبل. حيث يوجد الطبيب المداوي. الألوان أعلى الصورة، ساطعة متوهجة هارمونية ليست بينها ظلال. لكن الأشكال أسفل الصورة، محصورة بالظلال والظلام.

قبل أن تكتمل اللوحة، مرض رفائيل فجأة وتوفي عام 1520م، في يوم جمعة عظيمة، كما كان يوم مولده. لوحة التجلي وغيرها من اللوحات، التي تركها روفائيل بدون اكتمال، تركت لتلاميذه لكي يكملوها.

أنجز رفائيل أعمالا كثيرة رائعة، في فترة حياته القصيرة، 37 سنة، مرت كأغنية رقيقة أو هبة نسيم. حزنت عليه روما وكل إيطاليا ومحبي الفن في العالم كله. فهل يستحق روفائيل لقب "أمير الرسم الإيطالي"؟ للإجابة على هذا السؤال، علينا أن ننتظر حتى نرى أعمال تيتان، في باب قادم، ثم نحكم بعد ذلك.

13

الفن الإيطالي(8)
كوريجيو

سنمر مرور الكرام، في هذا المقال على فنان آخر من عصر النهضة، هو "كوريجيو". اسمه الحقيقي، أنطونيو أليغري. أعماله في حياته، لم يكن لها شهرة أعمال مايكل أنجلو أو رفائيل، لكن لها جمالها الفني وسحرها الخاص.

ولد كوريجيو عام 1495م. أخذ اسم "كوريجيو" من مكان ميلاده، قرية "ريجيو" شمال إيطاليا. كما نقول نحن: الجرجاوي نسبة لجرجا أو المنياوي نسبة للمنيا. درس وهو طفل في ريجيو، ثم انتقل إلى مدرسة الفنون الممتازة في "مانتوفا".

تعلم الصبي الرسم. ثم عرف كيف يختصر المشاهد (حذف التفاصيل الغير ضرورية). شاهد أعمال ليوناردو دافنشي وتعلم منها توزيع الضوء والظلال. سيرته بالتفصيل غير معروفة.

يبدو أنه كانت له زوجة جميلة، ظهر وجهها الجميل في لوحات "المادونا"، الأم المقدسة التي رسمها. الأطفال السعداء الذين ظهروا في لوحاته، لابد أنهم كانوا أولاده.

كوريجيو، لم يعمل مع رسام كبير، ولم نسمع أنه زار فلورنسا، ويقال أنه مات صغيرا قبل أن يرى روما. كيف أمكنه أن يكون علما من أعلام فن الرسم الإيطاليين، وهو لم يزر قط مراكز الفنون في إيطاليا؟

لم يكن كوريجيو مشهورا خلال حياته القصيرة. ابتكر أسلوبه بنفسه. بعبقريته وحدها، رفع اسمه إلى سماء عالم الفن. توفي عام 1534م. لم يكن يحصل على أجر مناسب مقابل أعماله، بسبب خجله الشديد. كان يقبل أي أجر يقدم إليه.

كان يحصل، مقابل أحسن لوحاته، على قليل من المال، أو بضاعة من البقال، أو حملين خشب لزوم التدفئة. في بعض الأحيان، يكون الأجر خنزير سمين أو جوز فراخ.

عندما رأي لوحة للفنان العظيم رفائيل، أخذ يتأملها مليا، ثم صرخ قائلا: "أنا كمان رسام". كان يحب رسم المادونا والقديسين وأبطال الأساطير اليونانية والرومانية القديمة، وكان له شغف كبير برسم الأطفال.

كانت له جرأة على الاختصار، وإهمال التفاصيل، ومزج الأضواء بالظلال (كياريسكورو). بارع في إظهار الحركة، والمشاعر، واختزال التفاصيل، واللعب بالضوء والظلال. هذه كانت مهارات كوريجيو الأربعة التي بنت شهرته. في المدينة القديمة بارما، نجد معظم لوحاته الرئيسية.

أبرز أعماله الفنية، لوحة مرسومة على جص رطب، فريسكوز، على قبتي كنيستين في بارما. أبدع كوريجيو في هذه اللوحات، التي تعطي الإيهام بأن السقف ينفتح على السماء، وأن عددًا من الشخصيات الدينية تقيم في السحاب فوق رأس المشاهد. قد أثر هذا التخيل الدرامي في التصوير التشكيلي، في فترة "الباروك"، في أواخر القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

في دير القديسة بولا، كانت رئيسة الراهبات محبة للفن. أرادت أن تحيط نفسها باللوحات الجميلة. لذلك دعت كوريجيو لكي يرسم لها لوحات على جدران الصالون. قام كوريجيو بتغطية الحيطان بمناظر من الميثولوجيا القديمة، بدلا من المشاهد الدينية، كما هو المعتاد في ذلك الوقت.

أعلى المدفأة نجد صورة ديانا (مينيرفا) إلهة الصيد وسط ستائر رشيقة، عائدة لتوها من رحلة صيد ميمونة، في عربة تجرها الأيول (جمع إيل) البيضاء . وهو حيوان يشبه الغزال ولكن أكبر حجما.

السقف المقبب، زينه كوريجيو بتعريشة من صور الكروم، و 16 فتحة بيضاوية أو قمرية. بينها صور ساحرة لأطفال صغار، مشغولين بالرقص والدعابة، أو بقطف العنب من أشجار الكروم.

انبهرت رئيسة الراهبات بما فعله كوريجيو بحيطان الدير، لذلك أوصت بأن يقوم هو برسوم كنيسة القديس جون. قام كوريجيو هناك برسم صورة للسيد المسيح وهو يصعد إلى السماء تاركا تلاميذه على الأرض.

رهبان الكنيسة كانوا معجبين جدا ب"كوريجيو". بينما كان هو يقوم بالرسم، كان يعيش معهم في الدير، يشاطرهم الصلاوات والتراتيل. أهم لوحاته في مدينة بارما، هي التي رسمها على جدران قبة الكاتيدرائية.

رسم كوريجيو على جدران قبة كنيسة القديس جون

رسم كوريجيو السيدة العذراء وهي تصعد إلى السماء، محاطة في كل الاتجاهات بالقديسين والملائكة. تعتبر هذه اللوحة من الروائع في تاريخ الرسم بالزيت.

بسبب جرأة كوريجيو على الاختزال (اهمال التفاصيل)، وإسرافه في الألوان بغير ابتزال، عندما رآها الرسام العظيم تيتان، صاح قائلا: "اقلبوا القبة واملأوها له ذهبا. حتى هذا لا يكفي ما تساويه من مال".

رسم كوريجيو الكثير من لوحات الزيت، التي أصبحت فيما بعد، بمثابة وحي للكثير من الفنانين. أحد هذه اللوحات، لوحة "زواج القديسة كاترين" في متحف اللوفر بباريس. لكن من هي القديسة كاترين هذه، حتى يمكننا فهم اللوحة؟

القديسة كاترين كانت في الأصل ابنة حاكم الاسكندرية. اعتنقت الديانة المسيحية دون باقي أسرتها. أراد والدها أن يلهيها عن إيمانها بالدين الجديد بجميع المغريات، منها محاولة تزويجها، لكن جميع محاولاته باءت بالفشل.

كانت ترفض كاترين الزواج وتتعلل بأنها لن تتزوج إلا من رجل أغنى ما يمكن أن تجده، وأنبل ما يمكن حتى لا يحتاج إلى مساعدتها، وأجمل ما يمكن بحيث تأتي الملائكة لكي تشاهده، وأحكمهم بحيث يغفر إلى كل من يسئ إليه.

بعد ذلك، رأت صورة المسيح وهو طفل. نظرت إلى وجهه في الصورة فأحبته. تبسم الطفل ووضع خاتما في اصبعها. من ثم أصبحت تعتقد أنها أصبحت مخطوبة للمسيح. كرست باقي حياتها لخدمة الفقراء والمساكين، حتى تذهب إلى الجنة عندما تموت فتقابل المسيح.

أمر والدها بتعذيبها إلى أن ماتت. بعد مضي خمسة قرون على استشهادها، رأى أحد الرهبان فى سيناء رؤيا بأن الملائكة تحمل بقايا جسدها وتضعه فوق قمة جبل قرب الدير. صعد الرهبان للجبل وقاموا بنقل الجثة إلى إحدى كنائس الدير، هى كنيسة "التجلي" ليطلق على الدير منذ ذلك الوقت دير القديسة كاترين.

في بعض الصور تظهر وفي يدها كتاب، رمز للحكمة، أو مع عجلة إشارة إلى استشهادها، أو مع المسيح الطفل كما جاء في لوحة كوريجيو. المشاعر الموجودة في الحكاية، والوجه الجميل واليدان الجميلتان لكاترين، كل هذه العناصر جعلت اللوحة جذابة. يظهر في الصورة أيضا القديس سيباستيان خلف كاترين، وهو يبدو سعيدا.

المسيح الطفل يقدم خاتم الخطوبة للقديسة كاتريت، رسم كوريجيو

جوهرة أعمال كوريجيو لوحة "عبادة الرعاة"، تسمى "الليلة المقدسة". الوقت ليلا والمكان حظيرة حيوانات. الأم تحمل طفلها. جسمه مضاء بنور علوي آت من السماء، ينعكس على وجه الأم. النور يسقط أيضا على الرعاة والراعيات.

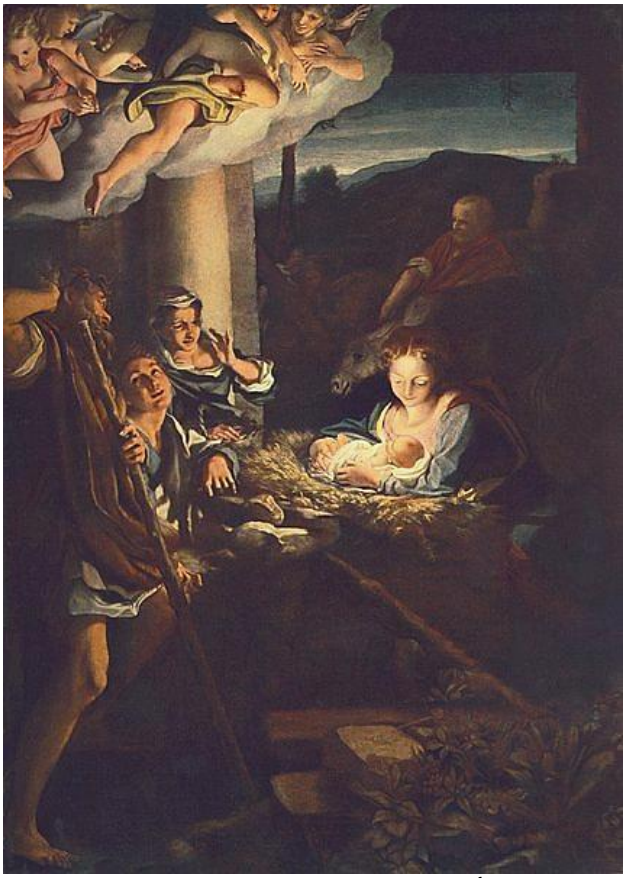

عبادة الرعاة، أو الليلة المقدسة، لكوريجيو

إحداهن تحمي عينيها بيدها اليسرى من وهج الضوء، وباليد الأخرى، تحمل سلة صغيرة بها حمام كقربان وهدية للطفل. الملائكة تطوف ممتطية السحاب فوق رؤوسهم.

خيوط الصباح الأولى تبزغ من الأفق. يوسف خلف المادونا يعتني بالحمار الذي امتطته هي وابنها إلى بيت لحم. هناك ثلاث مصادر للنور في هذه اللوحة. النور المنبعث من الطفل، والضوء المنعكس من الملائكة، والضوء الثالث، ضوء الفجر يأتينا من الأفق البعيد.

لوحة "الليلة المقدسة" لكوريجيو، مع لوحة "سيستينا مادونا" لرافائيل، هما من الكنوز الفنية التي يفتخر بامتلاكها متحف دريسدين بألمانيا.

أسلوب كوريجيو رقيق ورشيق. معظم أعماله الفنية كانت في مدينة بارما. توحي أعماله أنه كانت له معرفة بلوحات ليوناردو دافنشي ورفائيل. ربما يكون قد زار روما،

وإن لم يثبت ذلك. سمة أعماله كلها إما عاطفية أو روحية. تناول كوريجيو الدرامي للضوء، كان أوضح من تناول هذين العملاقين.

14

الفن الإيطالي(9)
تيتان

ازدهر فن الرسم الإيطالي فجأة في القرنين الخامس والسادس في مدينة البندقية. لم يكن اتقان الصنعة، أو إظهار المشاعر الدفينة، أو بيان جمال الروح، هو السبب الرئيس لشهرة هذا الفن في ذلك الوقت. لكن الانتشار والشهرة جاءا لسبب مختلف، هو الاهتمام بالألوان والصبغات الناصعة المتلألئة.

لكن، كيف تسنى لأهل البندقية دون غيرها من المدن الإيطالية، الوقوع في غرام الألوان والصبغات؟ السبب اقتصادي بحت. لأن جدودهم كانوا يعملون بالتجارة والانفتاح على العالم الخارجي. هذه التجارة والانفتاح على العالم الخارجي، كانت السبب الرئيسي في قيام عصر النهضة الأوروبية.

لقد أحضروا من دول الشرق بضاعة وأشياء رائعة. طنافس وستائر وأقمشة وتوابل وطيور زينة وجواهر ورخام على جميع الأشكال والألوان. وهي أشياء أحب الرسامون النظر إليها ومحاكاة ألوانها في كل لوحاتهم.

لقد رأى الرسامون في البندقية أيضا، زرقة السماء الصافية والسحب ناصعة البياض، المخضبة أطرافها بأشعة الشمس الذهبية والمخملية. كذلك، شاهدوا بريق انعكاسات ضوء الشمس وقت الظهيرة، تتلألأ بين حنايا أمواج الجندول كأنها فصوص من الماس.

لقد رأى الرسامون في البندقية أيضا، قصور الرخام والمرمر، والأطفال والنساء بملابسهن الناصعة الفاقعة المستوردة، والأمراء والنبلاء بأروابهم الزاهية اللامعة.

لكي نلقي نظهرة على أعمال الرسامين في البندقية، علينا أن نزور بعض الكنائس والقصور والمتاحف، مثل متحف "الأكاديمي". هناك في صالة فسيحة، سوف نرى رسومات فنانين، منهم: تيتان، تينتوريتو، بول فيرونيزي، وأخرين ساهموا في شهرة هذه المدينة الساحرة.

بما أن موضوعنا هنا هو الرسام تيتان، سأتركه يحكي لنا قصته بنفسه. يقول تيتان أن والده كان قائدا حربيا وقنصلا في "كادوري"، وهي قرية صغيرة في جبال الإلب.

ولد تيتان في قلعة والده عام 1477م. كان فخورا بمسقط رأسه، يعود إليه للزيارة في المناسبات والأعياد، حاملا الهدايا لأقاربه وأصدقائه القدامى. كان يجعل مناظرها الخلابة تظهر في خلفية الكثير من لوحاته.

حب الألوان والتلوين، ظهر منذ نعومة أظافر تيتان. كان يهرب من مدرسيه إلى الحقول. يجمع الزهور لكي يستخدم عصيرها وصبغتها في الرسم. نجد آثارها الباهتة اليوم على جدران قلعة كادوري، وهذا ما تبقى لنا من الرسومات الأولية للصغير تيتان.

تعلم تيتان القراءة والكتابة. لكن، كان من الصعب أن يتعلم شيئا آخر. لأن الصبي، وهذا لحسن الحظ، لم يعد يصلح لأي شئ آخر غير الرسم. عندما بلغ من العمر 9 أو 10 سنوات، أُرسل إلى مدينة البندقية لدراسة الشئ الوحيد الذي يحب أن يمارسه، الرسم.

بعد ذلك بقليل، التحق بمدرسة بيلليني لكي يمكث بها عدة سنوات. في ذلك الوقت، كان بيلليني الرسام، مشهورا برسم المشاهد الدينية. ألوانه هادئة رقيقة، وأسلوبه في التعليم مرضي. كان من المعتاد، ارسال الصبية له لدراسة الفن على يديه.

أحب تيتان بيلليني. في البداية، اتبع أسلوبه بأمانة. كان هناك في نفس المدرسة، تلميذ آخر أكبر سنا من تيتان، اسمه جيورجيوني من أصل ريفي. يتمتع بأخلاق فاضلة، كعادة أهل الريف، فضلا عن كونه محبا للموسيقى، يحبه الجميع.

أعجب تيتان بألوان جيورجيوني المتوهجة الصارخة، وكان يفضلها على ألوان بيلليني الهادئة الرزينة. سرعان ما قامت بينهما صداقة حميمة. بعد فترة، تيقن بيلليني أنه لن يستطيع ترويضهما وجعلهما يلتزمان بأسلوبه في التلوين.

هذه لوحة بعنوان "ليوناردو لوريدان" من رسم بيلليني، لاحظ الألوان الهادئة الغير مستفذة في الصورة:

بورتريه ليوناردو لوريدان لبيلليني، يبين ألوانه الهادئة

في يوم من الأيام، ترك الصديقان المدرسة، أنفقا كل ما لديهما من نقود، ولم يعودا في الوقت المحدد. تسبب هذا في طردهما من المدرسة إلى الأبد.

ماذا يفعلان وهما خاويي الوفاض، لا عمل ولا مأوي؟ حاولا تكسب شيئا من المال بالحرفة الوحيدة التي يتقنانها. فقاما بالرسم بالأجر على جدران المنازل الخارجية.

مرة، بعد أن قاما بالرسم على جدران مبنى عمومي في البندقية، نالت رسوم تيتان استحسانا أكثر من رسوم صديقه جيورجيوني. أحس جيورجوني بجرح كبير في كبريائه، جعل للأسف عرى الصداقة المتينة تنفصم بينهما.

لم يعش جيورجيوني كثيرا بعد ذلك. حياته، بالرغم من قصرها، كانت كافية لكي تجعله مشهورا. لوحته المسماه "الحفلة الموسيقية"، وبعض اللوحات الأخرى التي تركها، لم يكن لها شبيه من قبل في البندقية.

الحفلة الموسيقية لجيورجيوني صديق تيتان

تعلم تيتان الكثير من بيلليني. لكن فن التلوين ومزج الألوان جاء من جيورجيوني. بعد وفاة جيورجيوني، لم يعد لتيتان منافس يذكر في البندقية كلها. بدأت لوحاته تعلوا في القيمة الفنية وتسطع، إلى أن صار معروفا ب "أبو التلوين في الفن الحديث".

كان تيتان مغرما بأساطير الميثولوجيا القديمة. إله الحب عند الإغريق، يظهر في رسوماته بطريقة ساحرة. لكن كرسام بورتريه، ليس له منافس، وأكثر من رائع.

قام برسم غادات البندقية. مظهرا جمال بشرتهن الطبيعي، وشعرهن المموج الجميل، وملابسهن المطرزة، الموشاة بالقصب، والمحلاة بالترتر اللامع واللؤلؤ.

رسم تيتان أيضا الأمراء والملوك، إلى جانب الخيل والكلاب. دائما يختار اللحظة السعيد في حياة كل من شخصياته. فاضت شهرته خارج إيطاليا. إذا أمكن جمع لوحات البورتريه التي رسمها تيتان في حياته في معرض واحد، لعرفنا تقريبا كل مشاهير ذلك العصر. هذه بعض النماذج:

إيزابيلا دي إستي، تيتان

إيزابيلا دي برتوغال، تيتان

بورتريه جيرولامو برباريجو، تيتان

بوتريه لسيدة، تيتان

كان تايتان ناجحا في رسم العديد من الموضوعات، إلى درجة أن اعتبره البعض "أمير الرسم الإيطالي"، بدلا من رفائيل.

زار تيتان معظم المدن، وكان دائما محل ترحيب. في بلاط الدوق فيرارا، قام برسم أجمل لوحات أساطير الميثولوجيا اليونانية والرومانية القديمة. هذه لوحة فينوس وهي تعصب عيني كيوبيد، حتى تكون مراية الحب عمياء. يلاحظ هنا ميل تيتان ورجال عصره، إلى النساء السمينات المربربات.

فينوس تعصب عيني كيوبيد، تيتان

هنا تعرف على الشاعر أريوستو. كل منهما قام بتخليد ذكرى الآخر. الرسام تيتان قام برسم بورتريه للشاعر أريوستو. في المقابل، ذكر أريوستو الفنان تيتان في أشعاره.

من الطبيعي أن يقوم البابا بدعوة تيتان إلى روما. لكنه لم يكن يقبل الدعوات في بادئ الأمر. عندما وصل إلى سن الثامنة والستين، رأى روما لأول مرة.

قوبل في روما بحفاوة بالغة. وقام برسم بورتريه للبابا بول الثالث. الصورة كانت طبيعية إلى درجة أنها عندما وضعت في الشرفة، كان الناس يعتقدون أنهم يرون البابا نفسه، فيقومون بتحيته وخلع قبعاتهم.

بورتيريه للبابا بول الثالث، تيتان

يقال أن مايكل أنجلو عندما شاهد أحد لوحات تيتان، أعجب بقدرته على التلوين. وشعر بأنه لو كانت مهارته في التلوين تعادل مهارته في الرسم، لأصبح أحسن الرسامين قاطبة.

الإمبراطور تشارلز الخامس، الذي كان يحكم كلا من ألمانيا وأسبانيا في نفس الوقت، رأى أحد لوحات البورتريه لتيتان، فطلب أن يرسم تيتان لوحة بورتريه لشخصه الكريم. فقام تيتان بزيارة ألمانيا عدة مرات، لا لرسم لوحة واحدة، ولكن لرسم عدة لوحات بورتريه للامبراطور.

في أحد المرات، بينما كان الامبراطور يجلس أمام تيتان لرسم صورته، سقطت الفرشاة من يد تيتان. فقام الامبراطور بالانحناء لالتقاطها من الأرض.

شعر تيتان بالحرج الشديد، فقال للامبراطور معتذرا: "آسف يا سيدي، لقد جعلتني أشعر بخجل بالغ". أجاب الامبراطور: "لماذا؟ أليس تيتان يستحق أن يخدمه قيصر؟" هكذا كان يقدر الفن في عصر النهضة.

الامبراطور تشارل الخامس جالسا، تيتان

عندما رأى قيصر حيرة الحاشية من فعلته وقوله، أضاف قائلا: "لقد رأيت العديد من الملوك والأمراء، لكن لا أعتقد أنه يوجد مثيل لتيتان في هذا العالم."

عشق تيتان للبحر والسماء الصافية، كان يجعله يعود دائما إلى البندقية. توفت زوجته مبكرا، تاركة له ثلاثة أطفال. أحدهم صار رساما مثل والده. رسم تايتان عدة بورتريهات لابنته لافينيا، حبيبة قلبه. في أحدها، تحمل سلة من الجواهر. وفي أخرى، ترفع بيديها طبقا مليئا بالفاكهة.

لافينيا ابنة تيتان وحبيبة قلبه، تيتان

منزل تيتان كان يسمى "البيت الكبير". به حدائق منحدرة نحو البحر. على البعد في عرض البحر، ترى جزيرة مورانو حيث يتشكل الزجاج الملون الرائع. على البعد أيضا ترى قمم جبال الألب حيث تقع قرية كادوري مسقط رأسه.

داخل البيت الكبير، يعيش تيتان حياة الأمراء. يزوره علية القوم والأمراء والنبلاء والملوك. يقيم لهم الحفلات ويمد الموائد لضيوفه ويحتفي بهم مثل الملوك.

يرون لوحاته، ويستمرئون طعامه ويحتسون شرابه. يتريضون في حديقته، ينعمون بثمارها اليانعة وزهورها العاطرة وظلالها الوارفة، ويسعدون بمناظر قمم الجبال البيضاء والمياة الخلابة التي تطل عليها.

عاش تيتان 99 سنة. كان يرسم من سن خمس سنوات إلى وقت وفاته. وصف لوحاته يملأ مجلدات. لذلك سأختار بعضها وأشهرها. أحد هذه اللوحات، تسمى: "المسيح وضريبة المال"، موجودة حاليا بمتحف دريسدين بألمانيا.

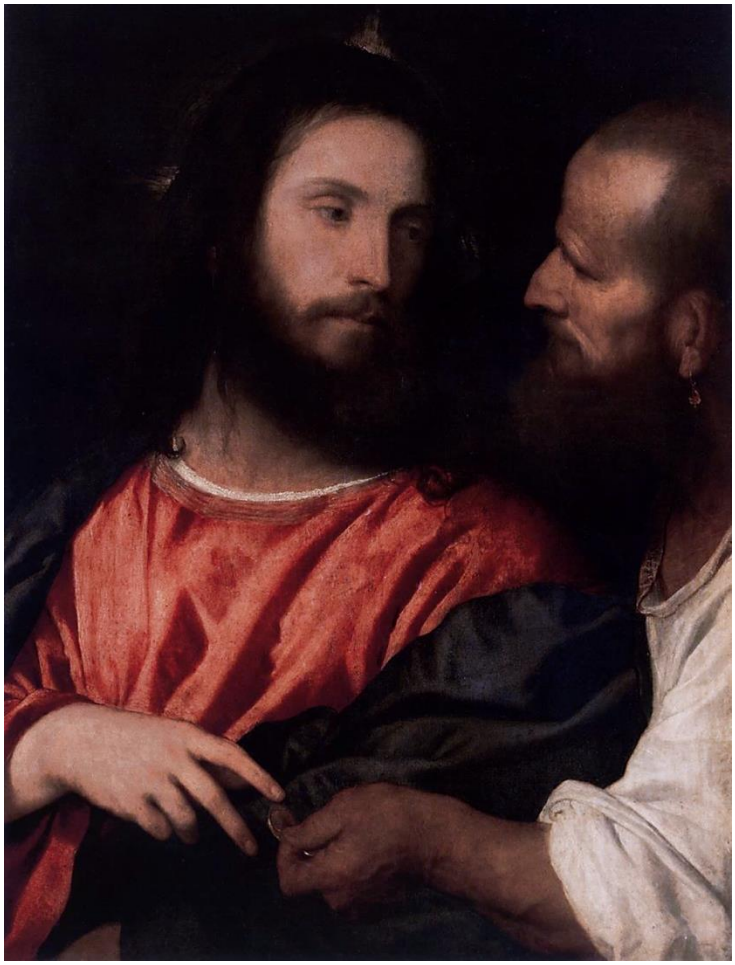

المسيح وضريبة المال، تيتان

المشهد في الصورة يبين الفرّيسي الماكر وهو يُحضر العملة للمسيح لكي يوقع به. في اللوحة، نشاهد تباين واضح بين الشخصيتين. المسيح يلبس رداء أحمر وعباءة زرقاء، والفرّيسي يلبس قميصا فاتح اللون متسخا.

المسيح هادئ في الصورة تنم ملامحه على الوقار والثقة بالنفس. بينما الفرّيسي تنم ملامح وجهه عن الشر والمكر والدهاء. أنظر أيضا إلى التباين الحاد بين يد المسيح البيضاء الرقيقة الناعمة، ويد الفرّيسي الخشنة القاتمة العنيفة المليئة بالعروق النافرة.

صورة أخرى لتيتان على جدران قصر دوجي، دوق البندقية في ذلك الوقت، هي صورة القديس كريستوفر، حامل المسيح وشفيع المسافرين.

القديس كريستوفر، حامل المسيح وشفيع المسافرين، تيتان

كان دوجي معجبا باللوحة لدرجة أنه وضعها بحيث يمكنه رؤيتها كل صباح عندما يستيقظ من نومه. هناك قول سائد يدعي أنه "من يرى القديس كريستوفر في الصباح، لن يصاب بالإغماء". هذه هي حكاية القديس كريستوفر:

كان ياما كان فيه عملاق يدعى "أوفيرو"، وتعني الحامل. أوفيرو كان مغرورا بقوته، لذلك قرر أن يوظف قوته في خدمة الملوك والعظماء فقط. ظل يبحث ويبحث إلى أن قابل ناسكا يتعبد أعلى الجبل.

نصحه الناسك، بأن أفضل طريقة لتوظيف قوته، هي أن يستخدمها في عمل الخير. نصحه بأن يقوم بمساعدة الناس على عبور نهر عميق شديد التيار. هذا ما فعله أوفيرو.

في ليلة عاصفة مروعة، كان النهر هائجا والرياح شديدة والمطر غزير. سمع أوفيرو صوت طفل يناديه: "أوفيرو، هل يمكن أن تساعدني على العبور؟" أخذ أوفيرو مصباحه وحمل الطفل على كتفيه وعبر به النهر.

تقول الحكاية، أنه كلما تقدم أوفيرو في السير في النهر وهو يحمل الطفل، كلما شعر بوزن الطفل يزداد ثقلا. أحس أوفيرو أنه سيغرق لا محالة، لكنه قاوم بشجاعة إلى أن وصل إلى الضفة الأخرى بسلام.

عندما أنزل الطفل برفق على الأرض، فوجئ بأن الطفل، ما هو إلا السيد المسيح. الذي بارك أوفيرو وقبله في خدمته. من ثم، أصبح اسم حامل المسيح أوفيرو، "القديس كريستوفر" منذ ذلك الحين.

لوحة تيتان تبين أوفيرو حاملا المسيح وهو في وسط النهر. أوفيرو العملاق يجاهد الوزن المتزايد بصبر بالغ، والمسيح الطفل، يباركه رافعا يده اليمنى. ويحثه على مواصلة الكفاح بيده اليسرى التي تلامس جسده.

أحد لوحات تيتان الكبيرة، هي لوحة "عرض العذراء في المعبد"، التي تعطينا صورة أجمل فتاة صغيرة في تاريخ الفن.

عرض العذراء في المعبد، تيتان

وهبها أبواها لحياة العباة، ووضعاها في المعبد على أول السلم الذي يؤدي إلى المدخل. الكاهن الأعظم بملابسه الرائعة، يقف أعلى الدرج فاردا ذراعيه في انتظارها مرحبا.

الطفلة الصغيرة الفاتنة تبلغ من العمر مالا يزيد عن ثلاث سنوات. محاطة بهالة من النور. تلبس رداء أزرق لامعا، وترفع ذيله حتى لا يعوقها في الصعود. شعرها الكستنائي مضفر يسترسل خلف ظهرها. النوافذ والشرفات مليئة بالزوار.

أسفل الصورة يوجد أناس آخرين (لا يظهرون جميعهم). بينهم شيوخ ورهبان. إمرأة عجوز معها سلة بيض (لا تظهر كاملة في الصورة). كل العيون مركزة على الطفلة. بعض الوجوه تمثل شخصيات حقيقية كانت تعيش في البندقية في وقت رسم اللوحة.

الصورة الأخير التي نعرضها لتيتان هي صورة "انتقال العذراء"، أو "صعود العذراء إلى السماء".

صعود العذراء إلى السماء، تيتان

ألوان هذه اللوحة زاهية رائعة. بعد صلب المسيح، قيل أن العذراء كانت تصلي لكي تذهب إلى السماء. فتحت أبواب السماوات وملئت بالملائكة. حملوا العذراء معهم على متن السحاب، وصعدوا بها إلى السماء.

يصورها هنا تيتان كإمرأة رائعة الحسن والجمال. بشعر ذهبي مموج. تنظر إلى أعلى. وجهها الأبيض يشع نور سماوي. فوق ردائها القرمزي، عباءة زرقاء. نري ثيابها ترفرف في الهواء أثناء صعودها إلى أعلى، وملاكا يهبط حاملا تاجها.

عاش تيتان حياة أطول من أي رسام آخر. عندما بلغ من الكبر عتيا، وبحكم السن، كان يضع على لوحاته ألوانا زاهية أكثر من اللازم. خلال الليل، كان تلاميذه يأتون لكشط ما أضافه تيتان وإزالة ما زاد عن الحد.

كان يريد أن يعيش حتى سن المئة. لكن في عام 1576م، زار الطاعون مدينة البندقية. وقضى على ربع سكانها. تيتان وابنه، داهمهما الوباء، فتوفيا كلاهما.

الحزن البالغ على رسامهم الأسطوري، جعل أهل البندقية تنسى مخاطر الطاعون. فقاموا بالسير في طوابير طويلة خلف رفاته للوداع الأخير. دفن تيتان في مدافن كنيسة فراري. التي رسم لها لوحة "انتقال العذراء".

على قبره كتبت عبارة: "هنا يرقد تيتان العظيم، منافس زيوكسيس وأبيليس". وهما من أساطين فن الرسم الإغريقي القديم.

15

الفن الإيطالي(10)
رسامو البندقية

تاريخ فن الرسم في القرن السادس عشر، الذي كان يتمحور حول الرسام تيتان، هو فن جدير بالاهتمام ملئ بالثراء. من بين الفنانين في ذلك الوقت، نجد "بالما فيشيو" المشهور برسم النساء الجميلات. "تينتوريتو"، وألوانه الزاهية. "باولو فيرونيزي" المعروف بتصويره للحفلات والولائم.

هناك علاقة بين "بالما فيشيو" والرسام العظيم "تيتان". كان تيتان معجبا ب "فيولانتي"، أحد بنات بالما الثلاث. قام برسم وجهها في لوحته "فلورا" ولوحات أخرى. بالما نفسه قام برسم ابنته في لوحة "سانتا باربارا".

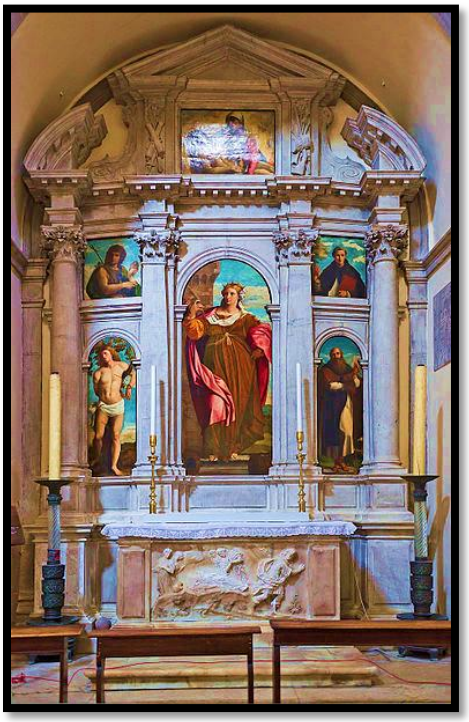

سانتا باربرا، بالما فيشيو

تقف سانتا باربرا وسط المذبح في مركز اللوحة كملكة. وجهها الجميل مليئ بالتعبير، عيناها تنظران إلى السماء. شعرها الذهبي متوج بإكليل الغار. تلبس رداء بني اللون داكنا وعباءة قرمزية.

يظهر خلفها، البرج ذو النوافذ الثلاثة التي كانت محبوسة داخله. صورة باربرا بسموها وجمالها، تعتبر من أكثر صور اللوحات أنوثة في تاريخ فن الرسم.

بينما كان تيتان في البدقية يرسم لوحاته، جاءه صبي كان يرسم جميع الأشكال على الجدار الخارجي لدكان والده، الذي يبيع فيه الأصباغ. لذلك، أطلق السكان عليه لقب "تينتوريتو"، وتعني "الصباغ الصغير".

والد تينتوريتو كان معجبا جدا برسومات ولده، لذلك أخذه إلى الرسام العظيم تيتان. فحص تيتان رسومات الصبي، وطلب أن يبقى الصغير معه، ليراقبه وهو يرسم عدة أيام. في نهاية المدة، طرد تيتان الصبي من مرسمه قائلا له: "أنت لا تصلح لأي شئ، سوى أن تكون مبيض حيطان".

بالطبع لوحدث هذا لأي واحد منا، لكانت هذه نهاية أحلامه الفنية. لكن تينتوريتو كان صبيا عنيدا ليس من السهل إثناءه عن عزمه. لذلك، واصل دراسة الفن والرسم بإصرار شديدين، ثم أنشأ ستوديو للرسم خاصا به. على باب الاستوديو، وضع يافطة كلها ثقة بالنفس تقول: "ألوان تيتان ورسوم مايكل أنجلو".

في البداية، كان يقبل أي عمل بأي أجر. وكان يرسم بسرعة إلى الدرجة التي جعلت الزبائن تطلق عليه "تينتوريتو الغاضب". الكثير من لوحاته كانت ضخمة الحجم. لأنه كان يفضل الرسم على لوحات الكنفا القماش الكبيرة.

قام تينتوريتو برسم بورتريهات أشخاص، وأساطير الميثولوجيا اليونانية والرومانية القديمة، وموضوعات دينية. في كل أعماله، كان يظهر خيال خصب مشرق. ألوانه كانت زاهية لامعة.

لا يوجد رسام اختلف النقاد في تقييم أعماله مثل تينتوريتو. قال عنه الناقد الفني العظيم رسكين، أنه في قامة مايكل أنجلو. آخرون يعتقدون أن فنه يحتاج إلى عناية أكثر.

انتشرت أعمال تينتوريتو في كل أنحاء البندقية. في قصر "دوجي"، توجد لوحة فريسكو مرسومة على الجدران، هي من أكبر اللوحات حجما في العالم. اسمها "الجنة". بها أكثر من 400 شخص بالحجم الطبيعي، يحومون في كل الإتجاهات.

لوحة الجنة، تينتوريتو

في لوحة تينتوريتو، "صلب المسيح"، رأس المسيح في الصورة رائعة. تقارن بصورة رأس المسيح التي رسمها لوناردو دافنشي في لوحة "العشاء الأخير"، أو التي رسمها رفائيل في لوحة "التجلي".

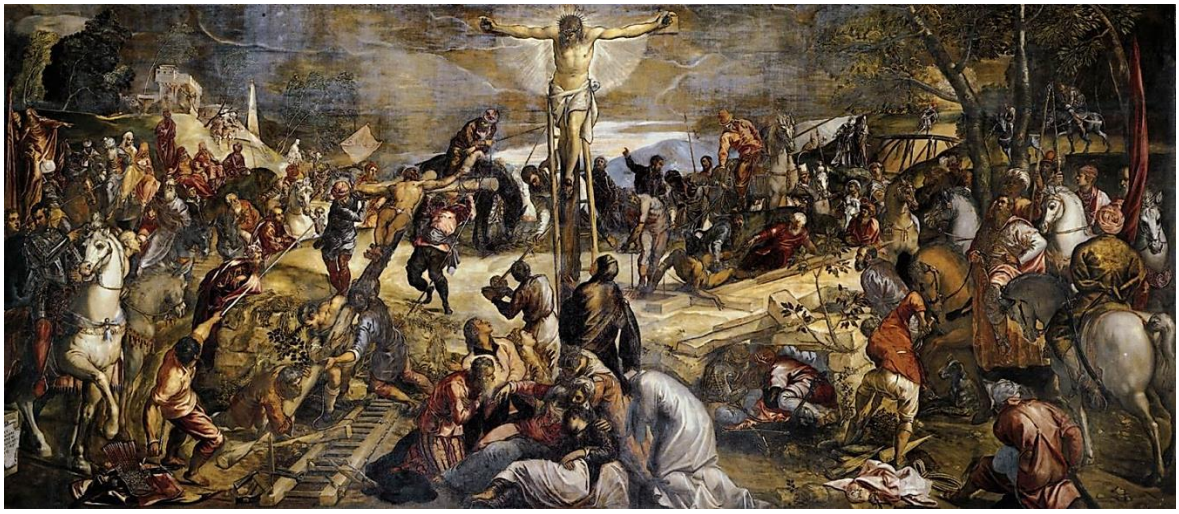

لوحة صلب المسيح، تينتوريتو

حول الصليب، نجد صور 80 شخصية نسائية وفرسان وجنود. يشكلون مجموعات بشكل طبيعي. لكننا نلمس الخيال الجسور وتوزيع الأضواء والظلال الرائع المشهور به تينتورينو في لوحته "معجزة القديس مرقس".

معجزة القديس مرقس، تينتوريتو

هذه لوحة، ليست مشهورة فقط، لكن ليس لها شبيه بين كل اللوحات التي ذكرناها حتى الآن. تحكي قصة عبدا حاول أن يصلي في ضريح القديس مرقس، فتم القبض عليه. قيد من يديه ورجليه في انتظار التعذيب. في اللوحة، نرى القديس مرقس يهبط من السماء كالصاروخ لكي يحطم آلة التعذيب.

القديس يهبط ورأسه إلى أسفل ورداءه يرفرف في الهواء. العبد مقيد وملقى على الأرض، تتسلط عليه الأضواء، فيبدو جسمه العاري واضحا جليا مضيئا. زبانية الجحيم يقفون مذعورين وهم يرون آلات تعذيبهم تتحطم في أيديهم وأمام أعينهم. القاضي يجلس مذهولا، الشامتون والمتطفلون والشهود يفرون خائفين.

تينتوريتو كان له ابنة حبيبة "ماريتا روبوستي". هي أيضا فنانة موهوبة، ظلت تعمل مع والدها مدة 15 سنة. كانت ترفض مغادرة والدها وقبول عروض للرسم خارج

مدينتها. لأنها كانت تفضل أن تعمل في الاستوديو بجوار والدها. توفيت عن عمر 30 سنة.

حاول تينتوريتو تخليد ذكرى ابنته الحبية، برسم صورتها عندما كانت مريضة. كان الفنان العجوز يخفي دموعه ويصارع عواطفه، وهو مصر على إتمام رسم ابنته الحبيبة في أخر أيامها.

تينتوريتو يغالب دموعه، يرسم ابنته الحبيبة وهي تحتضر

كان تينتوريتو متقدما في السن، عندما ظهر باولو فيرونيزي، آخر الرسامين العظماء، في مدينة البندقية. تيتان كان أكثر عطفا على فيرونيزي من تينتورينو عندما كان صغيرا.

ولد فيرونيزي في مدينة فيرونا، ومنها أخذ اسمه. عندما وصل إلى البندقية، كان يحمل معه خطابات تزكية لدير القديس سيباستيان. هناك، عاش مع الرهبان، وهناك مات ودفن. في كنيسة القديس سيباستيان، رسم فيرونيزي ديكوراتها وأهم لوحاته بها.

كان شعار فيرونيزي، "ليس هناك عمل كامل، أو علم كامل". بمعنى أن كل عمل، فني أو غير فني، يمكن تحسينه، وكل درجة علم يمكن زيادتها أو تعميقها.

لوحاته الكبيرة مليئة بالفرسان والنساء الجميلات. سواء كانت موضوعاته من أساطير الميثولوجيا أو من القصص الدينية، دائما تظهر فيها عمارة البندقية. ويلبس الناس فيها ملابس البندقية بألوانها الزاهية.

في بعض الأحيان، يضع فيرونيزي في اللوحة صورة ببغاء أو كلب أو حصان أو مهرج، حتى لوكانت اللوحة دينية. لهذا امتثل أمام محاكم التفتيش. لكن هذا لم يخفه. وكانت إجابته الوحيدة: "أنا أضع في لوحتي ما يروق لي".

أحب أهل البندقية فيرونيزي، وقاموا بتزيين مدينتهم بلوحاته. بعد أن رسم لوحة لقصر دوجي، كافأه القنصل بسلسلة ذهبية. فيرونيزي يحب رسم الولائم في اللوحات الكبيرة. لأنها تظهر مقدرته على التلوين وتوزيع المجموعات والعناية بالتفاصيل. أكبر هذه اللوحات وأروعها، لوحة "عرس قانا الجليل".

عرس قانا الجليل، فيرونيزي

رسمت هذه اللوحة أصلا، لكي تزين جدار أحد الأديرة، هي الآن تغطي حائطا بالكامل في متحف اللوفر بفرنسا. هي من أكبر اللوحات مساحة في العالم. بها صور 130 شخصية في الحجم الطبيعي.

اللوحة تعبر عن أول معجزات المسيح، عندما حول الماء إلى نبيذ. المعجزة حدثت أصلا في غرفة صغيرة أثناء حفل زواج في قرية قانا الجليل، التي تقع حاليا جنوب لبنان.

لكننا هنا نرى حفلا كبيرا من حفلات مدينة البندقية في قاعة كبيرة. في الخلف، يظهر رواق رخام رائع. من خلاله، تظهر لنا السماء الزرقاء الصافية والسحب البيضاء الناصعة. نرى أيضا المدعوين في الشرفات والبلكونات.

الكل ينظر في اتجاه صالة الاحتفال، التي تمتد في ثلاث جوانب منها موائد الطعام. الأطباق من الذهب والفضة. المسيح وتلاميذه مدعوون يجلسون وسط اللوحة. يظهرون بالكاد وسط كبار المدعوين وأهل العروسين. شخصيات اللوحة، هي صور لمشاهير ولأناس حقيقيين من أهل البندقية.

هذه اللوحة، رسمت بناء على طلب فرانسيس الأول ملك فرنسا. لذلك، نجد خطيبته تظهر في الصورة جالسة على المائدة في الجانب الأيسر. فيتوريا كولونا، ابنة حاكم نابلس، توجد هنا أيضا.

كذلك الشاعرة التي أحبها مايكل أنجلو. وماري ملكة إنجلترا، وتشارل الخامس امبراطور ألمانيا الذي كرم الرسام تيتان. تيتان نفسه، تجده من بين الفرقة الموسيقية. ومعه تينتوريتو، وباولو فيرونيزي نفسه.

أواني المياه التي تظهر في مقدمة اللوحة، هي الأواني التي تمت بداخلها المعجزة. الخدم يروحون ويجيؤون. المشهد كله مليء بالحياة والألوان والحركة. فيرونيزي رسم هذه اللوحة في عدة سنوات. أجره لم يتعدي مبلغ 40 دولارا.

فيرونيزي هو آخر فناني البندقية العظام في القرن السادس عشر. القرن السابع عشر، كان عصر انحدار بالنسبة للبندقية. نذكر كيف أسس بيلليني، في القرن الخامس عشر مدرسة البندقية. يأتي بعده، الكثير من الرسامين. منهم كارباجيو، جورجيوني، تيتان، بالما فيشيو، تينتوريتو، أخيرا فيرونيزي.

هناك مدرستان في فن الرسم في القرن السابع عشر. المدرسة الطبيعية والمدرسة الانتقائية. المدرسة الطبيعية في مدينة نابلس، تقول، بأن كل من يرغب في أن يكون

رساما، عليه أن يدرس الطبيعة إلى أدق تفاصيلها. هذا هو الطريق الوحيد لمزاولة فن الرسم.

سالفاتور روزا، هو أفضل رسامي هذه المدرسة. كان عنيفا متهورا، ويقال أنه كان يعيش مع قطاع الطرق الذين كانوا ينتشرون في جنوب إيطاليا. هذا ينعكس على لوحاته التي تظهر الوحدة والوديان والصخور الخشنة. وهي أماكن يهرب إليها عادة الخارجون عن القانون.

لكن روزا كان بالرغم من ذلك، شاعرا وموسيقيا ورساما. وهي خصال لا يتسم بها عادة قطاع الطرق. لوحاته الخاصة بالمناظر الطبيعية البكر، والصخور والبحار الهائجة، ليس لها مثيل بين عمالقة الفن الإيطالي.

منظر طبيعي، سلفاتور روزا

مدرسة الفن الانتقائي، أنشأتها عائلة كاراتشي في بولونيا. وهي ترمي إلى انتخاب عناصر من أساليب فنية سابقة، وموالفتها أو تلفيقها على نحوٍ مدروس، لإنشاء عمل جديد.

هذا يعني أن الفنان مسموح له بتقليد فناني القرن السادس عشر العظام. ابراز القوة في تفاصيل العضلات من مايكل أنجلو، الأقمشة والستائر والجمال الروحاني من رفائيل، السمو والطلاوة من كوريجيو، الألوان من تيتان.

لوحات الانتقائيين مليئة بالاحساس ورقة الشعور والعاطفة. فينوس إلهة الحب والجمال، نراها مع ابنها كيوبيد، الذي يصيب بسهامه المحبين، في لوحات كثيرة. أيضا نجد صور المادونا بوجهها الجميل، والساحرات العرافات عند الإغريق والرومان، وتعبيرات التنبؤ ومعرفة المستقبل تبدو بادية على ووجوههن.

لدينا صور للمسيح وهو متوج بالشوك بدلا من الغار. وصور لوالدته وهي تبكي. وأخرى لمريم المجدلية ومعها قارورة المرهم الذي تدهن به رجل المسيح. وكذلك الكثير من صور الشهداء. منهم القديس الشاب سيباستيان، الذي يظهر وقد رشقت السهام جسده.

أصبح من المعتاد في ذلك العصر، رسم منظر نصفي للشخص، والوجه والعينان ينظران إلى أعلى أو إلى السماء. واضح أن هذه اللوحات جاءت متأثرة بأعمال فناني القرن السادس عشر. لكن، جاءنا من هذه الفترة، بعض اللوحات الرائعة، التي أبهجت العالم. لوحة المادونا للرسام ساسوفيراتو، التي يظهر فيها الطفل نائما في حجر أمه.

لوحة المادونا، ساسوفيراتو

توجد أيضا لوحات كارلو دولسي، وهي محل إعجاب محبي الفن من الشباب. منها لوحة القديسة سيسيليا وهي تعزف على الأورج:

القديسة سيسيليا وهي تعزف على الأورج، كارلو دولسي

لوحة أخرى بعنوان "إعلان الإنجيل".

إعلان الإنجيل، كارلو دولسي

لدينا رسام آخر هو جيورسينو. حياته الهادئة انطبعت على لوحاته. من أجمل لوحاته لوحة إلهة الصيد والقمر دايانا.

إلهة الصيد والقمر ديانا، جيورسينو

أكثر الرسامين شهرة في القرن السابع عشر، هما "دومينيشينو" و"جيدو". دومينيشينو كان يبدو غبيا جدا في المدرسة في أول الأمر، لدرجة أن رفاقه أطلقوا عليه الثور. لكن هذا الثور فاق كل أقرانه فيما بعد.

أحد لوحاته بعنوان "آخر اعترافات القديس جيروم"، تستحق أن توضع في الفاتيكان بجوار لوحة التجلي لرفائيل.

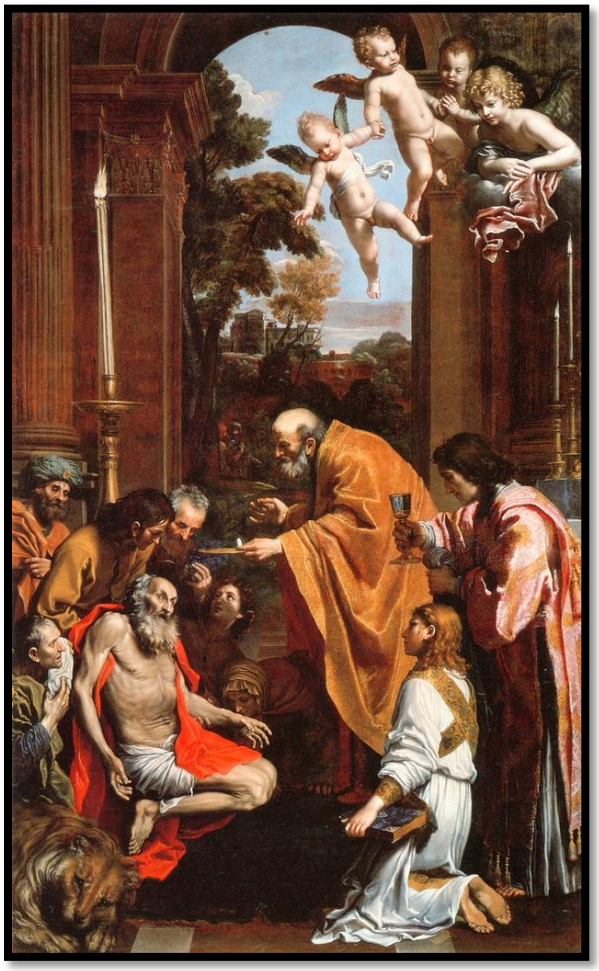

آخر اعترافات القديس جيروم، دومينيشينو

القديس العجوز المحتضر، يُحمل إلى المصلى لتناول اعترافاته الأخيرة. كاهن صغير يسنده من الخلف. آخرون يقومون بالمراسيم الواجبة. أسده المخلص بجانبه.

ظل الأسد يلازمنه منذ أن وجده القديس وهو شاب في مغارة، يعاني من جرح في أحد يديه، بسبب شوكة كبيرة. حينئذ، قام القديس بشجاعة نادرة، بنزع الشوكة من يد الأسد. الأسد الآن في اللوحة.

الأسد يبدو أنه يعرف ما يدور حوله، لذلك نجده في قمة الحزن. خفض رأسه وضم يديه ووضع وجهه بينهما. لن نجد تعبيرا عن الحزن أروع من ذلك. ضوء النهار يضئ المشهد، والملائكة تحوم فوق الرؤوس.

"جيودو ريني" هو أيضا رسام مشهور. عاش في روما لمدة عشرين عاما. نال الكثير من الاحترام والتبجيل. رسم، كغيره، المادونا والقديسين. لكن لسوء الحظ، أصبح مغرما بالصيد. في النهاية، أهدر كل ثروته.

بعد ذلك، اضطر للرسم للوفاء بديونه. كان يأخذ أجره بالساعة، بينما الزبائن تقف فوق رأسه، تحثه على الإسراع وهي تحسب الوقت. أجمل أعماله، لوحة بعنوان "بيتريسي سينسي"، ولوحة للقديس مايكل، وثالثة بعنوان "الهالة" أو "أرورا". أحد الشعراء، قال وهو يقيمها أن مشاهدتها تستحق وحدها السفر إلى روما.

لوحة الإلهة أورورا، ربة الفجر، جيودو ريني

هي لوحة فريسكو كبيرة مرسومة على سقف غرفة الحديقة في أحد قصرور روما. بالرغم من أن اللوحة رسمت منذ مدة طويلة، إلا أن الألوان لاتزال غنية لامعة.

الإلهة "أورورا" ربة الفجر، تمسك في يدها باقة من الزهور، وتسبح على متن السحاب في المقدمة، تمهد لقدوم أخيها أبوللو إله الشمس. أبوللو يركب عربته الحربية الذهبية، ويتبع أخته أورورا، محاط بالغيد الحسان الفاتنات، بملابسهن اللامعة ذات الألوان البهيجة. تتشابك أيديهن ويتبعن مسير العربة في خطوات سريعة رشيقة. نجمة الصباح، أو الملاك الساقط "لوسيفر" يطير فوق العربة بسرعة حاملا الشعلة، لكي ينبئ سكان الأرض النيام بقرب بزوغ الشمس.

16

الفن الإسباني(1)
عمارة الأندلس

في بداية القرن الثامن الميلادي، عبر طارق بن زياد المضيق، الذي يفصل بين أفريقيا وأوروبا، إلى إسبانيا. المضيق يحمل اسمه اليوم ويسمى مضيق جبل طارق.

طارق وغالبية جيشه، كانوا من قبائل البربر أو الأمازيغ، المعروفة عند الغرب بالمور. كلمة "مور" قد تعني أسمر، لكن كلمة "أمور" في اللغة الأمازيغية تعني الجهة. لذلك نجد مراكش (أمور + اكوش)، وتعني أرض الله. المور هزموا حكام إسبانيا القوط، وأقاموا حكما استمر 800 سنة. أصبحت البلاد تعرف بالأندلس.

خلال حكم المسلمين، للأندلس، بلغ فن العمارة أوجه. وبات لها تميزها وخصوصيتها، التي أصبحت تعرف بالعمارة الشرقية. العقيدة الدينية التي أعطتنا المعابد الفرعونية والإغريقية والرومانية والكنائس والكاتيدرائيات المسيحية، الآن تعطينا العمارة الإسلامية أو العمارة المغربية.

العمارة المغربية، تختلف تماما عن عمارة المعابد الفرعونية أو الإغريقية أو الرومانية، كذلك تختلف عن عمارة الكنائس البيزنطية أو القوطية، التي ناقشناها سابقا. سنحاول الآن فهم طبيعة العمارة الإسلامية الجديدة.

المسجد، هو أهم مكان في حياة المسلم. المسلم هنا لا يشذ عن المسيحي أو اليهودي أو البوذي أو الهندوسي. معابدهم أيضا، تعتبر أهم مكان في حياتهم.

المسجد، في العمارة المغربية، عبارة عن صالة كبيرة للصلاة، وحوش به نافورة أو مكان للوضوء، ومئذنة رفيعة طويلة بسلالم حلزونية داخلية، وبلكونة دائرية مرتفعة، ينادي منها المؤذن للصلاة في كل الاتجاهات الأربعة.

كل أنواع الأقواس تستخدم في المساجد. القوس الذي يشبه حدوة الحصان، تم اختراعه عن طريق المغاربه الأمازيغ، المور(Moors). هناك أيضا المقرنصات، أو الحليمات، التي تتكون من معلقات مقوسة أو أسطوانات معلقة من السقف. تشبه في الشكل الكتل الجليدية المدلاة من الحواف الحادة.

تغطي المقرنصة، المجالات المقعرة، والتقاء السطوح الحادة الأطراف في الأركان، بين السقف والجدران وأسفل الشرفات. تسمح بالانتقال السلس من الشكل المربع لقاعدة القبة إلى الشكل الدائري. تستخدم في الحنايا الركنية وسماء القباب وطاساتها الخارجية.

شكل قبة جامع قرطبة من الداخل

القبة هي تاج المسجد. من الخارج يبدو المسجد عادي جدا، لكنه من الداخل، قمة في الروعة. السقف والأقواس داخل المسجد، محمولة بكل أنواع الأعمدة. الإسلام لا يسمح بالتماثيل أو الصور أو الرسومات من أي نوع داخل المسجد. لذلك زينت المساجد بالنقوش الشرقية المعروفة بالأرابيسك. أشكال النباتات، إن وجدت، توجد بطريقة مجردة بحيث لا تستطيع تمييز نوعها.

نقوش الأرابيسك عبارة عن خليط جميل من كل الأشكال الهندسية التقليدية، التي لا تمثل صورا لمخلوقات حية من حيوان أو نبات. هذه الأشكال الهندسية ترسم متداخلة مع بعضها بأسلوب تطريز بديع وألوان متناسقة، إلى جوار آيات قرآنية مكتوبة بخطوط عربية رائعة.

من بقايا العمارة المغربية الكثيرة بالأندلس، مسجد قرطبة وقصر الحمرا. قرطبة كانت عاصمة الدولة السياسية والدينية. مسجد قرطبة هو من أعظم مساجد الأندلس وأكثرها أناقة، يعدّ تحفة فريدة من حيث روعة زخارفه وفنون عمارته.

يرجع تأسيس المسجد إلى سنة 710م، عندما اتخذ بنو أمية قرطبة حاضرة لملكهم، حيث شاطر المسلمون نصارى قرطبة كنيستهم العظمى، فبنوا في شطرهم مسجداً وبقي الشطر الآخر للروم.

حينما ازدحمت المدينة بالمسلمين وجيوشهم، اشترى عبد الرحمن بن معاوية شطر الكنيسة، وأمر عبد الرحمن الداخل سنة 786م، بإعادة بناء الجامع على أساس وشكل جديدين. لقد تم بناء هذا الجامع خلال قرنين و نصف قرن تقريبا.

ظل الحكام يوسعون ويضيفون إلى الجامع، إلى أن أصبح لا مثيل له في الحجم أو الزخارف في العالم الإسلامي كله. بات من الضخامة والفخامة في حجم كنيسة القديس بطرس في روما. كانت مساحة الجامع 785 مترا في البداية، فأصبحت بعد التوسع والإضافات 4875 مترا.

كان المسجد قديماً يُسمى بـ "جامع الحضرة"، أي جامع الخليفة، أمّا اليوم فيُسمى بـ "مسجد الكاتدرائية"، بعد أن حوله الأسبان إلى كاتدرائية مسيحية.

أهم ما يميز هذا الجامع، الفريد في تاريخ الفن المعماري، أن كل الإضافات و التعديلات و أعمال الزينة ، كانت تسير في نمط واحد و على وتيرة واحدة ، بحيث تتسق مع شكله الأساسي.

كان الشكل الأصلي لمسجد عبدالرحمن، في عام 786م، يتألف من حرم عرضه 73.5متر، و عمقه 36.8متر. مقسم إلى 11 رواقاً ، بواسطة 10 صفوف من الأقواس ، يضم كل منها 12 قوسا.

ترتكز على غابة من الأعمدة الرخامية، عددها 1400 عمود. الأعمدة تمثل جذوع الأشجار، والأقواس تمثل فروعها. بعض المؤرخين يعتقد بأن هذه الأعمدة جاءت من المعابد الوثنية الشرقية، آخرون يعتقدون أن الأعمدة نحتت من المحاجر الإسبانية.

نظام الأقواس الثنائية يعتبر نظام فريد ليس له مثيل. أعمدة المعبد قصيرة يبلغ طول كل منها 10 أقدام تقريبا. الأقواس والقباب على هذا الارتفاع، تجعل الإضاءة غير مناسبة.

لذلك، ابتكر البناؤن الأمازيغ سلسلة أقواس في شكل حدوة الحصان، شرائح حمراء وأخرى بيضاء. إلى هذه، أضيفت سلسلة أقواس ثانية، مدعمة بأعمدة رومانية. فوقها يستند سقف خشبي، تم استبداله بسقف على شكل قباب في القرن السادس عشر.

من أعمال الخليفة الحكم الثاني في جامع قرطبة، عمل ميضات، ومد قنوات المياه إلى السقايات. عبر قناة من سفح جبل العروس قرب قرطبه. كما أنشا الحكم عدداً من

المقاصير. منها مقصورة "دار الصدقة" غربي الجامع، جعلها مركزاً لتوزيع الصدقات، و مقصورة أخرى أمام الباب الغربي كان الفقراء يتخذونها مسكناً لهم.

المحراب أهم ما يميز المسجد، يعتبر قطعة فنية رائعة. أمر ببنائه الحكم سنة 961م. حيث قام باستدعاء شخص مختص بالموزاييك لعمل زخرفة للمحراب، مشابهة لما قام به الخليفة الوليد في المسجد الاموي بدمشق. شمال المحراب بنيت استراحة للخليفة وحاشيتة. عبارة عن ثلاث غرف لها قباب بأقواس متداخلة.

المحراب بجامع قرطبة

أرسل البيزنطيون أحد العمال ومعه كمية كبيرة من الموزاييك. قام هذا العامل بتدريب العمال المحليين، ليكملوا العمل على المحراب وزخرفته.

القبة بناها آل الحكم الثاني. شكلها الثماني المؤلف من 8 أقواس كبيرة تغطي هذا المثمن. الرقم 8 مقدس عند المسلمين، لأن أبواب الجنة، كما ورد في الأحاديث، ثمانية.

هذه الأقواس استخدمت بطريقة رائعة كنظام إنشائي حامل للقبة. أصبحت فيما بعد نمطا متداولا وشائعا في العمارة القوطية.

أقواس تحمل القبة في جامع قرطبة

الغرض من عمل القبة بهذا الشكل لم يكن إنشائيا فحسب، إنما كان لمحاولة الخروج من الأشكال التقليدية، الى أشكال أخرى إبداعية. نجح المسلمون هنا نجاحا لا مثيل له، وأنتجوا تحفة معمارية بحق.

تعتبر هذه القبة واحدة من آخر الأعمال العظيمة والكبيرة للمسلمين بالموزاييك. تميزت زخارفها باستخدام حروف الكتابة، وأيضا أشكال النباتات المجردة والخطوط البسيطة.

صحن المسجد الرائع، محاط بسور تتخلله سبعة أبواب. في الجهة الشمالية، توجد المئذنة. الصحن مليء بالنوافير وأشجار البرتقال، التي تكمل الفناء الداخلي. غابة أعمدة في الداخل، وغابة شجر في الخارج، كنوع من الربط والاستمرارية.

غابة من الأعمدة داخل جامع قرطبة

تعتبر منارة الجامع، منارة عبد الرحمن الناصر، حفيد عبد الرحمن الداخل صقر قريش، من المنائر البديعة التي تحتوي على سلمين ولها 107درجات. في أعلاها ثلاث مظلات، اثنتان من الذهب والثالثة من الفضة. مزينة بالنقوش البارزة التي تمثل أشكال دوائر وزهور الزنبق وثمار الرمان.

منارة جامع قرطبة

يوجد فوقها رمانة ذهبية صغيرة. حوّل الأسبان هذه المنارة إلى برج لأجراس الكاتدرائية. في الزاوية الجنوبية للمسجد، توجد منارة أخرى مربعة الشكل. الفتحات والمساقط من كل أنواع الرخام الملون.

سقف الجامع من الكريستال الملون اللامع المبهر. النقش والكتابة البارزة والمقرنصات، مضاءة بآلاف المصابيح المملوءة بزيوت الإنارة المعطرة. هناك غرفة صغيرة بها المنبر الرائع، الذي يحتوي على نسخة نادرة من القرآن الكريم.

جامع قرطبة من الداخل

عندما طرد المسلمون من أسبانيا، تحول المسجد بطريقة عشوائية إلى كاتدرائية. حيث دمرت أجزاء منه وتمت إزاحة 400 عمود من الصحن الداخلي، لإيجاد مساحة للطقوس المسيحية. ثم بنيت حول هذه المساحة جدران منقوشة، مدعمة ب 35 دعامة تشبه الأبراج.

النتيجة لم تكن سارة للملك تشارلز الأول، الذي أمر بتحويل المسجد إلى كنيسة. إلا أن ما تبقى من المسجد، يدل على روعة بنائه وتصميمه الشرقي الأصيل، الذي لا يضاهيه شئ. هناك مساجد كثيرة في مصر وتركيا وإيران والهند وإسبانيا، لكن مسجد قرطبة، هو أروعها كلها.

يرجع بناء قصر الحمراء إلى القرن العاشر الميلادي. كانت هناك "قلعة الحمراء"، فوق الهضبة الواقعة على ضفة نهر حدره اليسرى. عندما تولى زعيم البربر (الأمازيغ)، باديس بن حبوس، حكم غرناطة، بعد ظهور دول الطوائف في بداية القرن الخامس الهجري.

أنشأ باديس سوراً منيعاً حول الهضبة التي قامت عليها "قلعة الحمراء"، وبنى داخل هذا السور قصراً أو مركزا لحكومته، وسميت القلعة، "القصبة الحمراء". الهضبة يمكن اعتبارها، أكروبول أسبانيا.

اسم القصر، قصر الحمراء، مشتق من بني الأحمر، الذين كانوا يحكمون غرناطة في القرن الثالث عشر، والذين أضافوا للقصر بعض أجزائه . يرى آخرون أن التسمية تعود إلى التربة الحمراء التي يمتاز بها التل.

ينقسم القصر إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول هو قسم المشورة، الذي يعقد فيه الملك مجلسه، ويصرف أمور دولته، ويسمع تظلمات رعاياه. الثاني، قسم الاستقبالات الرسمية. يشمل الديوان وقاعة العرش. الثالث، قسم الحريم. يضم المسكن الخاصة بالملوك.

القصر، في الواقع، عبارة عن قصرين مندمجين، إذ تتمحور الصالات والغرف حول صحنين متعامدين مع بعضهما. السقف والأروقة مدعومة ب 4000 عمود رخامي من جميع الألوان.

في عهد الأمير يوسف الأول بن الأحمر، تم بناء برج السيدات وقصر البرطل، وجميع المنشآت التي تحيط بصحن البركة، بما في ذلك برج قمارش الذي تقع فيه صالة السفراء، والمصلى وحمامات القصر.

ثم أضاف الأمير محمد الخامس إلى هذه المجموعة صحن الأسود مع الصالات التي تحيط به، وخاصة قاعة الملوك أو قاعة العدل، وقاعة الأختين، وقاعة بني سراج.

كان محظوراً دخول صحن الأسود حتى على أقرب المقربين إلى الأمير. زخرفة الجدران والأقواس، أغلبها نصف دائرية، توظف ديكورات القباب المقرنصة.

من سمات العمارة الإسلامية الواضحة في أبنية القصر؛ استخدام العناصر الزخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية.

زخارف قصر الحمراء

قصائد المديح والوصف، من نظم شعراء كابن زمرك، تحيط بها زخارف من الجص الملون الذي يكسو الجدران، وبلاطات القيشاني الملون ذات النقوش الهندسية، التي تغطي الأجزاء السفلية من الجدران.

هناك الأجنحة والبلكونات والشرفات والنوافير التي تلطف الجو. في الأصل، كانت الأفنية مظللة بالنباتات العطرية والفل والياسمين وأشجار البرتقال والنخيل والصنوبر دائمة الخضرة.

الديكورات من شغل الأرابيسك والفسيفساء، مطعمة بالذهب والفضة واللؤلؤ. المشايات، بالقرميد المطعم بالمزايكو والقيشاني. التصميم الأولي كان على شكل الخيمة، ونقوش الأرابيسك منقولة من نقوش السجاجيد. أعمدة الرخام نحيفة تشبه أعمدة الخيام.

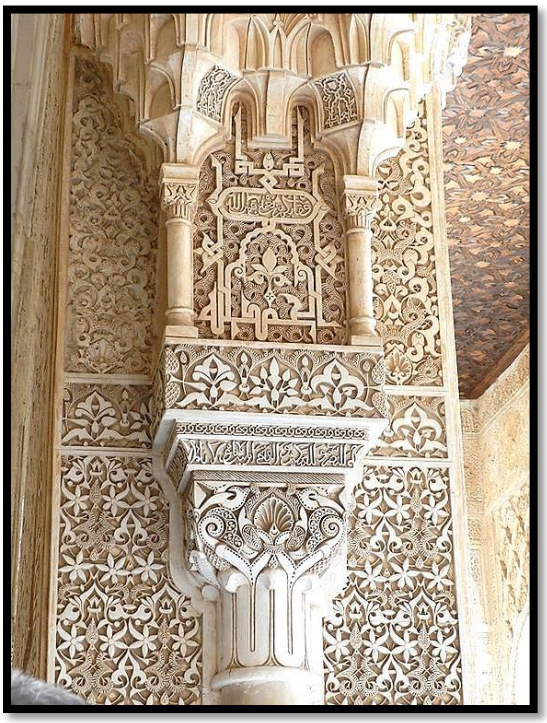

نقوش بقصر الحمراء

قاعة الأسود، هي أجمل صالة في قصر الحمراء. مزينة ب 124 عمودا. عبارة عن جناح من المرمر والألباستر، يعتبر جوهرة العمارة المغربية (البربر أو الأمازيغ أو المور)، في إسبانيا. في وسط الصحن، توجد نافورة تزينها إثنا عشر أسدا من المرمر. بناها محمد الغني بالله، المتوفى عام 1391م.

حفرت حولها قصيدة الشاعر ابن زمرك التي تبدأ بـ:

تبارك من أعطى الإمام محمدا، مغاني زانت بالجمال المغانيا

وفيها يقول:

يذوب لجين سال بين جواهر*** غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا

تشابه جار للعيون بجامد*** فلم ندر أيا منهما كان جاريا

ألم تر أن الماء يجري بصفحها*** ولكنها مدت عليه المجاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه*** وغضض ذاك الدمع إذ خاف واشيا.

قاعة الأسود بقصر الحمراء

يعتبر الأمازيغ قصر الحمراء معجزة فنية. يقولون إن الخليفة الذي بناه، لا بد أن يكون على دراية بأسرار علم الكيمياء، حتى أنه استطاع أن يأتي بالذهب اللازم للإنفاق على بناء مثل هذا العمل الجبار.

قصر الحمراء بغرناطة

الحديث عن جمال معمار قصر الحمراء، لا يجعلنا نغفل الألوان التي تدخل في المشهد. لون التل الأحمر الذي بني فوقه القصر، واللون الأخضر، لون الخضرة والزرع والشجر، وزهور العطر والفواكه بكل أنواعها.

حدائق قصر الحمراء بغرناطة

تستحم جميعها في النهار بأشعة الشمس الذهبية الساطعة، فتتوهج في تباين بديع، مع زرقة السماء الصافية التي يشوبها قليل من الغمام. ناهيك عن ضوء البدر الفضي في ليالي الوصل الأندلسية، وهو يتسلل من بين الأعمدة والأقواس الرخامية للأروقة والطرقات. مع هبات النسيم المعطر بأريج زهور البرتقال، لا ينقصنا سوى سهو القدر ورضى الحبيب وسماع أغاني أم كلثوم وفيروز.

17

الفن الإسباني(2)
فيلازكويز

في الأندلس، كان المسلمون يحرّمون صناعة التماثيل ورسم الأشياء الحية. استمر الوضع هكذا إلى أن طردوا من إسبانيا. علينا أن ننتظر حتى قدوم القرنين الخامس عشر والسادس عشر، قبل أن نرى في إسبانيا نماذج من الفن المسيحي.

في ذلك الوقت، عندما كان الملك فرديناند والملكة إيزابيلا على عرش إسبانيا، وعندما كان المستكشف الإيطالي كولومبس يستعد للابحار غربا لاكتشاف القارة الأمريكية، بدأ الإسبان في رسم لوحاتهم.

في البداية، كانت الرسومات دينية، مثل البداية الإيطالية. وكان الرسامون يقومون بالصلاة والصوم، وفي بعض الأحيان، كانوا يقومون بجلد أنفسهم، قبل البدأ في رسم اللوحة.

المواضيع التي تزين جدران الكنائس، كما كان هو الحال في إيطاليا، تبين القصص المقدسة إلى كل من لا يستطيع قراءة الإنجيل. الرسام ليس حرا يرسم ما بدا له من أفكار وتخيلات، لأنه محكوم بقواعد صارمة، فرضتها عليه محاكم التفتيش، التي كان لها نفوذ جبار في إسبانيا.

من بين القواعد والقيود الكثيرة المفروضة، هي أن تظهر السيدة العذراء وهي مغطاة الساقين. القديسون يظهرون بدون لحى، على خلاف أحبار اليهود. الرسام المخالف لهذه القواعد، يعاقب بغرامة مالية كبيرة أو ينفى لمدة سنة من البلاد.

الفن كان صادقا واقعيا. يبين حياة الإسبان كما رأوها أمامهم في الكنيسة أو الدير أو القصر أو الشارع. كان الفن الإسباني، وهذا متوقع، متأثرا جدا بالفن الإيطالي. الكثير من اللوحات الإيطالية كانت موجودة في إسبانيا، والفنانون الإسبان ذهبوا لدراسة الفن في إيطاليا.

الإسبان كانوا مغرمين بألوان الرسام الإيطالي تيتان. كان هناك فنان إسباني يدعى "نافاريتو"، اشتهر بتقليد لوحات تيتان بدقة متناهية، إلى الدرجة التي جعلته يعرف ب "تيتان إسبانيا". رسم لوحة رائعة للمادونا والطفل بعنوان "الرعاة الجمال".

"بينيجويتي" هو "مايكل أنجلو" إسبانيا. لأنه كان مهندسا معماريا ونحاتا ورساما. "موراليس"، كان مشهورا برسم المشاهد الدينية الحزينة. هناك حكاية عن ظهوره في بلاط الملك فيليب الثاني.

كان الرسام "موراليس" أنيقا يلبس فاخر الثياب، إلى الدرجة التي جعلت الملك يشعر بتعاليه. لم يكتف الملك بفصله من وظيفته، لكن أمره أيضا بالتوقف عن رسم أية لوحة أخرى. اعترف الرسام أنه أنفق كل ما يملك لكي يظهر أمام الملك بما يليق بجلالته. بعد ذلك، تم العفو عنه وسمح له بالعودة إلى فرشته وألوانه.

في يوم من الأيام، ظهر موراليس أمام البلاط الملكي، في هذه المرة، بملابس رثة بالية. قال له الملك: "يا موراليس، أنت فقير جدا. سوف أمنحك نقودا لكي تشتري بها غداءك" أجاب موراليس بهدوء: "وماذا عن العشاء يا مولاي؟" فقال الملك: "سنحرص أن تكون كافية لكي تجعل موراليس يعيش حياة مريحة، ما تبقى له من عمر".

"نافاريتي"، و"بينيجويتي"، و"موراليس"، وآخرون كانوا يعيشون في القرن السادس عشر. أعمالهم، مهدت الطريق إلى القرن السابع عشر المبهر. الذي يعتبر أشهر فترة في تاريخ الفن الإسباني.

"توربارن" و "ريبيرا" كانا يعيشان في القرن السابع عشر. تروباران كان يرسم البورتريه وصور الحيوانات، لكنه كان الرسام المختص برسم الرهبان الإسبان. كان هذا اختيارا موفقا، لأن إسبانيا كانت دولة الرهبان في ذلك الوقت.

رسم "توربارن"، بألوانه الداكنة والناصعة، الرهبان في كل حالاتهم النفسية والاجتماعية، مثلما رسم "تيتان" من قبل نبلاء البندقية في إيطاليا، أو كما رسم لاحقا "فيلازكويز" النبلاء الإسبان.

"ريبيرا" كان مشهورا جدا. كان له تأثير عظيم في عالم الفن. لكنه استخدم هذا النفوذ استخداما سيئا.

كان هناك صبيا إسبانيا فقيرا. تمكن بطريقة ما من الوصول بسلام إلى مدينة روما. هناك، اكتشفه كردينال إيطالي ثري، عندما وجده، يقوم بنسخ رسمة من على جدار أحد القصور.

عندما سأل الصبي عدة أسئلة، أعجب الكاردينال بإجابته. فأخذه معه إلى منزله ووفر له إقامة مرفهة. لكن الصغير، بعد فترة قصيرة وعلى غير العادة، ولى هاربا.

عندما تم العثور عليه، عرفوا منه سبب الهرب، وهو لأن الكاردينال كان قد وفر له حياة رغدة جدا. لو استمر عليها مدة أطول، لتبلد حسه وفقد طموحه.

لذلك قرر الفرار، لأنه يحتاج إلى وخزة الفقر وألمه كشاحذ للهمة ودافع للتقدم. لكن الكردينال نظر للموضوع على أنه مجرد فرار صبي ناكر للجميل. ونسي الموضوع.

ذهب "ريبيرا" لاحقا إلى نابلس. ثم أصبح رئيسا لعصابة الفنانين. أي واحد يجرؤ على الاشتغال بفن الرسم خارج زمرتهم، يلقى منهم الاضطهاد والتعصب.

لوحة بعنوان ديموقريطس، ريبيرا

أصبح ريبيرا ثريا. يعيش في قصر فاخر ويركب مركبة خاصة. لم يقم بمساعدة الفنانين الصغار، كما كان يفعل كبار الفنانين. كان يشعر بالغيرة نحو الفنانين الآخرين.

إلا أنه أظهر معرفة عظيمة بعلم التشريح. لوحاته التاريخية والدينية أصبحت تزين صالات العرض في كل أنحاء العالم. أحد تلاميذه "سلفاتور روزا" الخارج عن القانون، والذي تحدثنا عنه في باب سابق.

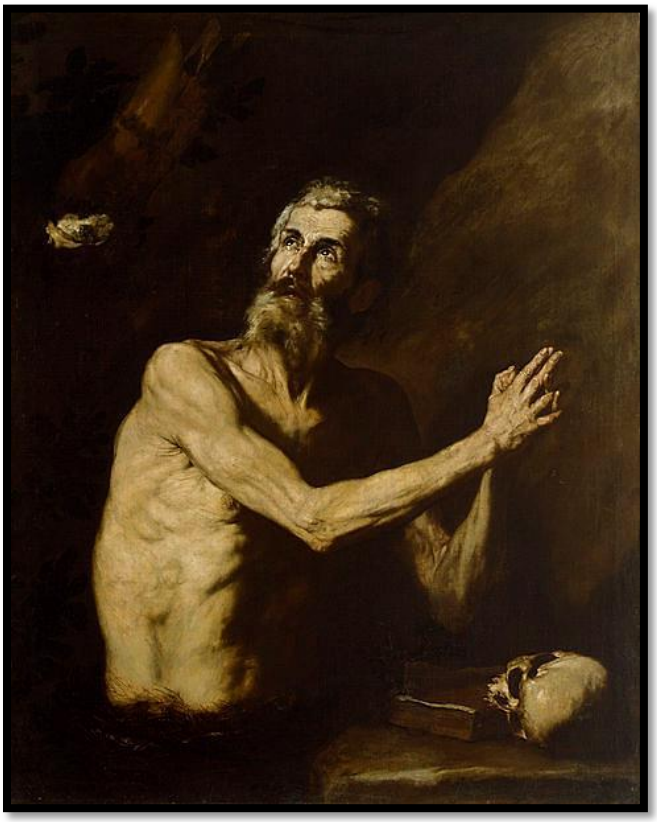

القديس بطرس، ريبيرا

أصبح فن الرسم في إسبانيا شائعا. وظهر العديد من الرسامين العظام. اثنان منهم يمكن أن يمثلان فن الرسم الإسباني في أزهى عصوره. هما "فيلازكويز" و "موريللو".

ولد "فيلازكويز" في إشبيلية عام 1599م. من عائلة كريمة، وفرت له تعليما راقيا. كان والده يعده لكي يشغل في الكبر وظيفة حكومية مرموقة، لكن الصبي كانت شخابيطه واسكتشاته ورسومه تملأ الفضاء. أصيب الأب بخيبة رجاء في بادئ الأمر، لكنه رضخ لرغبة ابنه في أن يكون رساما.

أستاذ "فيلازكويز" كان الرسام المشهور في ذلك الوقت "باتشيكو". كان باتشيكو معجبا جدا بتلميذه، عندما كان يدرس له سنة بعد أخرى. وكان متأكدا أن الصبي سوف يكون له شأن عظيم عندما يكبر. لذلك وافق على زواجه من ابنته.

كان في الاستوديو صبي من الأرياف يستخدمه فيلازكويز كموديل للرسم. يجعله يضحك ويبكي في أوضاع مختلفة لكي يقتنص التعبير والوضع الملائم للوحة. إلى جانب ذلك، كان فيلازكويز يدرس وجوه وحركات الناس في شوارع وأسواق إشبيلية.

مدريد التي لم تكن سوى سكنة عسكرية أيام حكم العرب، أصبحت الآن عاصمة إسبانيا. كان بها منزل قديم لسكن الحاكم، تحول إلى قلعة. بدأت الآن تنمو وتزدهر سريعا.

في القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت الثروة تنهال على إسبانيا كالمطر بسبب مستعمراتها في المكسيك وبيرو. لذلك، أصبحت اللوحات والثماثيل مطلوبة في مدريد. هذا جعل متحف "برادو" في مدريد لاحقا، ينافس أعظم متاحف أوروبا.

عندما بلغ فيلازكويز من العمر 23 عاما، نصحه أستاذه وحماه باتشيكو بزيارة مدريد. لأنه كان متأكدا، من أن فيلازكويز سوف يتأثر باللوحات وأعمال الفنانين الكبار، الذين توجد أعمالهم في مدريد.

وعليه، أخد فيلازكويز عبده المخلص معه، وشدا الرحال، تاركان إشبيلية متوجهان إلى مدريد. قطعا هذه المسافة، وكابدا وعثاء السفر ووعورة الطريق، وهما على ظهر بغلتين.

عندما وصل فيلازكويز إلى مدريد، حاول مقابلة الملك "فيليب الرابع"، لكنه لم يتمكن من ذلك. كان عليه أن ينتظر عدة شهور، ويقوم برحلة ثانية قبل أن ينجح في ذلك.

عندما رأى الملك رسم بورتريه لفيلازكويز، سحر به. من ثم، قرر الملك الجلوس أمام فيلازكويز لكي يرسمه. عندما أنهى الرسام بورتريه الملك، سر الملك به إلى درجة أنه قرر أن يبقى فيلازكويز بالقصر الملكي ولا يغادره.

فيليب الرابع، فيلازكويز

البلاط الملكي الإسباني في ذلك الوقت، كان مليئا برجال السياسة والقلم. الملك نفسه، فيليب الرابع، كان أديبا ورساما. حبه للفن، جعله يخصص استوديو لفيلازكويز في أحد أركان القصر.

ثم أحضر باقي عائلة فيلازكويز، على نفقته الخاصة، من إشبيلية إلى مدريد، لكي يعيشون معه في القصر. وكان يعاملهم بمنتهى الاحترام والتبجيل.

في أحد اللوحات، الآن موجوده في مدينة البندقية، يمكن أن نلقي نظرة على عائلة فيلازكويز نفسه. زوجته المهيبة وأطفاله السبعة. سرعان ما توطدت الصداقة بين الرسام والملك.

كان الملك، عندما يفرغ من شئون يومه، تجده في استوديو فيلازكويز. كان الرسام صديقا نادرا للملك. لأنه كان رجلا دمث الخلق صريحا كريما ونبيلا.

لم يكن ينشد فيلازكويز في لوحاته الجمال، ولكن الصدق. توزيع الإضاءة والجو المحيط بموضوع اللوحة حقيقي بدون خداع أو تزوير. يمكن أن نصف فنه بالواقعية أو الإنطباعية. لأن لوحاته تظهر الإنطباع القوي الذي تأثر به عندما وقعت عيناه على المشهد أو الموضوع أول مرة.

هذه رائعة فيلازكويز "بائع الماء في إشبيلية".

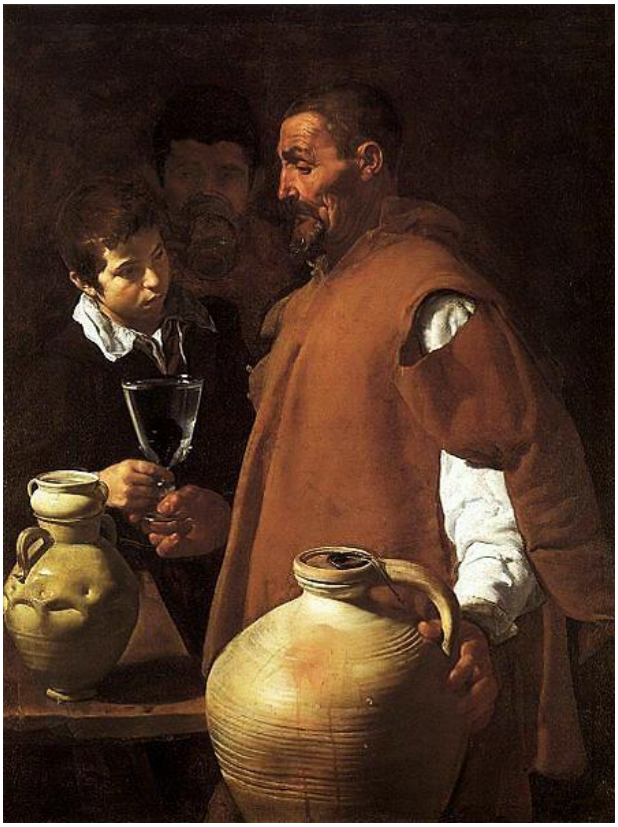

بائع الماء، فيلازكويز

ظل فيلازكويز يرسم قرابة 40 عاما في مدريد. رسم خلالها الحاشية ورجال البلاط والملك، فيليب الرابع، بوجهه النحيف الطويل، والذي يقال أنه لم يضحك في حياته سوى مرتين.

نراه في اللوحة وهو في ملابس العرش يتأهب للصيد، أو للحرب. صورة الملك وهو على جواده، ربما تكون أصدق بورتريه له.

فيليب الرابع يتأهب للصيد، فيلازكويز

بعد أن قضى فيلازكويز ست سنوات في مدريد، جاء الرسام العظيم "روبين"، فلامنكي من شمال بلجيكا، ضمن بعثة دبلوماسية إلى إسبانيا. بينما كان هناك، لفت انتباهه الرسام الإسباني. حدثه عن الفن الإيطالي الرائع، مما جعل فيلازكويز يرغب في زيارة إيطاليا.

ذهب فيلازكويز ليتوسل للملك قائلا: "مولاي، أرغب في زيارة إيطاليا. الفنان لا يمكنه أن يكون عظيما، إلا بدراسة روائع مايكل أنجلو ورافائيل".

أجابه الملك باستياء: "قل بصراحة أنك تريد أن تتركني". لكن فيلازكويز ظل يلح في الطلب، إلى أن وافق الملك. وكان الملك بالغ الكرم، عندما أمده بخطاب توصية، ولم يمنع عنه راتبه أثناء غيابه، بالإضافة إلى تغطية مصاريف رحلته بالكامل.

أبحر فيلازكويز في مقطورة الماركيز "سبينولا"، القائد الحربي الإسباني، إلى إيطاليا. هناك، انبهر فيلازكويز بألوان تيتان، وتينتوريتو، وبول فيرونيزي. مكث فيلازكويز مدة عام في روما يدرس وينسخ. في نابولي، أقام صداقة مع "ريبيرا"، الإسباني الذي فر من بيت الكاردينال وهو صبي.

مضت على غياب فيلازكويز 19 شهرا. الملك أصبح قلقا. لذلك، أصدر أمرا بعودة فيلازكويز على الفور. عندما ظهر فيلازكويز أمام الملك، وأخبره بكل الروائع والبدائع التي شاهدها، نسي الملك غيابه في غمرة سروره بعودة رسامه وصديقه المفضل.

هنا موضوع جديد للوحات فيلازكويز، الأمير الطفل ابن الملك "بالتازار كارلوس". حياة الأمير السعيد كانت للأسف قصيرة جدا. كونه الأكبر بين اخوته، جعله وريثا للعرش، وبهجة للبلاط الملكي. كان ذكيا ملتزما. وكان ماهر الرماية، يستطيع الصيد وهو ممتطيا جواده، وهو في كامل سرعته.

عندما بلغ السابعة عشر من العمر، توفي بمرض الجدري. بكاه الجميع، البلاط وباقي أفراد الشعب. رسمه فيلازكويز في عدة بورتريهات، في أعمار مختلفة. بالملابس العادية، والملابس الملكية، وملابس الحرب، وملابس الصيد.

الأمير بالتازار كارلس، فيلازكويز

صورته هنا وهو يركب مهر صغير. يلبس سترة خضراء قطيفة مطرزة، وشال ذهبي أحمر. منديل أزرق يرفرف في الهواء، وياقة عريضة وقبعة سوداء بريش. يركض في اتجاهنا خارج الصورة، تاركا الوديان الثلجية وراءه.

رسم فيلازكويز أيضا الأميرة "ماريا تيريزا"، والأميرة "مارجريتا" ساحرة البلاط. التي تظهر صورتها، حاليا في متحف اللوفر بباريس، وجهها البرئ وملامحها الرقيقة.

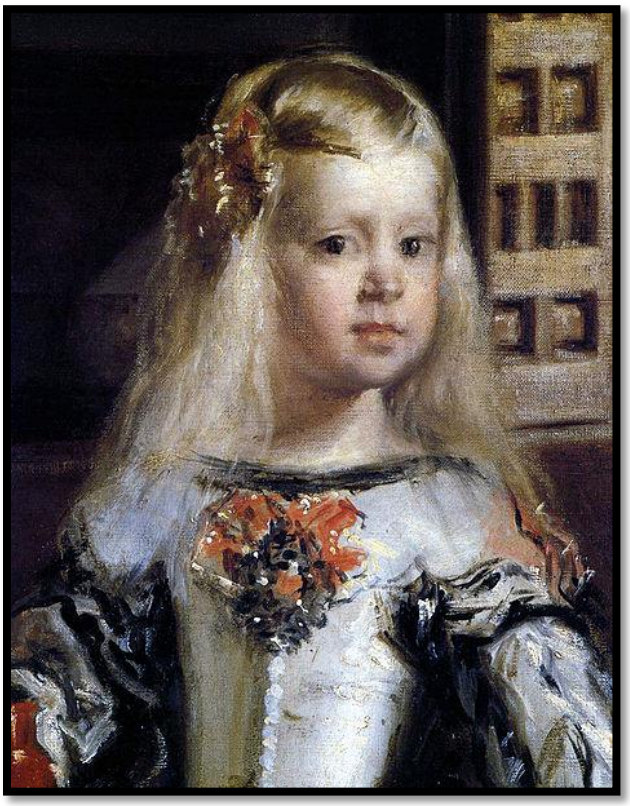

الأميرة مارجريتا ساحرة البلاط، فيلازكويز

شعرها في الصورة أشقر ، وعيناها زرقاوتان، بخلاف لون عيون الصبايا الإسبانيات السوداء. تمسك بيد وردة وباليد الأخرى منديل. الأطفال الصغار الذين رسمهم فيلازكويز، رسمهم في ملابس تشبه ملابس آبائهم وأمهاتهم الرسمية.

كان فيلازكويز يحب رسم الأطفال الملكية. لا يضاهيه في ذلك سوى الرسام الفلامنكي، "فان دايك"، في إعطاء مثل هذه الأطفال، الجلال والوقار اللذان يخصانهم.

البورتريهات التي رسمها فيلازكويز للوردات وسيدات البلاط الملكي، تعتبر الأجمل والأفخم في العالم. مثل هذه الشخصيات الهامة ليست بالكثرة، ومن الصعب الوصول إليها.

بورتريهات فيلازكويز طبيعية جدا. هناك قصة تثبت صحة ذلك. في أحد الأيام، عندما كان الملك في استوديو فيلازكويز، رأى أدميرالا واقفا، كان قد قابله منذ عدة أيام.

خاطبه الملك: "هل لازلت هنا، أولم نأمرك بالانصراف؟" بالطبع لم تكن هناك إجابة من الأدميرال. وإذا بالملك يكتشف أنه كان يخاطب صورة للأدميرال لا شخصه.

هل تعرف أيسوب؟ صاحب قصص الأطفال التي كنا ندرسها في الإبتدائي، ومنها قصة الغراب والثعلب وقطعة الجبن. أنظر إلى لوحة أيسوب ل "فيلازكويز" ، التي تجعلك ترغب في قراءة قصص أيسوب من جديد.

أيسوب مؤلف قصص الأطفال، فيلازكويز

كان الملك فيليب الرابع يبقي في قصره الأقزام والمهرجين للترفيه. بعضهم كانوا من الثراء بحيث يستطيعون العيش في قصور خاصة بهم. قام فيلازكويز برسمهم بملابسهم الفاخرة المذهبة.

لم يكن يحب فيلازكويز الموضوعات الدينية أو الأساطير. لكنه كان يرسم الحانة والشارع والعائلة وقت الغداء. كذلك مشاهد الحرب والصيد. رسم أيضا الزهور، وكان الأول في إسبانيا يرسم المناظر الطبيعية.

الغذاء، فيلازكويز

لوحات فيلازكويز تجعلك تنسي الرسام وتعيش مع الموضوع في الصورة. صوره في صالات عرض ومتاحف كثيرة. هناك لوحة في متحف "برادو" بمدريد بعنوان " خادمات الشرف".

خادمات الشرف، فيلازكويز

الأميرة مارجريتا، ربما تبلغ من العمر 5 سنوات، تقف وسط اللوحة. الخادمة تنحني لكي تقدم لجلالتها كوبا من الماء. على اليمين من الصورة، يوجد قزمان وكلب.
فيلازكويز في شمال الصورة يقف بنفسه يرسم صورة للملك والملكة، يظهر وجهاهما في المراية منعكسا من اللوحة.

عندما شاهد الملك اللوحة، أعجب جدا بها. ثم قال لفيلازكويز: "هذه اللوحة ينقصها شئ واحد." ثم أخذ الفرشاة وغمسها باللون الأحمر، ورسم بها، بيده الملكية، صورة صليب سانتياجو على صدر الرسام في الصورة.

هذه شارة لقب الفروسية، التي لا تمنح إلا إلى مشاهير الإسبان. بهذه الطريقة النبيلة، منح الملك، لقب الفارس لفيلازكويز. ولا يزال الصليب الأحمر على صدر الرسام، هو الذي يجعل اللوحة مشهورة عبر الأجيال.

لوحة أخرى لفيلازكويز بعنوان "استسلام بريدا"، موجودة بمتحف برادو بمدريد.

استسلام بريدا، فيلازكويز

هذه من أعظم اللوحات التاريخية في العالم. تبين معركة من معارك الحرب بين إسبانيا وهولاندا. كما وصفها ماركيز سبينولا إلى فيلازكويز عندما أبحرا معا إلى إيطاليا.

مدينة "بريدا" تتبع هولندا، لكنها وبسبب موقعها الحربي المميز، أخذت غصبا بالجيش الإسباني، بقيادة المركيز سبينولا. وبالرغم من أنه كان القائد المنتصر، إلا أنه كان رحيما دمث الخلق.

في خلفية الصورة، تظهر مدينة "بريدا" بقنواتها وخيام جيشها. في مقدمة الصورة، تتم عملية تسليم المدينة. على الجانب الأيمن، الجيش الإسباني المنتصر يحمل غابة من الحراب. قائده سبينولا يقف أمامه.

الجيش الهولندي المهزوم على الجانب الآخر. يقوده القائد الموقر "جوليان ناسو". ينحني ليقدم ل سبينولا مفتاح المدينة. سبينولا، وقد خلع قبعته، يتسلم المفتاح بطريقة إنسانية كريمة تبين تحضر المنتصر. الوجوه، وجوه لشخصيات حقيقية. ترتيب الجنود يوحي بأنهما جيشان كاملان، بالرغم من قلة العدد الظاهر في الصورة.

كان فيلازكويز يرافق الملك في كل تنقلاته، رحلات الصيد والحملات الحربية والمواكب الملكية. يحمل مفتاحا يدخل به كل غرف القصر المغلقة بدون استئذان. الملك كان مهتما بكل خط تخطه فرشة الرسام.

أراد الملك أن ينشئ صالة عرض للأعمال الفنية في مدريد شبيهة بصالات العرض في إيطاليا. لذلك، في عام 1648م، أرسل الملك فيلازكويز إلى روما، لكي يشتري له مجموعة لوحات وتماثيل رخامية وبرونزية.

بينما كان فيلازكويز في روما، رسم لوحة للبابا إنوسنت العاشر، الذي كان سعيدا بها إلى درجة أنه أعطى الرسام سلسلة ذهبية مكافأة له. عاد فيلازكويز مؤخرا بمجموعته الفنية، وعلى أساسها بنيت شهرة متحف مدريد الشهير "برادو" إلى اليوم.

البابا إنوسنت العاشر، فيلازكويز

أثناء فترة حكم فيليب الرابع، كانت هناك حربا بين فرنسا وإسبانيا. الآن تم إحلال السلام بينهما. لتقوية روابط الصداقة بين الدولتين، تزوج "لويس الرابع عشر" ملك فرنسا من "ماريا تيريزا" ابنة فيليب الرابع ملك إسبانيا.

في منتصف نهر صغير يفصل بين إسبانيا وفرنسا، توجد جزيرة. يمر من منتصفها الخط الوهمي الذي يفصل بين الدولتين. هنا أقيم عرس الزفاف، ووقف المدعوون من الدولتين على جانبي خط الحدود.

الرحلة من مدريد إلى مكان العرس، طويلة وشاقة. القلاع في الطريق كانت تفتح لتقديم كل التسهيلات والغذاء والمرطبات لموكب العروس. هذا الموكب الأبهة، تم بترتيب وتنظيم فيلازكويز.

لكن المجهود كان مضني بالنسبة لفناننا الرائع. أصيب فيلازكويز بلفحة برد. عند عودته إلى مدريد، تحولت إلى حمّى، أدت إلى وفاته عام 1660م. سرعان ما لحقته زوجته بعد ثمانية أيام. ودفنا سويا في قبر واحد.

عندما علم الملك بموت فيلازكويز، صاح قائلا: "أنا مقهور". ولم لا، وقد أفنى فيلازكويز عمره في خدمة الملك، ولم ير منه سوى الإخلاص والتفاني. أقيم له تمثالا في مدريد عام 1899م، وجمعت أعماله لكي تزين متحف "برادو" في مدريد.

18

الفن الأسباني(3)
موريللو

هناك مثل إسباني قديم يقول: " من لم ير إشبيلية، لم ير معجزة عظيمة، ومن لم ير غرناطة، ليست له ذكريات جميلة يعتد بها".

قصر الحمراء الذي ناقشنا عمارته في باب سابق، يقع في مدينة غرناطة بمقاطعة غرناطة جنوب إسبانيا. مدينة إشبيلية تقع على ضفاف نهر الوادي الكبير، في مقاطعة إشبيلية جنوب غرب إسبانيا.

إشبيلية، المدينة البيضاء، تقع وسط كروم العنب وبساتين البرتقال وحقول الزيتون. بمناخها الرائع وجوها المعتدل، كانت لقرون عديدة، مهبط العرب المغاربة، "المور". عمارتها، مزيج مختلط من العمارة الإسلامية والعمارة المسيحية.

عندما ترك المسلمون المدينة وحل مكانهم المسيحيون، حلت كاتيدرائية إشبيلية مكان مسجدها وسط المدينة. تعتبر ثالث كاتيدرائية، من حيث الحجم، في أوروبا كلها، بنيت على الطراز القوطي. تأتي بعد كاتيدرائية القديس بطرس في روما وكنيسة قرطبة.

كاتيدرائية إشبيلية، وضع ديكوراتها رهبان مشهورون، بها تمثال للسيدة العذراء. عيناها، في التمثال، من الياقوت وشعرها من خيوط الذهب. المئذنة القديمة تحولت إلى برج للأجراس، "لا جيرالدا". مثل برج أجراس "جيوتو" في فلورنسا، يعتبر معجزة منقوشة بالحجر.

برج أجراس كاتيدرائية إشبيلية بإسبانيا

أعظم الصروح في إشبيلية، هو القصر القديم، قصر ملوك المور. مثل قصر الحمراء، هو أيضا قصر أسطوري بحدائق غناء وزهور عاطرة. إشبيلية، كانت في مجدها في القرن السابع عشر. مباني رائعة شيدها الأمراء والتجار. المدينة نفسها، بها الميادين الجميلة والحدائق العامة.

الشوارع مليئة بالصبايا والشبان، بعيونهم السوداء وحللهم الزاهية. يرقصون في حلبات الرقص، على الأنغام الموسيقة وإيقاعات الأرجل والصاجات. نهر الوادي الكبير، زاخر بالمراكب الشراعية.

مراكب شحن تفرغ على شاطئيه، صناديق الفاكهة وزيت الزيتون والنبيذ، وأثواب الحرير والقطيفة، وأيضا اللوحات الزيتية. إشبيلية ليست مركز تجارة لمنطقة البحر المتوسط فقط، إنما هي أيضا، مركز للتجارة مع المستعمرات الإسبانية في القارة الأمريكية.

مدينة إشبيلية، لها سحر إضافي. هو كونها مسقط رأس فنانين من عمالقة الرسم بالزيت. فيلازكويز رسام البلاط الملكي، وموريللو رسام الكنيسة. الأول رسام الأرض، والآخر رسام السماء.

طفولة موريللو كانت طفولة بائسة، بعكس طفولة فيلازكويز. فيلازكويز كان ثريا. يتمتع بكل ما يمكن أن يوفره الغنى ورغد العيش للأطفال. لكن طفولة موريللو، لم تكن سوى صراع مع الفقر وشظف العيش.

ولد موريللو عام 1617م. والده تاجر فقير، تردد كثيرا في إرساله للمدرسة لتعلم القراءة والكتابة. لكنه، عندما أعطي كتابا، فاجأ والديه بذكائه الخارق. لم يتوقف عن الشخبطة على صفحات الكتاب وعلى جدران المنزل المتواضع.

خاله، "كاستيلو"، كان رساما. رجت الأم أخاها الرسام كي يأخذ الصغير موريللو معه. كاستيلو لم يكن راغبا في ذلك في بادئ الأمر، لكن تحت إلحاح الأم المتواصل، امتثل الأخ وقبل الصبي بدون أجر.

موريللو الصغير، كان مجتهدا. لم يكن سعيدا إلا مع كراسته وقلمه ودروسه. بعد فترة قصيرة، أصبح يتيما، لا عزاء له من الكآبة سوى الرسم.

عندما بلغ موريللو سن 22 سنة، انتقل خاله كاستيلو إلى مدينة قادس جنوب إسبانيا. أراد موريللو أن يرافقه، لكن لم تكن معهما نقود كفاية لمصاريف الانتقال. بالإضافة إلى أنه وجب عليه البقاء للعناية باخته.

لم يكن يستطيع موريللو دفع أجر مدرس بديل لخاله. لذلك، تُرك بدون خليل أو دليل. فماذا يفعل؟

كان يوجد في إشبيلية في ذلك الوقت، سوق أسبوعي يسمى "فيريا". في هذا السوق، تُعرض للبيع الزهور والفاكهة والخضراوات انتاج جنوب إسبانيا. توجد أيضا في هذا السوق ملابس قديمة وأشياء خردة وأدوات مطبخ مستعملة وكل شئ قابل للبيع والشراء.

كان السوق مكانا لتجمع الرهبان والكهنة والغجر والمزارعين والشحاتين والعربجية والبغال والحمير. الفنانون أيضا، كانوا يأتون للرسم هنا. يضعون في لوحاتهم ما يعرضه الباعة أو يقومون برسم صور للزبائن.

لم يعرف بطل قصتنا موريللو إلى أين يتوجه، فذهب إلى أحد أكشاك السوق. هناك بدأ يرسم صورا متعجلة للزبائن ويبيعها بثمن بخس. ما كان يجمعه من نقود، يا دوب يكفي لبقائه حيا هو واخته.

لوحاته السريعة الرخيصة، لزوم أكل العيش، كان لها ميزة بالنسبة لتطوره الفني. لقد جعلته يجرب بحرية، نماذج وألوان وتكوينات مختلفة في لوحاته، دون خوف من زيادة التكلفة أو إضاعة الوقت.

استمر الحال على هذا المنوال مدة سنتين. بعدها، عاد صديق قديم له، مويا، إلى مدينة إشبيلية. كان مجندا في منطقة تقع شمال غرب أوروبا. وكان قد درس الرسم في بلاد أجنبية.

كان حديث مويا عن الفن والفنانين والروائع التي شاهدها في الخارج مثيرة لاهتمام موريللو. لذلك قرر أن يرى هذه الروائع بنفسه. مكث مويا شهورا قليلة قبل أن يغادر إشبيلية، تاركا موريللو لوحدته وبؤسه السابق.

في أحد الأيام وهو في قمة إحباطه، صرخ قائلا: "سوف أذهب إلى إيطاليا". لكن، كيف يتسنى له ذلك، وهو خاوي الوفاض، لا يملك شروي نقير؟ اصراره على الذهاب إلى إيطاليا، جعله أكثر جراءة.

اشترى قطعة قماش "كانافا" كبيرة، وقطعها مربعات صغيرة، ورسم عليها صور دينية للمادونا والقديسين. لحسن الحظ، وجد من يبحث عن مثل هذه الصور. يشتريها بالجملة ويرسلها إلى المقاطعات المحتلة حديثا في أمريكا الجنوبية. لكي تزين أماكن العبادة اليسوعية التي كان ينشئها الأسبان. لنا أن نتخليل، تأثير مثل هذه اللوحات، بالنسبة للمستوطنين المعزولين في أماكن نائية في أحراش أمريكا اللاتينية.

بعد أن باع موريللو لوحاته، ترك اخته في رعاية أحد الأقارب، وبدون أن يخبر أحدا عن قبلته، توجه إلى مدريد سيرا على الأقدام. أثناء الرحلة، كان يعيش على الماء القراح والخبز الجاف.

كانت رحلة شاقة مضنية، لكنه في النهاية نجح في الوصول إلى المدينة، متعبا وحيدا لا يملك سوى الشجاعة والصبر. إصراره قاده إلى طلب مقابلة الرسام الشهير واسع الثراء فيلازكويز، الذي كان يعيش في القصر الملكي لفيليب الرابع. ظنا منه أن فيلازكويز يستطيع مساعدته إن أراد.

في يوم من الأيام، راقب موريللو الموكب الملكي أثناء مروره. كان به الرسام فيلازكويز، الذي عرفه بإشارة من أحد المارة، فتوسم من ملامح وجهه الخير والطيبة، مما زاد في شجاعته وثقته في نفسه.

بعد أن أمضى بعض الوقت في غسل وترقيع حلته وإصلاح ما بها من عيوب، مثل في استديو القصر. طلب المقابلة، وقدم نفسه على أنه موريللو الرسام الإشبيلي.

لم يسمع الرسام العظيم فيلازكويز في حياته عن رسام مشهور في إشبيلية بهذا الاسم. لكنه وافق على مقابلة الشاب على أية حال. لقد كانت من خصال فيلازكويز الطيبة، أنه كان من السهل الوصول إليه.

أعجب فيلازكويز من صراحة وذكاء بطل قصتنا موريللو. قال له: "أنت رسام". أجاب موريللو: "لو اعتقدت ذلك من قبل، لكنت الآن رساما. لكنني أحتاج إلى عطفك ورعايتك". فسأله فيلازكويز عن دراسته وهدفه ودوافعه وسبب قدومه إلى مدريد.

حكى صاحبنا الفقير، قصته مع الفقر والفاقة، ورغبته الملحة للتعلم وزيارة مدينة روما. ثم أراه بعض أعماله التي أحضرها معه. فقال له فيلازكويز على غير المتوقع: "الصبر يا صديقي. سوف يأتي يوما، تكون إشبيلية فيه فخورة بك."

ماذا فعل فيلازكويز العظيم بالشاب الطموح؟ وفر له مسكنا، وسمح له باستخدام الاستوديو الملكي في القصر. كما أعطاه إذنا بدخول المتاحف وصالات العرض لدراسة كل الأعمال الفنية المعروضة.

تأثر الشاب موريللو بكرم فيلازكويز تأثرا بالغا، لدرجة أنه شكره وأخبره أنه يحبه ومستعد للموت في سبيله. فأجابه فيلازكويز الرائع: "لا لن تموت في سبيلي يا موريللو، إنك ستعيش لأجل الفن".

الآن فتحت أبواب الجنة أمام الرسام الشاب. قابل معظم الرسامين المشهورين في مدريد. وبدأ العمل الجاد والرسم بحق وحقيقي. بعد ذلك، ترك فيلازكويز مدريد في رحلة مع البلاط الملكي. وعند عودته، كانت سعادته بالغة عندما لمس تقدم موريللو أثناء غيابه.

ظل موريللو ثلاثة سنوات في العاصمة مدريد. بعد ذلك، نصحه فيلازكويز بالذهاب إلى روما. أمده بخطاب تذكية لمشاهير الشخصيات هناك. لكن موريللو كان مكتفيا بما تعلمه، وفي نفس الوقت، شعر بحنين بالغ لموطنه الأصلي إشبيلية. فذهب إلى إشبيلية بدلا من روما.

عاد موريللو إلى إشبيلية وبقى بها بقية حياته. لم ير إيطاليا أبدا، التي كانت حلم كل فنان في ذلك الوقت. عند عودته، قبل طلبات دير الفرنسيسكان. فقد كانت رغبة الرهبان، رسم عدة لوحات دينية للدير. لكنهم لم يكونوا يدفعون بسخاء، مما جعل الرسامين المشهورين تهرب منهم.

موريللو كان صغيرا وغير مشهور. وكان الرهبان مترددين في بادئ الأمر في استخدامه. ظل يعمل معهم لمدة ثلاث سنوات. لوحاته كانت جميلة. بالرغم من أن أجره كان صغيرا، إلا أنه استطاع بناء اسما له فأصبح مشهورا في إشبيلية.

بدأت الطلبات تنهال عليه من النبلاء وكبار التجار والأمراء. أعماله، سرعان ما أصبحت فخر كل كنيسة وكل دير أو مستشفى. أصبح موريللو معروفا في كل أنحاء إسبانيا، وصارت حيازة لوحاته موضة العصر.

كانت له قصة تقليدية، وهي قصة وقوعه في الحب، لا نستطيع تجاهلها هنا. في يوم من الأيام، عام 1648م، بينما كان يرسم في كنيسة إشبيلية، جاءت غادة جميلة للصلاة. تركت عيني رسامنا الشاب اللوحة أمامه، وثبتت على الفتاة وهي تصلي.

بهت فناننا المرهف الحس بالجمال الباهر للفتاة، وسحره وجهها البرئ الملائكي. تصادف أنه كان يبحث عن وجه ملاك للوحته التي يقوم برسمها. طلب منها أن تجلس أمامه لكي يرسمها، فوافقت. بينما كانت تجلس أمامه، استطاع كسب ودها وحبها. ينتهي الجزء الأول من قصتنا، كما هو متوقع، بالزواج. زوجته اسمها "دوريا بيتريكس"، من النبلاء.

ثروة موريللو كانت متزايدة إلى درجة أنه استطاع فتح بيت وتكوين أسرة. في الواقع، بيت كبير كان يستقبل فيه مشاهير رجالات إشبيلية ذوي النفوذ والجاه. أنجب من زوجته ثلاثة أطفال. أحدهم هاجر إلى أمريكا، الثاني أصبح رجل دين، وابنته صارت راهبة.

موريللو، كانت له ثلاثة أساليب يستخدمها في رسم لوحاته، البارد والحار والبخاري. في الأسلوب البارد، الخطوط والألوان واضحة جلية مميزة. في الأسلوب الحار، الخطول أقل حدة، والألوان أهدأ وأبهت. الأسلوب الثالث البخاري، الخطوط لينة ناعمة بينما الألوان شفافة مثل البخار.

موضوع موريللو المفضل هم الشحاذون. أظهرهم لنا موريللو بطريقة ساحرة في مواقف وأماكن وأجواء مختلفة. الشحاذون الأسبان يظهرون ببشرتهم السمراء وعيونهم العسلية وشعورهم المفرودة الناعمة السوداء. يجلسون غير عابئين بثيابهم البالية في حنايا شوارع المدينة وأركانها.

أطفال تلعب النرد، موريللو

الأطفال المشردون هنا يفعلون أشياء كثيرة. يأكلون الخبز، في لوحات أخرى المكارونة أو الفاكهة. إثنان منهما يلعبان بالنرد، فوق حجر مسطح أملس يستخدمانه كمنضدة.

الطفلة التي تجلس على اليمين، نسيت ملابسها الممزقة. حذاؤها فقد نصف نعله. تظهر منه أصابع إحدى قدميها. لكنها لم تنس أنوثتها فوضعت إيشارب فوق رأسها للزينة.

الطفل الآخر، ألقى لتوه النرد، ينظر باهتمام لكي يري ماذا أتى به البخت. الطفل الثالث، لا تفارقه قطعة الخبز. لم يتركها من فمه منذ أعطاها له موريللو من مدة. ينظر إلى بعيد ويفكر في عالم آخر. لا يشعر بصديقه الكلب الذي سال لعابه وهو ينتظر بشوق نصيبه من قطعة الخبز الشهي. وجه برئ، لا يسعك إلا الشفقة عليه والتعاطف معه.

إذا اقتصر موريللو على رسم الشحاذين والغجر، لكانت موضوعاته كافية لكي تجعله مشهورا ومن كبار الرسامين العالميين. لكن لوحاته الدينية، تفوقت في جمالها وتكوينها الفني على أي لوحة يمكن أن تجعله مشهورا.

صور الكهان والقدسين التي رسمها موريللو، لها طابع مميز. الصور التي رسمها لدير الفرنسيسكان توضح ذلك. أحد اللوحات تصور القديس فرانسيس وهو جالس يستمتع بنشوة لعزف ملاك على آلة الكمان.

القديس فرانسيس، موريللو

في لوحة أخرى، القديس دياجو يبارك قصعة الطعام الذي سيأكل منها الفقراء.

القديس دياجو يبارك قصعة الطعام التي سيأكل منها الفقراء، موريللو

اللوحة الفريدة بين لوحاته، هي لوحة "ملاك المطبخ". هنا القديس دياجو يظهر أيضا. تقول الأسطورة أن هذا القديس الورع، كان يؤدي واجبه اليومي في مطبخ الدير. بينما كان يطبخ وجبة العشاء للرهبان، شئ غريب حدث له.

وجد نفسه في قمة الإنسجام طائرا في الهواء. لذلك نجده في الصورة وهو في حالة تعبد وهيام. تحته في المطبخ، الملائكة تقوم بعمله. بينما مجموعة من الرهبان تنظر بفضول من الباب.

القديس دياجو طائرا في الهواء والملائكة تقوم بعمله في المطبخ، موريللو

هذه اللوحة، توجد الآن في متحف اللوفر بباريس. وهي من اللوحات الكثيرة التي سرقها "مارشال سولت"، ونقلها إلى فرنسا أثناء غزو نابليون لإسبانيا.

كان موريللو شغوفا بقصة قديس آخر، هو القديس أنطونيو من بادوفا. الذي وهب حياته، مثل القديس فرانسيس، لفعل الخير. رسم موريللو القديس أنطونيو عدة مرات.

اللوحة المشهورة، الموجودة في كاتيدرائية إشبيلية، تبين القديس وهو منفعل فاردا ذراعية، يستقبل المسيح الطفل، الذي يهبط عليه من السماء وسط طوفان من القداسة والجلال. بجواره على المنضدة، توجد فازة زنبق.

هذه اللوحة طبيعية لدرجة أن الطيور داخل الكاتيدرائية، كانت تأتي لكي تنقر الزهرة. سمي موريللو بسببها "رسام الجنة". في عام 1874م، قطع لص صورة القديس أنطونيو من اللوحة، وهرب بها.

القديس أنطونيو فاردا ذراعيه يستبل المسيح، موريللو

ظهر اللص في نيويوك، وباع اللوحة بمبلغ 250 دولار إلى أحد الأشخاص، الذي سلمها بدوره إلى القنصلية الإسبانية. عاد الجزء المقطوع إلى إشبيلية، وقوبلت الأنباء بفرحة غامرة.

هناك صورة أخرى ساحرة، المادونا والطفل لموريللو، ليست كمثل المادونات التي شاهدناها من قبل.

المادونا والطفل، موريللو

هذه بعض لوحات موريللو:

بائع الفاكهة الصغير، موريللو.

النبي إبراهيم والملائكة الثلاث، موريللو

عودة الابن الضال، موريللو

لم يحصل موريللو من أشهر أعماله إلا على بضع مئات من الدولارات. إلا أنها تعتبر مبالغ ضخمة في ذلك الوقت. كان مخلصا لتلاميذه. يرعاهم وهم معه في الاستوديو أو خارجه. كان يتمتع بأخلاق عذبة نادرة الوجود. وكان يتسم بالنبل والكرم وحسن الطوية.

كان يعيش في إشبيلية في منزل كبير جميل. في عام 1680م، ذهب إلى قادس لرسم بعض اللوحات. بينما كان يعمل هناك، سقط من على السقالة وجرح جرحا بالغا. حمل عائدا إلى إشبيلية، وهناك توفي عام 1682م.

بناء على طلبه، دفن في كنيسة سانتا كروز. تحت أحد لوحاته، كتبت العبارة: "لقد كان موريللو آخر الرسامين العظام في القرن السابع عشر. حزن عليه الجميع، أغنياء وفقراء، كبار وصغار، رجال ونساء".

لوحاته معروضة في جميع المتاحف وصالات العرض في العالم. تمثاله البرونزي في الساحة العامة في إشبيلية، يقف شامخا. كان فيلازكويز وموريللو لإسبانيا في القرن السابع عشر، كما كان دافنشي ورفائيل وتيتان لإيطاليا في القرن السادس عشر.

19

الفن الفلمنكي(1)
جان فان أيك(1390-1441م)

بلاد غرب أوروبا حتى بحر الشمال، البلاد المنخفضة، كانت تشمل في العصور الوسطى معظم ما يعرف اليوم ب هولاندا وبلجيكا. كان يوجد بها فنانون، يقومون بتنظيم المهرجانات والمواكب وعمل ديكوراتها. آخرون يقومون بتصميم نقوشا، تستخدم في صناعة الأقمشة والزجاج الملون والحلي الذهبية والفضية. في أديرتها، كان يمكن مشاهدة أعمال فنية نادرة وباهظة الثمن.

في القرن الخامس عشر، هذه البلاد كانت تحكم بدوقات بورجندي الأقوياء. مدينة بروج، مدينة الجسور، كانت عاصمتها الرائعة. صناعها المهرة، بلغت شهرتهم كل الدول الأوروبية. هنا، ترأس الدوق فيليب الطيب، أكثر دوقات بورجندي روعة، جماعة محبي الفنون. وهنا أنشأت أول مدرسة رسم، لها شهرتها في كل دول شمال أوروبا.

عندما اكتشف الأخوين هيوبرت وجان فان أيك، طريقة جديدة لمزج الألوان بالزيت، للحصول على ألوان أغنى وأرق من الألوان المنتجة بالطرق المعروفة سابقا. حاليا، اللون الأحمر القاني المعروف ب "بنفسج فان أيك"، أصبح مشهورا مثل اللون الذهبي لتيتان، "ذهبي تيتان"، أو اللون الفضي لفيرونيزي، "فضي فيرونيزي".

لم يكن خافيا أن الفنانين الإيطاليين، كانوا قد أعطوا الكثير من أسرار فنهم إلى الرسامين خارج إيطاليا. جاء الآن دور فناني شمال أوروبا لكي يردوا بعض الجميل، ويعطوا الإيطاليين شيئا في المقابل.

الدوق فيليب الطيب، كان يتبنى الرسام "جان فان أيك". جعله صديقه المخلص محل ثقته، وسفيره للمهام الصعبة. عندما تعمدت ابنة جان، كان الدوق هو راعيها، أعطاها هدية نصف دستة أكواب فضية.

كان شعار جان بالنسبة للفن، "كما أستطيع". قام الأخوان أيك برسم العديد من اللوحات الدينية تمشيا مع روح العصر. في الواقع، أشهر مذبح كنائسي، من الناحية الفنية في القرن الخامس عشر، رسم بريشتيهما. المذبح يقع في كنيسة "بافون" بمدينة "غينت" التي لا تبعد كثيرا عن مدينة بروج.

لوحة المذبح التي تسمى "تقديس الحمل"، عبارة عن 12 لوحة منفصلة، موصولة ببعضها بمفصلات. البراويز الخارجية، مرسومة من الجهتين، بغرض استخدامها كغطاء لمركز اللوحات.

لوحات تقديس الحمل بمذبح كنيسة بافون، الأخوان أيك

اللوحات تعرضت لكل أنواع الحوادث المختلفة. أجزاء منها ذهبت لدول مختلفة. في الماضي، في القرن الخامس عشر، كانت مفصلات البراويز تفتح في الأعياد فقط للمشاهدة.

عندما تفتح المفصلات، نجد 7 براويز علوية و5 سفلية. صورة الرب وسط الجزء العلوي. يجلس على العرش، يلبس روبا أحمر قاني موشى بالقصب.

تزين أطراف الثوب صفوف من الأحجار الكريمة. في الصدر يوجد بروش من الجواهر. يرفع الرب يده اليمنى ويبارك بإصبعين. بيده اليسرى، يحمل الصولجان.

في ثلاث براويز على أحد الجانبين،توجد حواء، القديسة سيسيليا، ويوحنا المعمدان. على الجانب الآخر توجد العذراء مريم، وملائكة تغني، وآدم. آدم وحواء يظهران عرايا، لأنهما كانا في الجنة عرايا.

القديسة سيسيليا تلبس رداء منقوشا بالورود، تعزف على آلة الأرغن التى اخترعتها. أربعة ملائكة تصاحبها الغناء والعزف على الهارب والكمان. شعورهن الشقراء المموجة مزينة بشرائط حريرية.

في مركز البراويز السفلى، الحمل الذي يمثل المسيح، يقف على المذبح محاطا بالملائكة الساجدين. في الأمام، توجد نافورة مياه لتطهير العالم. في الخلف، مدينة القدس تمثلها مدينة فلمنكية. المروج الخضر التي تظهر في الصورة، مزينة بزهور الربيع والورود.

توجد أيضا في هذه اللوحة، أربع مجموعات: القديسين، والشهداء، رجال الكنيسة، باقي الناس. كلهم يصلون للحمل المقدس. العديد من الوجوه المعروفة توجد باللوحة.

في البراويز الجانبية، تظهر حشود النساك، الفرسان، القضاة، وكل المسافرين لمدينة القدس. بعض هذه الشخصيات تظهر في ملابس فاخرة تشبه ملابس بلاط الدوق فيليب الطيب.

على الجانب الخارجي للبراويز، توجد شخصية الرجل الذي تبرع بالمال لهذا العمل الفني الكبير، "جودوكوز فايدت" وزوجته. في هذه الأيام، كان المتبرعون لمثل هذه الأعمال الدينية، تظهر صورهم إلى جانب القديسين والملائكة، تيمنا وبركة.

لوحات الأخوين فان أيك، تميزت بالدقة وسعة الخيال والألوان الغنية. كانا يهتمان برسم مناظر من الحياة اليومية ورسم الأشخاص والأزياء والأثاث، بينما كان الفن الإيطالي في ذلك الوقت، يهتم برسم الموضوعات الأسطورية والتاريخية.

بورتريه لرجل بعمامة حمراء، جان فان أيك

اللوحة القادمة تبين القديس جيروم يقرأ. يظهر في الصورة أثاث الغرفة وأسده، الذي أخرج الشوكة من يده فصارا صديقين لا يفترقان.

القديس جيروم وأسده، جان فان أيك

الزوجان أرنولفيني 1434م، جان فان أيك

تأثير الأخوين على باقي الفنانين كان عظيما. كان لهم مجموعة تلاميذ وتابعين. أهمهم الشاعر والرسام "هانز ميملنج". عندما كان جنديا، نقل إلى مستشفي القديس يوحنا في بروج.

كنوع من رد الجميل، للعناية والمعاملة الكريمة التي تلقاها في المستشفى، قام هانز بتصميم نموذجا لضريح، على النمط القوطي، للقديسة أورسولا، وأهداه للمستشفى. على الضريح من الخارج، رسم قصة القديسة أورسولا والأحد عشر ألف عذراء. هذه هي قصة القديسة:

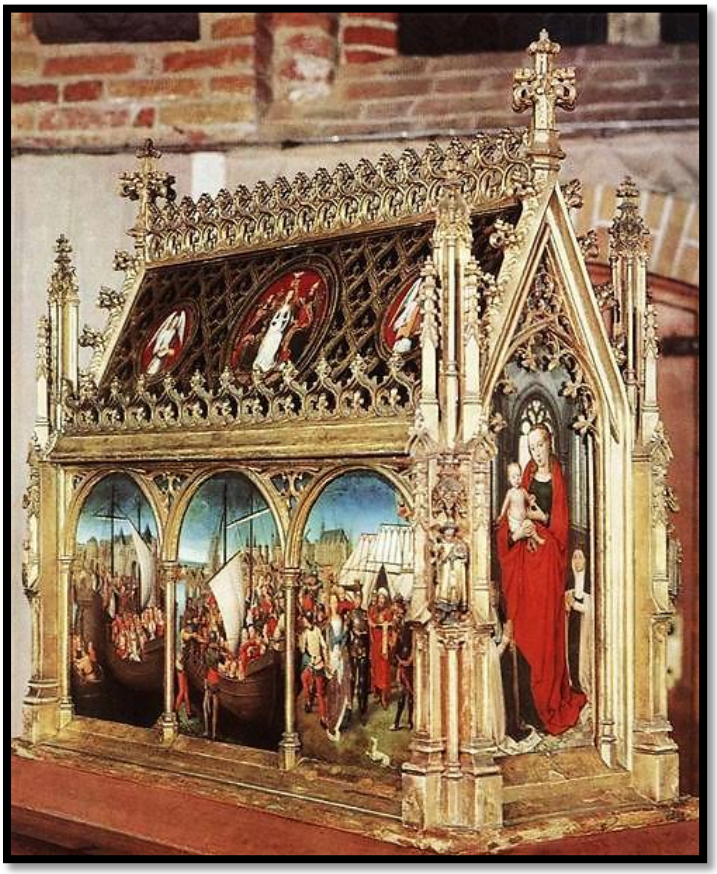

نموذج لضريح القديسة أورسولا، هانز مملنج

أورسولا كانت ابنة جميلة موهوبة لملك بريطانيا المسيحي. ملك إنجلترا الوثني خطبها زوجة لابنه. وافقت القديسة أرسولا على الزواج بثلاثة شروط. الشرط الأول هو أن يرافقها عشر غادات عذراوات من بنات النبلاء. كل واحدة منهن يكون لها ألف وصيفة عذراء.

الشرط الثاني هو أن يقضين ثلاث سنوات في زيارة الأماكن المقدسة. الشرط الثالث، هو أن يتعمد خطيبها وكل بلاطه الملكي بعد أن يعتنقوا المسيحية.

تم الوفاء بهذه الشروط. الصبايا الإحدى عشر ألف، بدأن رحلة الحج للأماكن المقدسة. عندما كن في عرض البحر، غيرن اتجاه المراكب ورسون على اليابسة. كانت تقودهن الملائكة، تقيم الجسور على الأنهار في طريقهن، وتنصب لهن الخيام أثناء الليل.

قمن بزيارة بابا روما، وقابلن أثناء رحلاتهن كل أنواع الصعاب والمغامرات. أثناء عودتهن، وقعن أسرى في أيدي البرابرة (الهون)، وتم استشهادهن جميعا في مدينة كولونيا. هناك عظامهن لاتزال موجودة يمكن رؤيتها كما تقول الأسطورة.

لم يستطع ميملنج رسم 11000 عذراء في صورة صغيرة نسبيا، لكنه رسم صورة مزدحمة بالشخصيات. هذا العمل الفني عمل نادر رائع. في الواقع، هذه الرسوم تعتبر الأفضل بين كل الفنون الفلمنكية المبكرة. بسبب هذا العمل، وغيره من أعمال ميملنج الفنية، أصبحت شهرة ميملنج لا تقل عن شهرة الأخوين فان أيك.

بورتريه لرجل مجهول، هانز مملنج

بعد ميملنج، بدأ الفن الفلمنكي في التدهور. في القرن السادس عشر، لم يظهر سوى رسام يستحق الذكر. هو "كوينتين ماتسيس" أو "كوينتين ماسيس"، "حداد أنتويرب".

بينما كان كوينتين يمارس حرفة الحدادة، وقع في غرام صبية وأراد زواجها. لكن، للأسف، لم يوافق الأب أن يعطي ابنته لشاب حداد. وكان يفضل علية أي شخص يعمل كرسام.

موضوع الحب ليس بالأمر الهين، أو بالبساطة التي نتخيلها، علينا أن نسأل سيجمان فرويد في ذلك. لذلك، لم يجد ماتسيس أية مشكلة في ترك الفحم والكير والمطرقة والسندان، ومسك الفرشة ولوحة الألوان. من أجل عيون المحبوبة وإرضاء لرغبة كيوبيد.

كان ماتسيس مجاهدا في الحب مثابرا على تعلم فن الرسم يعرف هدفه جيدا. في فترة قصيرة، بدأ يرسم لوحات دينية ولوحات تصور البخلاء. جعلته من أفضل الفنانين الفلمنك في القرن السادس عشر.

صراف وزوجته، كونتين ماسيس

بعد شهرته السريعة، نال مراده وتزوج من حبيبته. عندما توفي، دفن في كاتدرائية أنتويرب. وكتب على قبره عبارة: "الحب قد حول حدادا إلى رسام".

هذه لوحة الملكة إليزابث الأولى ملكة إنجلترا وإيرلندا، والتي لم تتزوج. في عهدها هزم الأسطول الإنجليزي الأسطول الإسباني الذي لا يقهر (الأرمادا)، وكانت نقطة تحول في تاريخ إنجلترا جعلتها تهيمن على البحار بدون منافس.

إليزابث ملكة إنجلترا وإيرلندا، كونتونين ماسيس

20

الفن الفلمنكي(2)
روبينز

بعد زمن ماسيس، تاه الفن الفلمنكي أثناء ثورة شملت بلاد أوروبا المنخفضة(هولاندا وبلجيكا ولوكسمبرج). بعد فترة قصيرة، حكمت البلاد دوقات بورجندي، ثم إمبراطور ألمانيا، ثم ملك إسبانيا. ثم قامت ثورة ضد حكم الطاغية الملك فيليب الثاني الإسباني ودوقاته الدمويين.

أدت الثورة إلى اتحاد مقاطعات الشمال، فكونت الجزء البروتستانتي من هولندا. الجزء الجنوبي ظل كاثوليكيا. في بداية القرن السابع عشر، أصبحت البلاد محكومة بأرشيدوق النمسا. وبدأ عصر الفن الذهبي لكل من هولندا وبلجيكا. في هولندا، ظهر "رامبرانت"، وفي بلجيكا ظهر "روبينز".

مدينة أنتويرب في بلجيكا، في القرن السادس عشر، أجمل مدن أوروبا. بها كنائس وقصور رائعة، تعداد سكانها كان لا يزيد عن 200 ألف نسمة. مئات السفن كانت ترسو في موانيها. ينزلها العديد من الغرباء من كل أنحاء العالم.

قرابة نهاية القرن السادس عشر، عندما قام سكان البلاد المنخفضة بالثورة على الحكام الإسبان الطغاة، كانت مدينة أنتويرب مركزا للأحداث ، حصار وسلب ونهب وخلافه. أدى إلى تدمير المدينة، ولم تسترد عافيتها وتعود إلى مركزها السابق في التجارة والنفوذ إلا بعد مدة طويلة.

لكن المدينة كان لها شئ آخر تفخر به. هو انتسابها للرسام الفلمنكي العظيم "روبينز". الذي أحيا عصر ازدهار الفن الفلمنكي من جديد. كان روبينز يعيش في أنتويرب البلجيكية، لكنه لم يولد بها.

أثناء الصراع الديني مع الإسبان، نفي والده. أول خيوط للضوء رآها روبينز، كانت عام 1577م، في قرية سيجين بألمانيا، في يوم الاحتفال بالقديسين بطرس وبولس، وتيمنا بهذه المناسبة السعيدة وطلبا للبركة، سمي روبينز ب "بطرس بولس"، أو "بيتر بول".

الأبوان كانا ميسورا الحال، من الطبقة الأرستقراطية. بطرس بولس كان الطفل السابع لهذه الأسرة. قرر أبواه توفير أفضل تعليم له. وكان يطلب منه، وهو طفل، التحدث مع والده باللغة اللاتينية، لغة العلم والثقافة والطبقة الأرستقراطية، والتحدث مع والدته باللغة الفلمنكية، ومع مدرسه الخصوصي باللغة الفرنسية.

توفى الأب عندما كان بطرس بولس في سن التاسعة. عادت أمه إلى مدينة كولونيا الألمانية لكي تعيش هناك. وضعت الأم صغيرها في مدرسة يسوعية، وهناك نشأ روبينز كاثوليكي روماني.

كان روبينز يحب العلم والدراسة. عندما بلغ سن العاشرة، كان يترجم من اليونانية، ويعزف على العود. كان يتقن وهو طفل ثلاث لغات، أضاف إليها فيما بعد اللغة الإنجليزية والفرنسية والإسباني والإيطالية.

كنوع من التربية القويمة، ولزيادة خصاله الحميدة، وضعته والدته في رعاية أحد السيدات النبلاء. لكنه، بعد سنة واحدة، مل حياة الترف والفراغ، فأخذ يلح في العودة

لدراسة الفن والرسم. إلا أن الأم لم تكن متأكدة من أي الخيارات أفضل بالنسبة للصغير روبينز.

بعد استشارة باقي أفراد الأسرة، تقرر أن الأفضل لروبينز أن يلتحق بمدرسة رسم مع أحد الرسامين المشهورين. لذلك، بدأ روبينز دراسة فن الرسم مع إثنين من الأساتذة. بعد ذلك، انتقل للدراسة في مرسم "فاينيوس" رسام بلاط الأرشيدوق ألبرت، حاكم البلاد المنخفضة. عندما نظر فاينيوس إلى لوحة أحضرها روبينز معه، صرخ من المفاجأة، لأنه اكتشف في اللوحة موهوبا سوف يتفوق على فنه.

ظل روبينز مع الرسام فاينيوس عدة سنوات. كان الأستاذ معجبا بقدرات روبينز ومؤهلاته. عندما بلغ الثالثة والعشرين من العمر، نصحه أستاذه بالذهاب إلى إيطاليا لتكملة دراسة فن الرسم هناك.

اجتمعت العائلة للمرة الثانية، ووافقت على سفر روبينز إلى إيطاليا. أعطاه الأرشيدوق خطاب تذكية، وسلسلة ذهبية لكي تذكره ببلاده في الغربة.

في عام 1600م، المليئ بالرجاء والأمل، غادر روبينز الشاب على ظهر حصان متوجها إلى إيطاليا. وصل إلى هناك بعد رحلة طويلة مضنية عبر طرق جبلية وعرة. كان روبينز يحب الألوان، لذلك سحرته مدينة البندقية وأعمال "تيتان" و"فيرونيزي".

في الواقع، تأثر روبينز بالأخص بأعمال "فيرونيزي"، إلى الدرجة التي جعلته يسمى في بعض الأحيان ب "فيرونيزي الشمال". لم يمكث كثيرا في إيطاليا. عندما قُدّم لدوق "مانتوا"، وشاهد أعماله، سحر بفنه وشخصيته. فعينه رساما للبلاط.

في مانتوا، رسم عدة لوحات، وقام بنسخ بعض الأعمال المشهورة لفانين كبار، كطلب الدوق. في المقابل، كان الدوق يمنحه هدايا ثمينة. كلما اقترب الدوق من روبينز وعرفه أكثر، ازدادت قناعته بأنه يصلح لكي يكون سفيرا عظيما. أخيرا، أرسل الدوق رسامه سفيرا لبلاده لدى ملك إسبانيا.

في ذلك الوقت، كانت شخصية روبينز قد نضجت وتكاملت. يتمتع بأخلاق عالية وعقل رصين خلاق مبدع، يتكلم سبع لغات. لقد كان الدوق محقا، هذه الخصال، جعلت روبينز دبلوماسيا رائعا طيلة حياته.

بدأ روبينز بعثته الدبلوماسية، حاملا هدايا قيمة لملك الإسبان. جواهر نادرة، وفازات ولوحات فنية، وعربة فاخرة تجرها ستة خيول مطهمة من نابلولي. السفر في تلك الأيام كان بطيئا. كان روبينز يمتطي صهوة جواد في ترحاله. في بعض الأحيان، عربة تجرها الخيول. أحيان أخرى، تجرها البغال أو الثيران عبر طرق وعرة.

في مدينة بيزا، أبحر في مركب شراعي. بعض الهدايا حدث لها تلف بسبب الأعاصير وأمواج البحر. ثلاثة شهور كانت مدة الرحلة. الطائرة تقطعها اليوم في أقل من ساعة. الباسبور الذي قدمه روبينز لبلاط فيليب الثالث في إسبانيا، كان يحتوي على الفقرة الآتية: "هذه أوراق بطرس بولس الفلمنكي. بطرس بولس سوف يقدم نفسه ويقول كل ما يليق بهذه المناسبة."

وتمتد الفقرة لتقول: "هذا الرجل الكفؤ، بطرس بولس، هو أيضا رسام بوتريه ممتاز. إذا رغبت سيدات المجتمع في رسم صور بورتريه لهن، فدعوهن يقتنصن فرصة وجوده بينكم".

بورتريه لروبينز، لوحة رسمها الفنان لنفسه

هنا في إسبانيا، كما كان الحال في إيطاليا، استقبل روبينز بحفاوة بالغة. قام برسم أعمالا فنية رائعة، منها لوحة بورتريه لفيليب الثالث ملك إسبانيا. دوق "مانتوا" كان سعيدا جدا بنجاح روبينز. عند عوته، قابله الدوق بالأحضان، راجيا أن يظل معه لا يفارقه. لكن بعد فترة، طلب روبينز أن يترك إيطاليا، لأنه لم يأت إلا للدراسة وليس للإقامة الدائمة.

الفلمنكي، كما كان يعرف في إيطاليا، كان يقابل بكل أنواع الاحترام أينما يذهب. في روما، رسم لوحة للبابا. قام بدراسة أعمال مايكل أنجلو، خصوصا تفاصيل العضلات في أجسام شخصياته. كان مهتما بلوحة "فولتيرا" المسماه "الهبوط من الصليب". ربما يفسر هذا العمل الرائع، أعمال روبينز العظيمة عن نفس الموضوع.

الهبوط من الصليب، روبينز

إيطاليا بالنسبة لروبينز كانت هي مغارة على بابا المليئة بالكنوز الفنية. أخيرا، جاءته رسالة من موطنه تخبره بأن والدته مريضة مرضا خطيرا. إذا أراد أن يودعها الوداع الأخير، عليه أن يسرع بالعودة. فقام روبينز بشحن لوحاته وأشيائه الثمينة بالبحر، وسافر هو نفسه عائدا عبر جبال الإلب.

لكن رحلة العودة كانت بطيئة. وصل روبينز متأخرا. فلم يلحق رؤية والدته التي كان يحبها حبا جما. سجن نفسه حزنا أربعة شهور بالدير الذي دفنت فيه، لا يغادره. ثم فكر في العودة إلى إيطاليا. إلا أن الأرشيدوق عرض عليه راتبا مغريا ورجاه البقاء كرسام للبلاط.

في عام 1609م، تزوج روبينز من الجميلة إزابيلا براندت. هي وطفلاها غالبا ما يظهرا في لوحاته. بني بيتا عظيما على الطراز الإيطالي. به استوديو رائع. وسط المنزل بهو كبير كان يجمع فيه لوحاته المنتقاه، ومجموعة فازات وتماثيل وجواهر وما شابه من التحف الفنية الثمينة.

بينما كان روبينز يبني بيته، تعدى بعض العمال على أرض الجيران. وكانت تخص نقابة الرماة. حلا للإشكال، طلبت منه النقابة رسم لوحة للقديس كريستوفر لكي توضع في مبنى النقابة. لكن روبينز فاجأهم برسم لوحة "حاملي المسيح".

هذه اللوحة موجوده الآن في كاتدرائية أنتويرب، المشهورة بأقواسها الداخلية العالية ونوافذها الملونة. الكاتيدرائية ، بها لوحتان أيضا مشهورتان لروبينز، لكن لوحة "النزول من الصليب" هي كنز الكاتيدرائية الذي لا يقدر بثمن.

النزول من الصليب، روبينز

عندما يرفع الستار عن اللوحة، نرى تسعة أشخاص تملأ اللوحة. كلهم في حركة. صورة جسد المسيح في مركز اللوحة وهو ينزل من على الصليب. على الجانب الأيسر، يظهر القديس يوسف الرامي وهو يقود عملة الإنزال.

القديس بطرس يقف في الجانب الأيمن على السلم. في أسفل الصورة، القديس يوحنا الحبيب يحمل الجسد. بالقرب منهم: مريم العذراء، ومريم المجدلية، ومريم ثالثة من بيت عنيا.

قد يكون الموضوع غريبا، بالنسبة لعمل يعتبر من روائع فن الرسم. لكن صورة المسيح المصلوب، التي رسمها هنا روبينز، في رأي بعض النقاد، هي أفضل صورة رسمها روبينز على الإطلاق.

هنا نرى تباين طبيعي، بين لون الجسد، ولون قماش الكفن الأبيض الناصع. الأم مريم، تمد ذراعيها تريد أن تحضن ابنها، المجدلية تركع في المقدمة وتمسك بقدم المسيح التي تستقر على كتفها، والتي بللتها بدموعها من قبل. صورة المجدلية هنا من أجمل النساء اللاتي رسمهن روبينز.

يوحنا يقف صامدا بردائه الأحمر يستند بقدمه على السلم. النور يشع من مركز اللوحة فيضئ الوجوه ويظهر التباين بين الحياة والموت. لوحة النزول من الصليب، زادت من شهرة روبينز بغير حدود. لم يحدث في تاريخ الفن أن بلغ أحد هذه الشهرة في هذا الوقت القصير. انهالت عليه الطلبات من كل حدب وصوب.

حياة روبينز كانت حياة منظمة. يستيقظ في الرابعة صباحا. يؤدي شعائر الصلاة، يتناول الإفطار، ثم يقوم بالرسم لساعات طويلة. ثم يخلد للراحة وتناول الغداء. يعود إلى الرسم حتى العصر.

بعد ذلك، يقوم بركوب خيله المفضلة لمدة ساعة أو ساعتين، ثم يقضي فترة المساء مع أصدقائه ومحبيه. الرسم أثناء الليل في ضوء المصابيح، يجعل الألوان غير دقيقة.

كان روبينز مغرما بالكتب. غالبا ما كان يقرأ له أحد الأصدقاء، بينما كان هو يقوم بالرسم. حب الأدب والاطلاع شئ طبيعي لمن يتقن سبع لغات. حياة أنيقة لكنها بسيطة. مليئة بالعمل المنتج المبهج والأفكار السعيدة.

في عام 1620م، دعته ماري دي مديشي، أم لويس الثالث عشر ملك فرنسا لزيارة باريس، لكي يرسم على جدران قصرها، قصر لوكسمبرج، مناظر مختلفة من حياتها.

هذا عمل هائل أنجزه روبينز بمهارة فائقة. اللوحات الآن موجودة في متحف اللوفر بباريس. لوحات ضخمة لمشاهد وشخصيات تاريخية. كلها رائعة وألوانها زاهية وحركاتها رشيقة طبيعية. هذه الشخصيات تبين عبقرية روبينز في التخيل والترتيب والتنسيق.

ماري دي مديشي كانت منبهرة بالرسام. وكانت غالبا تجالسه وهو يرسم، للتحدث إليه. كان يشرح لها لماذا يضيف إلى شخصياتها التاريخية، الكثير من آلهة وإلهات الإغريق والرومان.

روبينز كان يرسم بسرعة فائقة. ليوناردو دافنشي رسم لوحته الموناليزا في أربع سنوات. أما روبينز، فيقال أنه رسم ثمانية لوحات في ثمانية عشر يوما. وكان يقيم وقته ب 50 دولارا في اليوم الواحد.

في أحد الأيام، سأله أحد الكيميائيين مساعدة مالية لبناء فرن، وعده في المقابل، عندما ينجح في اكتشاف حجر الفلاسفة الذي يحول المعادن إلى ذهب، أن يشارك روبينز المكسب. أجابه روبينز وهو يشير إلى أحد لوحاته: "لقد أتيت إلي متأخرا عشرون عاما. أي شئ ألمسه الآن في هذه اللوحات يتحول إلى ذهب".

رسم روبينز كل الموضوعات المختلفة. أساطير وشخصيات فلمنكية، وأناس عادية يراهم كل يوم. وقام بتحويلهم إلى آلهة وإلهات أسطورية. ومعهم كان يضيف حيوانات مفترسة.

فينوس إلهة الحب والجمال تتزينو روبينز.

منظر ليلي، روبينز

في لوحاته الدينية، الشعب الفلمنكي يظهر كمادونات وريفيات ، أو حواريين وقديسين وشهداء. عبقرية روبينز تظهر في تجميع الشخصيات في وحدات دينية.

هذه لوحة وليمة هيرود:

وليمة هيرود، روبينز

موضوعاته التاريخية، أيضا من أحسن أعماله. في المناظر الطبيعية، لم يظهر الجبال أو البحر بكثرة. يفضل أن يظهر المناظر الطبيعية المحيطة بمنزله. قام أيضا برسم العديد من بورتريهات الملوك والأمراء واللوردات والسيدات بملابسهن ذات الألوان والنقوش الرائعة.

الملكة "آن" أم لويس الرابع عشر ملك فرنسا، روبينز

كان روبينز محبا للأطفال، وكانت له مقدرة نادرة لإظهار جمالهم وبراءتهم وحركاتهم الرقيقة في لوحاته. مجموعة أطفال ميونخ، يظهرون وهم يحملون الفاكهة والزهور في لوحة ساحرة. هذه لوحة كلارا سيرينا:

كارا سيرينا، روبينز

يمتاز روبينز بالخيال وترتيب المجموعات الكبيرة، وبالألوان الرقيقة والمتوهجة. يفضل اللوحات الكبيرة. يقول النقاد إن بعض الوجوه في لوحاته تنقصها الروح والشخصية، ولكن مَن مِن الفنانين حباه الله بكل شئ؟

تقوم تلاميذه، البالغ عددهم 200، بمساعدته في العديد من لوحاته. يقوم هو أولا بوضع الخطوط الأولية والهيكل العام للوحة. ثم يقوم التلاميذ بملء المساحات بالألوان تحت إشرافه.

يعهد بالخلفية المعمارية إلى مساعدين آخرين، وبالمناظر الطبيعية ورسوم الحيوانات إلى أخصائيين في هذه المجالات. بعد ذلك يقوم هو بالرتوش النهائية والتوقيع على اللوحة.

كان يقول لتلاميذه عندما يشعر بغيرتهم من مهارته: "أجد عملك، تجعل الآخرين يغارون منك. افعل الأحسن، وأنت تفوقهم جميعا".

في عام 1626م، توفيت زوجته الطيبة إيزابيلا براندت. ولكي يتغلب على أحزانه لفراقها، عاد للعمل كسفير من جديد، في لاهاي، ثم سفيرا لدي فيليب الرابع ملك إسبانيا. كان هناك مشهورا أيضا، بسبب شخصيته الساحرة.

إيزابيلا براندت زوجة روبينز الأولى، رسم روبينز

روبينز يبلغ من العمر الآن 49 سنة. قامت بينه وبين الرسام الإسباني فيلازكويز، الذي يبلغ من العمر 21 سنة، صداقة حميمة. بينما كان روبينز في إسبانيا، رسم لوحات رائعة للملك. الذي أرسله كسفير لانجلترا، لكي يوقع معاهدة سلام بين البلدين. مما أثبت أنه، بالاضافه لكونه رساما عظيما، هو أيضا دبلوماسيا بارعا.

تشارلز الأول، ملك إنجلترا كان ممتنا لروبينز ومعجبا به. جعله يرسم سقف قاعة مأدبة قصره. بينما كان يرسم، سأله أحد رجال البلاط قائلا: "هل السفير يسلي نفسه بعض الوقت بالرسم". أجاب روبينز على الفور: "لا، بل يسلي نفسه بعض الوقت بكونه سفيرا".

أنعم تشارلز الأول على روبينز بلقب فارس. أهداه سيفا مرصعا بالجواهر. ووضع سلسلة ذهبية حول عنقه. دوق باكنجهام، الوزير المفضل لدى الملك، عقد صداقة حميمة مع روبينز، وقام بزيارته عندما عاد إلى أنتويرب.

عندما رأى مجموعة روبينز المنتقاه التي يعرضها في صالة منزله، طلب شرائها بمبلغ 50 ألف دولار. تردد روبينز قليلا، لأن المجموعة تحتوي على لوحات نادرة لا تقدر قيمتها بثمن. ثلاث لوحات لرفائيل، 19 لوحة لتيتان، 13 لوحة لفيرونيزي، وأشياء أخرى.

لكن روبينز يحب المال. والمبلغ الذي عرضه الدوق، يسيل له اللعاب في ذلك الوقت. لذلك، قبل عرض الدوق. وفي الحال، بدأ في شراء مجموعة أخرى من اللوحات والأنتيكات. هذه الصفقة، سنت تقليدا جديدا بالنسبة لنبلاء إنجلترا، وهي أن كل نبيل، عليه أن يقوم بجمع ما يستطيع من أعمال فنية في قصره.

أخيرا، مل روبينز حياة السفراء. وقرر العودة إلى بلده للتمتع بالحياة كمواطن عادي. في عام 1630م، تزوج مرة ثانية. عمره الآن 53 سنة. عروسه، هي هيلينا فورمنت، صبية جميلة غنية عمرها 16 سنة.

لابد أنه كان واقعا في الغرام لشوشته، كما يقول المثل الشعبي. لأنه لم يكف عن رسمها ورسم عائلتها الصغيرة. قبعتها الكبيرة مميزة، ولون بشرتها صافي ونضر. تلبس ملابس باهظة الثمن.

روبينز وعائلته الصغيرة، زوجته الثانية وطفلته، رسم روبينز

زوجة روبينز الثانية وبناته، رسم روبينز

رسم روبينز صورة لاخت زوجته، كان معجبا بها جدا، لدرجة أنه لم يكن مستعدا لبيعها بأي ثمن. وكان يحملها معه أينما يذهب. اسم اللوحة "القبعة القش".

القبعة القش، أخت زوجة روبينز، رسم روبينز

قام روبينز برسم ما بين 1500 و 1800 لوحة. من الصعب الحكم عليها جميعا لمعرفة الأفضل. ليست جميعا بنفس المستوى. أعظم أعماله هي التي رسمها في السنوات الأخيرة.

بسبب مرض النقرس، تجنب اللوحات الكبيرة واكتفى باللوحات الصغيرة. عندما طال النقرس أصابعه، اضطر إلى ترك فرشته إلى الأبد. في عام 1640م، توفى روبينز بعد مرض مفاجئ.

عندما علم سكان أنتويرب بالأخبار الحزينة، التي انتقلت بسرعة إلى أجزاء كثيرة من أوروبا، تقبلوا الأنباء ببالغ الحزن والأسى. رتبت لجثمانه جنازة مهولة في كنيسة القديس جاكويز بأنتويرب، ودفن بها. ستون طفلا يتيما كانوا يحملون الشعلات ويسيرون في الجنازة.

21

الفن الفلمنكي(3)
فان دايك(1599-1641م)

هناك قصة تروى عن زيارة قام بها غريب ذو هيئة مهيبة إلى الرسام الهولندي الشهير "فرانس هالس". لم يكن هالس بالمنزل، فاستدعي على عجل لمقابلة الضيف. عند عودته، أخبره الغريب أنه قد سمع عن شهرته وتمكنه من فنه، غير أنه لا يملك من الوقت سوى ساعتين يمكن أن يقضيهما أمامه لرسم بورتريه له.

جلس هالس أمام الكانافا وأمسك بفرشته ولوحة ألوانه، وبدأ في رسم الغريب بكل ما أوتي من سرعة ومهارة حتى يتمها في الوقت المحدد. قبل مضي الوقت المحدد، قال هالس فخورا بنفسه، قم يا سيدي وشاهد ما قد رسمته حتى الآن.

وقف الغريب، وألقى نظرة على اللوحة وعبر عن رضاه، ثم قال: "الرسم يبدو عملا سهلا جدا. دعنا نغير المواقع، لكي أرى ما يمكنني أن أفعله". صدقه هانس، وجلس أمام الغريب. بينما أمسك هو بالفرشة ولوحة الألوان، وأخذ يمزجها بمهارة عالية ويرسم صورة بورتريه لهانس في وقت قياسي.

عندما رأى هانس صورته التي رسمها الضيف، صرخ قائلا، لابد أنك "فان دايك. لا أحد غيره يستطيع أن يرسم هكذا". ثم احتضن هانس ضيفه فان دايك، وصارا صديقين حميمين منذ ذلك الوقت.

أنطونيو فان دايك، بطل قصتنا، هو ابن تاجر حراير من أنتويرب. ولد في نفس المدينة عام 1599م. والدته كانت ماهرة في شغل التطريز. وكانت تبتكر الأشكال وتختار الألوان التي تمثل مناظر طبيعية على القماش.

أنطونيو، مثل روبينز، كان الابن السابع. كان طفلا نحيفا، يجلس بجوار والدته يراقبها وهي تطرز القماش بالإبرة وترسم نقوشا بديعة. ولابد أنه أخذ عنها عشقه للألوان بدرجاتها المختلفة.

الأم كانت عاشقة لفن الرسام العظيم روبينز. لذلك، كانت سعادتها غامرة عندما أرسلت ابنها في سن السابعة إلى استوديو روبينز لتعلم فن الرسم. هناك، في وقت قصير، أصبح فان دايك الطفل، أحسن مساعدي روبينز.

في عصر أحد الأيام، بينما كان الفنان روبينز يمارس رياضته اليومية، رياضة ركوب الخيل، قام التلاميذ الصغار، العفاريت، برشوة خادمة عجوز لأخذ مفتاح الأستوديو. كانوا يريدون معرفة ما يفعله أستاذهم داخل الأستوديو.

بينما كانوا في الاستوديو يتنقلون بين اللوحات، أخذ أحد الأطفال فرشة، غمسها في الألوان، وبلا مبالاه لمس بطرف الفرشة أحد اللوحات التي رسمت حديثا ولم تجف ألوانها بعد.

أصيبت الأطفال بالذعر الشديد، عندما رأوا أن هذه اللمسة، غير المسؤولة، غيرت من شكل ذقن ورقبة أحد الشخصيات في اللوحة. وتركت بقعة باهتة مكانها.

لم تدر الأطفال ماذا تفعل في مثل هذا الموقف الصعب. ثم خطرت لهم فكرة قد يكون فيها نجاتهم من العقاب. وهي محاولة إصلاح اللوحة وإرجاعها إلى ما كانت عليه. فمن يقوم بهذا العمل غير الطفل الموهوب بينهم، فان دايك.

قام الطفل فان دايك بوضع الرتوش على اللوحة وإصلاحها بطريقة بارعة وإرجاعها إلى أصلها، إلى الدرجة التي جعلت روبينز لم يلاحظ أي تغيير في لوحته في اليوم التالي.

لكن روبينز العظيم، بعد عدة أيام، اكتشف أن اللمسات الجديدة هي ليست لمساته، من ثم، عرف الحقيقة. وعرف أن فان دايك هو الذي قام بإصلاح اللوحة. لكن، سرورة بمهارة فان دايك وبما قام به، تغلب على غضبه مما حدث. وبدلا من لوم فان ديك، قام بالثناء عليه.

كان فان دايك يرسم جيدا. وكان روبينز يثق فيه، إلى درجة أنه كان يسمح له بعمل رتوش واسكتشات لبعض لوحاته. وكان تقدم فان دايك سريعا لدرجة أنه قبل في نقابة الفنانين في أنتويرب، وهو في سن التاسعة عشر. وفي سن العشرين، كانت بعض لوحاته تنافس لوحات أستاذه روبينز.

كان فان دايك طويل القامة، عيناه لامعتان، أشقر الشعر، يتحلى بالنبل والأخلاق الكريمة. كان قلقا لا يهدأ يعشق السفر. أستاذه روبينز، كان قد ذهب في شبابه إلى إيطاليا وتعلم هناك الكثير، لذلك قام بنصح تلميذه فان دايك بالذهاب هو الآخر إلى إيطاليا للدراسة والتعلم.

قبل فان دايك نصيحة أستاذه. قبل أن يغادر أنتويرب، أعطاه روبينز خطابات توصية لعدة دوائر حكومية. ومنحه واحدة من أحسن خيوله لكي يأخذها معه في رحلته. عندما وصل فان دايك الشاب إلى إيطاليا، وجد في البندقية أعمالا فنية رائعة، سحرته كما سحرت كل من زار البندقية قبله من الفنانين.

كان اهتمام فان دايك أثناء زيارته لروما، بنسخ أعمال تيتان. نسخ لوحة لتيتان، جاءت أفضل من الأصل. قام أيضا برسم بورتريه رائع للكاردينال "بنتيفوجليو".

الكاردينال بتيفوجليو، فان دايك

لكن فان دايك لم يكن يحب الحياة في روما، وكان يتشوق لمغادرة المدينة. كان بسبب طباعه وأخلاقه الراقية وملابسه الزاهية الفاخرة، يسمى في روما "الرسام الفارس"، ولم يسمحوا له بالدخول إلى نادي الفنانين.

لكنه، في مدينة جينوة الإيطالية، استقبل بحفاوة بالغة عندما علموا أنه طرف روبينز. طلب منه رسم بورتريهات لأفراد عائلات من النبلاء هناك. شخصيات هامة من الكنيسة وفرسان وأمراء ونبلاء وسيدات مجتمع بملابسهن الرائعة. بعض الشخصيات بلباس الفرسان، وآخرين بحلل حريرية وحلل من القطيفة وأشرطة لامعة عريضة.

بعضهم على ظهور الخيل، وآخرين وهم جلوس على أرائك وكراسي منقوشة فاخرة. عيونهم تتبع المشاهد عندما يمر أمام اللوحة في ردهات القصور أو في صالات العرض.

سيدة من نبلاء جينوة مع طفلها، فان دايك

روبينز يبكي زوجته ويلقى عليها نظرة الوداع هو وأطفاله، فان دايك

كان أهل جينوة ممتنين لفان دايك، لما تركه من أعمال فنية رائعة لمدينتهم. هنا في جينوة أو في صقلية، قابل فان دايك سيدة عجوز عمياء، عمرها يقترب من ال100 سنة.

كانت رسامة في شبابها وصديقة للفنان تيتان. قام فان دايك بالتحدث معها مرارا. يقول فان دايك، أنه تعلم من هذه السيدة أسرار فن الرسم، أكثر مما تعلمه في أية مدرسة أو من أي أستاذ.

بعد أن قضى فان دايك أربع سنوات في إيطاليا، عاد إلى أنتويرب. عاش بها عدة سنوات، وقام بما يمليه عليه الواجب نحو مدينته، فقد رسم لهم العديد من اللوحات لتزيين المدينة.

معظم لوحاته الدينية كانت بطلب الكنائس. لم تكن صارخة بالألوان كأعمال روبينز، ولكن ألوانها كانت أرق وأقل حدة، ووجوه شخصياتها أكثر تعبيرا ودلالة. الرثاء الذي كان يضعه على هذه الوجوه، يمس القلب. صور المادونا رائعة شاعرية. هذه صورة مريم والطفل والقديسين:

مريم والطفل والقديسين، فان دايك

كان فان دايك هو رسام البورتريه لمدينة أنتويرب. كان يدين بالفضل لأستاذه روبينز. لكنه كان يضع على وجوه شخصياته الروح وانفعالاتها الداخلية. كانت أجسام شخصياته تتسم بالأناقة والكبرياء. وهو في هذا فاق أستاذه روبينز.

موسى والسحرة، فان دايك

كانت لوحات فان دايك باهظة الثمن، الأثرياء فقط هم القادرون على تحمل ثمن لوحاته. الأثرياء يأتون إليه مع زوجاتهم وهن يلبسن أفخر الثياب المطعمة بالجواهر، شعورهن محلاة باللؤلؤ. التجار المارون بالمدينة، يتوقفون لكي يجلسون أمام فان دايك.

الزبون يجلس أمامه مدة ساعة واحدة كل جلسة. ثم يقف فان دايك، منحنيا معلنا انتهاء الجلسة لكي ينصرف الزبون. ثم يأتي من ينظف الفرش ويغير لوحة الألوان ويبدل اللوحة وينظف المكان، استعدادا لزبون آخر. في أول جلسة، يقوم فان دايك برسم حدود اللوحة بالطباشير على ورق رمادي. ثم يترك اللوحه لمساعده لكي يرسم الملابس بالزيت. بعد ذلك يأتي فان دايك لكي يرسم الوجه واليدين.

كان غالبا ما يدعو زبائنه إلى تناول الطعام والحديث معه. لأنهم أثناء الحديث، ينسون أنفسهم وتسترخي أعصابهم وأجسامهم. فيستطيع فان دايك اقتناص تعبيرات وجوههم الطبيعية التي غالبا ما تهرب منهم أثناء الجلسات.

قبل زمن فان دايك، لم تكن إنجلترا تهتم بفن الرسم. زارها فان دايك مرة أو مرتين، كنوع من الدعاية لفنه. لكنه فشل في ذلك. بعد أن شاهد دوق أروندیل أحد لوحاته، دعاه إلى إنجلترا لكي يكون رسام بلاط تشارلز الأول ملك إنجلترا.

فان دايك، الذي كان يبحث دائما عن موضوعات جديدة للوحاته، كان سعيدا بهذا العرض. في عام 1632م، وصل إلى لندن. هناك قوبل بحفاوة بالغة، وكان الملك معجبا بأخلاقه وسحر شخصيته.

المرتب كان 200 جنيها استرلينيا. خصص له منزل شتوي على ضفاف نهر التايمز. بجواره، خصصت استراحة ملكية، تنزل بها العائلة الملكية بعد أن تبحر في صندل ملكي من قصر وايتهول إلى استوديو فان دايك. منح فان دايك، أيضا، قصرا ريفيا في ضواحي لندن. خصص له الخدم والخيول وكل ما يحتاجه لكي يحيا حياة الملوك. كان إعجاب تشارلز الأول بالرسام يزداد يوما بعد يوم.

عندما كان الملك يريد الراحة، بعد أداء أعبائه اليومية، يأخذ الصندل الملكي ويبحر عبر نهر التايمز إلى الاستوديو. هناك، كان يجلس ليراقب فان دايك وهو يرسم، ويستمع إلى حديثه العذب. بذلك، كان ينسى القلاقل والأحداث الرهيبة التي تدور في مملكته، والتي أدت في النهاية إلى إعدامه عام 1649م.

لأن الملك كان يرتاد استوديو فان دايك بكثرة، أصبح الاستوديو مزارا للنبلاء، وأصبحت زيارته موضة بين رجالات لندن أصحاب النفوذ. وكان فان دايك مشغولا طول الوقت برسم العائلة المالكة. لوحاته جعلتنا نتعرف على هذه الوجوه الملكية وخصوصا وجه الملك نفسه.

لا أقل من 36 مرة بين لنا فيها فان دايك ملامح هذا الملك الغير سعيد الحظ. بعض اللوحات تظهره وهو في ثوبه الملكي. كثيرا من المرات وهو وسط عائلته أو في رحلة صيد. أحد اللوحات المشهورة، موجودة حاليا في متحف اللوفر بباريس، تظهر الملك وهو على حافة غابة. في الجانب الآخر، الأرض تنحدر لتلقى البحر. الملك لتوه قد ترجل عن صهوة جواده الرائع، رمادي اللون.

تشارلز الأول ملك إنجلترا في رحلة صيد، فان ديك

يلبس الملك قبعة سوداء كبيرة، جاكت أبيض ستان، سروال أحمر، وحذاء أصفر برقبة طويلة. سايس الحصان يمسك لجامه بقلق بالغ، والتابع يحمل معطف الملك على ذراعه ويقف خلفه.

كان فان دايك مولعا برسم الخيول، يضع صورها في لوحاته كلما استطاع. بعضها يشبه الخيول الحقيقية تماما، وتعتبر الأجمل بين كل الخيول التي يمكن أن يرسمها فنان.

الملكة "هينريتا ماريا" جلست 25 مرة أمام فان دايك. تلبس دائما ملابسا ملساء لامعة، كان يحب فان دايك أن يظهرها في لوحاته، مع أطفالها الصغار.

الملكة هنريتا ماريا، فان دايك

الأطفال الصغار، بسبب لوحات فان دايك، يمكن أن نعرف صورهم جميعا، حتى الطفلة "آن"، التي عاشت إلى أن رسمها فان دايك، ثم توفيت بعد ذلك.

أطفال الملك تشارلز الأول، فان دايك

تظهر الأطفال في اللوحات، بملابسهم الحريرية اللامعة ذات الألوان البراقة. بالرغم من أننا ننسى أن هذه اللوحات رسمت منذ مدة طويلة.

كان فان دايك يحب الموسيقى. وكان يبهج زبائنه أثناء جلساته، بعزف فرقة موسيقية خصيصا لهم. كانت صوره للكلاب رائعة وكذلك الخيول والحيوانات الأليفة.

الأسرة المالكة والنبلاء واللوردات، بعد أخذ صور لهم ولعائلاتهم، يقومون بتعليقها على حوائط قصورهم، بعضها لاتزال موجودة في البيوت القديمة إلى اليوم.

أثاء وجود فان ديك في إنجلترا، قام برسم ما يزيد على 300 لوحة. أسس هناك "نادي القديس لوقا" للرسامين. أنعم عليه تشارلز الأول بلقب فارس، كما سبق أن أنعم على روبينز بلقب فارس من قبل. وأهداه سلسلة ذهبية.

مرت سنتان على فان دايك في لندن، وكل شئ يبدو على ما يرام. ولكن، أصبح ما يكسبه من فنه، لا يغطي حياة البذخ والترف التي أصبح يعيشها. هذا شئ حزين بالنسبة لفان دايك، لأن إنجلترا أصبحت تمر بأيام عصيبة وقلاقل سياسية وحروب أهلية. بعد مدة، رفض البرلمان منح الملك أية نقود.

لم يعد فان دايك، يقبض راتبه المخصص له. بالإضافه إلى اعتلال صحته، والحزن الذي غمره، عندما رأى راعيه الملك محاطا بالأحزان والأخطار. فتراكمت عليه الديون ولم يعد يستطيع الوفاء بها. في ميعادها.

لم يستطع فان دايك، التحول إلى رسم الحيطان وعمل ديكورات القصور الكبيرة، مثل روبينز من قبل. لأنه لم يكن هناك نقودا في البلاد يسمح بصرفها على الفن. كان عليه أن يأتي بالنقود بأي شكل. فالتجأ إلى شغل الكيمياء، مثل الكثيرين من الحمقى في ذلك الوقت. لكي يجدوا سر تحويل المعادن إلى ذهب. لكنه لم يجد الكنز الذي كان يبحث عنه.

عندما علم الملك بحالته، نصحه بالزواج. واختار له "ماري روثفين". فتاة فقيرة ولكنها من سلالة عريقة. سافر فان دايك قليلا مع زوجته، ولكنه كان يزداد حزنا ويأسا بسبب إفلاسه وعدم إمكانه ممارسة مهنته.

حاول الملك، بالرغم من متاعبه، إرسال طبيبه الخاص لعلاج فان دايك، ولكن دون جدوي. توفي فان دايك في لندن عام 1641م، سنة واحدة بعد وفاة روبينز في أنتويرب.

كان عمر فان دايك عند وفاته، 43 سنة. بالرغم من قدرته الفائقة على رسم الموضوعات الدينية والتاريخية، إلا أنه يحتل مكانة عالمية فريدة بين رسامي البورتربهات التي تطابق الأصل.

22

الفن الهولندي(1)
رامبرانت(1606-1669م)

في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، كان الاحساس العام بين محبي الفنون التشكيلية، هو أن فن الرسم بلغ أوجه. بسبب ظهور مايكل أنجلو ورفائيل وتيتان وليوناردو دافنشي.

لقد مزج هؤلاء الفنانون، الجمال بالهارموني مع الصدق، وتفوقوا على أعمال من سبقوهم من الإغريق والرومان القدماء. لم يعد ما يمكن عمله بالنسبة للفن، لكي يتقدم أكثر من ذلك. ولم يعد يبقى للفنانين الشبان الجدد سوى التقليد. لكن التقليد مهما كانت جودته، لا ينقل روح العمل الأصلي بأمانة.

لذلك سوف نجد بعض الفنانين في هذه الفترة، يرفضون أن يعيشوا في ظل العباقرة، "لن أعيش في جلباب أبي". وبدلا من التفوق على فن من سبقوهم الذي بلغ الذروة، كان عليهم أن يسلكوا منحا مختلفا.

من هؤلاء، رسام يوناني كان يعيش في جزيرة كريت. له اسم طويل، ولكن شهرته "الجريكو"، 1541 – 1614م. أتي إلى مدينة فنيسيا من جزء معزول عن العالم. لم يكن مدربا على النظر إلى الصور والأشكال بأبعادها المناسبة.

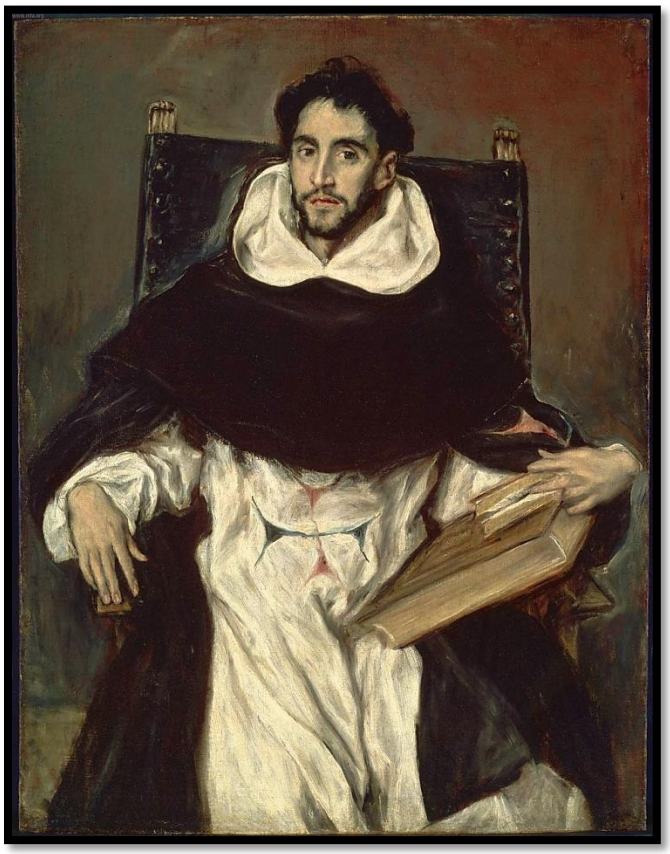

بورتريه ل هورتنسيو بارافيشينو، الجريكو

تأثر الجريكو بفنان آخر، تينتوريتو. أخذ عنه الكثير، التكوين الفني، والمبالغة، وإطالة الأشكال في اللوحة. بعد جيل واحد، بدأ النقاد ينظرون إلى لوحات الجريكو كنكت سخيفة أصابت الفن.

لكن، بعد الحرب العالمية الأولى، عندما علمنا من الفن الحديث، ألا نطبق نفس القواعد والأساليب على كل أنواع الفنون، بدأنا نكتشف ونفهم فن الجريكو من جديد.

مثال آخر للتفكير خارج الصندوق ومبدأ لن أعيش في جلباب أبي، هو الرسام العظيم الفلمنكي "بيتر بروجل"، 1525 – 1569م. نعرف القليل عن حياته، فيما عدا أنه كان موجودا في إيطاليا. عاش ورسم كل لوحاته في أنتويرب وبروسيلز بروسيا.

نوع اللوحات التي كان يحب بروجل رسمها، هي مشاهد من حياة الفلاحين والبسطاء الفلمنك. أعظم لوحات بروجل الكوميدية، هي لوحة "فرح ريفي".

فرح ريفي فلمنكي (شمال بلجيكا)، بروجل

بالطبع، كل اللوحات، تفقد الكثير عندما نشاهد نسخة طباعة منها بدلا من الأصل. نفقد التفاصيل الدقيقة وصدق الألوان وتأثير الحجم الحقيقي للوحة. لكن هذا لا يمنعنا من التمتع بما يمكن الحصول عليه.

الفرح الريفي أقيم في جرن أو مخزن من مخازن الفلاحين. بالات القش تظهر من الباب في خلفية الصورة. العروس تجلس أمام ستارة زرقاء، معلق في وسطها طاسة مربوطة بحبل كنوع من الزينة.

العروس جالسة في هدوء وسكينة على رأسها تاج. تضم يديها، وتدل ملامحها الغبية على الرضا والسعادة. السيدة والرجل العجوز بجوارها ربما هما أبواها. بينما الشاب الذي يجلس بعيدا، يمسك بيد طبقا وبالأخرى ملعقة يزدرد بها الطعام، هو العريس.

كل المدعوين على مائدة الطعام، مشغولين بالأكل أو الشرب أو طلب المزيد. على شمال اللوحة، نجد رجلا يملأ وعاء فخاريا بيرة من جرة كبيرة، وعلى الأرض بجواره، أوعية كثيرة فارغة.

بينما يحمل أطباق الثريد أو المهلبية رجلان، على لوح خشبي، ويلبسان مرايل بيضاء. أحد الضيوف، يساعد نفسه ويأخذ بيده أحد الأطباق، ويقوم بالمناولة. في الخلف، زحمة بالباب تريد الدخول.

أحد أفراد الفرقة الموسيقية، ينظر إلى الطعام الذي يمر أمامه، بنظرة أنسته العزف، كلها يأس وحرمان، تمزق القلب وتثير الشفقة. اثنان على اليمين يتبادلان أطراف الحديث. وطفل على اليسار يلبس قبعة أكبر من رأسه بها ريشة طويلة، لا بد أنها قبعة والده، يمسك بطبق ويلعق أصابعه.

اللوحة بها ثراء نادر، مليئة بالحكايات والملاحظات. لكن بروجل، نظم كل هذه الشخصيات في اللوحة، بحيث لا تبدو مزدحمة أو مربكة للمشاهد. بروجل لم يكن يبحث هنا عن الجمال أو القصص الدينية أو الأساطير الإغريقية.

بروجل في هذه اللوحة، التي تبين حركة مجموعات تحكي لنا قصة، يكون قد اكتشف أسلوبا وعالما جديدا من عوالم الفن، تبعه الكثير من الفنانين إلى نهايته، وخصوصا فناني الأراضي المنخفضة (هولندا).

عندما حصل الأمير ويليامز على استقلال هولندا من إسبانيا، ظهر هناك نوع جديد من الفن. مع الحرية السياسية، جاءت أيضا حرية في الفنون، أدت إلى ظهور مدارس عديدة رائعة.

الفن الإيطالي، كما أسلفنا سابقا، ملئ بصور الأساطير والقديسين والملائكة. أما الفن الهولندي، فهو لا يهتم بقصص الأساطير. إنما جل اهتمامه، تخليد صور الرجال الشجعان الذين ساهموا في نيل الحرية والاستقلال والازدهار لبلادهم.

الفنان الإيطالي يحب اظهار سماء بلاده الزرقاء الصافية ومناظر التلال والجبال، بينما الهولندي، يحب اظهار السماء الملبدة بالغيوم ومناظر الوديان والأنهار وطواحين الهواء. كلما كانت الدنيا غيام في الخارج، كلما ازداد توهج النار في المدفأة وسطع الضوء الذهبي في الداخل.

خير من يمثل العصر الذهبي للفن الهولندي في هذه الحقبة هو الرسام "رامبرانت". ولد رامبرانت في مدينة ليدن عام 1606م. مدينة ليدن، معروفة ببساتينها المثمرة وحدائقها الغناء. مشهورة تاريخيا بسبب حصارها في الحرب، بالإضافة إلى سمعة جامعتها العظيمة.

والد رامبرانت كان طحانا، رامبرانت كان أذكى أعضاء الأسرة. لذلك قرر الوالد أن يعده لكي يكون إما كاهنا أو محاميا. من ثم، أرسله إلى مدرسة لاتينية. بعد ذلك، إلى جامعة ليدن. لكن رامبرانت لم يكن مهتما بالكتب والدراسة الأكاديمية.

كان اهتمام رامبرانت، بدراسة الأشكال في الطبيعة والوجوه والصور المرسومة على جدران القصور. أنذره والده بأنه إن استمر على هذا المنوال، لن يرى الغنى في حياته. رد رامبرانت بسؤاله: "هل سمعت عن ثروت الفنان روبينز أو الفنانين الفلمنك؟" ثم أضاف: "لماذا لا أكون غنيا بنفس الطريقة؟"

عندما قوبلت نصائح الأب بالرفض مع إصرار الابن، أرسل رامبرانت إلى أحد الرسامين لكي يختبر مواهبه ومقدرته على الرسم. بعد ثلاث سنوات قضاها رامبرانت مع رسام في ليدن وآخر في أمستردام، شعر رامبرانت الشاب أنه قد تعلم ما فيه الكفاية، ثم عاد إلى منزلة لدراسة الطبيعة.

أقام رامبرانت استوديو لنفسه. وبدأ يفتح النوافذ ويغلقها، لكي يدرس تأثير الضوء والظل على الأشكال. كان يتريض بالمشي مسافات طويلة، يستمتع بالمناظر الخلابة، ويراقب التعبيرات على وجوه من يقابلهم في الطريق. نجح في بيع لوحة له في البداية بمبلغ كبير، مما أسعده وأسعد معارفه.

بدأ يرسم أفراد أسرته، مرارا وتكرارا. لوحات قليلة أوضح فيها ملامح أمه القوية التي كان يحبها حبا جما.

بورتريه رائع لوالدة رامبرانت، رسم رامبرانت

كانت أمستردام، في ذلك الوقت، مدينة كبيرة مزدهرة. بها الجداول الكثيرة والجسور. وكانت تسمى "فنيسيا الشمال". شوارعها مزدحمة بالتجار، وموانيها زاخرة بالمراكب الشراعية المحملة بالبضائع من كل أنحاء العالم.

كانت أمستردام وطن الكثير من الفنانين والأدباء. في عام 1630م، قرر رامبرانت الانتقال إلى أمستردام لكي يعيش هناك. أبحر عبر القنال، وعند وصوله، أقام أول استوديو له في العاصمة.

في عام 1632م، رسم لوحة "درس في التشريح". وهي لوحة تهم فقط المشتغلين بالطب والجراحة. إلا أنها شهرت فناننا الشاب. لأن وجه المدرس في اللوحة الدكتور "تولب" ووجوه تلاميذه، جاءت شبيهة بالأصل إلى حد كبير.

شرح طبي في التشريح، رامبرانت

بعد رسم هذه اللوحة، تهافتت التلاميذ على استوديو رامبرانت. خصص لكل منهم مكانا منفصلا. رامبرانت كان يعتقد أن التلميذ يتعلم أسرع عندما يعمل بمفرده.

ثم أصبح رامبرانت بسرعة، رسام أمستردام المفضل. التجار الأثرياء ونساء العائلات كن يتهافتن على مرسمه لرسم بورتريهات لهن. وكانت أسعاره مرتفعة بالمقارنة بالرسامين الآخرين في وقته.

كان لدى رامبرانت صديق يدعى ""هندريك فان يلينبورش"، له متجر يبيع فيه الأنتيكات والتماثيل الصغيرة. هذا هو المكان المفضل لدي رامبرات، وكان يحب أن يقضي فيه أطول وقت ممكن.

كان يقابل رامبرانت في هذا المكان، ساسكيا يلينبورش، الفتاة اليهودية ابنة عم صاحب المتجر. ساسكيا أيضا، كانت من المعجبات بفن الرسم وتحب الفرجة على اللوحات.

لم تكن ساسكيا جميلة بالمقاييس المتعارف عليها، ولكنها كانت رقيقة، بكر، بوجه صبوح وشعر مموج كستنائي. طلبت من رامبرانت أن يرسم بورتريه لها.

كلما نظر رامبرانت إلى عينيها، كلما وجد شيئا فيهما يناديه نحو الأعمق، كما يقول شاعرنا الرائع نزار قباني. وبما أن رسامنا الشاب ليس عنده تجربة ولا زورق، وقع في غرام ساسكيا.

ساسكيا كانت ثرية، أرستقراطية، لم تتخطى الواحد والعشرين ربيعا. وكان عمر رامبرانت في ذلك الوقت 28 سنة، في بداية شهرته. في عام 1634م، تزوج رامبرانت وساسكيا.

قام رامبرانت بعد ذلك، بشراء منزلا جميلا، وجعله متحفا. ملأه بتحف الأثاث والأسلحة والتماثيل المنحوته والنصفية، والمجوهرات واللوحات والطيور المحنطة والأسلحة البدائية للهنود الحمر، وغيرها من الأنتيكات. لم يكن أي سعر لهذه الأشياء يوقفه عن شرائها وضمها إلى مجموعته.

كان يحب رامبرانت أن يظهر صورة ساسكيا في لوحاته، بفساتينها المختلفة وحليها الثمينة. ولكي نعرف رامبرانت جيدا، يجب أن نتعرف على زوجته، من خلال الصور الكثيرة التي رسمها لها. فهي تارة إلهة الزهور "فلورا"، وتارة أخرى العروس اليهودية أو الأميرة.

هذا بورتريه لساسكيا عام 1634م، يصورها كإلهة الزهور "فلورا".

ساسكيا إلهة الزهور وزوجة رامبرانت، رسم رامبرانت

في صالة العرض بمدينة درسدن بألمانيا، لوحة تبين ساسكيا وهي تجلس على حجر رامبرانت.

رامبرانت وزوجته ساسكيا في حالة نشوة وسعادة، رامبرانت

هي تلبس الملابس الفاخرة، ويظهر رامبرانت كفارس، بمعطف قطيفة وقبعة محلاه بريش النعام. يبدو مرحا في غاية السعادة. يرفع بيده كأسا طويلا مليئا إلى منتصفه بالبيرة. وهي تبدو على ملامح وجهها علامات الرضا والاطمئنان.

هذه اللوحة تبين لنا اللون البني الداكن الذي يحب أن يظهره رامبرانت في لوحاته. اللوحة مليئة بالثراء الذي يظهر في الملابس الفاخرة والجواهر الثمينة التي تتحلى بها ساسكيا. لكن ساسكيا كانت تستحق أكثر من ذلك، لأنها نفسها، كانت أغلى جوهرة في حياة رامبرانت.

إلى جانب صور ساسكيا الكثيرة، ترك لنا رامبرانت صورا كثيرة لنفسه أكثر من أي فنان آخر. ظهر لنا، وكذلك ساسكيا، في كل أنواع الثياب المعروفة في ذلك الوقت، محلاة بالسلاسل الذهبية والجواهر والقبعات ذات الريش الملون.

رامبرانت في صورة راعي أغنام، رامبرانت

رامبرانت بقبعة وسلسلة ذهبية، رامبرانت

كان رامبرانت موديل نفسه. كان يقف أمام المرآة، يدون الملاحظات ويرسم كل أنواع تعبيرات الوجه. كل تجاعيد الوجه أثناء الضحك أو البكاء، كانت تدرس بعناية. وكان يلاحظ مساقط الضوء والظلال على الوجه والجسد.

لوحة بورتريه لنيقولا رتسو، رامبرانت

رسم أيضا بورتريهات لكل الناس بكل أشكالها ومراكزها الاجتماعية. لأنه كان يريد تسجيل كل أنواع التعبيرات الإنسانية التي تظهر على وجوه البشر. وكان يهتم بصفة خاصة بالفقراء والمغبونين. وما يبدونه من حزن مكتوبا على الجبين.

بورتريه لرجل عجوز، رامبرانت

عجوز آخر يؤدي الصلاة، رامبرانت

رجل يلبس خوذة ذهبية، رامبرانت

صور الشحاذين التي رسمها رامبرانت وحدها، تملأ معرضا كاملا. وكذلك صور اليهود والصعاليك الذين يتوافدون على باب منزله. وجوه كبار السن التي رسمها رامبرانت نجدها مطبوعة بالملامح الواضحة التي لا تنسى.
بورتريه لامرأة عجوز.

إمرأة عجوز، رامبرانت

البورتريه السابق يظهر سيدة عجوز بوجه ويدين تملأهما التجاعيد، غطاء رأسها يلقي بظلاله على وجهها، الذي يبين حزن عميق، وذهن شارد مع ذكريات قديمة وزمن ولى ولن يعود. يداها اللتان كانتا مشغولتان دوما، الآن مع تقدم السن، أصبحتا لا تقدران على العمل، فقبضتهما ووضعتهما في حجرها.

لوحة بديعة تحكي لنا قصة الحياة بكل عمقها وبؤسها. فالزهور تذبل والشباب يهرب وأجيال تولد وأجيال تذهب. ولا نستطيع أن نوقف الزمن أو أن نفعل لذلك شيئا.

لكن أهم من التعبير والإيحاءات والعواطف التي يضعها رامبرات في لوحاته، هي توظيفه للضوء والظلال. يسلط رامبرات ضوء قوي على المواضيع أو الأعمال الهامة في لوحاته. باقي اللوحة تستحم في ظلام دامس أو ظلال شفافة أو كثيفة.

تلاميذه لا يعرفون كيف يقلدون رامبرانت في هذا الأسلوب، مهما راقبوه عن كثب وهو يعمل. وقف أحد التلاميذ يراقبه وهو يرسم، فصرخ فيه رامبرانت لكي يبعد قائلا: "الألوان مضرة بالصحة ولم تعمل لكي نقف نستنشق رائحتها".

السنوات السعيدة تمر بسرعة. في عالم الفن، لا يمكنك إرضاء كل الأذواق. وبينما كان رامبرانت يواصل رسم البورتريهات للزبائن، بدأ النجاح والشهرة والثقة بالنفس تلعب برأسه. صار عصبيا غريب الأطوار. كان يضحي بالجمال في لوحاته طلبا للتعبير القوي ذي الدلالة. لا يأخذ في الاعتبار رغبة الزبون الذي يريد أن يظهر في أجمل صورة ممكنة.

هو يبحث عن موضوع فني يصلح للمتاحف، والزبون يريد أن يعود بصورة جميلة له يعلقها في الصالون ليبهر بها أصدقائه ومعارفه. لذلك مل رامبرات رسم الزبائن بأجر، وعاد لرسم موضوعات فنية مختلفة.

في عام 1642م، رسم رامبرانت لوحة ضخمة بعنوان "حراس الليل".

حراس الليل، رامبرانت

في هولندا، كل مدينة أو قرية لها حرس مكون من شخصيات بارزة في المجتمع. يحملون على أكتافهم تنظيم وإدارة وأمن المدينة. فرانز بانج كوك، كان في ذلك الوقت كابتن الحرس المدني في مدينة أمستردام. طلب من رامبرانت رسم صورة له ورجاله.

في اللوحة، نرى 23 شخصية بالحجم الطبيعي. هم مستعدون للاستدعاء السريع عند الطلب. اختار رامبرانت لحظة عدم استقرار وفوضي في المدينة، أدت إلى استدعاء الحراس على عجل. الحراس هنا يتأهبون للذهاب للنجدة.

كابتن كوك يظهر كرجل أرستقراطي، يلبس معطفا أسود يزينه شريط أحمر عريض من الحرير. يقف وسط اللوحة يعطي الأوامر. يده المرفوعة تلقي بظلالها على المعطف الأصفر للضابط الذي يقف بجواره. وهي ظلال لن تجد مثيلا لها في عالم فن الرسم في أي عصر من العصور.

الطبال ينادي على باقي الفرقة بالنقرزان. فارس يلبس حلة حمراء، يشحن بندقيته بالبارود. حامل الراية يرفعها عاليا في الهواء. فتاة صغيرة تلبس ملابس زاهية وتعلق في جانبها فروجا أبيض. الحرس وحاملي الحراب على أهبة الاستعداد.

هذه اللوحة مليئة بالحركة والحياة. ألوانها رائعة، تبين أسلوب رامبرانت المميز في توظيف الضوء والظلال لخدمة العمل الفني. عندما نزور متحف ريكس في أمستردام، حيث توجد اللوحة، نتحقق لماذا تعتبر هذه اللوحة بالذات، من روائع اللوحات العالمية التي رسمت حتى الآن.

اسم اللوحة "حراس الليل"، لكن في عام 1889م، عندما نظفت من التراب والدخان العالق بها، ثبت أنها رسمت لكي تمثل مشهدا أثناء النهار. ولكن هذا لا يغير شيئا، فسواء كان مصدر الضوء الشمس أو القمر، لا يسعنا إلا القول بأن المصدر الحقيقي للضوء، هو عبقرية رامبرانت التي لا تتكرر كثيرا.

هذه اللوحة لم تضف شيئا جديدا إلى شهرة رامبرانت التي بلغت الآفاق. الحراس كل منهم وعد بأن يسدد نصيبه في تكاليف اللوحة. لأن صورته كانت تظهر مطابقة للأصل.

كان يلبسهم رامبرانت ملابس من عنده ويأخذهم في الاستوديو لرسمهم واحدا تلو الآخر. لكن لم يقم بسداد نصيبه من تكلفة اللوحة إلا عدد قليل، بحجة أن معظم الحراس ظهروا في الظل، لذلك لم يقوموا بسداد ما وعدوا به.

الرسام "فان دير هيست"، أصبح الآن مشهورا كرسام بورتريه، بعد أن زهد رامبرانت في عمل البورتريهات. لكن هذا لم يؤثر كثيرا في نفسية رامبرانت. لأن أيام السعادة قد ولت. وساسكيا، زوجته وحبيبته وأجمل شئ في حياته، كانت تحتضر بعد زواج لم يدم سوى ثمان سنوات فقط.

أصبح رامبرانت وحيدا، ولم يجد غير عمله يدفن فيه حزنه وآلامه. تكالبت عليه الأحزان بمرور الوقت، وأصبح عصبيا للغاية. وكان يكتفي بأكل العيش والملح، أو العيش مع قطعة من الجبن وهو يرسم لوحاته.

كان رامبرانت يحب أن يقرأ الإنجيل. لوحاته الدينية رسمها في هذا الوقت الحزين. كان يعتقد أن قصص الإنجيل يجب أن يمثلها ناس بسطاء. وكان يأخذ موديلات للوحاته الدينية من الجالية اليهودية بأمستردام.

هذه لوحة "العشاء في رابطة ايموس" التي رسمها رامبرانت للسيد المسيح.

العشاء في رابطة إيموس، رامبرانت

العشاء هنا حدث يوم الأحد، بعد قيامة المسيح. الغرفة بيت من بيوت الناس الفقراء. اثنان من تلاميذ المسيح يجلسون على طاولة بدائية. يشبهون إلى حد كبير الفلاحين الهولنديين.

صور رامبرانت لحظة اكتشاف أن الزائر هو السيد المسيح، بعد قيامته من القبر. الدهشة مرسومة على وجهيهما. وجه المسيح المعبر، الذي لا نجد له مثيلا في تاريخ الفن، يحكي قصة ماحدث بدون كلام.

لا نرى مصدر النور الذي يغمر وجه المسيح ثم ينعكس على مفرش الطاولة بالضياء الساطع. باقي الغرفة تغرق في الظلام الدامس.

لا نعرف الكثير عن حياة رامبرانت الأخيرة. غير أنه قد تزوج مرة أو مرتين بعد ساسكيا. لم يكن رامبرانت يجيد فن الاقتصاد المنزلي. وكان ينفق بإسراف، أدي في النهاية إلى أن أصبح فقيرا معدما.

كان عليه أن يبيع منزله وكل مجوهرات ساسكيا التي كانت تتحلى بها في صورها. باع أيضا كل ما يملك من تحف ولوحات، جمعها أو رسمها من قبل. إلا أنه كان لا يزال يرسم. في الواقع، رسم في هذه الفترة أجمل أعماله على الإطلاق، وهي لوحة: "أعضاء نقابة صانعي الملابس".

أعضاء نقابة صانعي الملابس، رامبرانت

كان في هولندا الكثير من النقابات الثرية. يمتلكون صالات فاخرة للاجتماعات. جدران هذه الصالات كانت تزين باللوحات الفنية والبورتريهات الخاصة بالأعضاء.

صور رامبرانت أعضاء النقابة، والضوء مسلط عليهم. صالة الاجتماع فاخرة مجلد نصف حيطانها السفلي بخشب الأرو. الأعضاء يلبسون معاطف قاتمة وياقات كبيرة بيضاء، وقبعات عريضة سوداء.

خادم، لا يلبس قبعة، يقف في خلفية الصورة. الطاولة التي يجلسون عليها، مفروشة بغطاء فاخر قرمزي. عليها دفتر حسابات النقابة. الاجتماع كان لمراجعة الحساب الختامي للنقابه. يبدو، في هذه اللحظة، أن أحدا قد دخل عليهم بغتة، لأنهم ينظرون جميعا في اتجاه القادم.

أعضاء النقابة يشبهون النبلاء. تعبيرات وجوههم تختلف من شخص لآخر. كل منهم، يجب أن تكون صورته مطابقة للأصل.

بعد مرض قصير، توفي رامبرانت عام 1669م، عن عمر 63 سنة. توفى أمير الرسم، وشيكسبير الرسم، وملك الظلال، ورسام الرسامين. هذه بعض الألقاب التي كانت تطلق عليه.

رغم ما قدمه لعالم الفن، إلا أنه مات فقيرا معدما. تكاليف جنازته لم تتعد العشرة جنيهات. لوحة "رجل يضع يده على خاصرته"، التي رسمها رامبرانت، عرضت للبيع في معرض تيفاف للفنون عام 2011م بمبلغ 47مليون يورو. ثم تبرع بها المالك إلى أحد مراكز الفنون عام 2015م.

رجل يضع ديه على خاصرته، رامبرانت

23

الفن الهولندي(2)
العصر الذهبي

قبل أن نترك الفن الهولندي وعصره الذهبي في القرن السابع عشر، سنذكر على عجالة بعض أعمال الرسامين العظام الذين ظهروا في ذلك الوقت.

بالقرب من لوحة حراس الليل لرامبرانت في متحف أمستردام، توجد لوحة كبيرة بها 30 شخصية بالحجم الطبيعي. اسم اللوحة "مأدبة الجنود"، للفنان "فان در هيلست"، رسمها عام 1648م للاحتفال بالسلام في مونستر.

مأدبة الجنود، فان در هيلست

اللوحة تمثل اجتماع عظيم لرؤساء وكبار ضباط وفرسان وضيوف. تظهر في اللوحة الاوشحة والملابس القطيفة والقبعات المحلاة بريش النعام وطبول الحرب. في خلفية الصورة علم البلاد، ومنزل وشجرة يظهران من النافذة.

الجنود يجتمعون حول مائدة طعام، يأكلون ويشربون ويتحدثون ويمرحون. وجوههم تبدو عليها علامات الهيبة والرضا. كل منهم مرتاح البال يظهر في أحسن صورة. هذا بسبب أن هيلست ترك كل منهم يجلس أو يقف في الوضع الذي يريده.

هناك فنان هولندي آخر هام، هو فرانز هالز. لكي نعرفه، علينا زيارة المدينة القديمة هارلم. ربما تكون مدينة هادئة اليوم، لكنها شهدت أياما سعيدة في زمن هالز.

كان هالز يحب أن يمشي في شوارعها ويرتاد حاناتها. يطلق النكات، ويلاحظ ما يرسمه الضحك على الوجوه. لا أحد من الفنانين، مثل هالز، أمكنه اقتناص هذه التعبيرات العفوية على الوجوه في لوحاته. لقد مات فقيرا معدما، وكذلك الكثير من الفنانين.

مهرج يعزف على العود، 1623م، فرانز هالز

فارس يبتسم، 1624م، فرانز هالز

لكن أهم الفنانين الهولنديين بعد رامبرانت، كان جان فيرمير (1632 – 1675م). هو رسام بطئ وحذر. لم يرسم العديد من اللوحات في حياته الفنية. القليل منها مشاهد هامة. معظم أبطاله شخصيات بسيطة. مثلا، سيدة عادية تقف في غرفة عادية في بيت هولندي عادي.

بعض هذه اللوحات تصور شخصا بمفرده مشغولا بالعمل اليومي العادي. مثل اللوحة التي تظهر فيها امرأة تصب اللبن.

امرأة تصب اللبن، جان فيرمير

من الصعب معرفة السبب الذي يجعل لوحة بسيطة كهذه، لموضوع بسيط عادي، نراه كل يوم، من أهم وأجمل اللوحات التي رسمت في تاريخ الفن على الإطلاق. عندما ترى اللوحة الأصلية، إذا كنت محظوظا، سوف توافق النقاد على هذا الرأي، وتقر أنها فعلا أكثر من لوحة، بل هي معجزة فنية.

سر عبقرية هذه اللوحة وسحرها، هو أن فيرمير كان دقيقا للغاية في إظهار كل العناصر الفنية، من تركيب وتكوين وألوان وغيرها، بدون أن يجعل اللوحة مزدحمة غير طبيعية أو جافة أو مزعجة.

هذه اللوحة تجعلنا نرى جمال المناظر البسيطة بطريقة جديدة، هي أقرب إلى التأمل الروحاني في فلسفة الزن. تجعلنا نرى ونحس ما أحسه الرسام عندما راقب الضياء، وهو يفيض من النافذة، ليغمر ويبارك المشهد بدرجات متفاوتة.

رسامو المناظر الطبيعية الهولنديون، في القرن السابع عشر، هم من بنوا شهرة بلدهم على أنها بلد ساحر خلاب. في الواقع، نشعر أن رسم المناظر الطبيعية بدأ من هناك. لأن الهولنديين كانوا يصرون على رسم الطبيعة بصدق وإخلاص. أسماء مثل "يعقوب فان رويسديل"، تأتي أول القائمة. هو رسام متجول يحب الأسفار والجلوس على قمم التلال، إلى أن يذوب في المشهد الطبيعي الذي يمتد أمامه.

لم يكن يظن أن هولندا أو "الأرض الفاضية"، (Hollow Land)، أرض رتيبة المناظر. لأنه كان يرسمها متنوعة من زوايا وأضواء مختلفة. ويحرص على وضع قلعة أو طاحونة هواء في الصورة, أو برج مختفي بين الأشجار، أو غدير هنا أو قنطرة هناك، أو قوارب صيد وقناة تعكس الظلال الوارفة.

منظر طبيعي لطاحونة الهواء، رويسديل

يحب رويسديل رسم الطرق المهجورة والأشجار العالية بأوارقها الخضراء الغامقة. بعض الأحيان يذهب إلى شواطئ البحر لدراسة الأمواج والعواصف والصخور.

لا يحب وضع صور أشخاص داخل لوحاته، وإن وجدت، فلأن أصدقاءه هم الذين وضعوها نيابة عنه. ولأن سماء لوحاته دائما تكون رمادية بارده الألوان، كان يسمى "رسام المناظر الطبيعية الحزين". لكن هذا ليس حقيقي. لأنه غالبا ما يظهر في لوحاته وميض رائع من ضوء الشمس وهي تخترق السحب، أو وهي تلمس أطراف الشجر والحقول والأنهار، فتنعكس لكي تضئ المشهد كله.

رويسديل كان له صديق أو تلميذ اسمه "هوبيما". لم يأخذ هوبيما حقه من التكريم في حياته. لكنه اليوم، من الصعب شراء واحدة من لوحاته الخاصة بالمناظر الطبيعية بأي ثمن.

منظر طبيعي، هوبيما

القرى والطرق والقناوات وطواحين الهواء التي يرسمها هوبيما، دائما ما تكون مضاءة بضياء ذهبي لامع. المشهد السابق يصور طريق ريفي مستقيم، تصطف أشجار الحور على جانبيه، يقود إلى القرية التي تظهر في خلفية الصورة ملتفة حول كنيستها.

على الجانب الأيمن من اللوحة، حقل معزول عن الطريق ومحاط بقناتي ري. بالنظر إلى هذا الجزء بعناية أو بعدسة مكبرة، سوف تجد حديقة نباتات رائعة، يقف وسطها الجنايني يقلم أشجاره.

يلي الحديقة، نجد مبنى ريفي كبير. الصورة الأصلية، تظهر زرقة السماء التي تتناغم مع السحب ناصعة البياض. الغريب أنه قد مر وقت طويل قبل اكتشاف جمال لوحات هوبيما. الصورة التي نشاهدها مطبوعة أو إلكترونية، لا تقارن بالأصل في دقة تفاصيلها وصدق ألوانها.

أعظم محبي الضوء بين الرسامين الهولنديين، هو الرسام "ألبرت كويب".

رعاة وقطيع من البقر، ألبرت كويب

الناس والأغنام والبقر في لوحات كويب، تضفي الحياة والبهجة على الحقول والجداول والمشاهد الوضاءة، سواء كان المشهد في شبورة الصباح أو في دفء الظهيرة.
لوحات كويب اليوم لا تقدر بثمن.

رسام آخر هولندي من رسامي المناظر الطبيعية، هو "فيليب ووفرمانز". يحب رسم الفرسان والخيل والكلاب ودائما يضعهم في لوحاته. إذا كنت تبحث عن صورة حصان أبيض، فانظر إلى لوحات ووفرمانز فسوف تجد واحدا.

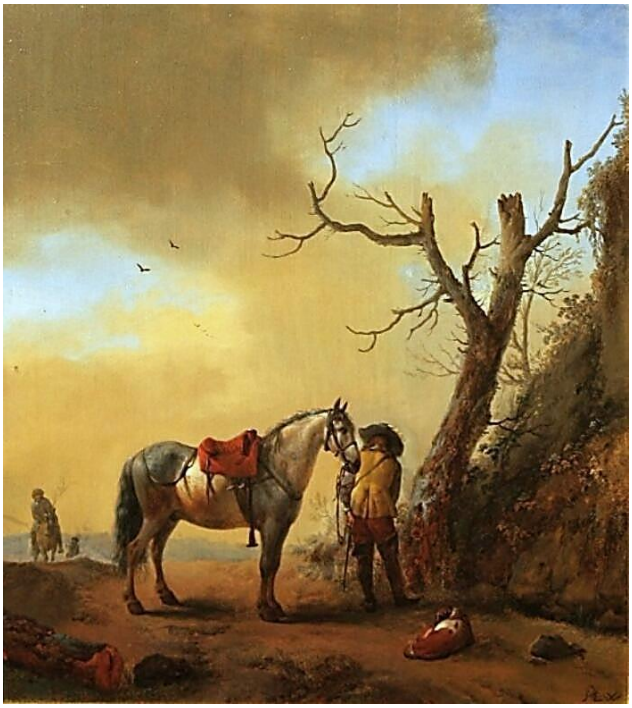

جندي وحصانه، ووفرمانز

بالنسبة لرسم الحيوانات، لدينا الرسام الهولندي "بول بوتر". لوحة "الثور"، 1647م، دائما ما توضع بين روائع اللوحات العالمية.

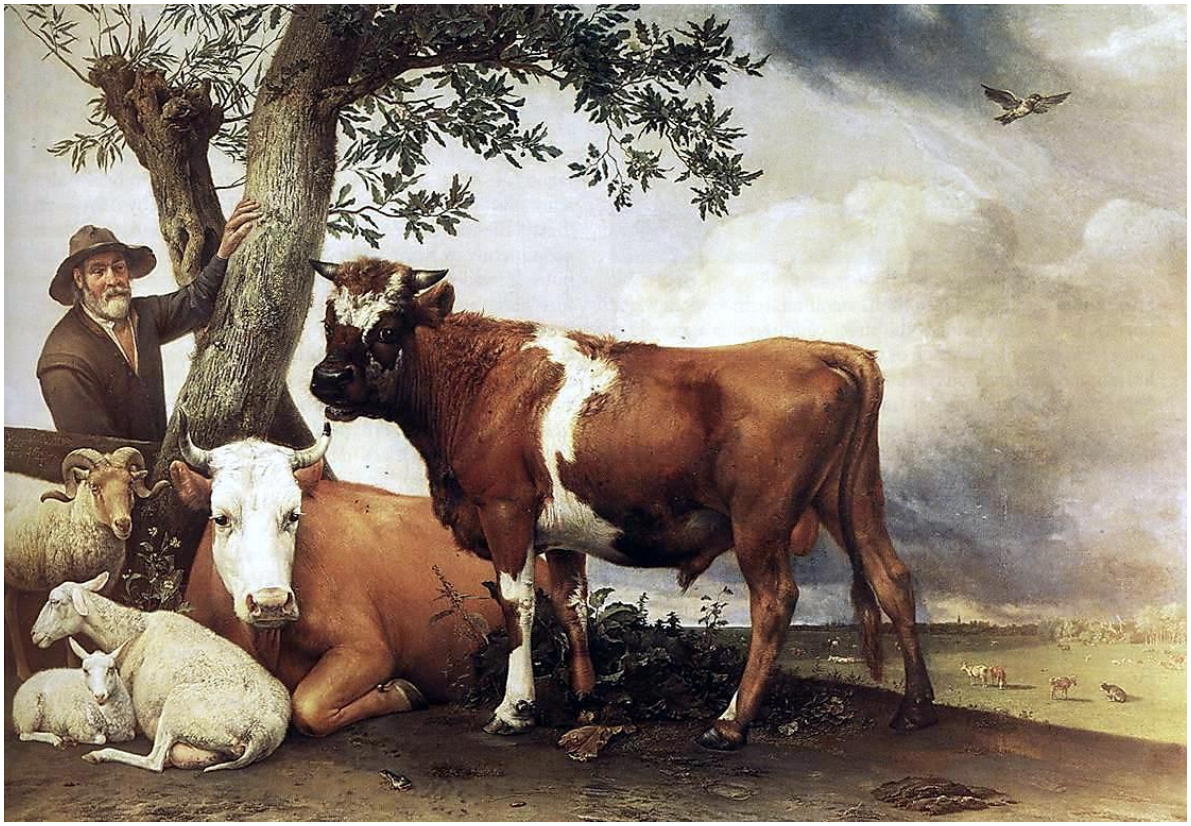

لوحة الثور، من روائع اللوحات العالمية، بول بوتر

توجد الآن بمتحف مدينة "هاجو" جنوب هولندا. يقول النقاد، أن المتحف لو لم يكن يملك سوي هذه اللوحة، لكانت وحدها تستحق زيارة هولندا لمشاهدتها.

يقف الثور الصغير (الفحل)، ورأسه مرتفعة، وجسده ينبض بالحياة. ينظر إلى المشاهد بنظرة كلها تحدي وفضول. قرناه والشعر المنكوش بينهما لهم دلالة ومغزى. جسده مرسوم بطريقة رائعة. في الواقع، يكاد يكون ثورا حقيقيا لا رسما.

إنه يبهرنا لدرجة أننا لا نرى البقرة والخروف والنعجتين والراعي، الذي يقف بجواهم. نظرة أخرى، سوف تجعلنا نكتشف وجود المراعي الخضراء وحيواناتها، والسحب

البيضاء الجميلة فوقها، والطائر الذي يحوم حول المشهد. لكن كل ذلك يأتي بعد ثورنا الرائع.

عندما كان بول بوتر صغيرا، كان يحب دراسة عادات البقر والأغنام، وهي في المزرعة أو وهي تتغذى في المراعي. في سن الرابعة عشر، أصبح فنانا ماهرا. أرسل إلى مدينة هاجو للدراسة.

هناك وقع في حب ابنة المهندس الذي كان يسكن عنده. لكن الأب رفض أن يعطي ابنته لفنان لا يعرف سوى رسم الحيوانات. عندما بلغ بوتر 23 سنة، رسم لوحة الثور هذه. بهدف أن توضع في محل جزارة، للإعلان عن اللحم البتللو.

لكن اللوحة أصبحت مشهورة لدرجة أكسبته يد حبيبته بعد رفض متواصل. ثم تزوج وأسس بيتا جميلا بمدينة هاجو. استمر بوتر في رسم الأغنام والبقر، وأصبح "رفائيل الحيوانات". لكنه، مثل رفائيل أيضا، كان عمره قصيرا. مات ولم يكمل من العمر سوى 29 ربيعا.

الفنانون الهولنديون قد تفوقوا أيضا في مناظر البحر. كانت الأمواج في شواطئ هولندا هادئة نوعا ما، إلى أن حارب جنودها الشجعان إنجلترا ملكة البحار. هنا يأتي الفن الهولندي لكي يحكي لنا القصة في لوحات.

فان دي فيلدي، الصغير، قضى حياته يدرس البحر من الناحية الفنية في جميع حالاته. خلال هذه الدراسة، أصبح أعظم الفنانين الهولنديين رسما لمناظر البحر.

إنه يعرف كيف يبرز تأثير الضياء والظلال على الأمواج وسطح الماء. وشكل النهر الساكن والبحر الهادي أو المضطرب الأمواج. وكذلك المراكب وهي تصارع الريح والعواصف.

الهولنديون كانوا ممنونين لجهود دي فيلدي، إلى درجة أنهم أعطوه سفينة صغيرة، لكي تصاحب الأسطول الكبير أثناء المعارك البحرية. في بعض الأحيان، كان يعرض نفسه للخطر، عندما كان يبحر بين الأساطيل المتصارعة لكي يرى القتال من الجانبين. لقد رسم دي فيلدي بأمانة معارك النصر بالنسبة للهولنديين أو الإنجليز على السواء.

السفن الهولندية في هدوء، دي فيلدي

"باكهويزين" رسام بحري آخر مشهور. كان يذهب للبحر في جميع الأحوال لكي يدرس المحيط في جميع حالاته. قام برسم كل جزء من أجزاء السفن الهولندية في أعالي البحار والمياه التي عبرت خلالها.

سفن في مأذق تعبر خليج صخري، باكويازين

الفن الهولندي كان يمتاز بالواقعية أكثر من أي فن تشكيلي آخر. أي فنان حديث يتصف بالواقعية، يكون قد تعلم من الفنانين الهولنديين الذين ظهروا في القرن السابع عشر، العصر الذهبي الهولندي. لكن القرن الثامن عشر، كان عصر اضمحلال وتراجع للفن الهولندي.

24

الفن الألماني(1)
دوريرر(1471-1528م)

تقع ألمانيا أقصى شمال إيطاليا. الفن الألماني يعتبر نقيض للفن الإيطالي. كذلك مناخ ألمانيا الصارم وأرضها، تختلف عن شمس إيطاليا الساطعة وتلالها وكرومها. الفن الإيطالي فن مثالي يبغي الجمال والكمال، أما الفن الألماني فهو فن واقعي يبغي الأمانة والصدق.

الألمان ينحتون تماثيل الأشخاص جافة متصلبة. بالرغم من اتسامهم بالحرص والروح الدينية، إلا أن تماثيلهم تفتقد الجمال والسمو والرقة التي تتمتع بها تماثيل الجنوب.

الألمان، بغاباتهم البرية المليئة بالأسرار والأساطير، يحبون رسم الغريب والخيالي. ينعكس هذا على لوحاتهم الدينية، صور الشهداء والقديسين والعائلة المقدسة. بالرغم من أن كلاهما فنون دينية. إلا أن الفن الإيطالي فن روماني كاثوليكي، بينما الألماني، في القرن السادس عشر، فن بروتستانتي.

في القرون الوسطى، كان يوجد الكثير من الكاتيدرائيات، والقليل من الرسامين الألمان. الكاتيدرائيات كانت تحتاج إلى لوحات وتماثيل للزينة. لذلك تم الاستعانة بالزجاج الملون في النوافذ والنقش والحفر في الحجر والعاج والأبواب الخشبية.

مدينة نوريمبيرج (نمبيرغ)، على ضفاف نهر بينيتز، كانت هي أول مركز معروف للفنون في ألمانيا. لذلك يمكن تسميتها "فلورانسا الألمانية". المدينة كانت، في البداية، مكونة من عدة أكواخ. يعمل سكانها بصيد السمك وقطع الأخشاب من الغابة. مبنية حول برج مقام على صخرة في الغابة الألمانية. القلعة (بيرج)، بنيت مؤخرا. سكنها الامبراطور ولوردات الإقطاع، وما يلزمهم من خدم وحاشية.

بعد ذلك، منحت نوريمبيرج الحق في إقامة سوق وعملة خاصة بها. ثم بدأت في النمو والثراء . قامت بها صناعات كثيرة، قمائن طوب وفخار، أول مصنع ورق، أول ساعة، أسلحة وذخيرة، وأول صحيفة.

أصبحت المدينة واسعة الثراء، فقامت بشراء استقلالها. دفعت إلى الامبراطور الألماني مبلغا يعادل مليون دولار. في مقابل رفع الامبراطور سلطته عنها، وتركها تحكم بمجلس من مواطنيها.

المدينة القديمة كانت محمية بأسوار عالية وأبواب تغلق أثناء الليل. محاطة ب 365 برجا. شوارعها الضيقة ترتص على جانبيها المنازل ذات الأسقف المدببة، والمغطاة بالقرميد. النوافذ ناتئة قريبة من السقف، بها أبراج دائرية صغيرة تشبه البلكونات المقفولة.

ترتفع في المدينة أبراج كنيستي لورانس وسيبالدوس. بها ساحة المدينة، مناظر الجسور خلابة، والنوافير المزينة بالتماثيل البرونزية جميلة رائعة. منها، نافورة "جوسمان". بناها الفنان "لابينولف"، تلميذ الفنان "فيشر". يقال أن لابينولف صممها على نمط قصة شاب صغير كان متوجها إلى نوريمبيرج لبيع وزتين.

نافورة قطيع الأوز بمدينة نورينبرج، لابينوف

قابل الشاب مزارعا أعطاه وزتين، كي يتاجر بهما في المدينة. تمثال النافورة يبين الشاب وهو يحمل الوزتين تحت ابطيه، والماء ينساب من منقاريهما.

أثناء سيره بين المزارع وقت الظهيرة متوجها إلى باب مدينة نوريمبيرج، أخذ ضربة شمس، أصابه العطش والهزال. أخذ يبحث عن جدول ماء فلم يجد. أخيرا، خارت قواه وسقط على الأرض مغشيا عليه.

فجأة سمع أصواتا تقول له: "اشرب اشرب". وجد الشاب أن الأصوات تأتي من الوزتين اللتين كان يحملهما. من منقاريهما كان الماء ينساب زلالا. شرب وارتوى ونجى من الموت عطشا.

أنقذت الوزتان حياة الشاب. لذلك، قرر عدم بيعهما والعودة بهما إلى القرية. عندما ذهب فيما بعد إلى المدينة، وجد تمثالا له من البرونز يحمل الوزتين والماء ينساب من منقاريهما. عندما سأل عن صانع التمثال، قيل له أنه "لابينولف". التمثال يبين الشاب

وهو يلبس ملابس القرن السادس عشر. النافورة والتمثال صنعت عام 1550م، يعتبر من أجمل التماثيل البرونزية في نوريمبيرج.

كثير من الأعمال الفنية تجسد تخيلات غريبة، أساطير وحكايات دينية، أو مشاعر قومية. مما يضيف إلى مدينتنا في العصور الوسطى سحرها الخاص، ويضفي عليها بهجة، لا تخفى على الزائر والمسافر العابر.

بعض هذه الأعمال، من الخشب والحجر والبرونز، عملها صناع مهرة أو فنانون موهوبون. عاشوا في القرن الخامس عشر، أو بداية القرن السادس عشر. منهم: فيت ستوس، آدم كرافت، بيتر فيشر. "فيت ستوس"، كان حفارا أو خراط خشب رائع. تماثيلة الخشبية التي كان يصنعها للكنائس، ينقصها الكلام لكي تصبح حية.

العذراء مريم تتقبل التحية من الملاك جبريل، فيت ستوس

العمل الضخم، بالحجم الطبيعي، المعلق من سقف كنيسة القديس لورانس، يمثل العذراء مريم وهي تتقبل التحية من الملاك جبريل.

آدم كرافت، فنان مشهور بالنحت وعمل تماثيل من الحجر. متدين، له شعور ديني عميق. يتقن العمل بيده اليمنى وكذلك يده اليسرى. يبدو من أعماله، أن لديه سرا ما في صنعته. يجعل الحجر أمامه لينا. من ثم، يستطيع تشكيل الحجر بالتعبير الذي يريده.

آدم كرافت، مثل فيت ستوس، أعماله الهامة نجدها في كنيسة القديس لورانس. هنا نرى حفر فني رائع، يمثل قصة حمل المسيح للصليب، وعملية الصلب، والدفن، ثم البعث. النقوش من الجص، موجودة على الجدار الخارجي لكنيسة القديس سيبالدوس بمدينة نوريمبيرج. بعد مشاهدة الفيديو أكثر من مرة، قول لي بالله عليك، أليس هذا عمل رائع. تمثال شخصي لآدم كرافت بنفس الكنيسة.

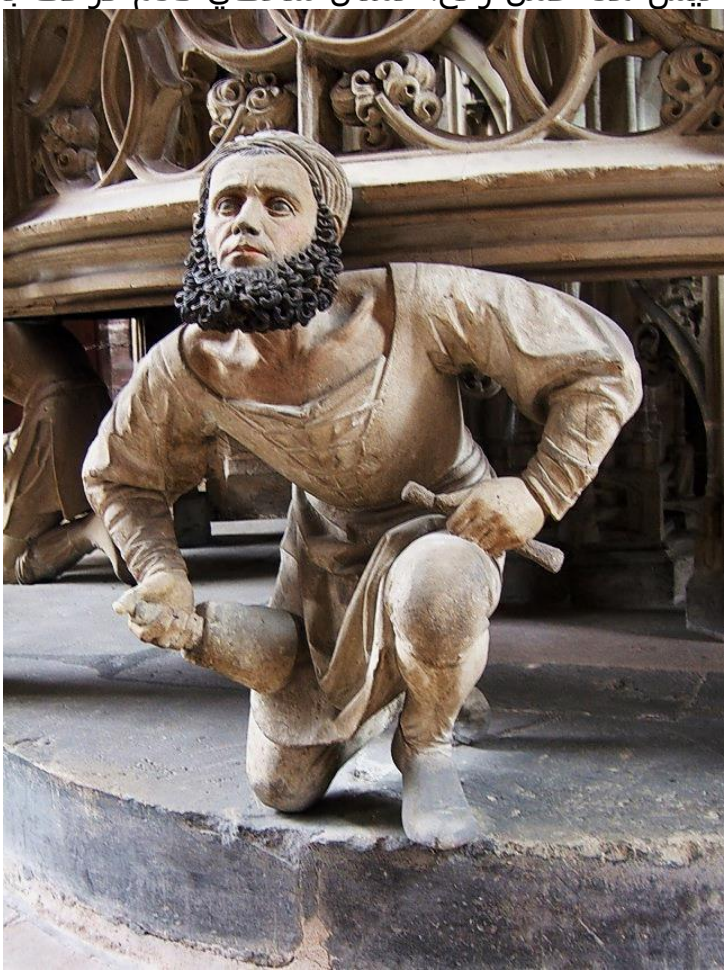

تمثال شخصي لآدم كرافت، عمل آدم كرافت

بيتر فيشر، هو ثالث الثلاثة. عائلته كانت تملك مصنع تماثيل برونزية مشهور في نوريمبيرج. هو أيضا مثل سابقيه رجل متدين. كان يحب عمله، صناعة التماثيل البرونز، إلى درجة أنه كان ينسى أن يأكل وهو يعمل.

رائعة أعماله، هي قبر القديس سيبالدوس. كان يساعده في هذا العمل أولاده الخمسة. العمل استغرق مدة 12 سنة. القديس سيبالدوس هو راعي مدينة نوريمبيرج. وهذه هي قصته:

كان القديس سيبالدوس ابنا لملك الدينمارك. بالرغم من ثراء عائلته ومستقبله الواعد في السياسة وحكم البلاد، إلا أنه زهد في كل هذا، وهرب من السلطة والجاه، ليكرس حياته لخدمة الرب.

ذهب إلى الغابة، أمضى هناك عدة سنوات عبادة، صيام وصلاة وتأمل. بعد ذلك، سافر إلى إيطاليا، ثم عرج إلى شمال ألمانيا. يخطب ويعظ الناس ويظهر المعجزات. استقر أخيرا في صومعة لا تبعد كثيرا عن نوريمبرج. كانت تتوافد إليه حشود المظلومين والتائهين، لسماع وعظه والتبرك بكلماته.

العديد من الأساطير نسجت حول معجزاته. منها أنه قام بترميم غلاية فخار مكسورة، بمجرد مباركتها. معجزة أخرى، هي أنه في يوم شديد البرودة، ذهب لزيارة أسرة مزارع بسيط. وجد الكوخ الذي يسكن فيه المزارع باردا جدا من الداخل، ليست به أخشاب يمكن استخدامها للتدفئة. المزارع وعائلته على وشك التجمد من البرد.

حينئذ، طلب القديس من زوجة المزارع أن تحضر رقائق ثلج من الخارج، وهي الشئ الوحيد المتوافر لديهم. أخذ القديس يرمي الثلج في المدفأة، إذا بالنار تتوهج وتغمر المكان بالدفئ.

معجزة أخرى منسوبه إليه، هو أنه استطاع ارجاع البصر إلى أعمى. الحكاية تقول إن القديس سيبالدوس كان مريضا. وكان يشتهي أكلة سمك طازجة من نهر بينيتز. حاول فلاح بسيط تلبية رغبة القديس المريض، بأن ألقى شبكته لصيد السمك في النهر.

لم يكن مسموحا للمزارعين بصيد السمك بدون تصريح في ذلك الوقت. لذلك، قبض على الفلاح المسكين، وعوقب بتقريب حديد محمي إلى عينيه حتى فقد البصر. ذهب الفلاح إلى القديس، فباركه وأعاد إليه بصره.

أهمية هذه الأسطورة، هو وجودها مرسومة على مقام أو ضريح القديس سيبالدوس، الموجود بكنيسته. التابوت الذي يحكي الأسطورة، مغطى بطبقة برنزية وفضية، ومبني على الطراز القوطي.

ضريح القديس سيبالدوس، بيتر فيشر

القاعدة ترسو على قواقع بحرية صدفية (الحلزون)، والمظلة محمولة بأعمدة رفيعة. كل عمود يقف عليه أحد الحواريين. كل منهم يمسك بيده رمزا مختلفا.

يقف القديس نفسه، صاحب المقام في الخلف. تمثاله ينم عن الوقار. يلبس ملابس الحج، يمسك عصى ويلبس قبعة بها صدفة. في الجانب الآخر، تمثال لبيتر فيشر نفسه، كرجل عادي يقوم بعمله المعتاد، يحمل المطرقة والأزميل.

العمل كله، مزين بالتحف الفنية. تماثيل لكثير من الأطفال. بعضهم يعزف بآلات موسيقية، وفي القبة المركزية، يظهر المسيح كطفل.

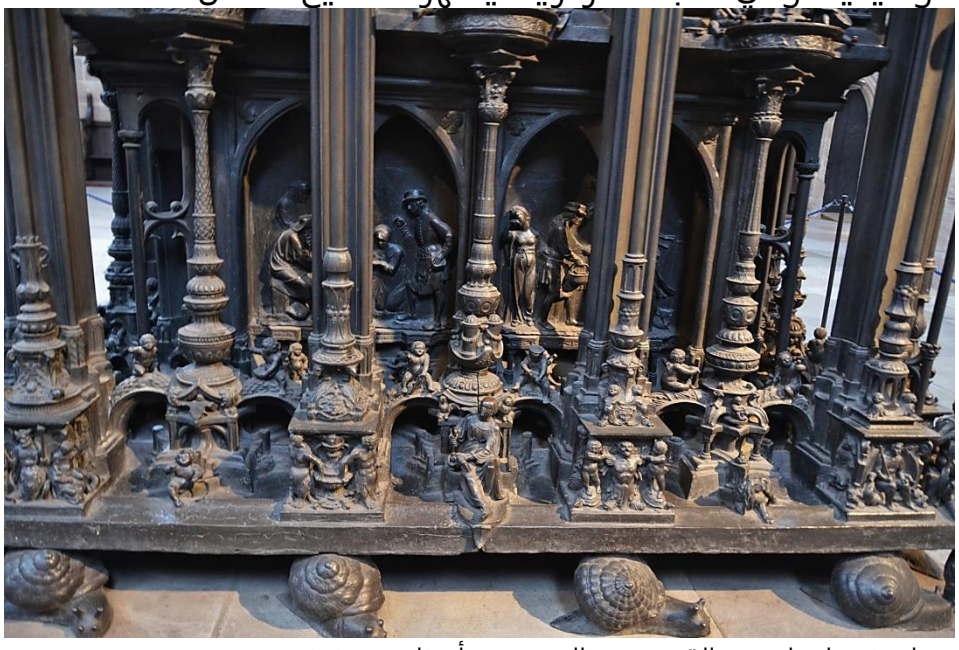

منظر تفصيلي لضريح القديس سيبالدوس من أسفل، بيتر فيشر

هناك نسخة من الضريح موجودة بمتحف المتروبوليتان بمدينة نيويورك، تستحق الدراسة المتأنية. الأصل يعتبر أعظم عمل بالمعادن في تاريخ الفن التشكيلي، قارب الكمال.

قال فيشر، أنه قام بهذا العمل ارضاء لوجه الله، ولتمجيد القديس سيبالدوس، أمير الجنه كما كان يعرف في ذلك الوقت. وكان فيشر يطلب أجره، نظير هذا العمل الرائع، بالتبرع الاختياري الخيري.

في القرن السادس عشر، كانت هناك روح جديدة، أثرت على الفن وحولت مجرى تاريخه. بسبب قيام مارتن لوثر، في ذلك الوقت، بثورته الدينية في ألمانيا. قام هو وأتباعه بالاحتجاج على أشياء كانت تحدث داخل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. لذلك، أطلق عليهم اسم بروتستانت، وتعني المحتجون. مدينة نوريمبيرج، أيدت مارتن لوثر

في احتجاجه وشاركته معتقداته، وأصبحت مدينة بروتستنتية. لذلك، أصبحت فنونها فنون بروتستنتية.

كانت المدينة، كما أسلفنا، موطنا للكثير من الفنانين. لكن فخرها الحقيقي، هو أنها مكان ميلاد البريخت دورير (دورر). أبو فن الرسم الألماني الحديث.

بورتريه شخصي لدورير، رسم دورير

أهم الكنوز التي تمتلكها المدينة، هي منزل دورير الذي يستخدم الآن كمتحف، وتمثال له نحته "روتش" عام 1828م، ثم وهبه للمدينة بمناسبة مرور 300 سنة على وفاة دورير. قصة حياة دورير بسيطة وهادئة.

عندما أصبحت مدينة نوريمبيرج مركزا للفنون والصناعات الحرفية، قصدها الناس من قريب وبعيد ومن كل فج عميق. من هؤلاء، صائغ مجري وزوجته. سكنا بالمدينة، وفي عام 1471م، ولد ابنهما البريخت دورير.

البريخت كان له سبع إخوة وأخوات. لكنه الوحيد بينهم الذي أصبح نارا على علم، وأطبقت شهرته الآفاق. والدته سيدة طيبة، ووالده كان رجلا متدينا. يجلس بين أولاده كل يوم، يعظهم بتقوى الله، ويوصيهم بالجار. كان الأب صانعا ماهرا. لولا كثرة العيال، لبات غنيا من حرفته.

الصغير البريخت كان وسيما، عينان جميلتان وشعر أشقر. له خصال حميدة، يتسم بالشجاعة والذكاء. كان يحب الدراسة والتعلم. أرسل للمدرسة إلى أن يكبر ويمتهن حرفة صياغة الذهب مثل والده.

في ورشة والده، كان يصنع تماثيلا صغيرة من الصلصال، ثم يصبها قوالبا من الجص ثم تماثيلا معدنية. هذا ساعده فيما بعد على نحت تماثيل صغيرة من العاج والخشب.

عندما لم يكن يعمل، كان دورير دائما مشغولا بالرسم. بعد فترة، كانت لديه الشجاعة لكي يخبر والده أنه يبغى أن يكون رساما، بدلا من مهنة صياغة الذهب. عارض الأب في البداية، ثم امتثل لرغبة الابن فيما بعد.

في ذلك الوقت، كان "وجليميوث" أفضل رسام ونحات في نوريمبيرج. ذهب اليه الصبي دورير وهو في سن ال 15 سنة، لكي يتتلمذ على يديه. هنا قضى دورير ثلاث سنوات، سعيدا وهو يدرس فن الرسم والنحت مع تلاميذ آخرين.

تعلم تقنية وفن خلط الألوان، وفن النحت في الخشب. وبعد ذلك، ترك دورير الاستوديو، إلى عالم أوسع وأرحب. عالم الاستكشاف والترحال. قضى أربع سنوات يتنقل من مكان لمكان، يسجل ويدرس ويعمل أينما ذهب.

لكن والده كان يبحث له عن زوجة. هي "أجنيس فري". ابنة جميلة لرجل ثري. بعد الزواج، بدا دورير رحلة الحياة العملية وأكل العيش. الأشياء الكثيرة التي تعلمها دورير، تذكرنا بليوناردو دا فنشي. لأن دورير كان ينحت العاج والخشب، وكان مثالا ونقاشا ورساما، بالاضافة إلى أنه كان أيضا مهندسا مدنيا وشاعرا.

ظل يعمل لمدة عشر سنوات، بعد ذلك قرر زيارة إيطاليا لدراسة الفن الإيطالي. في عام 1505م، بدأ رحلته إلى إيطاليا على ظهر حصان. لأن هذه كانت وسيلة السفر في القرن السادس عشر.

مكث دورير في إيطاليا سنتين. في وقت العصر الذهبي للفن الإيطالي. حظي خلالها بصداقة رفائيل وتيتان وتينتوريتو. وكان هؤلاء الفنانون العظام، مسحورين بشخصيته وأخلاقه. ومنهم، استمد دورير الشجاعة والالهام.

"بيليني" العجوز أستاذ تيتان، كان لا يزال يعيش في البندقية. كان معجبا بأعمال دورير، وخصوصا أسلوبه في رسم الشعر. في يوم من الأيام، كان بيليني يفحص بعناية رأس رجل في أحد لوحات دورير، فطلب من دورير فرشته التي رسم بها الرأس لكي يجرب بنفسه.

أعطاه دورير فرشة كانت قريبه من يده. حاول بيليني ولكنه أخفق. أخذ دورير الفرشة من يد بيليني، وهي لا تزال مبلولة بألوانه، ثم قام دورير بسرعة برسم شعر امرأة رائع.

أحب دورير الحياة في البندقية. مدينة الجندول والشمس الذهبية وموسيقى الناي والعود، بالإضافة إلى الحفاوة التي قوبلت بها أعماله هناك. لكن دورير كان يحب وطنه وأرض بلاده أكثر. مهما كانت إيطاليا، فهي بلاد غربة بالنسبة له.

في طريق عودته، مرض دورير. عندما تماثل للشفاء، وكنوع من رد الجميل، لأصحاب المنزل الذين اعتنوا به وشملوه بعطفهم وكرمهم أثناء مرضه، رسم لوحة على الجدار الداخلي للمنزل.

عند وصوله لنوريمبيرج، عاد للعمل المتواصل. أصبح الآن مواطنا بارزا في المدينة، وعضوا في مجلسها. انتقل إلى منزل جميل، كان يعمل فيه من الصباح إلى المساء. في ورشته، نجده محاطا بالمساعدين. هذا يطحن الألوان ويخلطها، وذاك يعد الأخشاب للحفر. قد تجده قد انتحى جانبا يفكر، لأن دورير كان يحب التفكير باستمرار.

من بين اللوحات التي رسمها دورير، لوحة الامبراطور شارلمان، لأحد جمعيات نوريمبيرج. اللوحة تظهر شارلمان بردائه وكل مجوهراته، وهو يحمل في يد سيفا وفي اليد الأخرى الصليب. في جانب من اللوحة شعار ألمانيا وفي الجانب الآخر شعار فرنسا.

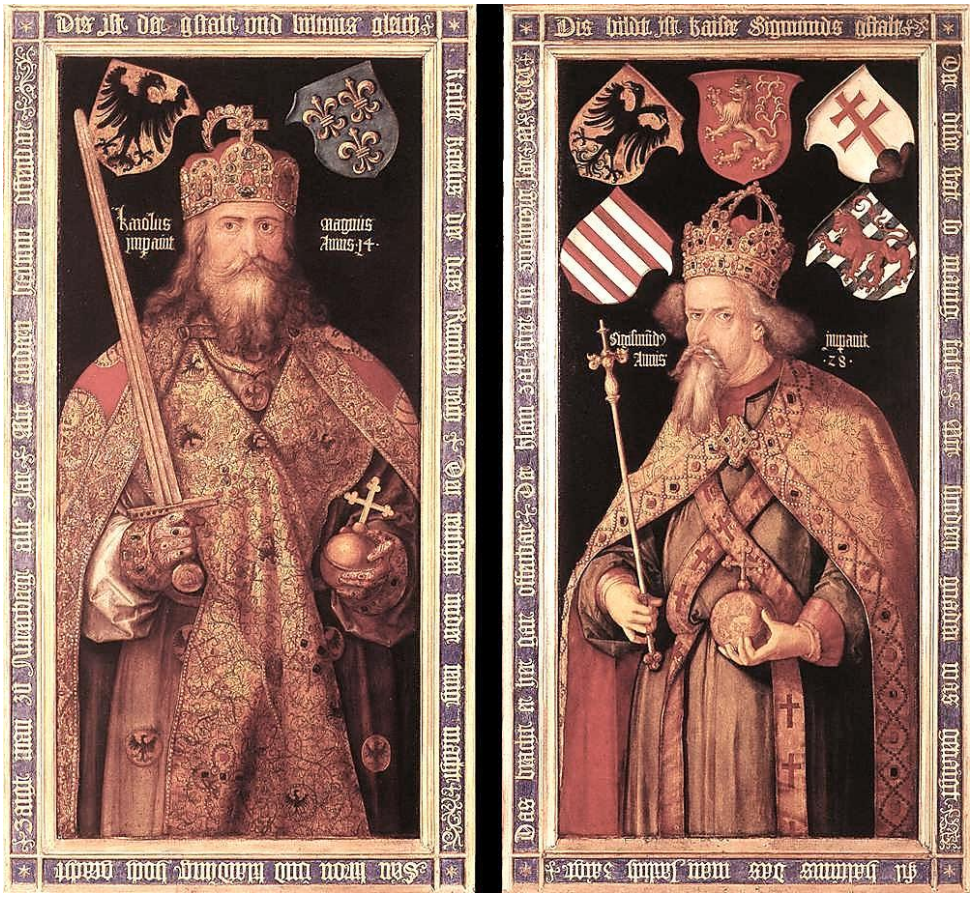

الامبراطور شالمان، دورير

دورير يعمل بسرعة. أصغر لوحاته لا يزيد قطرها عن بوصة، توجد في متحف دريسدن بألمانيا. عليها مشهد صلب المسيح كاملا. اللوحات الكبيرة تأخذ من وقته سنة كاملة على الأكثر.

لوحة هامة بعنوان "عبادة المجوس"، موجودة حاليا بمدينة فلورنسا.

عبادة المجوس، دورير

في هذه اللوحة، نجد رجال حكماء من أجناس مختلفة، جاءوا لرؤية المسيح الطفل. أحدهم أثيوبي أو زنجي. يظهرون بهداياهم. يلبسون أفخر الثياب المطرزة. السيدة مريم أم المسيح، تلبس رداء أزرق، وتنظر بشغف إلى ابنها الرضيع.

الصورة الأصلية، في تفاصيلها ودقتها، تكاد تكون حقيقية. الزهور والفراشات والخنافس، والحائط والنباتات المتسلقة التي تخرج منه، رائعة كأنها صورة فوتوغرافية.

لوحة "عبادة الثالوث"، تعتبر من أهم أعمال دورير. المشهد كله وسط السحب. الحمامة رمز الروح القدس، تحوم حول المكان. يلي الحمامة الأب، يقدم ابنه المصلوب إلى جمع من الشهداء والملوك والكرادلة وناس من جميع الطبقات. أسفل الصورة على اليسار، نجد منظرا طبيعيا جميلا. على اليمين، يقف دورير نفسه ممسكا بلوح عليه كتابة.

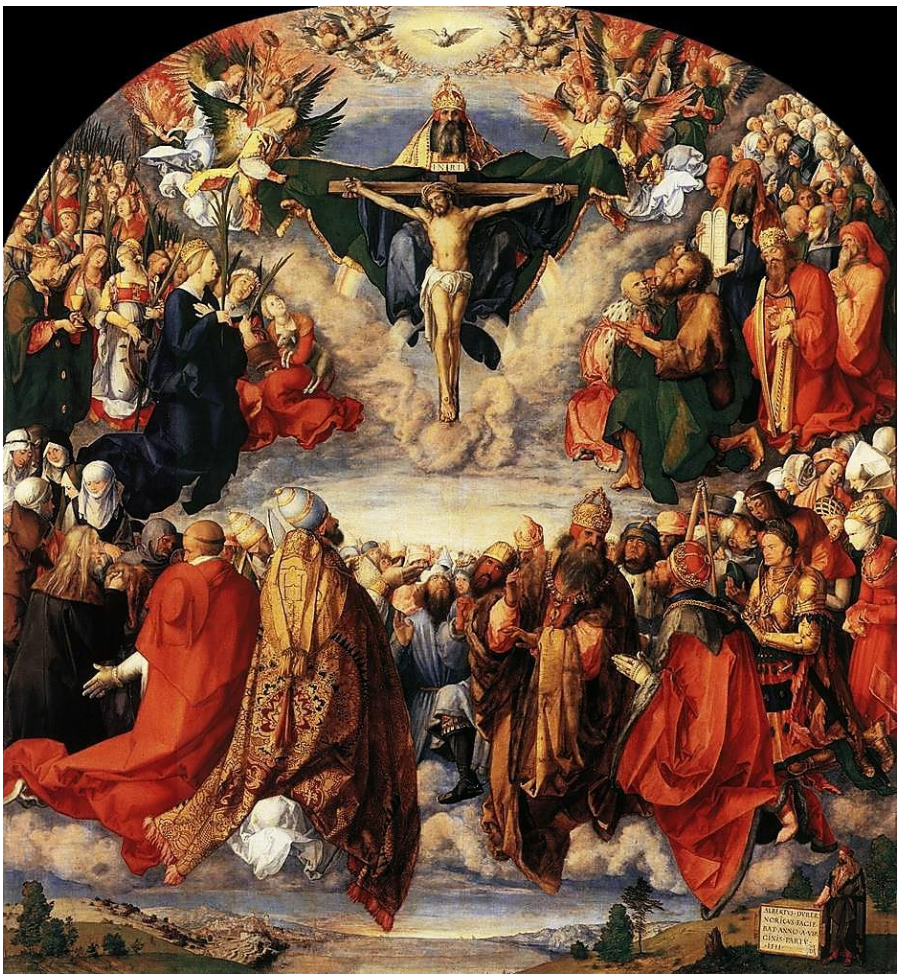

عبادة الثالوث، دورير

لكن دورير مشهور بأعمال الحفر على الخشب أكثر من الرسم. في الواقع، يعتبر دورير أبو الصور المطبوعة في المانيا. لأنه قام بتصميم العديد من الصور المحفورة على الخشب، والتي جعلت احتواء الكتب على الصور بجانب الكتابة أمرا ممكنا. الصور مهمة في أي كتاب، وكما تقول أليس في بلاد العجائب: "ما فائدة كتاب لا صور فيه ولا حوارات".

صورة من سلسلة رسومات سفر الرؤيا من كتاب الوحي، تبين أسلوب دورير .

من كتاب الوحي، دورير

هذا نقش على النحاس بعنوان "الفارس والموت والشيطان". يعتبر من أعظم الرسومات المنقوشة على المعادن في العالم. الفارس بكامل حلته الحربية، غريمه الموت يحمل ساعة رملية في يده. الشيطان البشع يتبعهما لينتهز الفرصة السانحة للسيطرة على روح الفارس. ربما يعني هذا الرسم، صراع الإنسان ضد الموت والشر.

الفارس والموت والشيطان، دورير

صورة أرنب، من روائع دورير

أنشأ دورير مطبعة في منزله. كان يحصل على مبلغ مجز نظير رسوماته وطبعه للكتب.

في عام 1512م، زار الامبراطور ماكسيميليان نوريمبيرج. دورير، كعضو في مجلس المدينة، جاء لاستقباله. الامبراطور، "قيصر ماكس"، كما كان يحلو لأهل المدينة تسميته، كان محبا للفنون.

أعجب الامبراطور بدورير بعد أول لقاء. وكلفه ببعض الأعمال. منها عمل "قوس النصر " تكريما له. لم يكن قوس النصر، قوسا حقيقيا مثل الأقواس الرومانية المبنية من الحجر، وإنما هو عمل فني مكون من نقوش على الخشب.

قوس النصر من الخشب، دورير

قام دورير برسم 92 نقشا على الخشب في شكل الواح. تمثل قصة حياة الامبراطور منذ مولده وانجازاته. كل ذلك رتب في شكل قوس نصر، ارتفاعه عشرة أقدام ونصف القدم، وعرضه تسعة أقدام. استغرق العمل ثلاث سنوات. ولم يحصل دورير على أجر مجز نظير بنائه.

كان الامبراطور يزور دورير أثناء قيامه بالعمل. طلب منه أيضا، رسوما توضيحية لكي يزين بها كتاب الصلاة. وجلس أمامه لكي يرسم له بورتريه.

الامبراطور ماكسميليان ، دورير

منح الامبراطور معاشا لدورير نظير خدماته. في عام 1520م، ذهب مع زوجته وخادمتها لزيارة هولاندا. أصبح هناك رسام بلاط الامبراطور الجديد. كان يقابل بحفاوة كبيرة أينما يذهب، وكان يقابل ذلك بعمل خدمات جليلة لمدينة أنتويرب.

عاد دورير إلى وطنه لكي يقضي به السنوات الأخيرة من حياته. رسم لوحتان للرسل الأربعة.

يوحنا وبطرس، دورير

بولس ومرقس، دورير

الأشخاص بالحجم الطبيعى للرسل، يوحنا (جون) وبطرس (بيتر)، في لوحة، بولس (بول) ومرقس (مارك) في لوحة الأخرى. الوجوه، يقال أنها تعكس طباع الرسل كما جاءت بالإنجيل. وجهي يوحنا وبولس، من أفضل رسومات دورير للوجوه.

خلال السنة الأخيرة، لم يكن دورير يشعر بأن صحته على ما يرام. كان يشعر باكتئاب شديد، وكان يسيطر عليه هاجس أنه لا يكافأ كما يجب نظير أعماله. توفي عام 1528م بسبب الضعف والهزال.

25

الفن الألماني(2)
هانس هولباين

بالقرب من مدينة نوريمبيرج، موطن الفنان البريخت دورير، توجد مدينة أوغسبورغ، (بيرج أو بورغ تعني قلعة). وهي مدينة كان يحكمها الامبراطور ماكسميليان، وكان يزورها كثيرا. تقع المدينة على الطريق المباشر إلى إيطاليا، وكانت أغنى المدن الألمانية في ذلك الوقت.

هنا، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ظهر "هانس هولباين" الأب، و"هانس هولباين" الابن. الأب نفسه، كان رساما له عدة لوحات دينية جميلة لاتزال تشاهد في ألمانيا. لوحاته، في بعض الأحيان، يعتقد خطأ أنها من رسم الابن.

هانس هولباين الابن، هو الأكثر شهرة بين أفراد العائلة. ولد عام 1497م، في مدينة أوغسبورغ، عندما كانت في أوج مجدها وثرائها. هانس هولباين الأب كان فقيرا، لا يستطيع الانفاق على أسرته. لذلك، اضطر الابنان، أمبروس وهانس، للعمل في سن مبكرة. كان على الأب تعليمهم بنفسه الحرفة الوحيدة التي يتقنها، وهي فن الرسم.

عندما بلغ هانس سن الخامسة عشر، كان يرسم لوحات بمفرده ويتكسب من بيعها. عندما بلغ سن الواحدة والعشرين، ذهب مع أخيه إلى مدينة بازل، شمال سويسرا. هناك، قاما برسم صورا توضيحية للكتب وتصميم صفحات العناوين والفهارس. بعد ذلك، قاما بترك بازل مؤقتا، لكي يقوما بالتنقل من مكان لمكان، يعملان في استوديوهات مختلفة. في عام 1516م، عادا إلى بازل مرة ثانية.

في بازل، كان يعيش رجال قلم مشهورون. هنا، طبعت أعمال أدبية هامة. "إيراسموس"، فيلسوف هولندي من أهم مفكري عصر النهضة، ألف كتاب "مديح الحماقة"، يدعونا فيه للتفكير، ويتهكم على أشياء كثيرة في حياتنا، نتقبلها على علاتها بدون تساؤل أو مناقشة.

قام هانس برسوم كتاب إيراسموس التوضيحية. بعد ذلك، أصبح الفيلسوف والرسام صديقين حميمين. ثم رسم هانس عدة بوتريهات لإيراسموس. في أحدها، يلبس معطف فرو وقبعة. يضع يديه على الكتاب المقدس، ويكتب بعض الشروح باللغة الإغريقية.

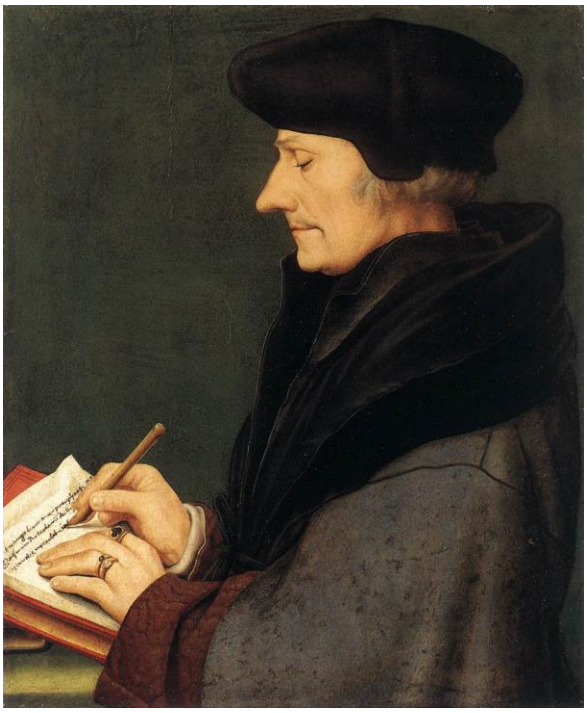

إيراسموس، هناس هولباين

في عام 1517م، ذهب هانس هولباين إلى لوسيرن، المدينة السويسرية الساحرة. المشهورة حاليا بأسد "ثورفالدسين" المنحوت في الصخر. تصميم "بيرتل ثورفالدسين" ونحت "لوكاس أهورن" عام 1820م.

أسد ثورفالدسين

بعد عدة سنوات، عاد هانس إلى بازل السويسرية. أصبح مواطنا وعضوا في نقابة الرسامين. ثم بدأ حياته المزدحمة بالعمل. كان يعمل بالديكور وتزيين المنازل، ورسوم الكتب، وتصميم الزجاج الملون، وشغل الفضة والنحت على الخشب.

حدث الآن شئ هام وخطير. في عام 1521م، نشر مارتن لوثر ترجمته للعهد الجديد. هانس هولباين كان له شرف تصميم صفحات العنوان والمقدمة للطبعة الثانية. البابا الكاثوليكي، أدان العمل.

لكن هانس في لوحاته، أثبت أنه من فناني حركة الإصلاح الدينية الجديدة. لوحة "ماير مدونا"، التي رسمها لعمدة المدينة "يعقوب ماير"، تعتبر من أشهر أعماله.

ماير مادونا، هانس هولباين

هذه اللوحة، لها نسخة أخرى. لا يعرف النقاد أيهما الأصل وأيهما النسخ. أحدهما في دريسدين، والأخري في دارمستادت. العمدة وعائلته يظهرون في اللوحة وهم ينحنون إجلالا أمام المادونا، التي تقف وسط اللوحة تحمل طفلها المسيح.

على الجانب الأيمن تقف الزوجة الأولى والثانية للعمدة وابنته، الزوجة الأولى بملابس الدفن. أمام العمدة، يجلس ابنه وطفله الرضيع. المادونا ينم تعبير وجهها عن السلام، تبارك بنظراتها العائلة.

مثل هذه اللوحات، ترسم كنوع من الوفاء بالنذور. يُطلب رسمها عادة بعد الشفاء من مرض عضال أو النجاة من خطر محدق.

دوبروثيا ماير 1516م، هانز هولباين

في عام 1526م، ذهب هانس هولباين الألماني الأصل، إلى إنجلترا. أخذ معه خطاب توصية من الفيلسوف ذائع السيط إيراسموس إلى السير "توماس مور"، مستشار الملك هنري الثامن. استقبله السير توماس بحفاوة، وطلب منه رسم بورتريهات له ولعائلته. وكانت رسومات هانس رائعة مطابقة للأصل، أعطته شهرة عظيمة في بلاد الإنجليز.

هناك قصة معروفة. لأسباب دينية تخص العقيدة المسيحية، لم يحضر السير توماس حفل زفاف "آن بولين" على الملك هنري الثامن، وهو أمر لم تغفره الملكة. دفع السير توماس مور ثمنا غاليا لموقفه هذا ومعارضته للزواج. الفيلم الرائع "رجل لكل العصور"، بطولة بول سكوفيلد، يحكي القصة الحزينة بالتفصيل.

الملكة آن بولين، هانس هولباين

في يوم إعدام السير توماس مور، نظرت الملكة آن إلى صورته التي رسمها هانس هولباين، ثم صرخت غاضبة: "آه، الرجل لا يزال حيا". ثم أطاحت باللوحة من نافذة القصر. لكن اللوحة وجدت طريقها بطريقة سرية إلى روما.

السير توماس مور، هانس هولباين

رسم هانس بورتريه لأصدقاء كثيرين للسير توماس مور. يوجد في متحف اللوفر بباريس، لوحة ل "نيقولا كراتزير"، فلكي الملك، وسط أدواته الفلكية.

نيقولا كراتزير فلكي الملك هنري الثامن، هانز هولباين

في عام 1528م، عاد هانس إلى بازل، لرسم بعض اللوحات الفريسكو لصالة المدينة. لكن المشاكل الدينية عجلت برجوعه إلى إنجلترا. وجد أن السير توماس مور فقد وظيفته في البلاط، ولم يعد قادرا على مساعدة هانس. لكن لحسن حظه، كان له أصدقاء آخرين.

أمضى هانس بعض الوقت مع التجار الألمان، ورسم بعض البورتريهات. إحدى اللوحات المشهورة جدا، ل "جورج جيس"، موجودة الآن في برلين.

جورج جيس، هانس هولباين

جورج يظهر في مكتبه، يقوم بعمله اليومي ويمسك بيده خطابا، استلمه لتوه بالبريد. اللوحة تظهر عظمة في التفاصيل الدقيقة والتشطيب. زهور القرنفل في الفازة على يمينه، النقود والخطابات، وأشياء أخرى، تدل على الجمال والروعة والدقة المتناهية.

ظل هانس هولباين، يرسم المشاهير لسنوات عديدة. وأصبح نارا على علم. عندما كان الملك هنري الثامن يزور السير توماس مور، قبل أن يغضب عليه، رأى بعض اللوحات التي رسمها هانس فأعجبته.

عندما طلب توماس مور من الملك أن يتفضل بأخذ ما يحلو له من لوحات، طلب الملك أن يرى هانس. ثم ألحقه بخدمته. وقال للسير توماس: "الآن لدي الرسام، فلا حاجة لي باللوحات".

في عام 1532م، أصبح هولباين رسام البلاط. أعطاه الملك مسكنا في قصر الوايتهول. ومرتب شهري قدره 200 فلورين، بالإضافة إلى ثمن اللوحة التي يرسمها. في خدمته الطويلة للملك هنري الثامن، رسم له العديد من البورتريهات، ورسم كل زوجاته الستة، فيما عدا "كاثرين بار".

الملك هنري الثامن، هانس هولباين

بورتريه نصفي لهنري الثامن، هانس هولباين

الملكة جين سيمور الزوجة الثالثة لهنري الثامن، هانس هولباين

هذه الحكاية تبين مدى تقدير الملك لهانس. في يوم من الأيام، حضر أحد النبلاء إلى الاستوديو، وأصر على الدخول. أخبره الرسام أنه، ممنوع من الدخول، بناء على أوامر الملك، لأنه يقوم برسم بوتريه لسيدة. لكن النبيل كان مصرا على الدخول.

فقد هانس أعصابه، وألقى بالنبيل الى أسفل السلالم. ثم هرع إلى الملك يخبره بما فعله. طلب الملك الحقيقة كاملة. وقف النبيل أمام الملك يحكي قصته، ثم أبدى اعتذارا عما بدا منه من وقاحة.

أخبر الملك النبيل أنه لا يتعامل مع هانس الفنان، إنما مع الملك نفسه. ثم قال: "أنا أستطيع أن آتي بسبعة فلاحين وأعمل منهم سبعة لوردات. لكن من السبعة لوردات، لا أستطيع أن أعمل هانس هولباين واحد".

ثم قال منذرا النبيل: "إذهب، وتذكر أنك لو حاولت أن تنتقم من هانس فيما بعد، فسوف أعتبر ما يصيبه، إصابة شخصية لي".

قصة أخرى: ذهب هانس لزيارة استوديو فنان آخر سويسري فلم يجده. أثناء انتظاره، قام برسم ذبابة على لوحة كانت معلقة على الحامل، ثم انصرف.

عندما عاد الرسام صاحب الاستوديو، رأى الذبابة على اللوحة، فحاول هشها. وعنما علم ما حدث، خرج إلى الشارع يبحث عن هانس في المدينة، ولكنه وجد هانس قد غادر إلى إنجلترا.

في عام 1538م، أرسل الملك هانس هولباين إلى بروكسل لكي يرسم بورتريه لزوجة المستقبل الرابعة، دوقة ميلان.

لم يتزوج هنري الثامن من الدوقة. وتقول الحكاية، أنها أرسلت إلى الملك، تخبره أنها لها رأس واحدة، ولو كانت لها رأسان، احداهما ستكون في خدمة جلالته. (هنري الثامن كان قد قطع رأس زوجته آن بولين عام 1536م بتهمة الخيانة الزوجية).

بعد ذلك، أمر كرومويل، وزير هنري الثامن، هانس لكي يقوم برسم بورتريه لدوقة أخرى، يرغب الملك في زواجها، هي آن كليفز. سر هنري عندما رأى صورة آن التي رسمها هانس، لكنه أصيب بخيبة الأمل والغيظ عندما رآها نفسها على الطبيعة.

آن كليفز زوجة هنري الثامن، هانس هولباين

استطاع هانس هولباين الهرب من غضبة الملك، ولكن كرومويل المسكين، صاحب الفكرة والمحبذ للزواج، فقد رأسه ثمنا لذلك. لأن آن، في نظر هنري، لم تكن في جمال فينوس إلهة الجمال، كما رسمها هانس، بل مجرد "فرس الفلاندرز" قبيح المنظر، كما كان يسميها الملك. زواجه منها لم يدم أكثر من ستة شهور، انتهت بالطلاق.

أمضى هانس سنواته الأخيرة في لندن. في عام 1543م، انتشر الطاعون بالمدينة. في شهر أكتوبر من نفس العام، كتب هانس وصيته، ثم مات بعد شهر في 29 نوفمبر. ولا نعرف إلا القليل عن موته ودفنه.

أسلوبه في الحياة، المتسم بالكد والقلق، حقق له النجاح وصداقات كثيرة هامة. حياته الزوجية لم تكن سعيدة. قضى معظم حياته في الغربة، بعيدا عن وطنه.

إذا أردنا دراسة فن هانس هولباين، يجب أن نذهب إلى بازل. هناك بعض أعماله الهامة المبكرة، معروضة مع صورة للسيد المسيح. وتوجد أيضا في بازل أفضل بورتريهات هانس نفسه، رسمها بالطباشير الأحمر والأسود. بالاضافة إلى رسومات كتاب "رقصة الموت".

الموت في الرسومات التوضيحية للكتاب، يظهر بصورة شنيعة وشرسة. يطلب منازلة كل الطبقات، الملوك، والكرادلة، والفلاحين، والباعة المتجولين، والنساء الجميلات، وحتى الأطفال الصغار.

شهرة هانس، بنيت على مقدرته الفائقة على رسم شخصيات البورتريه المطابقة للأصل. ملامح شخصياته بسيطة ودقيقة، تجعله من بين أعظم رسامي البورتريه الذين ظهروا في أي زمان أو مكان. يقف إلى جوار دورير، أعظم الفنانين الألمان.

لوحة السفراء لهانس عام 1533م، هانس هولباين

26

الفن الإنجليزي(1)
رينولدز

تخبرنا التقاليد الإنجليزية أن القديس "بيدا المكّرم"، كان يعلّم الرهبان، كيف ينمقون ويزينون المخطوطات وكتب الصلاوات بالدير. بعضها محلاة بتصميمات وألوان رائعة. هذه صفحة من أعماله.

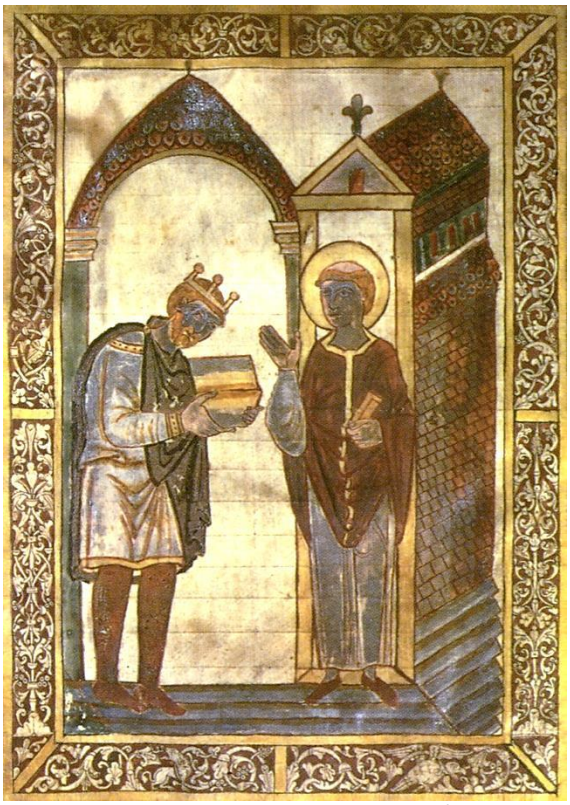

صفحة من أعمال القديس بيدا المكرّم

يمكن عن طريق هذه الرسومات، تتبع بداية الفن الإنجليزي. أيضا، يمكننا تتبعه عن طريق الديكورات الموجودة على نوافذ الكاتيدرائيات القديمة وجدران القلاع والقصور، ورسوم القرون الوسطى المتأخرة.

الإنجليز شعب رحالة يحبون السفر. بمرور الوقت، أصبحوا يهتمون بالأعمال الفنية التي يرونها في البلدان الأخرى. في بعض الأوقات، كان الفنانون الأجانب يزورون إنجلترا. في القرن السادس عشر، دعا هنري الثامن الرسام الألماني هانس هولباين لزيارة البلاط. الملكة ماري والملكة إليزابيث، كانتا يرحبان أيضا بالفنانين الأجانب.

لكن في القرن السابع عشر، في عهد شارلز الأول، ظهرت عراقة وروعة الفن الإنجليزي. لأن شارلز الملك، كان محبا للفن. شارلز الأول، كما ذكرنا من قبل، قام بمنح كلا من روبينز الإيطالي وفان دايك الفلمنكي، لقب فارس (سير). الرسام الألماني، السير "بيتر ليلي"، قام بعمل بوتريهات لكل سيدات البلاط الإنجليزي في عصر الملك شارلز الثاني.

الملكة ماري الثانية، لبيتر ليلي

بورتريه الوزير أوليفر كرومويل، بيتر ليلي

بعد السير "ليلي"، جاء الرسام السير "جودفري نيللر"، الذي قام برسم العديد من الرؤوس الملكية. ومع الفنانين الأجانب، جاءت الطلبات على الأعمال الفنية الأجنبية. التي كانت تستورد إلى البلاد. وكانت الموضة هي اللوحات القاتمة.

بوتريه ل "فان برو"، جودفري نيللر

في ذلك الوقت، ظهر الفنان الإنجليزي، "السير ثورنهيل". قام برسم ديكورات قبة كاتيدرائية القديس بولس، واستخدم عدة قواعد جديدة، تسببت في تقدم فن الرسم الإنجليزي.

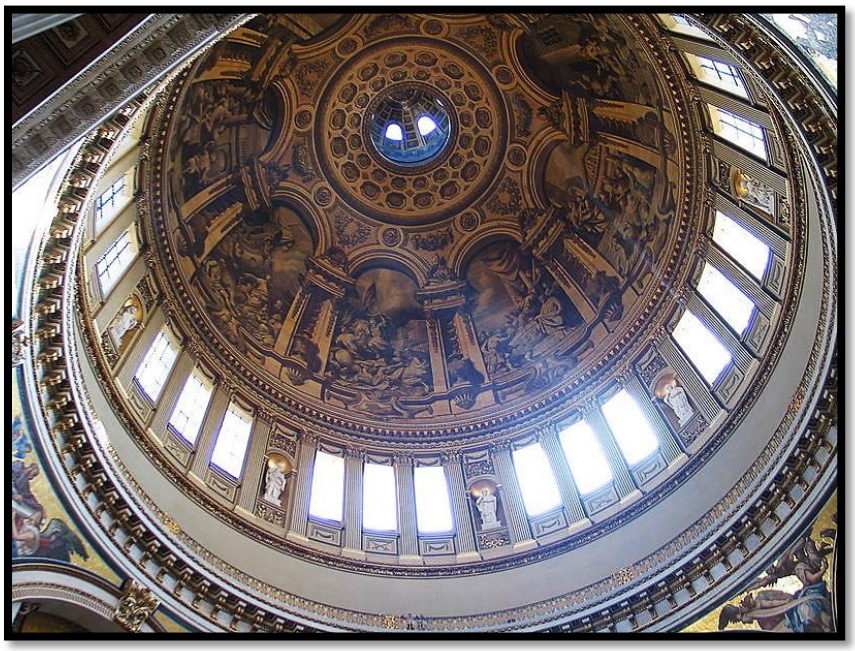

ديكورات قبة كاتيدرائية القديس بولس، السير ثورنهيل

تبعه زوج ابنته "هوجارث"، الذي أصبح في القرن الثامن عشر، أول من بين الحياة الإنجليزية بالرسم. لقد مل هوجارث الأسلوب الأجنبي في الفن، لذلك، قرر أن يعبر كفنان إنجليزي، لا كأجنبي.

كان هوجارث رجلا ضئيلا مرحا. أينما يذهب، كان يقوم بدراسة وجوه الناس. عندما يرى وجها يروق له، كان يرسمه رسما كروكيا بقليل من الخطوط السريعة على الورق، إذا توفر معه. وإن لم يجد الورق، كان يرسم على أظافره.

عاش هوجارث في بيوت لندن وشوارعها الشعبية، خارج قشرة المجتمع الراقي. لذلك، نجده يصور لنا نماذج أشكال رائعة من كل الطبقات بطريقة تهكمية.

اجتماع انتخابي ترفيهي، هوجارث

شخصيات حقيقية مليئة بالروح والفكاكة ، غنية بالخصوصية والتفاصيل. لكل منها طباعه وأخلاقه المميزة. فن الرسم الإنجليزي يبدأ من هوجارث. ثم تطور سريعا في القرن الثامن عشر. الفنان التشكيلي، هو كل من يستطيع أن يرى مالا نراه، ثم يدعونا لكي نرى بعينيه ماذا يراه.

فن البورتريه، هو الفن المطلوب في إنجلترا في ذلك الوقت. الآن يظهر السير جوشوا رينولدز. يسمى "فان دايك" القرن الثامن عشر. ولد عام 1723م، في بليمبتون، ديفونشاير.

والده كان ناظر مدرسة نحو هناك. قرر الأب اعداد جوشوا لكي يكون طبيبا. لكن، لخيبة أمل الأب، جوشوا لم يكن مهتما بدروسه. كان يحب الرسم بالفحم على الجدران البيضاء.

عندما بلغ الصبي الثانية عشر من العمر، رسم أول صورة بورتريه. عندما كان القس "سمارت" يعظ في الكنيسة، شعر جوشوا بالملل، فأخذ يسلي نفسه برسم صورة القس على اظفر اصبعه الإبهام.

بعد انتهاء الوعظ، أسرع إلى الشاطئ، وهناك أخذ قطعة قماش قديمة من قماش أشرعة المراكب، رسم عليها صورة القس سمارت، مستخدما ألوان بويات المراكب.

كان هذا آخر عهده بالدراسة الأكاديمية. في عمر ال 17 سنة، أُرسل جوشوا رينولدز إلى مدينة لندن لدراسة الفن، بإشراف مدرس معروف اسمه هدسون. بعد عامين أو ثلاثة، عاد إلى ديفونشاير، وبدأ العمل كرسام بورتريه.

كان لرينولدز صديق، قبطان بحري هو الكابتن كيبيل. في عام 1649م، قام بدعوة رينولدز لكي يرافقه في سفينته إلى مياه البحر الأبيض المتوسط. هذه كانت بالنسبة لرينولدز فرصة ذهبية لا تتكرر في حياته، وأثبتت الأيام صدق ذلك.

تمتع رينولدز بالسماء الصافية والمياه الزرقاء خلال رحلته، والوقوف في المواني المختلفة، كان يقوم برسم بورتريهات لضباط السفينة. عندما وصل إلى إيطاليا، ترك السفينة، وبقي في المدينة، كعبة الفنانين، مدة ثلاثة سنوات قضاها في دراسة الفن.

أوغسطس كيبيل، رينولدز

بعد ذلك، عاد إلى إنجلترا ومعه فكر جديد للألوان والتكوين الفني، سرعان ما أصبحت هي سمة فن رسم البورتريه الإنجليزي. عندما رأى هدسون، مدرسه السابق الذي لم يكن يتقن رسم البورتريه، رسوم رينولدز، قال بحزن: "لماذا يا رينولدز، لا ترسم جيدا كما كنت من قبل؟"

الكابتن كيبيل، أخبر جوشوا بحطام سفن على الساحل الفرنسي، كان قد شاهدها في شبابه. مما جعل رينولدز يتوق للذهاب إلى المكان لرسم الحطام. عند عودته، ظهرت أولى أعماله العظيمة.

لم يكن رينولدز يأبه برفاقه الفنانين. إنما كان يلتحق بالنوادي التي يرتادها الأدباء ورجال القلم المشهورون. أمثال، الشاعر جونسون وأشهر الممثلين جاريك، والروائي

والكاتب المسرحي جولدسمث، وجيبون (صاحب كتاب سقوط الإمبراطورية الرومانية)، والفيلسوف بروك، وآخرون.

إننا الآن نعرف هؤلاء المشاهير من كتاباتهم وأعمالهم، ونعرف وجوههم من خلال لوحات البورتريه التي رسمها رينولدز.

أيدموند بروك، رينولدز

أوليفر جولدسمث، رينولدز

الممثل جاريك، وهو يتردد بين التراجيديا والكوميديا و رينولدز

الشاعر صامويل جونسن، رينولدز

المؤرخ جيبون، رينولدز

الشاعر صامويل جونسن هو أول من لفت نظر رونالدز من هذه الكوكبة. قامت بينهما صداقة عمر.

كان يعيش رونالدز حياة عادية في لندن حتى عام 1760م، عندما انتقل إلى بيت جديد، عاش فيه بقية حياته. لم يتزوج طيلة حياته، بالرغم من إلحاح اخته وابنتها. اخته، فرانسيس، كانت أعز الناس عنده. ولكنها كانت سيدة عصبية. سببت له المتاعب. كانت في بعض الأحيان، ترسم نسخ من لوحاته. قال رينولدز عنها أنها تجعل الناس تضحك، وتجعلني أبكي.

كان بيت رينولدز، بيت كرم وحفاوة بالضيف. لمدة ثلاثين عاما تقريبا، كل فنان أو سياسي أو أديب أو شاعر في لندن، تجده قد نزل ضيفا في هذا البيت، مرة أو أكثر. العشاء كان يعد في الخامسة مساء. ليست هناك مشكلة، إذا كان الطعام معدا لخدمة سته أو سبعة، وحضره ضعف هذا العدد أو أكثر. في الواقع، لم تكن مثل هذه الموائد، مجرد موائد طعام. بل كانت موائد ثقافية، غذاء للعقل والروح. وكان رينولد يحب اقامتها ويفتخر بها.

عندما انتقل إلى منزله الجديد، جهز عربة مذهبة وزينها بالرسوم الرمزية. طلب من اخته أن تركبها للنزهة كل يوم، حتى يراها الناس. هذا يوضح لنا أن رينولدز يعرف كيف يستخدم الدعاية جيدا، بالرغم من أنه كان يعيش في القرن الثامن عشر. عندما تأكد من شهرته، ضاعف أجره. 25 جنيها استرلينيا لرسم الرأس والصدر، 50 جنيها لرسم نصفي، 100 جنيه لرسم الشخص كاملا.

كان يرسم بسرعة، في بعض الأحيان، ينهي اللوحة في أربع ساعات. لوناردو دافنشي، رسم لوحة الموناليزا في أربع سنوات. فرش رينولدز يبلغ طول يد الواحدة 18 بوصة.

يستقبل ستة زبائن في اليوم، يقوم بتسليتهم أثناء جلوسهم أمامه، بالقصص والغناء. يرسمهم غالبا في وضع ديناميكي، وهم منشغلون بعمل ما. رينولدز فنان مجد وكادح. وكان يخبر تلاميذه بذلك. ويقول لهم، لكي تبقى مشهورا، عليك بالعمل في الصباح ووقت الظهيرة وأثناء الليل.

ألوانه تميل إلى الأصفر والبني، والإضاءة عنده دافئة. يعتقد أن الألوان الباردة، الأزرق والأخضر، يجب أن تستخدم نادرا وبحذر، أو لمجرد اظهار الألوان الدافئة. وكان للأسف، يمزج ألوانه بنفسه، مما جعل الكثير من لوحاته تبهت ألوانها وتفقد بريقها.

عمر البراءة، رينولدز

كان معجبا برامبرانت وروبينز ومايكل أنجلو، تعلم منهم التلوين والصيغة والتكوين الفني. بجهوده وتحت تأثيره، بنيت الأكاديمية الملكية للفنون. وكانت بغرض أن تكون مدرسة فنون للطلبة، يقومون، نهاية كل عام، بعرض سنوي، يبيعون فيه رسوماتهم.

رئاسة الأكاديمية، كانت توكل للأدباء وكبار الفنانين في ذلك الوقت. كان رينولدز أول رئيس لها، ثم جولدسمث، يليه صمويل جونسون. لمدة عشرين عاما، كان رينولدز مرتبطا بالأكاديمية. أرسل لها خلال هذه المدة 244 لوحة، لكي تعرض في معرضها السنوي.

في عام 1769م، أنعم عليه الملك جورج الثالث بلقب فارس. وباتت كل سنة من عمره، تزيد من شهرته ونفوذه. كان معروفا أنه رسام البورتريه في لندن. منذ عرضه للوحة الكابتن كيبيل، بداية شهرته.

من أعماله المشهورة أيضا، بورتريه "السيدة إليزابث كيبيل". وهي في ملابس زفافها للملك جورج الثالث.

السيدة إليزابث كيبيل زوجة الملك جورج الثالث، رينولدز

فستانها أبيض لامع مطعم بالفضة. تظهر أمام إله الزواج، هايمين، عند الإغريق، وهي تهديه إكليلا من الزهور في يديها. ولكي يظهر رينولدز جمالها وسحرها، جعل خلفها جارية زنجية، تقف لكي تناولها إكليلا آخر.

السير جوشوا، كانت له موهبة عظيمة في رسم الأطفال. كان يستدرجهم بشتى الحيل لكي ينشغلوا عنه بلعبهم. نجح في إظهار جمالهم وبراءتهم وسحرهم. ملابسهم بسيطة، بالرغم من أن معظمهم لوردات ونبلاء ونبيلات في سن الطفولة.

الليدي جيرترود فيتزباتريك وهي تحضن عنقود عنب، رينولدز

الطفل صامويل وهو يصلي، رينولدز

الطفلة باوليز تحضن كلبها، رينولدز

طفلة الفراولة، الطفلة "أوفي" بنت أخت رينولدز، هي اللوحة المفضله لديه. تحمل بذراعها سلة فراولة، وتضم يديها إلى صدرها.

طفلة الفراولة، رينولدز

رؤوس الملائكة، رينولدز

كل الرؤوس صور لطفلة واحدة، هي ابنة اللورد جوردن. لم يكن رينولدز يدري أي الأوضاع أجمل للطفلة الجميلة، فقرر رسم رأسها بكل الأوضاع الممكنة. وأضاف للرؤوس أجنحة حتى تبدو كالملائكة.

بجانب رسم الأطفال، كان رينولدز بارعا في رسم العائلات.

عائلة مارلبورو، رينولدز

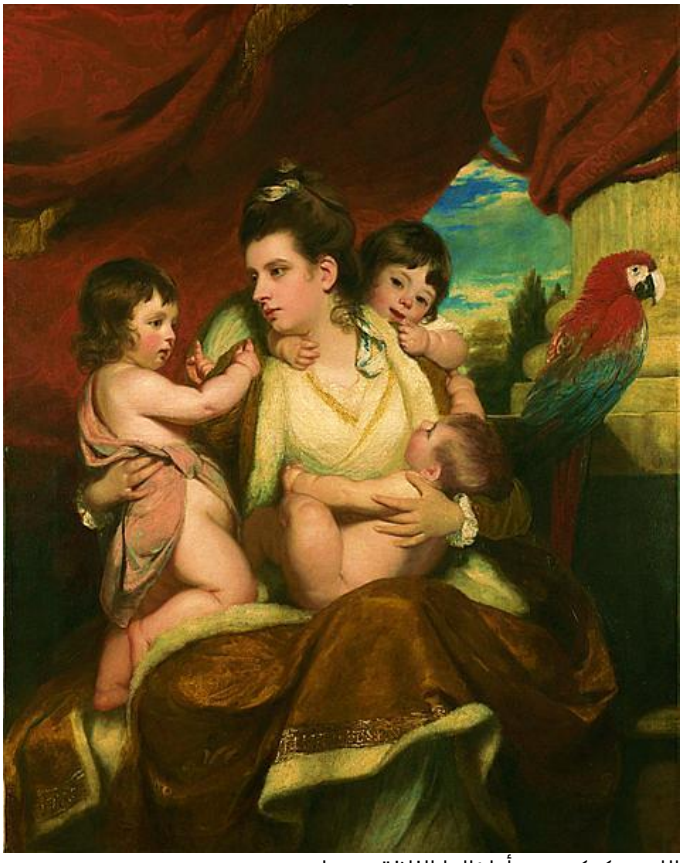

الليدي كوكبورن وأطفالها الثلاثة، رينولز

عرضت هذه اللوحة في المعرض السنوي بأكاديمية الفنون عام 1774م. الليدي "كوكبورن" تجلس في الرواق تلاعب أطفالها الثلاثة. في خلفية اللوحة، ستارة حمراء، وعلى اليمين يظهر ببغاء رائع الألوان.

الممثلة "سارا سيدونز"، كانت أشهر ممثلات لندن في ذلك الوقت. البعض كان يسميها ربة التمثيل التراجيدي. قام رينولدز برسم بورتريه لها يعكس شخصيتها، ويبين مكانتها الاجتماعية.

الممثلة سارا سيدونز، رينولدز

عندما طلب رينولدز منها أن تجلس أمامه لأول مرة، قدم لها كرسي عالي يشبه كرسي العرش، وقال لها: "هذا هو عرشك بلا منازع، يا ربة التراجيديا". البورتريه يظهرها وكأنها تنظر إلى الفضاء تبحث عن إلهام. أبطال التراجيديا، الجريمة والندم، يظهران خلفها.

عندما أنهى رينولدز رسم اللوحة، خاطب ربة التراجيديا قائلا: " أنا لا يمكنني أن أدع هذه الفرصة تفوت، قبل أن أخلد اسمي بوضعه على طرف ردائك". مجاملة ذكية من رسام رائع.

لم يكن السير جوشوا رينولدز يهتم بمجتمع النساء. لكنه، بالنسبة ل "أنجيليكا كوفمان"، كان يشعر نحوها بشئ من العاطفة. جلست كموديل أمامه في أحد اللوحات، وقالت

له: "السير جوشوا، من أعز أصدقائي. كبرهان لإعجابه بي، طلب مني أن يرسم صورتي، في مقابل أن أرسم صورته".

إلى جانب فن الرسم، كتب رينولدز عن الفن مجموعة رسائل، كانت تُقرأ بأكاديمية الفنون بلندن. آخرها كان عن الفنان العظيم مايكل أنجلو، الذي كان يجله ويقدره، ويستلهم الكثير من أعماله طوال تاريخه الفني. جاء في آخر الرسالة: "آمل أن تكون آخر كلماتي، إلى هذه الأكاديمية ومن هذا المكان، هي كلمة عن مايكل أنجلو".

رينولدز، عندما كان شابا في إيطاليا، أصيب بالبرد. مما أثر في سمعه، وجعله يحمل بوق أذن لمساعدته على السمع. وكان يقول متهكما، عندما لا تعجبني المحاثة، أقوم ببساطة بإسقاط البوق من أذني.

مع كبر السن، بدأ نظره يضعف، إلى أن فقد النظر كلية بإحدى عينيه، وباتت الأخرى عاجزة عن تمييز الأشكال والألوان. ثم داهمه شلل جزئي، مما يضيف كثيرا من الحزن والغم إلى أيامه الأخيرة.

في عام 1792م، توفي السير جوشوا رينولدز. كانت جنازته، من أجل وأعظم جنازات القرن الثامن عشر، التي شهدتها إنجلترا. دفن في كاثيدرائية القديس بولس.

27

الفن الإنجليزي(2)
جينزبورو

هناك قصة طريفة عن فنان شاب. ذهب يوما لكي يرسم شجرة كمثرى. أثناء الرسم، اكتشف وجود رأس رجل يختبئ بين الأغصان. قبل أن يهرب اللص، استطاع الشاب أن يرسم ملامحه في الصورة.

عندما عرضت اللوحة، عرف اللص، وكذلك الفنان الشاب الذي أحضره للعدالة. الشاب هو "توماس جينزبورو"، المشهور برسم الطبيعة والبورتريه.

توم وشجرة الكمثرى، جنزبورو

ولد جينزبورو في سودبري عام 1727م. في طفولته، لم يكن مهتما بالدراسة. اهتمامه كان برسم الطبيعة. أيام الأجازات، كان يقضيها في رسم الأغصان والأشجار القريبة من منزله. صار يعرفها شجرة شجرة.

اجتمع مجلس الأسرة، وقرر أن الصبي موهوب، يجب إرساله إلى لندن لدراسة الفن. بعد ثلاث سنوات قضاها في دراسة الفن هناك، عاد إلى منزله لكي يتمتع بالهواء النقي ومناظر الحقول والمراعي التي تحيط بمنزله.

هناك قصة أخرى، مثل قصة توم وشجرة الكمثرى. بينما كان جينزبورو يرسم في الغابة، ظهرت غادة جميلة من خلف أشجار كثيفة. قام هو برسمها، حتى تستقر في لوحته وفي قلبه.

تزوج جينزبورو من الفتاة، عندما كان يبلغ من العمر 19 سنة. زوجته كان عمرها أقل سنة من عمره. ذهبا معا لكي يعيشا في إيبسويتش تاون. هناك، ظل يرسم المناظر الطبيعية التي يحبها والبورتريه. لكن بأجر زهيد جدا، لمدة 15 سنة. بعد ذلك، نصحه أحد الأصدقاء بالذهاب إلى مدينة "باث".

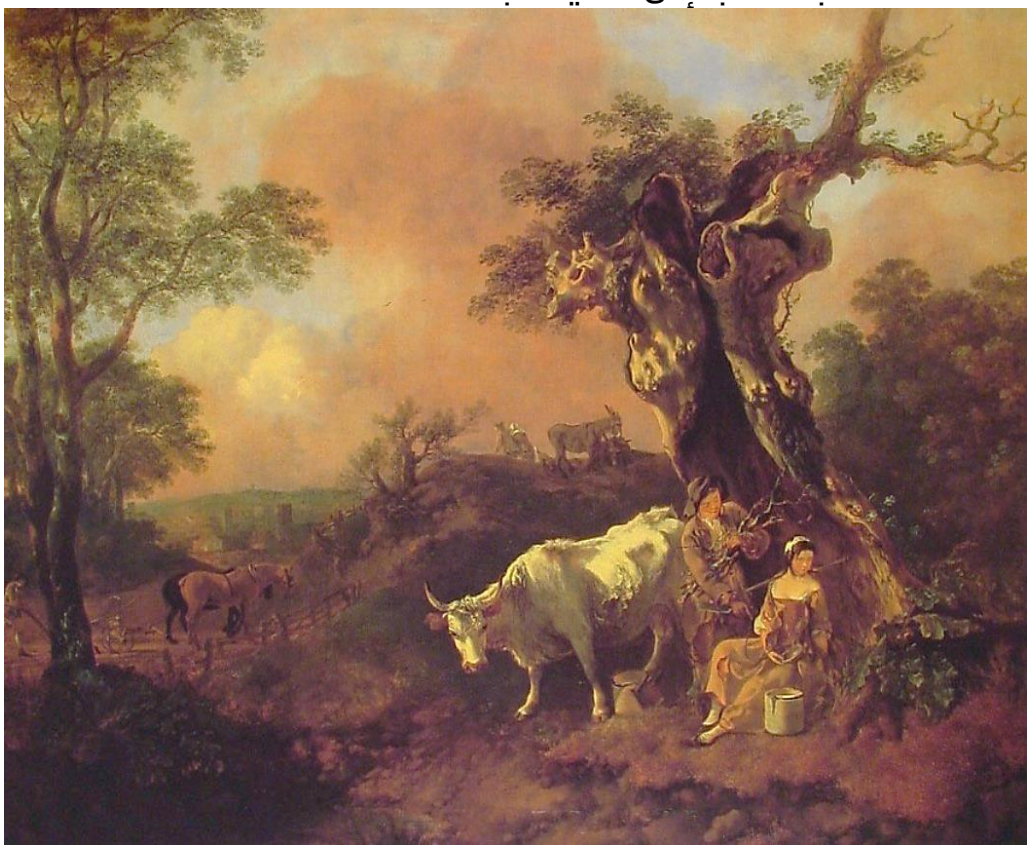

منظر لحطاب وبائعة لبن، جينزبرو

باث، في ذلك الوقت، كانت مدينة الموضة في إنجلترا. يأتي إليها الأثرياء للاستجمام والعلاج وشرب مياهها المعدنية. الأثرياء، لديهم كل الوقت للجلوس لرسم بورتريهات لهم.

لاقى جينزبورو نجاحا منقطع النظير. بدأت وجوه العديد من المشاهير تظهر على لوحاته. عندما كان يزور قصور الأثرياء في "باث"، كان يجد لوحات تيتان وفان دايك ورامبرانت وموليرو. كان مسموحا له بنسخها. مما جعل أسلوبه يتحسن في الرسم.

مدام جراهام، جينزبورو

من هؤلاء العمالقة، كان فان دايك هو رسامه المفضل. كان جينزبورو رجلا اجتماعيا، يعشق الموسيقى. أفضل أصدقائه، هم موسيقي المدينة. قاموا بتعليمه العزف على بعض الآلات.

عندما كان في باث، تكونت الأكاديمية الملكية للفنون في لندن. وبدأ جينزبورو في إرسال لوحاته للأكاديمية للعرض والبيع السنوي. ويلتشير، الذي كان يقوم بنقل اللوحات إلى لندن، كان معجبا بفن جينزبورو، وكان يرفض أخذ أجرا نظير هذه الخدمة، لكنه بعد إلحاح، رسم بورتريها صغيرا له كمقابل متواضع. لنا أن نتخيل، كم تساوي هذه اللوحة الآن.

كان جينزبورو كريما إلى درجة التبذير في بيع أو إهداء أعماله. كان يهب لوحاته في نظير خدمة صغيرة أو ثمنا لكرسي في مسرحية، أو كهدية لدعوة على العشاء.

أخيرا في عام 1774م، قرر الذهاب إلى لندن. هناك، أصبح منافسا للسير جوشوا رينولدز. بعض العائلات الثرية، استخدمت كلاهما. الصراع السياسي كان على أشده في ذلك الوقت.

السير جوشوا كان ينتمي إلى حزب "ويج" اليميني. جينزبورو، كان ينتمي إلى حزب المحافظين، حزب الملك جورج الثالث. لذلك، استدعي جينزبورو إلى البلاط لكي يرسم العائلة الملكية.

كان البلاط سعيدا بجينزبورو إلى درجة أنهم أسقطوا عنه الكلفة وقواعد الإيتيكيت، وسمحوا له بدخول القصر في أي وقت يحلو له. كان يعتقد، أنه الوحيد الذي يستطيع أن يجعل الملكة العجوز "شارلوت" تظهر جميلة.

بالطبع، شرف العمل في البلاط الملكي، أضاف شهرة إلى شهرة جينزبورو. إلا أنه كان يرفض أن يهينه أحد. في يوم من الأيام، جاء إلى بابه أحد النبلاء يسأل بسخرية قائلا: "هل هذا الشخص المدعو جينزبورو، قد أتم الصورة؟"

سمعه جينزبورو من داخل الاستديو، ولم يعجبه أسلوب النبيل في التخاطب واستخدامه كلمة الشخص، للإشارة إليه. فأخذ فرشة مليئة بالألوان وقام بالشخبطة في الصورة على وجه النبيل، ليفسد البورتريه. ويخسر بهذا العمل مبلغ 100 جنيه إسترليني. وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت.

قصص أخرى تبين أنه كان متهورا بعض الشئ، من السهل إثارته، في أحيان أخرى، كان خشن الطباع. لكنه في نفس الوقت، كان كريما عطوفا رحيما محبا للجميع. عندما يجهد من رسم البورتريهات في المدينة، كان يسرع إلى الريف ليرسم مناظر الطبيعة التي يحبها.

في يوم من الأيام، وجد طفلا صغيرا متشردا من أطفال الريف، حافي القدمين، اسمه "جاك هيل"، ظهر في بعض لوحاته. الصبي لا أهل له، قام جينزبورو بتبنيه. لكن جاك لم يتحمل حياة المدينة، وفر هاربا إلى الحرية وأحضان الطبيعة. لا يجب أن نلومه على ذلك، فمن منا يريد أن يترك الريف لكي يعيش في سجن المدينة.

طفل الريف المتشرد جاك هيل والقطة، جينزبورو

عاش جينزبورو حياة سعيدة. كان عامه الأخير هادئا. قضاه وسط عائلته. مات في عام 1788م. البعض يضعه بين رسامي البورتريه العظام، البعض الآخر يضعه بين رسامي المناظر الطبيعية الأفذاذ.

أسلوبه في رسم المناظر الطبيعية، رقيق شاعري. وكان يضع الروح في وجوه بورتريهاته. ألوانه هادئة باردة. على عكس ألوان السير جوشوا رينولدز الدافئة.

سطح لوحاته مرسوم بعناية، الشرائط والجواهر تظهر لامعة براقة. إذا شعر بتواصل مع الشخص الذي يرسمه، لن تجد له مثيلا في فنه.

أنجح لوحاته، بوتريه مدام جراهام. كان عمرها 19 ربيعا عندما وقفت لكي يرسمها جينزبورو، توفيت عن عمر 35 ربيعا. زوجها، لم يعد يطيق النظر إلى صورتها المطابقة للأصل، والتي تعلق على الحائط العريض في نهاية الصالة بمنزله. أمر بأن يبنى جدارا بينه وبين اللوحة، لكي يخفي وراءه صورة زوجته الحبيبة.

بعد نصف قرن، بينما أصحاب المنزل يقومون بتعديل تصميمه، تم اكتشاف اللوحة. وجدت كأنها رسمت بالأمس، ألوانها كانت ناصعة حقيقية. وجدوا بجوارها، الحذاء الأزرق الذي كانت تلبسه عندما كانت تقف للبورتريه. اللوحة موجودة الآن بمعرض أدنبرة القومي.

مدام جراهام، جينزبورو

بورتريه أخر مشهور، هو الخاص بالدوقة ديفونشير، التي كانت سيدة للمجتمع في زمانها. قد تكون ملابسها، موديلات عصر فان دايك، لكنها هنا تبدو رائعة.

سيدة المجتمع الدوقة ديفونشير، جينزبورو

شعرها مموج، وقبعتها الكبيرة مزينة بريش النعام (أعلا القبعة غير واضح في الصورة). تقول الحكاية، أن بعض سيدات المجتمع الراقيات، ظل يبحثن في كل أنحاء

لندن دون فائدة، عن ريش نعام، يكون بطول ريش نعام قبعة الدوقة الموجودة في اللوحة.

عندما أعيتهم الحيل، وفي حالة يأس، طلبوا من الحانوتي أن يبيعهم الريش الذي كانت تلبسه الدوقة في حياتها ودفن معها.

كان جينزبورو مغرما برسم الأطفال. من بين لوحاته المشهورة، لوحة "صبي بمبي" ولوحة "صبي أزرق".

صبي أزرق، جينزبورو

الصبي أسود الشعر، عمره 15 سنة. السحب الزرقاء تغطي مساحة كبيرة من خلفية الصورة.

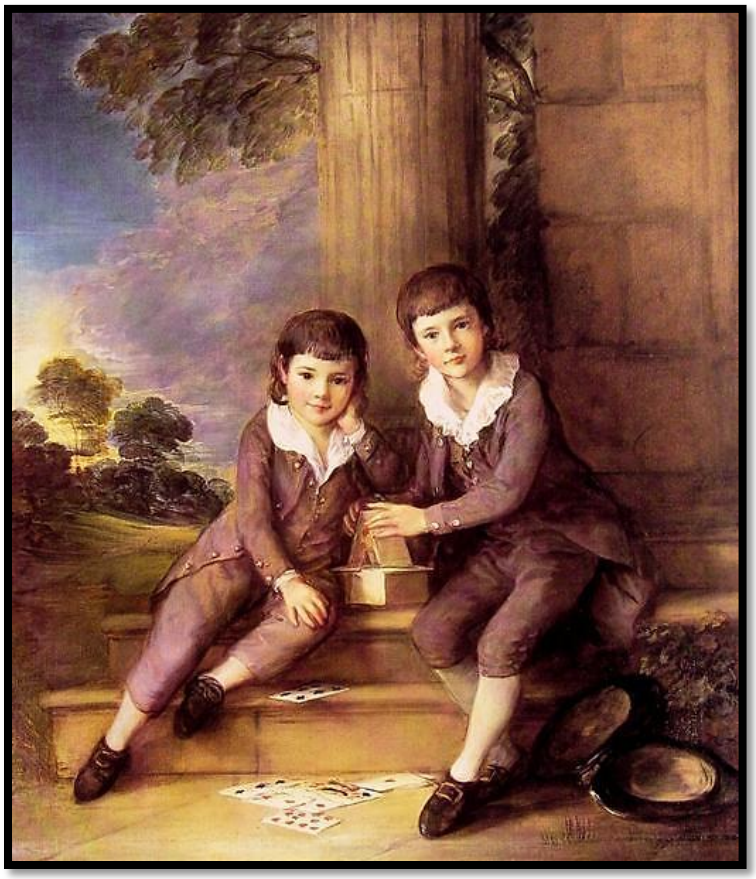

صورة جون وهنري ترومان فيليبويس، جينزبورو

السير جوشوا رينولدز، له نظرية في عالم فن الرسم، تقول بأن اللونين الأزرق والأخضر، لا يجب أن يستخدما بكثرة في اللوحات. لكن، جينزبورو، على النقيض، كان مغرما بهذين اللونين بالأخص. ربما يكون قد رسم هذا الصبي الأزرق الرائع، لكي يبطل نظرية السير جوشوا.

كان جينزبورو محبا للمسرح، سعيدا باستقبال مدام سيدونز، الممثلة المشهورة. لكي يرسم بورتريه لها، في نفس السنة التي رسمها فيها السير رينولدز.

مدام سيدونز الممثلة المشهورة، جينزبورو

مدام سيدونز، رسم السير جوشوا رينولدز

الصورتان توضحان التباين في الأسلوب بين الفنانين العظيمين. السير جوشوا، يظهرها "ربة التراجيديا". تنظر إلى الفضاء تبحث عن إلهام. أبطال التراجيديا، الجريمة والندم، يظهران خلفها في اللوحة.

لكن جينزوبورو، يصورها كسيدة تقوم بزيارة أو تحضر حفلا. صورة السير جوشوا صورة رائعة ديناميكية مليئة بالحركة والتعبير، والصورة الأخرى رائعة مليئة بالهارمونية والطاقة والصدق.

الممثل المشهور جاريك، كان دائم الزيارة لكل الرسامين الموجودين في ذلك الوقت، لعمل بورتريهات له. جينزبورو كان معجبا به جدا. وكان سعيدا عندما أخبرته زوجة جاريك، أن البورتريه الذي رسمه لزوجها، من بين كل البورتريهات، هو الأقرب لشكل جاريك الحقيقي.

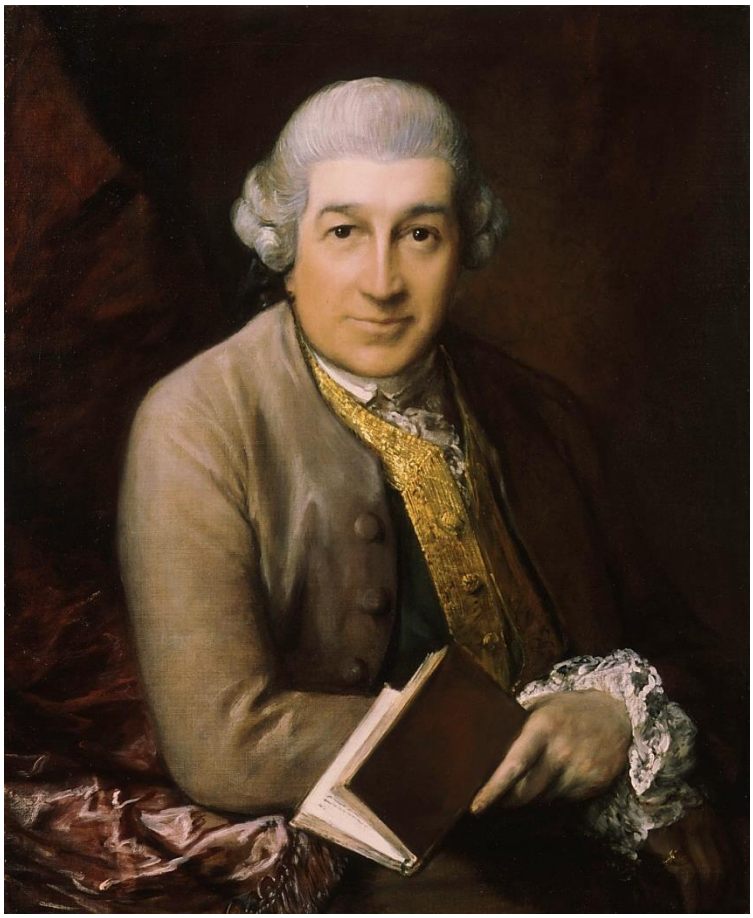

الممثل جاريك، جينزبورو

لم يكن رسم المناظر الطبيعية له أسلوب معين في ذلك الوقت. الصالة المؤدية إلى استوديو جينزبورو، كانت حيطانها مغطاة بصف طويل من المناظر الطبيعية التي رسمها. لكن زبائنه، في النادر، كانوا ينظرون إلى هذه اللوحات.

قال يوما: "الناس لا تعبأ بهذه اللوحات. أنا رسام مناظر طبيعية، لكن الناس تأتي لرسم بورتريهات لها". جينزبورو يكرم اليوم، لأنه أول من رسم الطبيعة والريف والأماكن النائية الإنجليزية بصدق وأمانة.

كان يرى الجمال في الأشياء البسيطة. ركن مشمس، طريق ملتوي، عربة قش، أو كوخ بسيط. ألوانه الرائعة نراها في صباح ندي، أو أشعة الغروب الذهبية. مناظره الطبيعية، تدب فيها الحياة لاحتوائها على الخيول والحيوانات الأليفة وأطفال وصبايا الريف.

عودة الأبقار من المراعي، جينزبورو

منظر طبيعي لقرية كورنارد، جينزبورو

كان يرى الطبيعة ككل، لا كأجزاء متفرقة تفصيلية. ربما نعتبره الآن أو نسميه فنان تأثيري.

28

الفن الإنجليزي(3)
كونستابل - تيرنر

جون كونستابل، هو خليفة جينزبورو في فن رسم المناظر الطبيعية. مكان ميلاده يبعد 14 ميلا عن مكان ميلاد جينزبورو. لذلك نتوقع أن يكونا قد شاهدا نفس مناظر الطبيعة الخلابه.

عندما توفى جينزوبرو، كان عمر كونستابل 12 سنة. والده كان طحانا، هو نفسه عمل كطحان في صدر شبابه لكي يساعد والده. قام بدراسة المناظر الطبيعية في الخلاء. كان يستلهم الفن من جمال نهر "ستور"، الذي توجد على ضفافه طاحونة والده.

عندما كان طفلا، كان يسير حالما على ضفاف نهر ستور. يقول كونستابل: "هذه المناظر, هي التي جعلتني رساما. وأنا ممنون لذلك". ثم برهن على امتنانه، بأن وهب نفسه لرسم المناظر الطبيعية، وصار فنانا. رسم أجمل لوحاته على ضفاف النهر وحول الطاحونة القديمة، كما كان يسميها.

طاحونة سترادفورد، كونستابل

كان يعرف المباني القديمة في قريته، ويراقب السحب وهي تتشكل وتتغير مع تغير الطقس. وعرف كيف يرسمها في أوقات مختلفة، ليبين بها اتجاه الريح، وأين تتجمع الأمطار. الأشجار في لوحاته، تميل مع النسيم، أو تنحني مع العاصفة، أو تهيج وتموج مع غضبة الطبيعة. في أحد لوحاته، التي تصور هطول المطر، قال أحد الفنانين الذي كان يشاهد لوحته: "كونستابل جعلني أبحث عن معطفي و مظلتي".

كونستابل، مثل جينزبورو، يحب البساطة، حقل ذرة، قرية بسيطة، غدير، مراعي، قطيع أغنام. هو أيضا، يحب أن يُظهر في لوحاته حصان أبيض اللون. كان ينتظر حدوث شئ ما، أو مرور شخص بعينه. لكي يُظهره في لوحاته بطريقة طبيعية لا يبدو فيها التكلف.

إذا كان جينزبورو قد اهتم بالمناظر النائية الوعرة، والغابات الغير مأهولة، كان اهتمام كونستابل بالريف الوديع، والمزارع والحدائق والمراعي الحية. تفاصيل كونستابل، أكثر دقة من تفاصيل جينزوبورو.

لوحة الحصان الأبيض، كونستابل

أشجاره أكثر خضرة، سماؤه أكثر زرقة، لوحاته أكثر حيوية. لذلك، كونستابل، وليس جينزبورو، هو "أبو المناظر الطبيعية الإنجليزية". إذا كان جينزبورو فنانا تأثيريا (لا يهتم بالتفاصيل الدقيقة)، فكونستابل فنان واقعي (أقرب إلى الحقيقة).

كان كونستابل معجبا بالرسام "كلود"، أمير وشاعر المناظر الطبيعية الفرنسي. وكان كلود يبادله الإعجاب، ويشتري لوحاته.

منظر طبيعي للرسام الفرنسي كلود

لم يحصل كونستابل على منحة للدراسة في أكاديمية الفنون بلندن، إلا بعد أن حصل على ميداليتي تقدير في باريس. في الواقع، لم يلق كونستابل، على الإطلاق، التقدير المناسب في وطنه.

منزله كان مليئا باللوحات. وكان يعرضها بالمجان للمشاهدة. لكنه لم يستطع بيعها بسهولة. كان قلقا على الدوام، بسبب الضيق المالي. قال له صديق يوما ما: "مهما بلغ بك الأمر، يا كونستابل، عليك أن تترك القلق".

بارك ويفنهو لكونستابل، بساطة وجمال وسلام، لا أكثر ولا أقل.

بارك ويفنهو، كونستابل

توفى كونستابل عام 1837م. بعد وفاته بخمسين عاما، وهبت عائلته لوحاته إلى الشعب الإنجليزي.

بعد جينزبورو وكونستابل، تقدم فن رسم المناظر الطبيعية تقدما كبيرا. وصف الفنانون في كل أنحاء العالم، في لوحاتهم مناظر الطبيعة الخلابة. لكن أعمال الفنانين القدامى، لاتزال هي المنهل العزب الذي يرتوي منه الفنانون المحدثون.

نترك الآن كونستابل، ومراعي سوفوكل الخضراء، ونذهب إلى منزل متواضع في حارة ضيقة من حارات لندن. هنا كانت تعيش عائلة تيرنر. الغرفة الأمامية بالطابق الأرضي، تحولت إلى دكان حلاقة للأب تيرنر.

الأسرة صغيرة، تتكون من أب بشوش رغّاي، وهذا دأب غالبية الحلاقين، وأم لها طباع عصبية، والابن وليام، المولود عام 1775م. عندما كان وليام طفلا، مرضت والدته وأودعت مصحة الأمراض العصابية.

تيرنر الأب، كان يرتزق من الحلاقة ومن مهنة تصفيف الشعر والعناية بالبواريك الصناعية التي تلبس على الرأس، كانت مهنة مربحة في ذلك الوقت. بعد فقد الأم، لم يكن الابن والوالد يفترقان.

عندما كان عمر الصغير تيرنر خمس أو ست سنوات، في يوم من الأيام، رافق والده إلى منزل تاجر فضة ثري. بينما كان الحلاق يبدر باروكة الثري ويعتني بها، جلس الصبي على كرسي مرتفع، أخذ يبحلق في رسم الأسد على الصينية الفضية الموضوعة على الطاولة أمامه.

أثاء العوده، ظل ويليام صامتا. في المنزل، جلس على المنضدة وجاء بورقة كبيرة، رسم عليها من الذاكرة صورة طبق الأصل للأسد التي شاهدها على الصينية الفضية.

بخلاف الآباء الذين تحدثنا عنهم سابقا، تيرنر الأب، كاد يطير فرحا. عرف منذ هذه اللحظة، أن ابنه سوف يكون رساما. تحققت نبوءة الأب، وأصبح تيرنر، فيما بعد، من أعظم رسامي المناظر الطبيعية الإنجليز.

مع مرور السنين، سمح لتيرنر بمرافقة البحارة، والتجول على ضفاف نهر التايم، والسير تحت جسور لندن، وبين السفن الراسية في الميناء. ربما تكون هذه الحياة غير مناسبة لصبي في هذا العمر، لكن تيرنر الصغير كان يحب رؤية الماء والنهر.

قام بدراسة كل شئ عن السفن. وكان يجلس ليراقب تأثير الضوء والظل على أشرعة المراكب في الأيام المشمسة، والأيام التي يكثر فيها الضباب. وكان يرسم ما يراه بأمانه وما يحس به بصدق.

عندما بلغ وليام 10 سنوات، أرسله والده إلى مدرسة في برينتفورد، وكان يقيم مع عمه الجزار. هنا في الريف، كان يجد ويليام سعادة غامرة في التجول بين الحقول، يرسم الطيور والأشجار والزهور، على غلاف كراساته وكتبه.

لو استطعنا أن نجمع في معرض واحد، كل الشخابيط والاسكتشات التي رسمها الفنانون الذين سبق ذكرهم، عندما كانوا صغارا، لكان لدينا معرضا فريدا يستحق الاهتمام والدراسة. وكنا سنجد اسكتشات تيرنر من بين أفضلها. لأنه في سن الثانية عشر، عرض له اسكتشان في الأكاديمية الملكية بلندن.

بعد برنتفورد، ذهب تيرنر إلى مدرسة في مارجيت، قرية جميلة في مقاطعة كنت. هناك، ولأول مرة، رأى البحر. كان حريصا على مراقبة ورسم أشعة الشمس والصخور والأمواج. هنا أيضا، وقع في غرام أخت أحد زملاء الدراسة.

كان يجد صعوبة في دروس اللغة اللاتينية. درس قليلا من التاريخ والميثولوجيا، التي وظفها فيما بعد في بعض لوحاته. قرية مارجيت كانت مكان بهجة لتيرنر، وجد بها الفن والحب. في سنواته الأخيرة، غالبا ما كان يأتي إليها لقضاء أجازته.

كل هذا الوقت، والوالد الحلاق، كان يعمل ليل نهار، لكي يوفر لابنه تعليما جيدا. عندما كان يُسأل عن مستقبل ابنه، كان يجيب بكل فخر، أنه سوف يصبح رساما.

بعد عودة تيرنر من مارجيت، بدأ في دراسة علم المنظور (الأشكال القريبة كبيرة والبعيدة صغيرة). لكنه لم يحرز تقدما في هذا العلم. مما جعل مدرسه ينصح والده بتوفير فلوسه وعدم ضياعها في دراسة الفن. ونصح الوالد، لكي يعد ابنه للعمل كإسكافي أو خياط.

بعد ذلك، حاول تيرنر دراسة الهندسة المعمارية، لكن المدرس نصح الوالد بإرسال ابنه للأكادمية الملكية للفنون. لأن هذا هو مكانه الطبيعي. بعد التحاقه، اختفت متاعبه وبدا كل شئ على ما يرام.

في الأكاديمية، بدأت حقا حياته الفنية. سرعان ما اكتشف أساتذته عبقريته الفنية. فيما بعد، أصبح عضوا في الأكاديمية الملكية، ثم مساعدا. قضى باقي حياته، يكرس جهوده لخدمة الأكاديمية.

توم جيرتين، الفنان الذي أسس مدرسة الرسم بالألوان المائية في إنجلترا، كان صديق الصبا لتيرنر. في الريف، كانا يقومان بالرسم معا. في المدينة، كانا يكسبان بعض المال من رسم لوحات لتجار الفاكهة وإضافة مناظر السحب والسماء إلى لوحات المباني الهندسية.

جيرتين توفي شابا في سن السابعة والعشرين. حزن عليه تيرنر حزنا بالغا. كان يعترف بنبوغه، ويقول إنه لو ظل جيرتين حيا، لتضورت جوعا. في سنواته الأخيرة، فقد تيرنر أصدقاء آخرين. منهم الشاعر مور، والمثال روجرز.

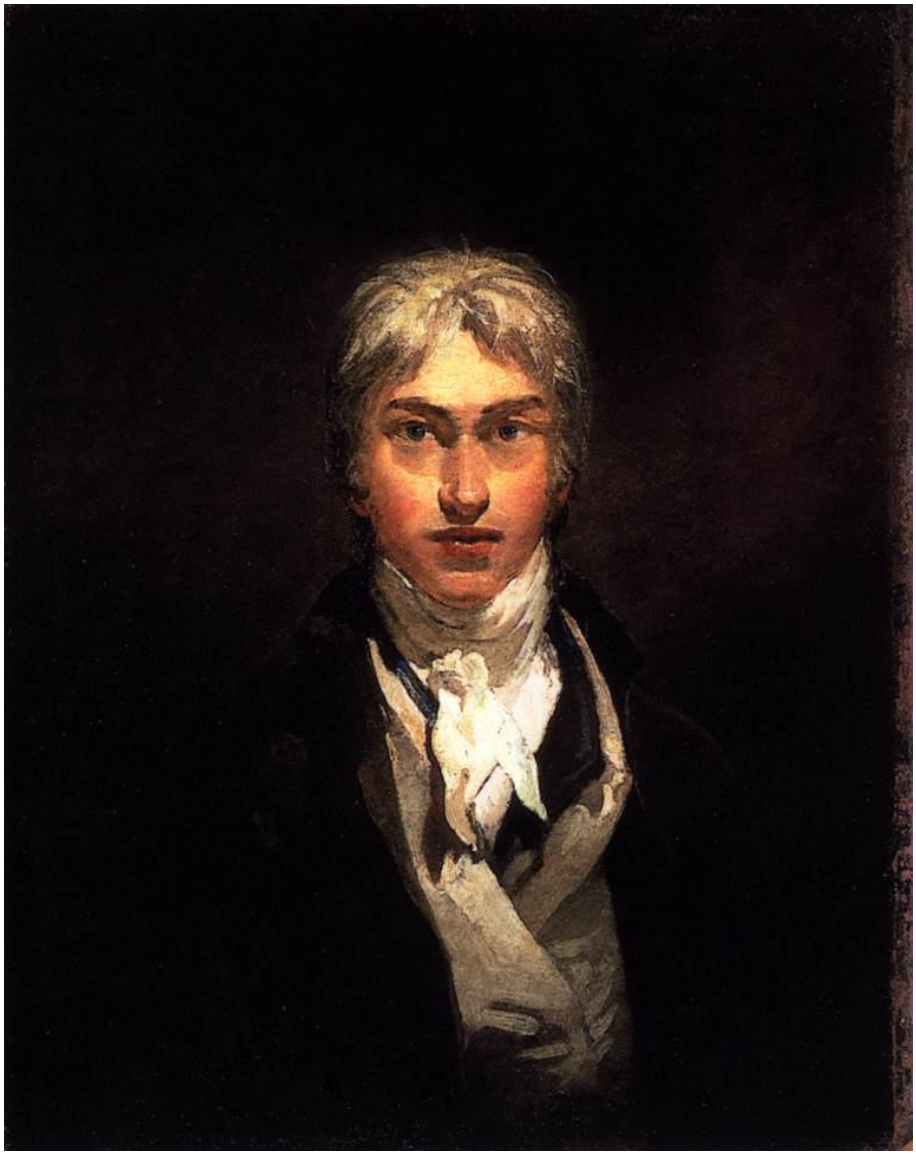

صورة بورتريه، رسمها تيرنر لنفسه عام 1799م

في وقت ما، وهذا من حظه، كان تلميذا للسير جوشوا رينولدز. لكن السير جوشوا توفي قبل أن يستوعب الفنان الشاب أسلوبه في الرسم. عندما كان تيرنر عمره 18 سنة، بدأ رحلاته سيرا على الأقدام، والتي ظل يحبها طول حياته.

كان قوي البنيان، غير مهندم لا يهتم بمظهره. يلبس ملابس لاتناسبه، ويضع أمتعته في صرة مربوطه في عصا، يحملها على كتفه أو ظهره. في بعض الأحيان، يحمل

حقيبة ومظلة قديمة، يدها تصلح أن تكون عصا سنارة صيد سمك. لأنه كان يحب الصيد، وصيد السمك بصفة خاصة.

كان معتادا على المشي 20 أو 25 ميلا في اليوم. أثناء رحلاته، لا يفوته شئ هام أو ملفت للنظر. عندما يعجبه مشهد، يقوم برسم كروكي، ثم يرسمه لاحقا على لوحة، مستعينا بذاكرته القوية.

كراسة اسكتشاته، بها تنويعات كثيرة. حساب مصاريفه، وما يسمعه من أخبار وإشاعات، وما شابه. جولاته الأولى كانت داخل إنجلترا، ثم تخطت الحدود إلى بلاد أجنبية أخرى. وكان دائم البحث عن منظر فريد له معنى ينقله إلى لوحاته.

كان يفضل تيرنر السفر بمفرده. لذلك كان يسمى ناسك الطبيعة الكبير. بعد عودته من أحد هذه الرحلات، وجد خطيبته قد هجرته، وتمت خطبتها لشاب آخر. وهو شئ عادي يحدث للكثيرين منا. لكن هذا الحادث، كان له تأثير سئ على فناننا الشاب.

تغيرت شخصية تيرنر، من رجل سعيد يأمل في المستقبل، إلى شخص عابس بائس مائل للعراك. منذ تلك اللحظة، رتب أموره على أن يكون هدفه في الحياة شيئان، الفن والغنى. هذا شئ طبيعي لإنسان صدم بقسوة في حبه، وجرح بعمق في كبريائه وكرامته.

لعده سنوات، ظل يرسم الناس، ولم يكن صبورا مع طلبته. في عام 1808م، عين مدرسا بالأكاديمية، وظل يشغل هذا المنصب لمدة 30 سنة. في البداية، لم تكن محاضراته ناجحة. جمله كانت غامضة ومملة. وكان يتكلم بغمغمة وعدم وضوح.

في أحد المرات، اعتلى منصة المدرج، وبعد أن تحسس جيبه، صاح مذعورا، قائلا: "سادتي، لقد تركت المحاضرة في العربة". بعد أن سكن في عدة أماكن في لندن، استقر به المقام، لمدة 40 سنة، في بيت قديم في شارع الملكة آن.

السقف كان يرشح، والأبواب كانت مهزوزة. التراب وخيوط العنكبوت، والرطوبة في كل أركان البيت. وقططه عديمة الذيل، تجول في المنزل بحرية وأمان.

لكن هذا البيت مليء بالإسكتشات واللوحات النادرة. الأب تيرنر أصبح الآن يعيش مع ولده الفنان. مهنة العناية ببواريك الشعر لم تعد مربحة بعد تغير الموضة.

كان الأب يساعد في شغل البيت ويعد اللوحات للابن. ثم يطليها بطبقة من الورنيش بعد رسمها. وكان تيرنر يقول: "والدي يبدأ اللوحة وينهيها".

كان تيرنر يمتلك منزلا بالريف، بمنطقة تويكنهام، لمدة 15 سنة. في هذا المنزل ، كان يحى حياة ريفية حقا. له قارب، وعربة بعجلتين يجرها حصان عجوز. كان يعشق الطيور، ويحمي أعشاشها. كان لديه بالمنزل نموذج سفينة. في حديقته مخزن كان يحفظ فيه لوحاته.

لكن تيرنر باع المنزل الريفي، لأنه كان يعتقد أن والده يعمل خارجه كثيرا مما يعرضه للإصابة بالبرد. الأب والإبن كانا لا يفترقان عن بعضهما، وكان الأب فخورا جدا بابنه الفنان. عندما مات الأب عام 1830م، حزن تيرنر حزنا بالغا لوفاته.

سنرى الآن لماذا يعد تيرنر من بين عمالقة فن الرسم. بدأ حياته بالرسم بالألوان المائية، ثم الرسم بالزيت. يرسم بسرعة ولمساته واضحة ومحكمة. لا يهتم بالصيغ الفنية قدر اهتمامه بالألوان وما يضفيه البحر والسماء من تأثير على المشهد.

في بعض الأحيان يستخدم الإسفنج، لرسم زبد البحر أو السحب. وفي أحيان أخرى يستخدم أي شئ حتى أظافره لتشكيل موجات البحر. لا أحد من الفنانين استطاع أن يرسم مثله. ولم يترك فنان آخر مثل هذا العدد الهائل المتنوع من لوحات المناظر الطبيعية مثل تيرنر.

صيادو السمك في البحر في ضوء القمر، تيرنر

لكي نعرف حقا فن تيرنر، علينا أن نزور كل أوروبا، بما في ذلك إنجلترا واسكتلندا، وضفاف الراين والقلاع والكاثيدرائيات العريقة. وأيضا قصور النبلاء في جبال الألب. ونعرف شيئا عن تاريخ اليونان والرومان والبندقية وقرطاجة. ونحب البحر والسماء والطبيعة بجمالها وجلالها.

تيرنر لم يكن ينقل المشهد كما يراه مثل الكاميرا. لكنه كان يرسمه بروح شعرية عميقة مليئة بالتصوف. صوره من الصعب فهمها. لأنه من غير الممكن للآخرين رؤية وجهة نظره.

غرق سفينة نقل، تيرنر

البعض يرى فنه غامضا لا معنى له، مجرد لطع لونية، آخرون يحاولون جاهدين رؤية انطباع تيرنر عندما قام برسم المشهد. أحد السيدات أخبرته يوما أنها عندما كانت تنسخ لوحته، اكتشفت أنه يضع لمسات من الأحمر والأزرق والأصفر في كل مساحات اللوحة.

هنا أجابها تيرنر: "حسنا، هل ترين نفسك أيضا كجزء من الطبيعة؟ إذا لم تكني، فلتساعدك السماء". بعد أن رسم المساء في أحد لوحاته، اعتقد أن اللوحة تحتاج إلى منطقة غامقة في المقدمة لاظهار التباين. لذلك، قص صورة كلب أسود ولصقه على اللوحة. هذه الورقة، لا تزال ملتصقة على اللوحة حتى الآن.

مرة أخرى رسم عاصفة ثلجية في البحر. في أحيان أخرى. قال عنها النقاد أنها رغوة صابون ومنظر باهت. تيرنر الذي أمضى الساعات مربوطا إلى عمود الشراع في

السفينة، حتى لا يسقط في الماء، لكي يلتقط المنظر الحقيقي للعاصفة، غضب من قول النقاد، ثم قال: "أنا لا أعرف كيف يرون العاصفة. أتمنى لو كانوا معى داخلها".

رسكين، الناقد الفني العظيم، كان معجبا بفن تيرنر كل الإعجاب. في كتابه "تاريخ الرسامين المحدثين"، يقول بالنسبة لرسم تيرنر: "فقط الفحص الدقيق أو بالنظر بالمجهر، يمكننا اكتشاف كل الروائع المختبئة بين حنايا اللوحة".

اللوحة التي يأخذها رسكين كمثال لفن تيرنر، هي لوحة "سفينة العبيد".

سفينة العبيد، تيرنر

اللوحة موجودة الآن في متحف مدينة بوسطن بالولايات المتحدة. اللوحة تمثل سفينة محملة بالعبيد، تصارع عاصفة رهيبة في المحيط. المحيط مقسوم نصفين. أشعة

شمس المغيب تتسلل من بين السحب في صورة سيف بتار يقسم المحيط، ويعلن رفضه لما يحدث، والثورة على تجارة العبيد.

تجار العبيد يلقون بالأموات والذين يحتضرون إلى الماء المضطرب بالأمواج العاتية. أصفادهم وأغلالهم وأياديهم المرفوعة تظهر من تحت الماء. الأسماك تظهر أيضا من بين الأمواج.

الظلام والليل الحالك يتجمعان للانقضاض والسيطرة على المشهد. تيرنر كان معجبا بهذه اللوحة. وعندما باعها، قال لقد فقد أحد أبنائي.

لوحة أخرى قريبة إلى قلبه، هي لوحة "تيميرير القديمة"، وهو اسم سفينة حربية تجر إلى الشاطئ. هذه اللوحة، رفض تيرنر بيعها، ووهبها بعد وفاته إلى الأمة الإنجليزية.

السفينة تيميرير القديمة تجر إلى الشاطئ، تيرنر

قبل أن يرسم هذه اللوحة بسنوات عديدة، كان قد ذهب إلى بورتزموث، لكي يرى أسطول القائد نلسون، بعد انتصاره في ترافالجار ضد الأسطول الفرنسي والأسطول الإسباني مجتمعين. هو نفس الأسطول، بقيادة نلسون، الذي هزم الأسطول الفرنسي من قبل في معركة أبوقير البحرية.

رأى تيرنر السفينة الحربية "تيميرير" وهي تحمل بكل فخر العلم الإنجليزي. السفينة، أثناء المعركة البحرية، وقعت بين سفينتين حربيتين فرنسيتين، لكنها استطاعت أن تأسرهما معا.

الآن بعد مضي عشرات السنين على هذه المعركة، وبينما كان تيرنر يسير على شاطئ نهر التايمز، رأي السفينة الحربية ذات التاريخ المجيد، يجرها زورق سحب صغير، إلى ورشة بحرية لكي تفكك وتقطع إلى أجزاء صغيرة.

صرخ تيرنر قائلا، هذا موضوع رائع. وهو ينظر إلى السفينة البطلة، التي أمضت سنوات مجد وفخار كثيرة. ثم رسم صورة السفينة. وهج الشمس الغاربة يغمر المشهد بالضياء، الذي يودع السفينة العجوز الوداع الأخير.

الشفق يظهر في الأفق، والقمر، الذي أشرق لتوه، يلقي ضياءه الخافت في الماء. إنه مشهد حزين ومثال للدراما في فن الرسم. هنا تتحقق مقولة الصورة خير من 1000 كلمة. لذلك كان يسمى تيرنر "أستاذ الغروب والأمواج".

بالنسبة للتكوين الفني للصورة، نجد تيرنر يضع السفينة شمال اللوحة بقامتها العالية، وجعلها تبدو كالأشباح، بالمقارنة بألوان باقي اللوحة. حجم السفينة ولونها يتباين مع قارب السحب البخاري. معنى اللوحة هو الضعف بعد القوة، والشيخوخة بعد الشباب. ولا دائم إلا الله.

هناك من يعتقد أن السفينة ترمز لتيرنر نفسه، فقد رسمها في سن متأخرة. ولأنه يعتبر هذه اللوحة أعز لوحاته، ربما يعطينا هذا دليلا على أنه يتوحد مع السفينة، ويتوقع اقتراب أجله، وأنه يعيش أيامه الأخيرة.

كبر تيرنر في السن، وبدأ يضعف أسلوبه، ويسرف في لمساته. لوحاته الأخيرة بهتت ألوانها، وأصابها التشقق. بالإضافة إلى رسم المناظر الطبيعية، قام تيرنر بعمل رسوم توضيحية للعديد من الكتب. وأنشأ مدرسة جديدة لفن النحت. وألف كتابا لمساعدة الطلبة على دراسة الرسم، يشمل مشاهد من كل أنحاء العالم.

كان تيرنر يأمل أن يشغل وظيفة رئيس الأكاديمية الملكية، لكنه لم يكن كفؤا لهذه الوظيفة بسبب شخصيته لا فنه. الملك لم يكن مهتما بفنه. لذلك لم يحصل على لقب فارس. لكنه أصبح ثريا من بيع لوحاته ونقوشه.

عمل بإخلاص لفنه حوالي 60 سنة. عرض لوحاته في 45 عرض سنوي في الأكاديمية الملكية. لكن في العرض السنوي لعام 1851م، لم يرسل لوحات للعرض كالعاده. اختفى تيرنر وترك ملحوظة يقول فيها: لا أحد مسموح له بدخول منزله.

صحة تيرنر بدأت في الأفول. ثم وُجد مريضا في كوخ صغير على ضفاف نهر التايمز. مات هناك في غرفة متواضعة تطل على النهر، حبه الأول. دفن في كاتيدرائية القديس بولس بجوار السير جوشوا رينولدز.

عند قراءة وصيته، وجد أن الثروة التي حرص في حياته على جمعها، قد تبرع بها لمساعدة الفنانين الفقراء وتدريبهم. لوحاته الكثيرة، وهبها للشعب الإنجليزي. وهي هبة تزيد قيمتها عما تبرع به أي فنان إنجليزي آخر في تاريخ البلاد.

'

29

الفن الإنجليزي(4)
القرن التاسع عشر

الإنجليز، شعب فخور بفنه، لذلك نادرا ما نجد الفنانين الإنجليز أو لوحاتهم خارج إنجلترا. بينما الكثير من اللوحات الفرنسية، قد وجدت طريقها إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول الأوروبية.

لكن هناك، فنان إنجليزي واحد، على الأقل، بلغت شهرته الآفاق. هو الرسام السير "إدوين لاندسير". رسام الحيوانات في العصر الفيكتوري. صور الحيوانات أو نسخ طباعة أو تقليد منها نجدها في القصور والأكواخ وفي كل مكان.

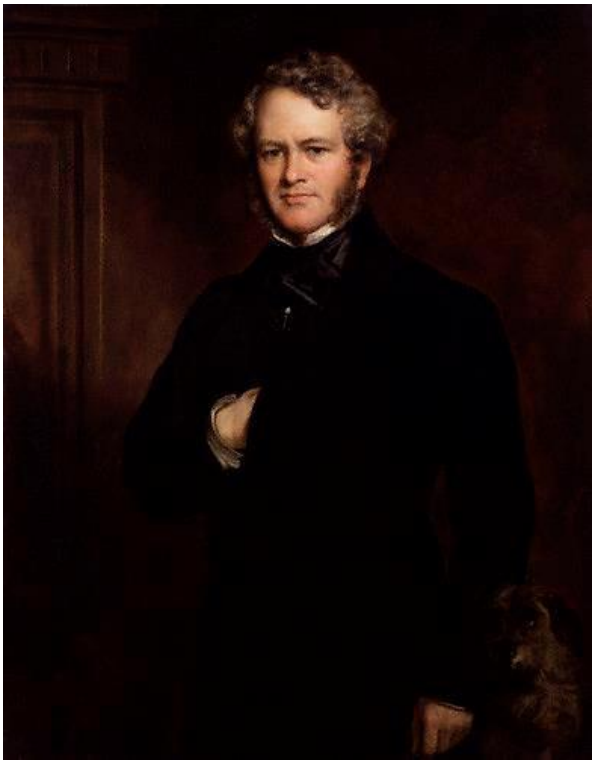

بورتريه للفنان إدوين لاندسير، لاندسير

كان والده حفارا على الخشب والمعادن وناقدا فنيا. الابن الموهوب ولد عام 1802م. عندما استطاع إيدوين لأول مرة مسك القلم، أعطاه والده ورقة وطلب منه رسم ما يرآه، ربما طائر أو حيوان في الحظيرة. الأب كان يعتقد أن الطبيعة أحسن مدرسة، والعين أحسن مدرس.

في متحف جنوب كينزينجتون، توجد اسكتشات للحيوانات، كتبت عليها "إيدوين لاندسير، سن خمس سنوات". هذا يبين لنا متى بدأ يرسم. أينما توجد الحيوانات في لندن، نجد الصغير إيدوين ومعه قلم رصاص وكراسة في يده، يرسم فيها الكلاب والخيل أو النمور والأسود. كل شئ في حديقة الحيوان كان يحب مشاهدته ورسمه.

منذ طفولته، وهو مجد وناجح في فن الرسم. كسب الجوائز مبكرا. لوحاته كانت تعرض في الأكاديمية الملكية وهو في سن الثالثة عشر. لمدة 50 سنة متواصلة، كانت لوحاته تعرض هناك في العرض السنوي كل عام.

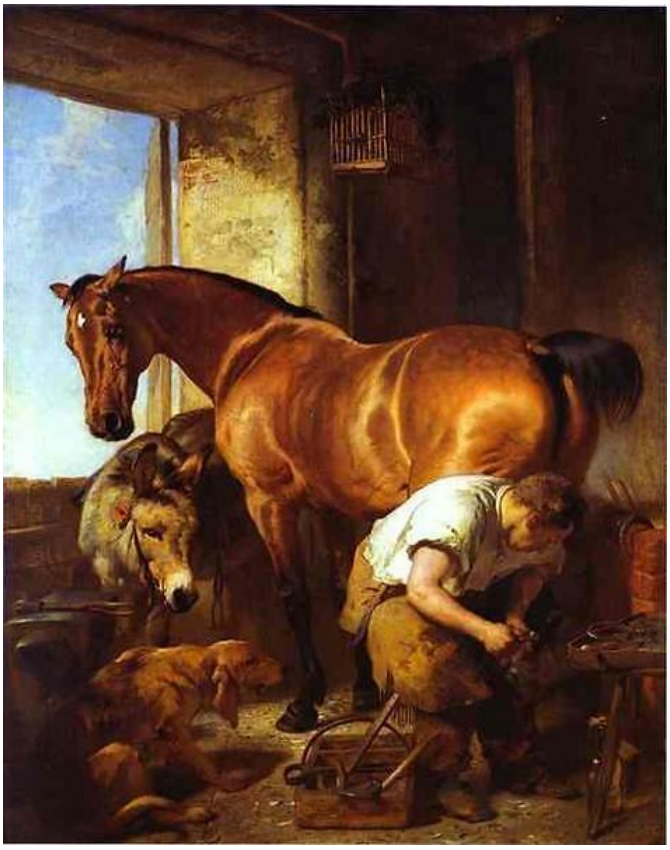

تركيب حدوة لحصان، لاندسير

كان يعيش مع أخته في غابة سانت جون، على مشارف لندن. هنا كان يحتفظ بحيواناته الأليفة، التي يملأ مرسمه بصورها. وهنا أمتع بصحبته ورسومه مشاهير الرجال والنساء في عصره.

لاندسير، كان رجلا مرحا ذكيا محبوبا. يحرص الجميع على أن يكون مدعوا في حفلاتهم وأفراحهم. كان الناس، عندما يدعون بعضهم لحفلاتهم، يقولون: "لابد أن تأتي فسوف يأتي أيضا إيدوين لاندسير".

نسجت حوله كثير من الحكايات. منها الحكاية الآتية:
المفكر الديني الإنجليزي "سيدني سميث"، عندما طلب الإذن لكي يرسمه لاندسير، رد قائلا: "هل رسام الكلاب هو من سيقوم بذلك؟" قصة أخرى كان لاندسير يرويها وهو يضحك: حضر يوما أمام ملك البرتغال، فقال له الملك: "سيد لاندسير، أنا سعيد بمعرفتك. أنا أيضا معجب بالحيوانات".

أحد أصدقائه المخلصين، هو السير والتر سكوت، صاحب رواية "إيفانهو". لاندسير لم يكن يكف عن قراءة رواياته، والكاتب الكبير سكوت، لم يكن يمل جمع ومشاهدة لوحات لاندسير. في الواقع، كان لاندسير يعرف ب "والتر سكوت عالم الحيوان".

كان لاندسير الفنان المفضل لدى الملكة فيكتوريا، التي أنعمت عليه بلقب فارس. طلبت منه الملكة رسم لوحة لها وللأمير ألبرت، وأطفالهما، وكذلك حيوانات العائلة الملكية.

الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت، لاندسير

لم يتزوج لاندسير في حياته. من النساء اللاتي كان يعجب بهن، "روزا بونهوير"، والتي كان يسميها "شاعرة رسم الحيوانات". انتخب في أحد المرات رئيسا للأكاديمية الملكية للفنون، لكنه رفض هذا الشرف.

عندما كبر في السن، بدأ يتحدث عمن كان يسميه "قلم الرصاص العجوز المنهك". سنواته الأخيرة كانت حزينة كلها آلام. توفي عام 1873م، ودفن في كاتيدرائية القديس مرقس.

كان حب لاندسير الأول والأخير لكلابه. كان يضع على وجوههم في لوحاته تعبيرات البني آدمين. التعبير لا الألوان كان ما يبحث عنه لاندسير. كيف كانت تحبه كلابه، وكم من الحيل والأشياء التي كانت تفعلها لأجله. أحد كلابه، عندما يستغرق لاندسير في عمله مدة طويلة، كان يحضر قبعته ويضعها على قدمية. كأنه يقول له، خذ راحة واخرج للنزهة.

كان يعرف لاندسير كل شئ عن الكلاب. كبيرها وصغيرها. لا يؤمن بوضع السلاسل في رقبة الكلاب. وكانت متعته، هي رسم كلب يبدي إخلاصه لسيده. هذه بعض لوحاته الخاصة بالكلاب:

كرامة ووقاحة، لاندسير

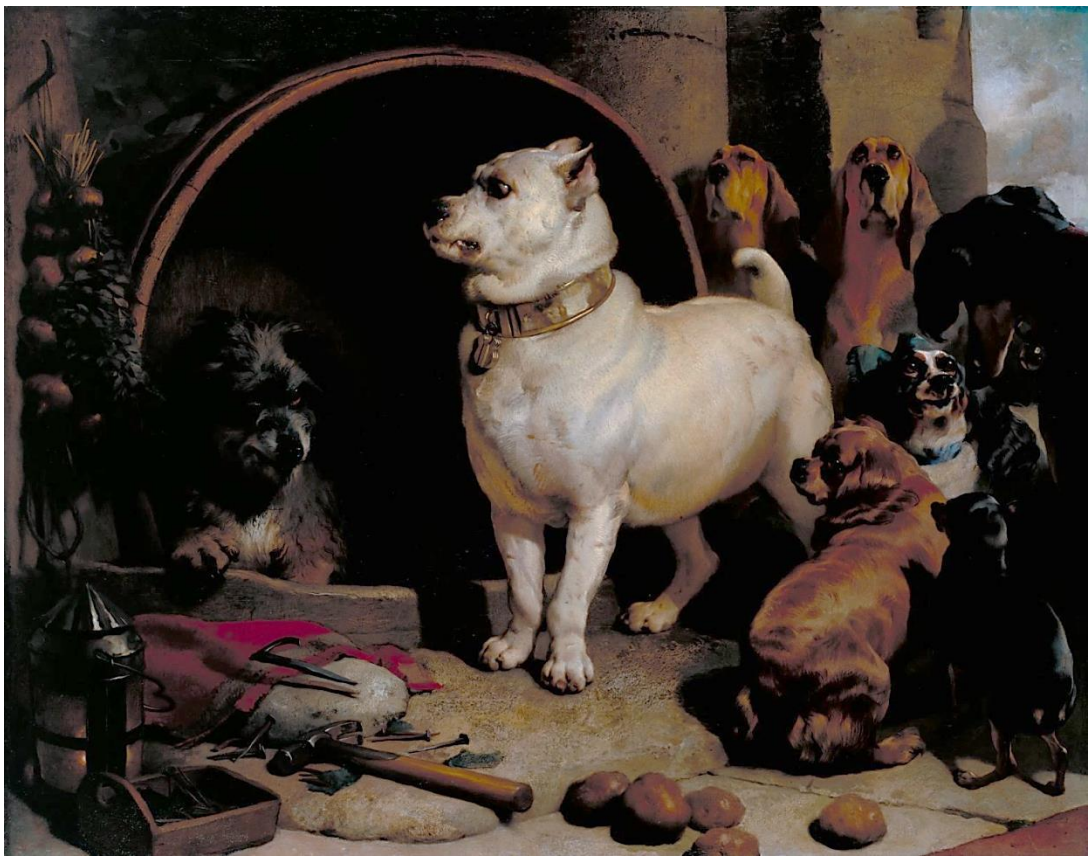

الإسكندر ودايوجينيس، لاندسير

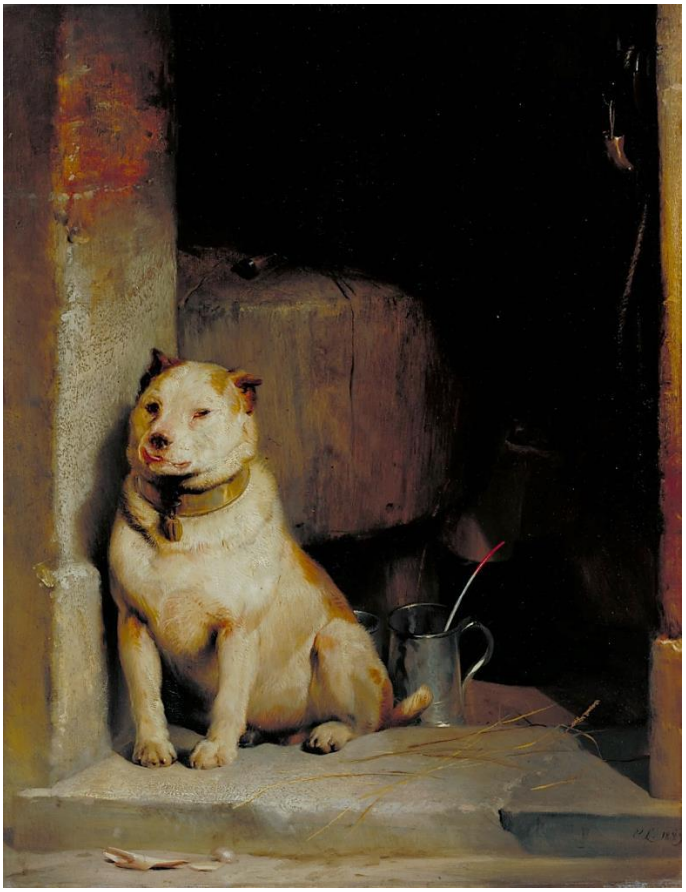

حياة منحطة، لاندسير

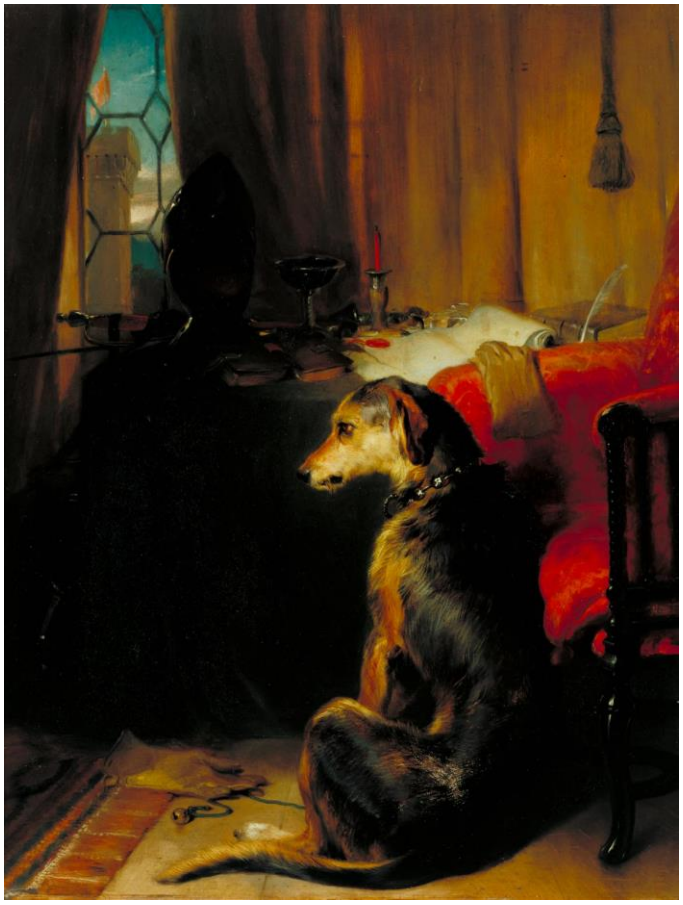

حياة راقية، لاندسير

في معرض سنة 1865م، عرضت لوحة بعنوان "الذواقة". يجلس فيها لاندسير يرسم، بين كلبين ينظران من فوق كتفيه، كأنهما يقيّمان عمله الفني. ثم أهدى لاندسير اللوحة إلى أمير ويلز، الذي أصبح الآن ملك إنجلترا.

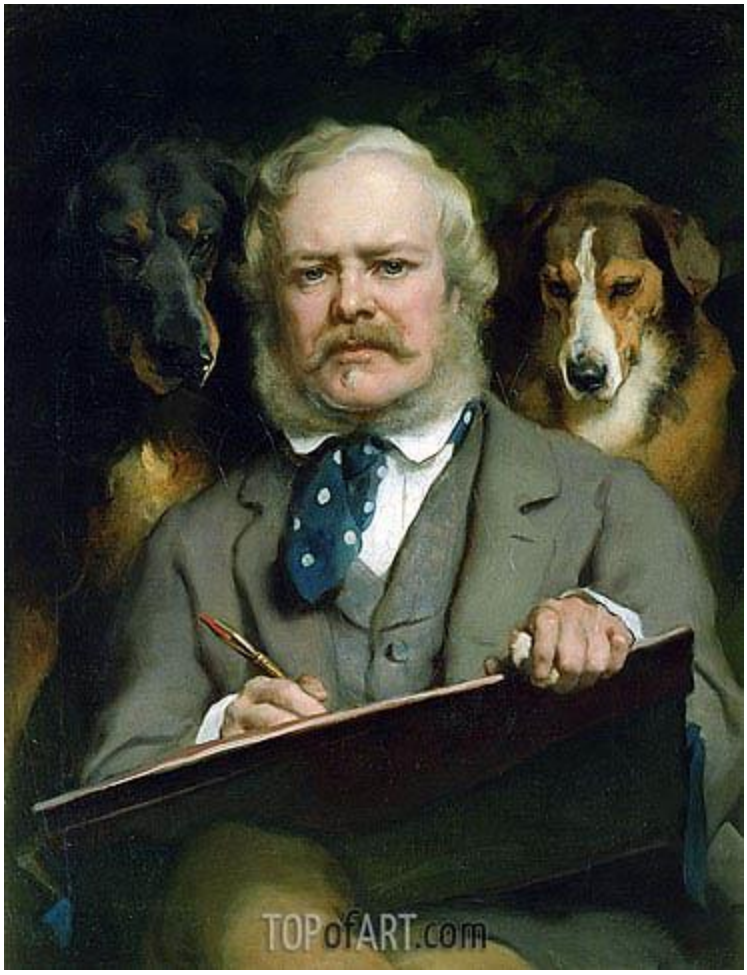

الذواقة، لاندسير

لوحة "عضو محترم من المجتمع الإنساني"، عبارة عن بورتريه لكلب، يجلس على نهاية رصيف بحري، والبحر في حالة مد عال. السماء ملبدة بالغيوم وتنذر بعاصفة في الأفق. طيور النورس تحوم من بعيد. الكلب، مثل كل الكلاب، مستعد دائما للنجدة وأداء واجبه.

عضو محترم من المجتمع الإنساني، لاندسير

قابل لاندسير هذا الكلب، بول براي، وهو يحمل سلة زهور . سأل صاحبه الإذن لكي يرسمه. كل من كان لديه كلبا، كان يرجو لاندسير لكي يرسمه، وكانوا ينتظرون أسابيع لتحقيق ذلك.

عندما ذهب لاندسير إلى اسكتلانده، رأى أمامه عالما جديدا من الحيوانات. غزلان رشيقة ترعى وحيدة في الخلاء. فقام برسمها في مواقف مختلفة.

غزلان ترعى، لاندسير

البعض يقول، لا أحد استطاع أن يرسم الكلاب أو القرود مثل "لاندسير"، ولا أحد من الفنانين قد اقترب في فنه من رسم الغزلان. وهو أيضا نحات. من يزور ميدان "ترافاجار" بلندن، سوف يرى تماثيل لأربع أسود، أسفل تمثال الأدميرال نلسون. كان لاندسير شغوفا أيضا بجمال ملوك الغابة، الأسود.

أحد الأسود أسفل تمثال الأدميرال نلسون، لاندسير

هناك فنانون إنجليز عظام آخرون في القرن التاسع عشر، لكن ليسوا في شهرة إدوين لاندسير. قاموا برسم، لا الأشكال فقط، ولكن أيضا كل الخلجات والمشاعر الإنسانية. السير فريدريك ليتون (1827-1919م)، رئيس الأكاديمية الملكية البريطانية، كان هو قائد الحركة الفنية في العصر الفكتوري البريطاني.

مثل الفن الإغريقي القديم، كان السير فريدريك ليتون يحب الجمال والكمال في الأشكال والصيغ الفنية. وكانت لوحاته تعبر عن ذلك. أول عمل تسبب في شهرته، هو عمل كلاسيكي عن المادونا.

المادونا، ليتون

حجم اللوحة يلفت الانتباه، وكذلك ألوانها الزاهية. تدل على عودة الفن الإنجليزي إلى الأصول الإيطالية القديمة. الرسام القديم الإيطالي تشيمابو وتلميذه جيوتو يقودان الموكب خلال شوارع فلورنسا، يوجد أيضا في اللوحة الشاعر دانتي، صاحب الكوميديا الإلهية، والنبلاء يتبعون الموكب.

الملكة فيكتوريا كانت منبهرة بهذه اللوحة. وقامت بشرائها لكي تزين حائط الأكاديمية الملكية. ليتون قام بعمل آخر، ربما يعيش مدة أطول من هذه اللوحة. لقد أهدى فقراء لندن معرضا للفنون، وملأ حيطانه بلوحات لا تقدر بثمن.

هذه بعض لوحات السير فريدريك ليتون:

بيوندينا، ليتون

يونية الملتهب، ليتون

بوتريه لفتاة، ليتون

السير ألما-تاديما (1836 – 1912م)، هو أيضا حاول إحياء الفن الكلاسيكي القديم، ولكن بأسلوب مختلف. من أصل هولندي، لكن إنجلترا كانت موطنه. معظم لوحاته عن مناظر كلاسيكية في مصر واليونان وإيطاليا.

لا يسعنا إلا أن نحب لوحاته. حيث الصالات الرخامية والشرفات. لكن شخصياته ليست تاريخية قديمة أو دينية، ولكنها شخصيات حديثة. معالجته للرخام والبرونز والأشياء الصامته رائعة. هذه بعض لوحاته:

قبلة، ألما-تاديما

كاراكلا (ماركوس أوريليوس)، الإمبراطور الروماني، ألما-تاديما

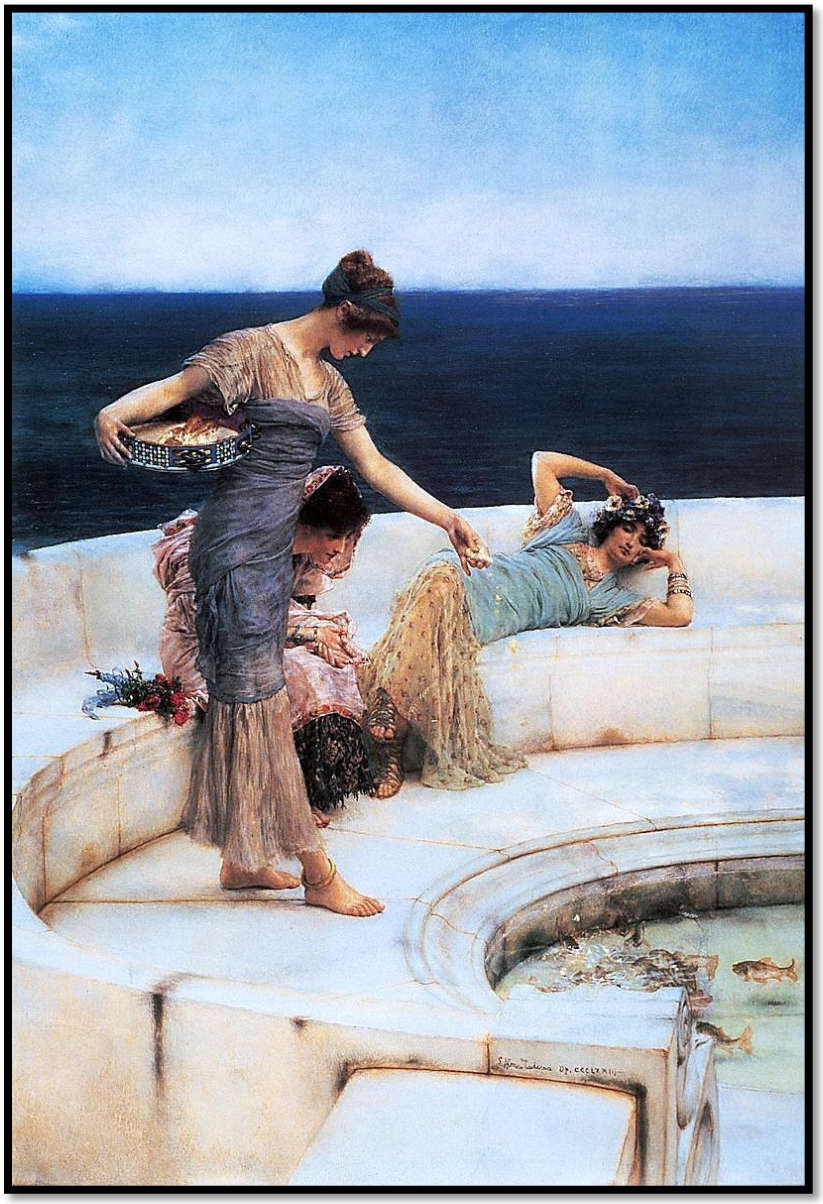

فضة مفضلة، ألما-تاديما

نساء أمفيسا، ألما-تاديما

هناك تباين كبير بين لوحات ألما-تاديما واللوحات التي رسمها مجموعة فناني "ماقبل رفائيل"، وهم قلة من الفنانين ظهروا في منتصف القرن التاسع عشر.

كانوا يبغون، بناء على نصيحة الناقد الفني رسكين، عمل ثورة في عالم الرسم. كان شعارهم، حسب كلمات الشاعر كيت، "الجمال هو الحقيقة، والحقيقة هي الجمال".

بالطبع، شرح أعمالهم يحتاج إلى عدة مجلدات. تفاصيل رسم ورقة شجر أو حصاة، أشكال طويلة ونحيفة، ألوان باهتة أو مصفرة، مناظر طبيعية خشنة، وصور لمنازل وأثاث قديمة.

ثلاثة من هؤلاء الفنانين، ما قبل رفائيل، هم: "دانتي جابريل روسيتي"، "وليام هولمان هنت"، السير جون إيفريت ميلايز".

روسيتي كرس حياته للنظرية الجديدة في الرسم. أحد اللوحات التي توضح أسلوبه الرومانسي الصوفي، هي لوحة "دامزيل المباركة".

دامزيل المباركة، روسيتي

اللوحة تشرح أحد قصائد روسيتي الشعرية بعنوان "داموزيل". وهي تبين داموزيل حبيبته، وهي تنظر إلى حبيبها من الجنة، تتوق إلى لقائه. بينما الحبيب، لازال في الحياة الدنيا، يكابد آلامه، وينتظر على أحر من الجمر اللقاء المأمول. الشعر كان ملهما أيضا للموسيقار "كلود ديبوسي"، فألف كانتاتا (أنشودة) حزينة، بأصوات نسائية وأركسترا، بنفس العنوان

"هنت" المشهور برسم السيد المسيح، له لوحة مشهورة بعنوان "المسيح نور العالم".

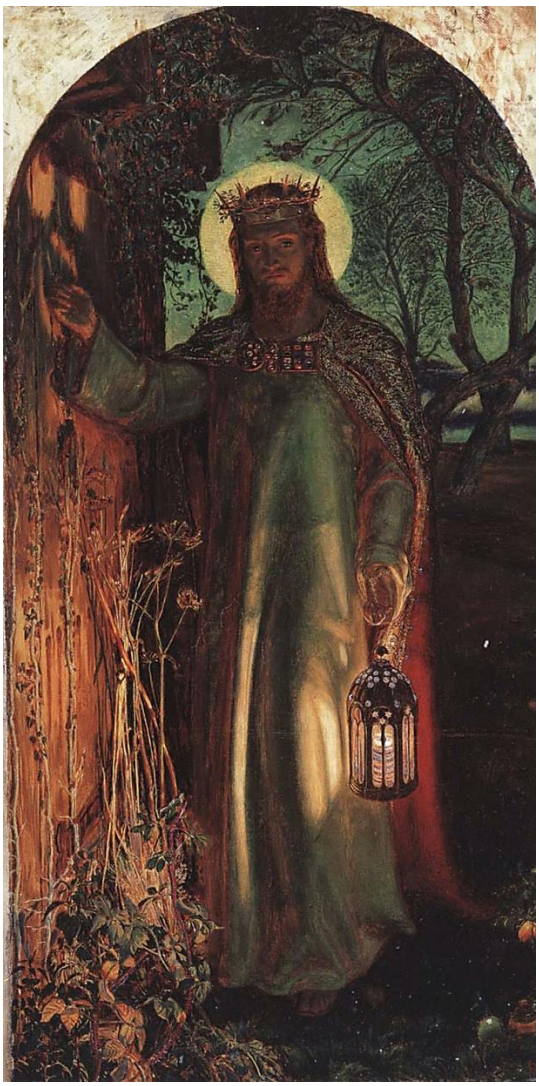

المسيح نور العالم، هنت

هنا يقف المسيح بردائه الطويل وعباءته المرصعة بالجواهر. يحمل فانوسا، ويدق على باب الرجاء الإنساني، الذي ظل موصدا لمدة طويلة. لاحظ هنا الفرق بين هذه اللوحة الواقعية، ولوحات رفائيل المثالية.

لوحة مادونا لوريتو، رفائيل

بقى ميلايز مع المجموعة مدة صغيرة، تحول بعدها لرسم الرجال والنساء والأطفال، كما يراهم في حياتهم اليومية.

طريق شمال غرب، ميلايز

لم تستمر مدرسة "ما قبل رفائيل" مدة طويلة، لكن تأثيرها كان عظيما على الفن الإنجليزي فيما بعد. لقد ذكرنا القليل من الفنانين الإنجليز في القرن التاسع عشر، بقدر ما تسمح به مساحة هذه الدراسة.

30

الفن الفرنسي(1)
البداية

في القرن السادس عشر، تمتعت إيطاليا وألمانيا بالعصر الذهبي للرسم. في القرن السابع عشر، إسبانيا كان لديها "فيلازكويز" و"موريللو". لكن في القرن الثامن عشر، انحدر الفن في كل هذه البلدان، فيما عدا إنجلترا. فقد اشتهرت بفن البورتريهات والمناظر الطبيعية. أما فرنسا، فقد انتظرت حتى القرن التاسع عشر، لكي تصبح رائدة من رواد فن الرسم.

منذ القدم وحتى الآن، تشتهر فرنسا بروح الفن والتذوق الراقي. نرى ذلك في موضة الملابس وديكور المنازل. حتى في القرن الرابع الميلادي، كان أغنياء بلاد الغال يلبسون حللا مزينة بالمناظر الطبيعية والحيوانات. أثواب رجال الدين، كانت منقوشة بمناظر وقصص دينية.

شارلمان، في القرن التاسع، لولا انشغاله بالمعارك الحربية، لفعل الكثير من أجل الفن في امبراطوريته. ومع ذلك، نجده قد أمر بتزيين قصره وكاتيدرائيته بالأعمال الفنية. يقال أنه هو الذي أمر بتغطية جدران كل الكنائس بالصور الدينية، حتى يستطيع كل من لا يقدر على القراءة أن يفهم قصص الكتاب المقدس.

ظلت حيطان الكنائس والكاتيدرائيات تملؤها الرسوم إلى أن جاءت العمارة القوطية، لكي تملأ أيضا زجاج النوافذ بالألون التي تحكي القصص المقدسة. هذه النوافذ، كانت تُمنح كهبات للكنيسة أو الكاثيدرائية. الجزء العلوي منها، يحكي قصة من الكتاب المقدس، والجزء السفلي يصور الواهب العاطي، أي الشخص المتبرع، وهو في حالة ركوع وخشوع. التباين بين المنظرين واضح للعيان.

في فرنسا، وأيضا في بلاد أخرى، كان رهبان العصور الوسطى، يقومون برسوم ونقوش الكتب المقدسة وكتب الصلاة. أخشاب الأثاث، كانت أيضا محفورة بصور القديسين والملائكة.

الملك رينيه الطيب، دوق أنجو، الذي عاش في القرن الخامس عشر، كان يقوم برسم طائر بري، عندما علم بفقده مملكته في نابلس. لم يقل شيئا، واستمر في رسم الطائر. وكأن الانخراط في الفن، هو البلسم الشافي للأحزان.

القرن السادس عشر، يسمى "عصر النهضة". أو عصر إحياء الفنون، بقيادة فرانسوا الأول، ملك السادة المحترمين، كما كان يوصف. رسام بلاطه، هو "كلوت"، الذي لا تزال بورتريهاته، الخاصة بالملوك والملكات، تشاهد في معارض باريس إلى اليوم.

الملك فرانسوا الأول، كلوت

الفن الإيطالي، جذب الملك فرانسوا الأول، فقام باستدعاء الفنانين الإيطاليين لكي يرسموا جدران قصره المنيف في فونتينبلو، ولكي ينشئوا هناك مدرسة للفنون.

بدأ أيضا، فرانسوا الأول، في جمع اللوحات الفنية العالمية. 7 لوحات لرفائيل، 4 لوحات ليوناردو دافنشي. ولأنه لم يستطع نقل لوحة العشاء الأخير، من فلورانسا إلى فونتينبلو، قام باستدعاء ليوناردو دافنشي نفسه، واحتفظ به حتى وفاته.

في بداية القرن السابع عشر، انتشر الفن، وأصبح الآن موضةالعصر. الملك لويس الثالث عشر ونبلائه، كانوا يأخذون دروسا في فن الرسم من رسام البلاط "فويت".

بدأت مدينة باريس تنمو في الحجم وتصبح أكثر جمالا يوما بعد يوم. في عصر الملك لويس الثالث عشر، قامت الملكة الأم، ماري دي ميديشي، باستدعاء الرسام الفنلندي روبينز لكي يرسم جدران قصر لوكسمبورج.

ثم جاء بعد ذلك لويس الرابع عشر، العاهل العظيم، للفنون والآداب، وبطل الحرب. لوبران، رجل الدولة، كان مهندسا ونحاتا ورساما. وإلى جانب ذلك، كان يعرف كيف ينافق الملك لكي يحتفظ بوظيفته.

قام الملك بتعيين لوبران مديرا لورشة الفنون، التي تقوم بتصميم وتصنيع الأقمشة والأثاث والمجوهرات والمزايكو والتماثيل البرنزية. وكان لوبران يقوم بتصميم النماذج بنفسه، أو الموافقة عليها إذا كانت من تصميم غيره.

بسبب تأثير لوبران، قام لويس الرابع عشر عام 1648م بتأثيث الأكاديمية الفرنسية للفنون التشكيلية. وقام لوبران أيضا بالاشراف على عمل ديكورات قصر لويس الرابع عشر، قصر فيرساي الرائع. الكثير من اللوحات، كان يتم إضافتها إلى المجموعة الملكية، بأي ثمن. مما جعل أحد السيدات تقول: "أنا أشفق على المملكة".

لويس الرابع عشر، لوبران

كان لويس الرابع عشر يقضي الساعات يراقب الرسام "شارلز لوبران" في مرسمه. كان منبهرا بفن لوبران وتكويناته الفنية. كان يعتبره أعظم الفنانين الفرنسيين قاطبة. كان فنه هو المهيمن على الفن الفرنسي في القرن السابع عشر.

مستشار فرنسي، لوبران

كره الفرنسيون الحكم الديكتاتوري للملك لويس الرابع عشر، وفقد لوبران اهتمام الفرنسيين وحبهم مع مرور الزمن. فتقاعد في جابلين ومات هناك.

الفرنسيون كانوا محبين لرسوم المناظر الطبيعية أكثر من الإنجليز. لأن طبيعة الشعب الفرنسي، محب للتجديد وتتبع الموضة.

الرسام بوسان، ولد عام 1594م. من عائلة نبيلة، ولكنها فقيرة. بعد معاناة ومتاعب كثيرة، جنح إلى روما. هناك أصبح رساما مشهورا. كان يرسم المناظر الطبيعية، لا من مشهد واحد، ولكن من عدة مشاهدة مجتمعة.

منظر طبيعي هادئ، بوسان

في بعض الأحيان يضع في اللوحة بعض الأشكال الكلاسيكية والأحداث التاريخية أو الأسطورية. أشكاله لا حياة فيها، تشبه التماثيل اليونانية المتحركة. أسلوبه يسمى "البوسينية". كونه مثقف، يتضح من المواضيع التي يختارها للوحاته.

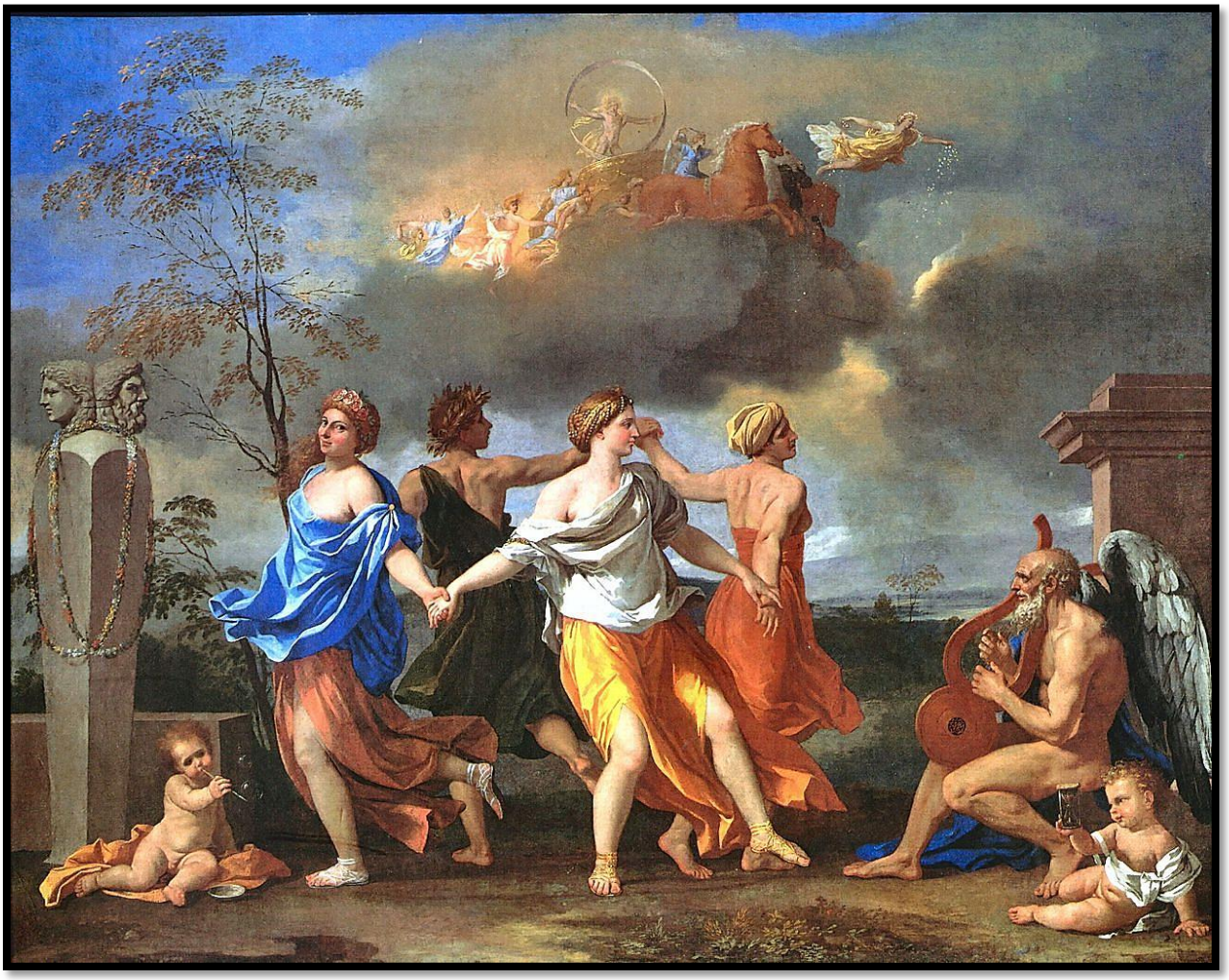

الرقص مع موسيقى الزمن، بوسان

بينما كان يعيش بوسان في روما، سمع عنه الملك لويس الثالث عشر. فرجاه أن يأتي لكي يعمل عنده في باريس. خصص له راتبا كبيرا، وشقة سكنية في متحف اللوفر، وكل شئ كان معدا عند وصوله، حتى زجاجات النبيذ المعتق.

أنشأ بوسان في باريس مدرسة للفنون الجميلة، التي أصبحت منذ ذلك التاريخ أحد مدارس الفنون المشهورة. حاول كسب رضاء البلاط، ولكنه كان يحب حياة البساطة.

لم تستهويه حياة الترف والبذخ في القصور التي يصاحبها عادة، الدسائس والمؤامرات. (فيلم الفرسان الثلاثة عن قصة الكساندر ديماس الكبير، تصور هذه الحياة في عصر الملك لويس الثالث عشر)

ترك بوسان باريس بحجة ذهابه إلى إيطاليا لكي يحضر زوجته، لكنه لم يعد، ولم تفلح محاولات إرجاعه إلى باريس. آخر سنواته وأسعدها، قضاها في روما.

في أحد الأمسيات، بينما كان بوسان في روما، زاره أحد الكرادلة. أثاء خروج الكاردينال، وبينما كان بوسان ينير له الطريق إلى الباب، قال الضيف: "أنا أشفق عليك، سيد بوسان. لأنك ليس لديك خادم واحد". أجابه بوسان: "وأنا أشفق عليك يا نيافة الكاردينال، لأن لديك الكثيرين منهم".

توجد لوحات بوسان في العديد من المعارض. ربما تكون لوحة الطوفان هي أشهرها.

الطوفان، بوسان

كلود لورين، الذي ولد عام 1600م، عاش هو أيضا بعض الوقت في روما. في الأصل، كان ريفيا بسيطا، يحب النظر إلى اللوحات الفنية. يقال أنه كان يعد لكي يكون حلواني.

لكنه فصل من عمله، لأنه أضاع فطيرة كان يحملها إلى منزله، فسرقت منه، عندما كان يتفرج على لوحات فنية في فاترينة أحد المحلات. لم يكن على اتصال بغيره من الفنانين في عصره.

إلا أنه، مثل بوسين، ذهب إلى روما. هناك عمل خادما في منزل الرسام "تاسي". اهتم تاسي به عندما وجد عنده ملكة التذوق الفني. فقام بتدريبه على الرسم. لكن أحسن مدرس، وهب حياته لخدمته، هو الطبيعة.

كان كلود، يستيقظ قبل شروق الشمس، ويمضي طول النهار في الخلاء، يتأمل حجرا بعينه أو شجرة وحيدة. يدرس تغير الألوان والظلال المنعكسة من سطحها أو أوراقها، في ساعات النهار مختلفة.

مثل بوسين، لا يرسم من مشهد واحد إلا في النادر. ولكنه يجمع بين مشاهد مختلفة في لوحة واحدة. لوحاته تتميز بمساحة واسعة في مقدمة الصورة، تمتد مسافات كبيرة، وغالبا يضع مبنى على أحد الجانبين.

الإله هيرميز يسرق البقر من الإله أبوللو، كلود

موضوعات لوحاته، من الأساطير والشعر اللاتيني، ومن الإنجيل وكتب التاريخ. لكن معناها غامض بعض الشئ، والأشكال صغيرة وساكنة. لم يكن يستطيع أن يرسمها جيدا بنفسه، فكان يكلف بها فنانين آخرين. وكان يقول، أنا أبيع المناظر الطبيعية، أما الأشكال، فأهبها مجانا.

لكن، معالجته للأبعاد المنظورية (البعد الثالث)، ليست لها مثيل. راسكين، الناقد الفني المشهور، والذي لم يكن معجبا بفن كلود، قال عنه أنه أول من وضع الشمس في السماء.

له سحر خاص، عندما يستخدم الألوان الدافئة لكي يعبر عن وهج الضوء الذي يغمر التلال والوديان والبحار في لوحاته. حتى اسمه "كلود"، يدل على المناظر الطبيعية المشرقة.

لوحاته وجدت الإعجاب في كل مكان، وكانت تباع في إسبانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا. كانت لديه لوحة، لم يستطع بيعها. وبالرغم من ذلك، وعد البابا أوربان الثامن بتغطيتها بالذهب ثمنا لها. وبذلك، يصبح الريفي الفقير، الآن رجلا ثريا.

إبحار القديسة أورسولا، كلود

كلود كانت لدية مشكلة. وهي أن لوحاته كانت تقلد وتوقع باسمه وتباع. كان يعمل ببطء. يهتم بالتفاصيل ويرسمها بكل دقة. في يوم، جاءه الرسام اليهودي المتجول "بوردون"، المعروف بنسخ لوحات الفنانين بدقة كبيرة وبيعها.

أراه كلود أحد لوحاته التي رسمها في إسبوعين. نظر بوردون إلى اللوحة، وذهب إلى منزله. بعد ثمان أيام، عرض لوحة لمنظر طبيعي تحت اسم كلود.

عندما علم كلود بذلك، غضب غضبا شديدا. لكن بوردون، نجح في الهرب من روما قبل أن ينفضح أمره. ولكي يمنع كلود مثل هذه القرصنة، احتفظ بسجل يدون فيه كل أعماله في صورة اسكتشات. وعند وفاته، كان السجل مكون من ستة أجزاء.

هذا ينهي حديثنا عن بداية الرسم الفرنسي. وهي عجالة تغطي الرسم الفرنسي في العصور الوسطى، وعصر النهضة، والقرن السابع عشر، الملئ بالمناظر الطبيعية.

31

الفن الفرنسي(2)
القرن الثامن عشر

عصر الملك لويس الرابع عشر، كان عصر أبهة في الفنون والآداب. في بداية القرن الثامن عشر، عندما جاء لويس الخامس عشر إلى العرش، لم يكن في الخزانة أية أموال. لأن لويس الرابع عشر، كان قد تورط في الحروب، وأسرف في بناء قصره وديكوراته.

الفلاحون الفقراء لم يعد لديهم أموال تغري بزيادة الضرائب. لقد تحملوا البؤس بشجاعة نادرة. لكنهم لم يُرحموا من زيادة الضرائب، بالرغم من تدني حالتهم الاجتماعية، وقسوة المجاعات التي تعصف بهم.

العائلة المالكة، والحاشية العاطلة بالوراثة، تحتاج إلى الأموال لكي تواصل حياة الترف والرغد التي اعتادتها. كان شعارهم: "نحن وبعدنا الطوفان". الولائم والحفلات الضخمة، كانت تقام في القصور والخلاء كلما حانت الفرصة.

السيدات واللوردات يتناولون الوجبات الدسمة والحلوى بكل أشكالها، ويحتسون الخمور ويقومون بالرقص على أنغام أعزب الألحان. الفرق الموسيقية تعزف، والفرق التمثيلية تقدم عروضها الفكاهية. حياة البلاط الملكي، هي عبارة عن حياة مرح وسعادة. الرسامون يراقبون كل ذلك، وينقلونه إلى لوحاتهم.

الرسام "واتو"، كان أحد هؤلاء، الذين اقتنصوا روح العصر، ورسموا هذه المشاهد. لوحاته تتسم بالرقة والجمال. سيدات ولوردات، يلبسون حللا حريرية وأقمشة ساتان لامعة، وألوانا زاهية. يرقصون أو يتحدثون أو يسترخون.

كان "واتو" موفقا في إظهار سلوكهم وحركاتهم. أشهر أعماله لوحة بعنوان "الانطلاق إلى جزيرة سيثيرا". توجد حاليا في متحف اللوفر بباريس.

الانطلاق إلى جزيرة سيثيرا، واتو

سيثيرا جزيرة الإلهة فينوس. في يوم مشرق سعيد، كان كثير من العشاق يستعدون للابحار إلى الجزيرة. صندل ذهبي اللون يقف أمامنا. بعض المسافرين نجحوا في الركوب على ظهر الصندل. آخرون يسرعون للحاق بهم. هناك أيضا من يتردد، ويجري اقناعه بالركوب.

نسخ كثيرة من إله الحب "كيوبيد" تحيط بتمثال فينوس، أو تتسلق عمود الصاري، أو تحوم في الفضاء، أو تطير حول المحبين.

ولكن، ماذا عن "واتو" نفسه، وماذا عن حياته التعسة، التي تناقض حياة السعادة والبهجة الموجودة في جل أعماله؟ بعد أن أنهى رسم لوحة الانطلاق، كان يحتضر.

ولد "واتو" عام 1684م. وهو صبي، لم يكن يملك شروي نقير، لكنه لم يكف عن الرسم. الأشخاص في لوحاته البهية نجدها دائمة الحركة والنشاط، وهي طبيعة الشباب والمرح.

وهو صغير، ذهب إلى باريس. هناك، وجد نفسه وحيدا جائعا. بعد فترة، وجد وظيفة عند رجل يعمل بالمحارة والطلاء والرسم. وكان الرجل يوظف عدة تلاميذ عنده، لكي يساعدوه في سرعة عمل اللوحات لبيعها لتجار الريف.

بعض التلاميذ كانوا يرسمون المناظر الطبيعية، والبعض الزهور، والبعض رؤوس الأشخاص، وآخرون يرسمون الأجساد والملابس. كان الرجل يحب واتو، لأنه كان يستطيع رسم كل هذه الأشياء جيدا. وكان أجره ثلاثة فرنكات في الأسبوع وكوب حساء ساخن كل يوم.

كان المسكين واتو مجبرا على عمل العديد من اللوحات، يرسم فيها القديس نيقولا. وكان يقول بأنه، بسبب التكرار، يستطيع رسم القديس وهو مغمض العينين. بطريقة ما، استطاع واتو الهرب من هذه السخرة والعمل الشاق، ونجح أخيرا في الاتصال بعالم الفنانين الحقيقي.

ظل يعمل واتو بكل همة ونشاط. لم يكن أبدا قانعا بمستوى لوحاته الفني. في الواقع، حياته كلها لم تكن مستقرة هادئة. توفي وهو لم يتعد السابعة والثلاثين من العمر. هو نفس العمر الذي توفي فيه رفائيل.

"جريوز" كان مشهورا بالألوان. يحب رسم رؤوس الصبايا الجميلات، وهن يبدو عليهن شئ من الندم، الذي ، غالبا، يكون سببه واضحا في اللوحة.

فتاة بقبعة بيضاء، جريوز

فتاة تقوم بغسل الملابس، جريوز

كلود جوزيف فيرنت، من أسرة فنانين، يعتبر أحسن من قام برسم المشاهد البحرية في عصره. الملك لويس الخامس عشر، قام بتوظيفه لرسم كل مواني فرنسا.

ميناء في ضوء القمر، فيرنت

كان "فيرنت"، يستطيع رسم البحر في جو العاصفة أو الشمس الساطعة، وكذلك عند الشروق، أو في وقت الغروب، أو في ضوء القمر. يقال أنه كان على ظهر سفينة واجهت عاصفة مرعبة في البحر المتوسط.

كل من كان على ظهر السفينة، أصيب بالرعب. لكن فيرنت، ربط نفسه بصاري السفينة، مثل الرسام تيرنر من قبل، لمدة أربع ساعات، لكي يدرس قوة الريح وشدة الأمواج.

كانت الأمواج والريح يقذفانه بماء البحر المالح طوال الوقت. لكنه كان مشغولا بحفظ المشهد، لكي يقوم برسمه من الذاكرة فيما بعد، وتحويله إلى لوحات رائعة.

غرق سفينة، فيرنت

أصبحت أعمال "فيرنت"، مثل "واتو"، موضة العصر، وكانت مطلوبة دائما. في عام 1774م، انتهى حكم الملك لويس الخامس عشر، الذي نُعت حكمه بالضعف والشر. خلفه الملك الوديع، لويس السادس عشر، الذي فقد رأسه بالمقصلة أثناء الثورة الفرنسية.

فنانة الرسم، الجميلة الذكية، مدام ليبرون، كانت فنانة البلاط المفضلة. قامت برسم أجمل بورتريهات الملكة "ماري أنطوانيت" وسيدات البلاط.

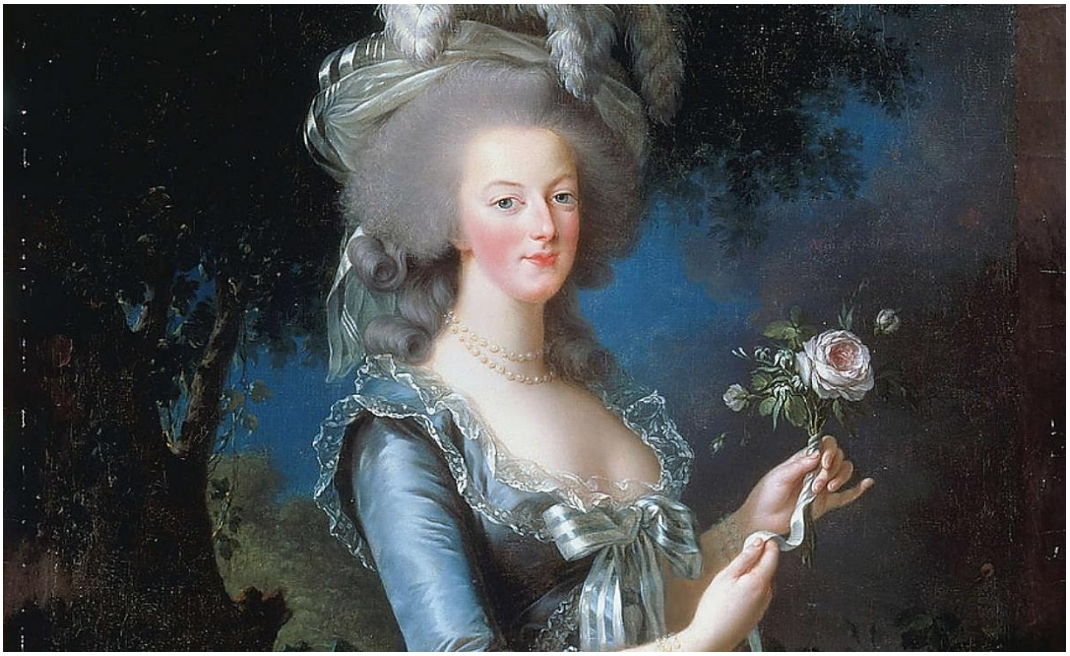

الملكة ماري انطوانت، ليبرون

لم تكن مدام ليبرون تحب بواريك الشعر المبدرة والملابس الفاخرة السائدة. حاولت جاهدة، إقناع السيدات التبسط في ملابسهن والرجوع إلى موضة الملابس الكلاسيكية.

بورتريه شخصي للفنانة مدام ليبورن، ليبورن

ظلت تعمل في باريس، إلى أن أصيبت بالذعر بسبب أحداث الثورة الفرنسية، وقطع الرؤوس بالمقصلة. بعد ذلك، أمضت جزءا من حياتها الطويلة في الترحال والسفر لعدة بلاد مختلفة. وكانت تقابل، أينما ذهبت، بكل حفاوة وترحاب. ظلت طول الوقت، رسامة بورتريهات.

في بداية حكم لويس السادس عشر، تفجر بركان الثورة الفرنسية، وغمرت مياه فيضانه كل أنحاء البلاد. لأن الناس كانت في حالة من الفقر والبؤس، دفعتهم إلى حافة الجنون والثورة ضد الملكية.

مع بداية الثورة الفرنسية، في نهاية القرن الثامن عشر، بدأ فصل جديد في تاريخ الفن. وأصبح متأثرا بروح الثورة والحرب والوطنية.

الرسام "دافيد"، هو أهم فناني الثورة الفرنسية. وهو لذلك، يعتبر أول الفنانين المحدثين. كان يحب دراسة حياة الرومان القدامى. كرس حياته لرسم المواضيع الكلاسيكية.

لوحة موت سقراط، دافيد

عندما عين وزيرا للفنون في باريس، حاول جعل أعضاء المؤتمر يلبسون الملابس الرومانية، ويتشكلون كما كان القدماء. لكن دافيد، تخلى عن هذه الروح الكلاسيكية، عندما دعي لرسم بورتريهات قادة الثورة الفرنسية.

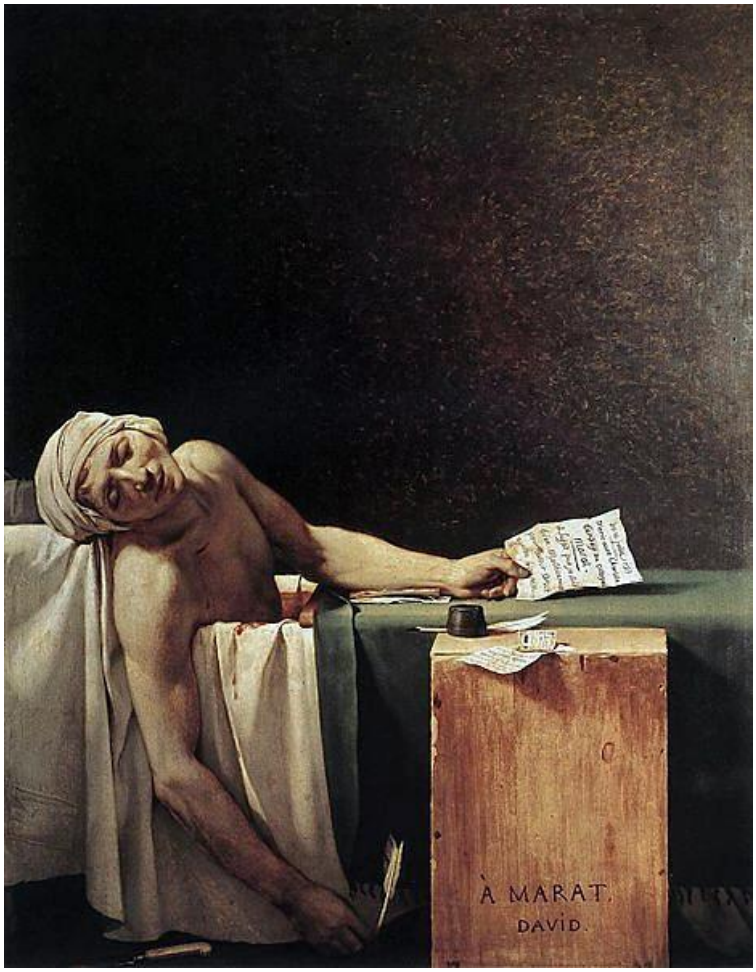

موت مارا، دافيد

أبطال الثورة الفرنسية كانوا شخصيات حية. أظهر دافيد وجوههم لنا نابضة بالحياة، متوقدة بروح الثورة وآمالها ورعبها. في أحد الأيام، جاء نابوليون بونابرت إلى مرسمه، ورجا الفنان أن يرسم بورتريه له.

نابليون بونابرت، دافيد

لم يرد نابليون رسم بورتريه، لكي يخلد صورته، ولكن بورتريه لكي يثير إعجاب جنوده. وكما يقول ميكافيللي، في كتابه الأمير وهو ينصح الحاكم، ليس المهم أن تتمسك بالأخلاق، وإنما المهم أن تبدو كذلك.

صرف دافيد تلاميذه، وبدأ العمل. نجح البورتريه وجاء كما طلب نابليون. بعد ذلك، عين دافيد في وظيفة رسام البلاط الامبراطوري. قام برسم لوحة ضخمة، بعنوان "تتويج". تعتبر أعظم أعماله في هذه الفترة. كان أجره عن هذه اللوحة ما يساوي 21 ألف دولار. وهو مبلغ ضخم جدا في تلك الأيام.

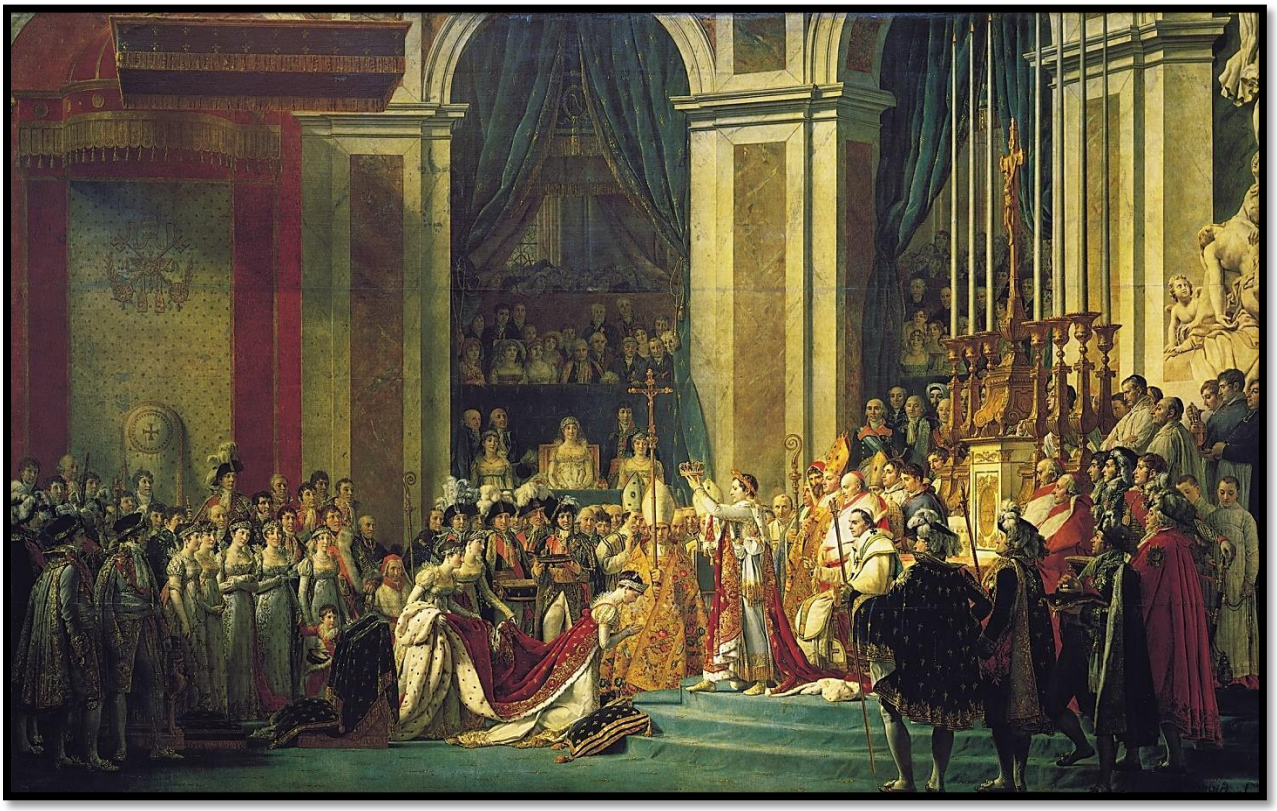

تتويج، دافيد

عندما انتهى دافيد من رسم اللوحة، قام بدعوة الامبراطور لفحصها. جاء نابوليون، ومعه جوزفين، والوزراء، وقواد الجيش، في موكب رهيب. تتقدمهم فرقة موسيقية. وظل نابليون، لمدة طويلة، يأتي ليقف أمام اللوحة، كي يتأمل تفاصيلها الدقيقة.

يظهر نابليون في اللوحة وهو يرتدي لباسا أبيض ستانا وعباءة قرمزية. هو متوج، ويقوم بوضع التاج على رأس جوزفين التي تنحني أمامه وتضع ركبتيها على وسادة قطيفة زرقاء.

البابا بيوس السابع، يجلس خلف الامبراطور. هناك جمع غفير من الشهود، كرادلة وجنرالات وسيدات ورجال بلاط، وسفراء. بعد أن رأى نابليون اللوحة أول مرة وأعجب بها، التفت إلى الرسام قائلا: "دافيد، أنا أحييك". فأجابه الرسام قائلا: "أنا قبلت التحية".

بعد هزيمة نابليون في معركة "واترلو"، فقد عرشه ونفي إلى جزيرة سانت هيلانة. دافيد، الذي كان من أنصار الامبراطورية، عوقب هو الآخر. فنفي خارج البلاد إلى بروكسل. قضى هناك بقية حياته.

في بروكسل، عاد دافيد إلى رسم المشاهد الكلاسيكية. تلاميذه كانوا مخلصين له. العديد من فناني القرن التاسع عشر، عملوا لفترة في مرسمه.

نابليون كان محبا للفنون. أثاء حكمه، كلف العديد من الفنانين لكي يسجلوا بلوحاتهم وتماثيلهم أمجاد الثورة الفرنسية. الملوك والنبلاء، كانوا يجمعون التحف واللوحات والتماثيل الفنية لكي تزين قصورهم.

لكن، في عام 1793م، خصص متحف اللوفر، الذي كان قصرا مهملا من قصور الملوك الفرنسيين، لكي يكون متحفا للفنون في باريس. لوحات فنية، تماثيل، أثاث، وتحف من كل نوع، كانت تشترى لكي تضاف إلى مجموعة المتحف. المتحف خصصت له ميزانية سنوية. ولنا أن نتخيل الكنوز التي يحتويها الآن، إذا علمنا أنه بدأ أول عرض بمجموعة لوحات عددها 537 لوحة.

كان نابليون، وهذا عمل غير أخلاقي، يقوم بسرقة الأعمال الفنية النادرة من المدن التي كان يقهرها جيشه. من هذه الكنوز المسروقة، الخيول البرونزية من كاتيدرائية القديس مرقس، وتمثال أبوللو بيلفيدير، ولوحة تيتان "المسيح والجزية"، ولوحة رفائيل "تبديل".

بذلك، أصبحت باريس لا روما، لفترة قصيرة، أكبر مركز للفنون في العالم. يحج إليها عشاق الفن من كل حدب وصوب. بعد سقوط نابليون، قرر الحلفاء، عودة المسروقات الفنية ثانية إلى أصحابها.

32

الفن الفرنسي(3)
القرن التاسع عشر

غابة "فونتين بلو" الكبيرة، كانت غابة صيد تخص ملوك فرنسا الأوائل. بها تلال منخفضة، وممرات ضيقة، وبحيرات صغيرة، بالإضافة إلى طرق رائعة، تقود إلى كل الاتجاهات.

في المركز، يقع القصر الملكي. هذه ليست غابة بدائية، لكنها غابة ملكية خاصة، مليئة بالحياة والأنوار. على حافة الغابة، وعلى بعد 34 ميل من باريس، تقع قرية "باربيزون" الجميلة. شارعها الريفي الوحيد، يتحدد بمنازل رمادية اللون، مبنية بالحجر.

في بداية القرن التاسع عشر، صحت هذه القرية النائمة، لتصبح مكانا لتجمع "رجال 1830". وهم مجموعة فنانين، رغبوا في دراسة الطبيعة كما هي، لا كما تبدو في اللوحات الفنية.

لقد مل الفرنسيون لوحات المناظر الطبيعية الكلاسيكية. أوراق الشجر التي تبدو غير طبيعية، والمناظر التقليدية، المعابد والحور العين من الأساطير القديمة، ورعاة الأغنام والأبقار. وأشاد الفنانون الفرنسيون، بجمال المناظر الطبيعية التي رسمها الهولنديون أو الإنجليز ومنهم الفنان "كونستابل".

فن الرسم الكلاسيكي للمناظر الطبيعية، عليه أن يتنحى جانبا مشكورا، لكي يفسح مكانا لفن رسم جديد. أصبحت المناظر هي الأقرب إلى الطبيعة والحقيقة، وباتت هي موضة العصر. جذبت قرية "باربيزون" الفنانين المحبين لهذه المدرسة الجديدة في فن الرسم.

جعلوا قرية باربيزون مقرا لهم. منها انطلقوا يبحثون عن صيدهم الثمين من المشاهد الطبيعية النادرة، التي يمكن أن يجدوها في الغابة. كانوا يبيتون في نزل رخيصة للفلاحين. يضطرون، في بعض الأحيان، للنوم فوق المناضد الخشبية، أو على كومات القش في حظائر الحيوانات.

من بين هؤلاء الفنانين، رسو، دياز، ترويون، جاكيه، كوروت، ميليه. بعضهم، كان يسكن هناك. أخرون كانوا يترددون على القرية من حين لآخر. رسو، شاعر الخضرة، عاش هناك 19 سنة.

"ثيودور روسو"، هو الابن الوحيد لخياط ناجح. ولد في باريس عام 1812م. عندما كان سنه 14 سنة، بدأ في دراسة فن الرسم على يدي أستاذ متخصص.

كان رحالا عظيما، مشهورا في شبابه برسم مشاهد الجبال الشاهقة، الإلب والبرانس التي تقع على الحدود الغربية لفرنسا. كذلك المنحدرات، والمضايق الوعرة، والسيول المزبدة. حبه للطبيعة، جعله يروم الفيافي بالنهار ويسري بالليل في الغابات وبين الأطلال.

جدول وسد، روسو

بدلا من الأشجار الداكنة والأعشاب بنية اللون، التي كانت تستخدم في رسم المناظر الطبيعية الكلاسيكية، أصبحت نباتات رسو، لونها أخضر زاهي، وأحمر قاني وأصفر ذهبي.

هيئة تحكيم الأعمال الفنية في باريس، التي تقرر أي الأعمال تستحق العرض السنوي، اعتقدت أن أعمال روسو درامية أكثر من اللازم. اسلوبه يبدو ثوريا، بالنسبة للأسلوب الكلاسيكي المتبع، لذلك لم تقبل أعماله في بادئ الأمر.

لأن المحكميين لم ينصفوا لوحات روسو، أصبح من الصعب بيعها. في الواقع، ظل روسو طيلة حياته، يجاهد ضد المعارضين لفنه. لذلك، قرر في النهاية التخلي عن مشاهد الجبال في لوحاته، وذهب إلى قرية باربيزون.

حيث جمال الغابة وسحرها، وروعة أشجارها، التي تتميز، فرادى وجماعات، بصفات مميزة. كان روسو يعرف كل شجرة معرفة خاصة، كما يعرف الصديق صديقه.

مجموعة أشجار، روسو

طريقة رسم روسو للنباتات كانت ساحرة. أوراق الشجر الخضراء القاتمة، تجدها مرسومة بعناية ووضوح، في تباين جلي ضد السماء الصافية، وفي توافق مع باقي الشجرة.

كان يحب أيضا رسم تفاصيل الأشياء الصغيرة الكثيرة التي يحتويها المشهد، مثل الأغصان المتساقطة، وحصى وطحالب وحشائش الأرض.

الربيع، روسو

كان يرغب في أن يكون غنيا، حتى يكرس حياته لرسم لوحة واحدة. لم يرغب أبدا في الذهاب إلى إيطاليا، خوفا من أن تدمر الدراسة أسلوبه الفريد.

بعد سنوات عديدة، تم الاعتراف بموهبته. في عام 1852م، منح وسام "جوقة الشرف"، وهو أرفع وسام فرنسي، الذي أنشأه نابليون بونابرت عام 1802م.

بعد عدة سنوات، توج روسو بلقب "أبو المناظر الطبيعية الفرنسية الحديثة". وأصبح فنه له تأثير هائل على الفنانين اللاحقين، لا في فرنسا وحدها، ولكن في بقية أرجاء العالم.

أحد أصدقاء روسو المقربين في باربيزون، " جان فرانسوا ميليه". كان يشجعه كثيرا ويقدم له النصائح. طبيعته المكتئبه، تحولت إلى حزن وانطواء مع تقدمه في السن. توفي عام 1875م. مشهور برسم مشاهد الريف والفلاحين. ينتمي إلى المدرستين،الواقعية والطبيعية.

أشهر أعمال ميليه، لوحة رسمها عام 1857م، عن جمع ما تبقى من الحصاد، بعنوان "الجامعون".

الجامعون بعد الحصاد، روسو

بينما كان ميليه يسير بين الحقول في قرية باربيزون، ظل يراوده هذا المشهد الذي ظل يفكر فيه سبع سنوات. مشهد الفلاحة الفقيرة، هي وأولادها ينحنون لكي يلتقطوا ما تبقى من محصول القمح على الأرض بعد الحصاد.

هذا المشهد، يبين كفاح الفقراء من أجل البقاء. ضوء النهار الذهبي، الذي يغمر اللوحة، يرمز إلى شئ مقدس أبدي. انحناءات ظهور النساء، التي تشبه موجات البحر، ترمز إلى الشقاء المتكرر، الذي لا ينتهي لطبقة الفقراء والمعدمين.

في الأفق البعيد، شمس الغروب تلقى بضوئها الذهبي على المزرعة وأكوام سنابل القمح، في تباين واضح مع الفلاحة وبناتها، بملابسهن الداكنة، في مقدمة اللوحة.

التباين هنا يتضح أيضا، بين الغنى والثراء في الخلف، والفقر والعوز في المقدمة. المشرف على المزرعة، والذي يرمز لقوة وسلطة القدر، يمتطي صهوة جواده ويراقب من بعيد العمل والعربات المحملة بالقمح، التي تجرها الخيول.

فنان آخر من فناني قرية باربيزون، هو الهولندي "دياز"، صديق روسو وتلميذه. كان دياز معجبا بأستاذه، يتبعه أينما يذهب في الغابة، لكي يراقبه ويتعلم من فنه.

المسكين دياز، كانت له رجل خشبية. كان جل اهتمامه، هو مراقبة الطبيعة وفهم أسرارها. كان يوظف قوة ضياء الشمس في لوحاته، التي نرى شعاعها، وهو يخترق الأوراق الخضراء لأشجار الغابة.

طاحونة بالقرب من باربيزون، دياز

"ترويون"، كان صديقا حميما لدياز. كان متخصصا في رسم ثيران وأغنام وكلاب المنطقة. تأثر بأسلوب "بول بوتر" منذ البداية. مما حببه في رسم الحيوانات. عندما تحين الفرصة، تجده بين المزارع والحقول، في الصباح أو المساء، يشاهد ويدون ويرسم.

السقايون، ترويون

يعتبر ترويون، أحسن من رسم الثيران والأغنام . الكلاب كانت دائما ترافقه وتلعب معه. رسمها في لوحاته، كمخلوقات جميلة، لا تقل عن البني آدمين في الذكاء، بل تزيد في الإخلاص والوفاء.

أبقار في الطريق إلى السوق، ترويون

لوحات ترويون، تتميز بالسماء الزرقاء والأعشاب وأوراق الشجر الخضراء، والشمس الساطعة، التي تغمر بأشعتها الذهبية، ثيرانه وأغنامه. في بعض الأحيان، كان يقوم برسم 40 لوحة في نفس الوقت.

"تشارل جاك"، هو أيضا رسام فرنسي يقوم برسم الأغنام في مراعي باربيزون.

أغنام في المراعي، تشارل جاك

لكنه كان مشهورا أيضا برسم الحيوانات الصغيرة. يسمى أحيانا "رفائيل الخنازير". رسومه للديوك والفراريج جميلة ومشهورة.

دواجن، تشارل جاك

بالقرب من قرية باربيزون، كانت تعيش رسامة آخرى، هي "روزا بونهيور". كانت محبة للفن والحيوانات.

الحرث في نيفيرز، روزا

لكن أهم ثلاثة فنانين في مدرسة "فونتين بلو-باربيزون"، هم "رسو"، "كوروت"، "ميليه". "كوروت" ظهر كقبس من نور بين الإثنين الآخرين.

"كوروت" كان شخصية صريحة مرحة. يحب الحياة، حياته جاءت في توافق تام مع هدوء وبساطة الريف والمناظر الطبيعية الجميلة. هو، مثل الكثيرين من الفنانين الفرنسيين، جاء أصلا من الريف، وكان دائم الفخر بأصوله المتواضعة.

ولد في باريس عام 1796م. كان أبواه يعملان في صناعة القبعات. كان معجبا بوالده، ولكن والدته كان لها كل الحب والقداسة. وكان يسميها "المرأة الحسناء".

ذهب "كوروت" إلى المدرسة، ثم الجامعة. كان الأب يبغي إعداده للعمل بالتجارة. لكنه وجد أن ابنه، له مذاق خاص للفن. فخصص له راتبا سنويا صغيرا، لكي يعينه على الدراسة. وبدأ كوروت الرسم، ولم يتوقف عن الرسم حتى وفاته.

كرس كوروت ريشته لرسم مدينة باريس المشرقة، لكنه أحب بيوت المصايف التي لا تبعد كثيرا عن قرية "دي أفراي". هناك، وجد نفسه أقرب للطبيعة. يستطيع السماع والتحدث مع الطيور البرية، ورسم البحيرات والشجر وهو يتمايل على ضفافها.

لمدة 15 سنة من حياته، كان يتشوق إلى رسم المناظر الطبيعية الكلاسيكية. خلال هذه المدة، ذهب إلى إيطاليا للدراسة. كون هناك صداقات كثيرة.

كان محبوبا من الجميع، بالرغم من أنهم، في بعض الأحيان، كانوا يسخرون من رسمه. لكنه كان يواصل الرسم بشجاعة دون يأس.

قام بدراسة "كلود" و"كونستابل"، وكان يتعلم في نفس الوقت، كيف يفسر ما يشاهده في الطبية بالرسم. لكن بطريقته وأسلوبه الخاص.

مضت سنوات عديدة قبل أن يعترف النقاد بفنه. كان يعقب على رفض المحكمين للوحاته بابتسامة قائلا: "سوف يعترفون بي في وقت ما". كانت لوحاته تعرض في الصالونات، لكن لا أحد يقف لكي يتأملها.

كان يقف هو نفسه أمام بعض لوحاته، كمحاولة لجذب بعض المشاهدين إليها. في الواقع، كان من الصعب عليه بيع لوحاته، حتى بلوغه سن الأربعين. لم يعترف بفنه، ويلق التكريم اللائق، إلا عند بلوغه سن الستين.

لم يكن يدور بخلد كوروت، أن لوحاته التي لم تكن تحظى بالاعجاب في عصره، سوف تحظى بكل الإعجاب والتقدير في القرن العشرين. ولم يكن بالطبع يتخيل الثمن التي أصبحت تباع به لوحاته، بعدما كان يجد صعوبة بالغة في بيعها.

لم يمكث كوروت كثيرا في باربيزون. ولكنه كان يعود إليها من وقت لآخر. وهناك تأثر بفن "روسو". لكن لوحاته، لا تشبه لوحات باقي الفنانين.

بينما كان روسو يصر على رسم النباتات والأعشاب بدقة ويعتني بالتفاصيل كاملة، كانت نباتات وأعشاب "كوروت" ترسم في مجموعات، بطش ولطع بالفرشاة في اتجاهات وألوان مختلفة. إنه يبغي هنا التأثير العام. لذلك يمكن اعتباره رساما تأثيريا.

كان يعتقد دائما أن روسو يفوقه في فن الرسم. كان يصفه بأنه نسر، ويقول: "ما أنا إلا قنبرة صغيرة، تشدو ببعض الأغاني وسط السحاب". مناظره الطبيعية تتسم باللين، الفضاء معبأ بالضباب والضياء.

هذه لوحة رائعة، بسيطة جميلة، تزيل الهم والغم، وتسمو بالروح. فمن قال أن الفن حرام؟

مدينة دى أفري، كوروت

مناظره الطبيعية حية طازجة. لأنه يحب رسم مناظر الربيع والصيف. في الواقع، لم يرسم أبدا مشاهد الشتاء. عندما يأتي الربيع، كان يقول: "لدي ميعاد غرامي مع الطبيعة، مع البراعم التي بدأت تتفتح، والطيور التي تأتي، لكي تقف بالقرب مني، تشاهد ما أقوم برسمه".

لكن كوروت كان لديه شيئا ما من روح الفن الكلاسيكي. لأنه كان يحب وضع شخصيات الأساطير في مشاهده. أشكاله الصغيرة نجدها ترقص برشاقة وتلعب تحت الأشجار.

منظر آخر رائع، ينساب في سلاسة مثل الموسيقى.

طاحونة هواء على طريق بيكاردي، كوروت

في الواقع، لوحاته لها سحر خاص، وروح موسيقية فريدة. لذلك، يسمى "موزار المناظر الطبيعية". عندما كان يذهب إلى الغابة، يلبس معطفا كبيرا أزرق اللون، وقبعة قطنية. يضع عادة بيبة تبغ في فمه. ويحمل مظلة قطنية كبيرة.

يذهب غالبا في الصباح الباكر لمشاهدة شروق الشمس. يعمل طوال النهار . عندما تميل الشمس نحو المغيب، كان يحزم أمتعته ويستعد للعوده، قائلا: "حسنا، علي أن أتوقف الآن، لأن رب السماوات، سوف يطفئ مصباحي".

أثناء الحرب الفرانكو-بروسية، تخلف كوروت في المدينة لكي يساعد في أعمال الإسعاف. لم يتزوج في حياته. شخصيته كانت ساحرة، كان يحبه الجميع. كان كريما واسع العطاء. لا يعتبر الإحسان فضيلة، وكان يقول ببساطة، إن لديه زيادة، والآخرين في حاجة.

في أحد أيام رأس السنة، بينما كان يسير في الطريق، قابله أحد الشحاتين. أعطاه كوروت قطعة عملة فضية، ثم سار عدة خطوات. ولكنه عاد مسرعا إلى الشحات.

لكي يعطيه 10 قطع أخرى فضية، قائلا: " كل الناس تحصل في هذا اليوم على هدايا، وأنت أيضا يجب أن تحصل على هدية". قرأ الكثير من الكتب التي علمته كيف يعيش. فالحياة، "كيف" لا "كم". توفي عام 1875م.

33

الفن التأثيري

في هذا المقال، سوف أحكي حكاية الفن التأثيري بأسلوب مبسط، لعلي أوفق في اقناع الكثير من السادة القراء، بتغيير موقفهم من الفن بصفة عامة، والتأثيري بصفة خاصة، وجعلهم يعشقون كل أنواع أساليب التعبير الإنساني الراقي، الذي يسمو بأرواحنا ويروي ظمأ قلوبنا للحب والجمال.

قبل الحديث عن الفن التأثيري، اسمحوا لي بمقدمة، وأعدكم أن لا تكون طويلة مملة.

عدوى الثورة الصناعية في إنجلترا، بدأت في الانتشار في فرنسا وباقي دول أوروبا وأمريكا. جاء معها التمدن والتحضر. في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، نمت المدن الصناعية، بسبب الهجرة من الريف للمدينة للعمل في المصانع والشركات الكبيرة.

تعاظم عدد طبقة العمال في أوروبا، وتعاظم الغبن الشديد الواقع عليهم. مما أوحى لكارل ماركس (1818-1883م)، بأفكاره الاشتراكية. في مدينة باريس، قابل ماركس زميلا ألمانيا، هو فريدريك إنجيلز (1820-1895م). معا، قاما بكتابة المنافستو الشيوعي (1848م)، الذي يدعو الطبقة العاملة للنهوض والثورة على النظام الرأسمالي.

مثل الفكر التجريبي، اعتقد ماركس أن القوانين العلمية التي تحكم الطبيعة، هي أيضا تحكم حركة التاريخ. بالنسبة لماركس، القوة الاقتصادية المبنية على صراع الطبقات، هي التي تحدد مجرى التاريخ.

أحداث التاريخ، تبين لنا أنه، من يمتلك وسائل الانتاج (المصانع مثلا)، دائما في تضارب مصالح مع من يقومون بالعمل فيها. قوة التعارض الدائمة هذه، هي قوة ديناميكية أسماها ماركس " الجدلية المادية".

هدف ماركس الأساسي، هو خلق دولة أو مجتمع اشتراكي، تتولي فيه القوى العاملة مقاليد الأمور. بالطبع بعد أن تكون قد دمرت الرأسمالية. أفكار ماركس هذه، لاقت قبولا كبيرا بين العمال والمثقفين على حد سواء.

عالم آخر، تأثيره لا يقل عن تأثير ماركس، هو تشارلز داروين (1809-1882). داروين، يقول إن خلق وتطور الكائنات، يتبع قوانين طبيعية ثابتة، لا معجزات سماوية ولا يحزنون.

هذه القوانين، تجعل الأنسب فقط هو القادر على البقاء والتناسل. الغير قادر على البقاء، مآله الفناء. هذا يتعارض بشدة مع نظرية الخلق التي جاءت بكتبنا المقدسة. داروين، هو أحد أساطين الفكر العلماني ومن كبار مؤسسيه.

الفيلسوف البريطاني، هيربرت سبنسر (1820-1903م)، قام بتطبيق نظرية داروين في التطور، على الاقتصاد الاجتماعي. كما هو الحال في عالم الأحياء، كذلك تؤدي المنافسة الصناعية إلى بقاء ونجاح الشركات والمؤسسات والدول الأقوى والأقدر على مواجهة الصعاب.

الدارونية الاجتماعية، قد أمدت قادة العالم الغربي في الماضي، بالمبررات الأخلاقية اللازمة، لاحتلال واستعمار الدول الأقل حضارة وتقدما. مع نهاية القرن التاسع عشر، قامت القوى السياسية والاقتصادية، بتقسيم العالم فيما بينها.

الفرنسيون، قاموا باستعمار شمال أفريقيا والهند الصينية. البريطانيون، استعمروا الهند، إستراليا، ودول كثيرة في أفريقيا. منها نيجيريا ومصر والسودان وروديسيا وجنوب أفريقيا. الهولنديون، كانوا متواجدين في المحيط الهادي. ألمانيا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا، كانت لهم مساحات واسعة في أفريقيا.

التغير التكنولوجي الكبير في المدن الأوروبية، مع زيادة التحضر وسرعته، أديا إلى وعي أكثر حدة، وفهم أوضح للواقع. أفكار ماركس الاشتراكية، ونظرية داروين في

التطور، أدت إلى تقوية الإحساس بالذات والوعي بمشكلات المجتمع وأسبابها الحقيقية.

محصلة هذه التغيرات الاجتماعية، نتج عنها أساليب جديدة متعددة في الفنون. أسماها المؤرخون "الحداثة". الفن، في العادة، يسعى إلى اقتناص صورة وروح العصر الذي يمثله. بينما الحداثة، تتعدى ذلك بالنسبة للفن، والقيم الجمالية التي يمثلها. وأصبح الفن يستخدم في نقد الفن نفسه. لا لشئ، إنما لكي يسمو ويعلو.

القيود التي تعتري فن الرسم، مثل مسطح اللوحة ثنائي الأبعاد، وكذلك شكل المساحة ومقدارها، ونوع الألوان ودرجاتها والتقيد بها، وتطابق الرسم مع الواقع، إلخ. هذه القيود والقواعد، كان يعتبرها الفنانون الكبار القدامى، مجرد معوقات يجب التحايل عليها ومعالجتها بمهارة. لكن الفنانين الحداثيين، يعتبرونها عوامل إيجابية يجب توظيفها لخدمة العمل الفني.

الفن التأثيري (الإنطباعية)، هو فن باريسي. جاء عندما أصبحت باريس مدينة صناعية حضرية. جاء نتيجة التحول المباغت الوحشي الهوجائي، في حياة الفرنسيين، في النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

في أول معرض للفنانين التأثيريين عام 1874م، عرض كلود مونيه (1840-1926م)، لوحة بعنوان "تأثير، شروق الشمس". لم تنل اللوحة رضاء النقاد. أحدهم قال في سخرية أنها تمثل "الفن التأثيري"، وهى مدرسة فنية لم تكن قد تكونت في ذلك الوقت بعد. في العرض الثالث للوحة عام 1878م، لاقت قبول النقاد. بعد ذلك، أطلق الفنانون على أنفسهم، نكاية في النقاد، اسم "التأثيريون". من هنا، ولد الفن التأثيري.

الحداثة في الفن، تعتبر مدرسة جديدة بالنسبة للفنون المتعارف عليها. بدأت فنا غريبا بالنسبة للقواعد والفنون التي تعرضها وتعترف بها كلا من الأكاديمية الفرنسية، والأكاديمية الملكية البريطانية.

المعرض السنوي الذي يسمى الصالون في فرنسا، معرض هام، يتنافس فيه فنانون كبار. ترعاه الحكومة، ويضع شروطا صارمة على اللوحات التي تقبل للعرض. يهتم فقط بالأسلوب والموضوعات التقليدية. ويرفض، بالطبع، عرض الموضوعات والأسلوب الجديد.

كابانيل كان ضمن هيئة التحكيم. هو من المدرسة الكلاسيكية. رائعته ميلاد فينوس من زبد البحر تبين أسلوبه. لذلك قام هو وبوكيرو برفض أعمال الفنانين الجدد التأثيريين.

ميلاد فينوس، كابانيل

بدأ عدم الرضا والغضب يجتاح الفنانين الجدد، بسبب رفض عرض لوحاتهم في الصالون الملكي. لكي يخفف من هذا الغضب، أسس نابليون الثالث عام 1863م، صالونا جديدا لعرض اللوحات المرفوضة من الصالون الملكي. (يعني حاجة كدة تشبه الخبز المرتجع). لوحة مانيه بعنوان "مأدبة غداء على الأعشاب"، كانت من اللوحات المرفوضة.

مأدبة غذاء على الأعشاب، مانيه

في عام 1867م، وبعد رفض الكثير من لوحاته، قام مانية بعرض خاص ل 50 لوحة من أعماله. بعد ست سنوات، قام الفنانون التأثيريون، بإنشاء جمعية خاصة بهم، وأنشأوا معرضا للوحاتهم في باريس، يقام مرة كل عام أو كل عامين . هذا القرار، أعطى التأثيريون الحرية والتحرر من القيود التي وضعها الأكاديميون على أعمالهم.

مجموعة أخرى من الفنانين، كانوا غير سعداء بقرارات الصالون المحافظة، فأقاموا "جمعية الفنانين المستقلين". كانت تقوم بعرض سنوي لأعمالها. من هذه الأعمال، لوحة للفنان سورا بعنوان "يوم أحد على جزيرة لاجراند جاتي".

يوم أحد على جزيرة لاجراند جاتي، سورا

مع ازدياد سوق اللوحات الفنية، ازداد عدد أماكن العرض. من ثم، زادت فرص الفنانين الجدد في عرض لوحاتهم وتطبيق أساليبهم الحديثة، بعيدا عن قيود الصالون الملكي وشروطه المجحفة.

في لوحة "شروق الشمس"، لم يحاول مونيه إخفاء علامات الفرشة، ولم يقم بمزج الأصباغ، لخلق تدرج أملس سلس، بين درجات الألوان المختلفة. حتى تصبح اللوحة، مثل المشهد في الطبيعة. اللوحة هي أشبه برسم إسكتش سريع بالفرشة. أو لوحة غير مكتملة.

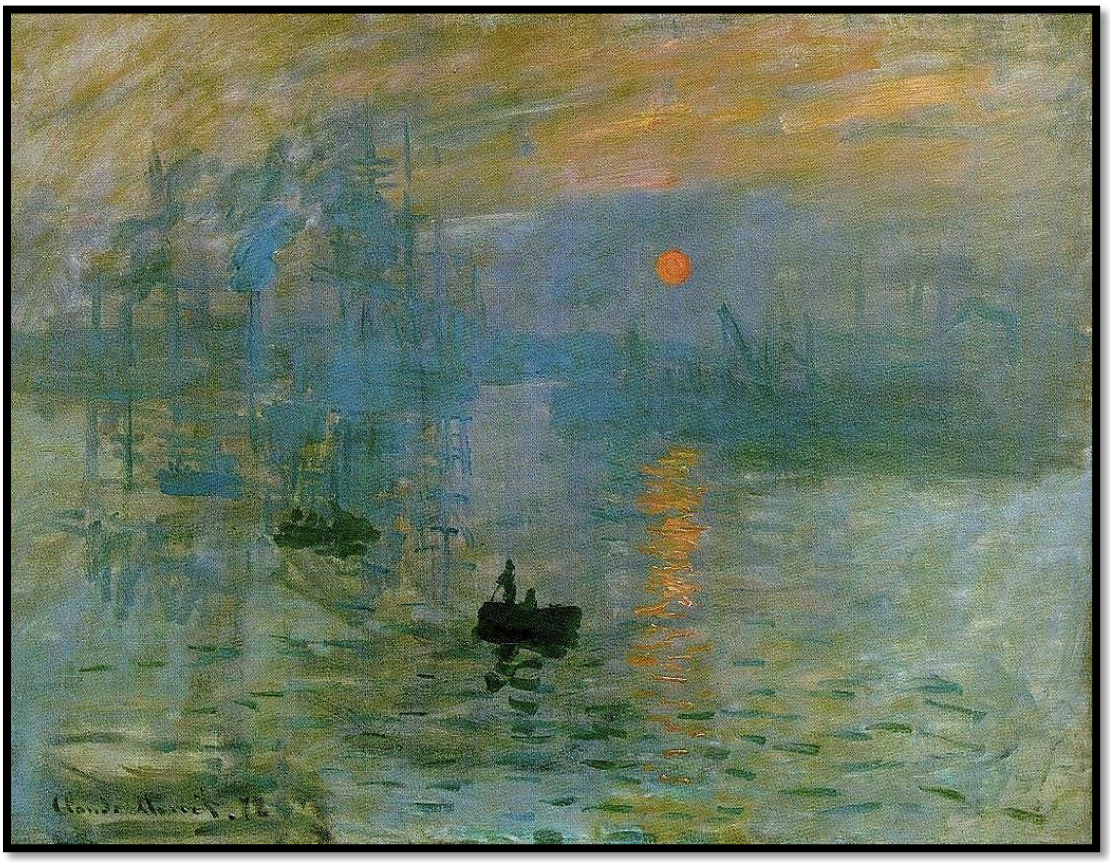

شروق الشمس، مونيه

لكن لوحة "شروق الشمس"، وكذلك الفن التأثيري بصفة عامة، يعبر عن رؤية الفنان، ممزوجة بشعوره وإحساسه. بمعنى آخر، الفنان التأثيري، لا يصف العالم الخارجي فقط، أو إحساسه فقط، ولكن خليط ومزج بين الإثنين.

كان مونيه يرسم في العراء والهواء الطلق. هذا جعله يركز على دور الضوء والألوان في صبغ الأشياء الموجودة بالمشهد. كل الفنانين التأثيريين، علموا أهمية الضوء والألوان، وعرفوا كيف يوظفوها في أعمالهم، لكن مونيه، كان أقدرهم وأكثرهم جرأة. كانت هذه نصيحته لإحدى تلميذاته:

"عندما تخرجين للرسم، إنسي الشئ الذي أمامك. شجرة، بيت، حقل، أو أي شئ آخر. لكن تأملي. هنا مربع صغير أزرق، وهناك مستطيل وردي، هذا شعاع أصفر، ثم قومي برسم ما يبدو لكي بكل أمانة. حتى ينتقل انطباعك إلى اللوحة التي أمامك."

دراسة علم الضوء، وكيمياء خلط الألوان، نبهت الفنانين إلى كثرة الألوان الموجودة في الطبيعة. الضوء ليس مجرد ضياء. ولكنه ضوء مكون من عدة ألوان. دافئ يميل للألوان الدافئة، مثل ضوء شروق الشمس وغروب الشمس، ولون ضوء المصباح الكهربائي (التانجستون). أو ضوء بارد، مثل ضوء القمر وضوء المصباح النيون.

عندما يسقط الضوء على جسم ما، يغير الضوء من لون الجسم. لكن العين الغير مدربة، لا ترى هذا الفرق. فورقة الشجر الخضراء، هي نفسها ورقة الشجر الخضراء، وقت الظهيرة، أو عند الغروب. في الظل، أو تحت أشعة الشمس.

كذلك الظلال، هي ليست مناطق رمادية وسوداء، كما كانت تظهر للرسامين الأوائل، ولكنها هي أيضا تتكون من ألوان مختلطة، تتشكل وفقا لانعكاسات وانكسارات الضوء المختلفة.

الألوان، لو وضعت جنبا إلى جنب في مساحات كبيرة، تقوي بعضها البعض، أو يضعف كل منها اللون الآخر. وإذا وضعت متجاورة بكميات صغيرة، تمتزج مع بعضها وتكون لون آخر هو المحصلة.

في الواقع، وضع الألوان متجاورة بكميات صغيرة على سطح اللوحة، له تأثير أقوي من مزج نفس الأصباغ على لوحة الألوان. مثلا: اللونان الأزرق والأصفر المتجاوران في مساحة صغيرة، ينتجان اللون الأخضر.

الفنانون التأثيريون، لا يستخدمون هذا الأسلوب فقط، في خلط الألون بالنسبة لعين المشاهد، بدلا من خلطها قبل الرسم. لكنهم، بجانب ذلك، يستخدمون أسلوبا إضافيا له تأثير رائع على المشاهد.

هو استخدام الفرشاة في ضربات متقطعة، مثل كوانتا الطاقة أو فوتونات الضوء. فالضوء يسير أيضا في تدفقات مثل المطر، ولا يسيل مثل ماء الصنبور. (الضوء عبارة عن موجات وكرات في نفس الوقت، هذا يعرف بالطبيعة المزدوجة للضوء)

الاقتراب من والتأمل في لوحات التأثيريين، يجعل المشاهد في حيرة، ولا يجعل اللوحة تبوح بأسرارها الدفينة. الطريقة السليمة لمشاهدة لوحات التأثيريين، هي الابتعاد مسافة كافية، تجعل الألوان تمتزج خلال العين في مخ المشاهد.

قام مونيه بدراسة الضوء والألوان بكثافة في عدة لوحات لنفس الموضوع. كاتيدرائية "روين"، قام مونيه برسمها، في أحد دراساته، 40 مرة. كل لوحة، كان يراقب الكاثيدرائية من نفس الموقع، ولكن في وقت مختلف من النهار، وتحت ظرف مناخ مختلف.

لقد ترك مونية تسجيلا علميا ليس له مثيل عن تأثير الضوء بأنواعه المختلفة على نفس الموضوع. إنه لا يهتم بالكاتيدرائية نفسها، ولكن بالضوء الساقط عليها، وكيف تبدو ألوانها للعين.

في لوحة "محطة سانت لازار" في باريس، يبين مونيه محطة السكة الحديد وهي في كامل نشاطها وحيويتها، كأسلوب حديث للمواصلات. القطار يخترق سحابة البخار والدخان التي تنتشر في المحطة.

محطة سانت لازار، مونيه

بين المروج، مونيه

المنتزه، إمرأة ومظلة. لوحة رائعة من الصعب وصف جمالها.

إمرأة ومظلة، مونيه

جبال إستريل. بساطة متناهية.

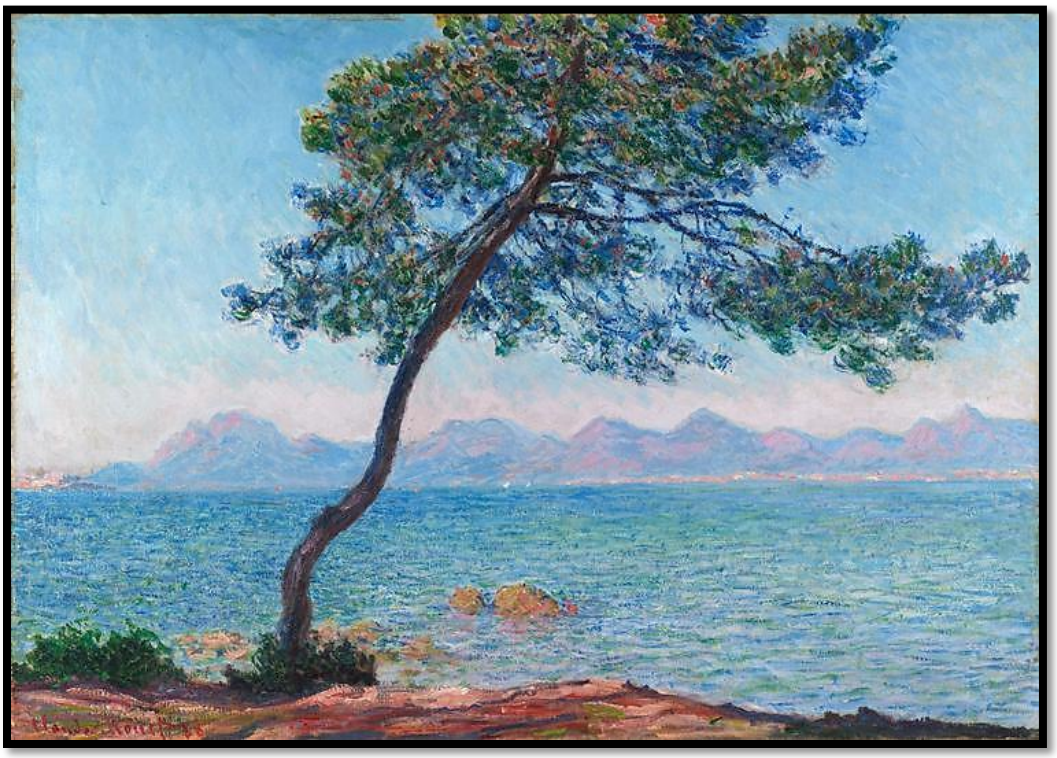

جبال استريل، مونيه

أشجار الحور. موسيقى لا أكثر ولا أقل.

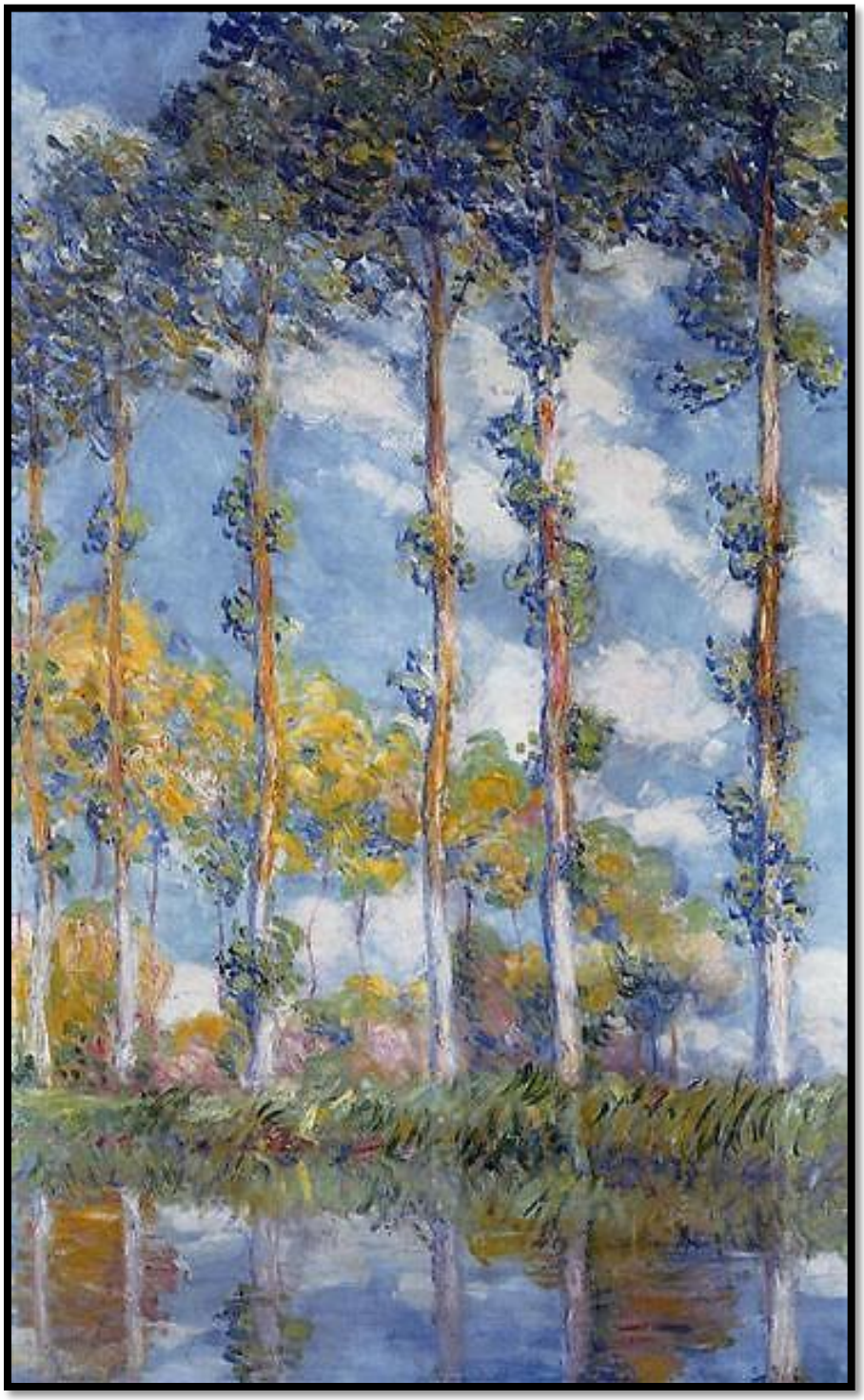

أشجار الحور، مونيه

الزنبق المائي. وداعة وهدوء وتأمل.

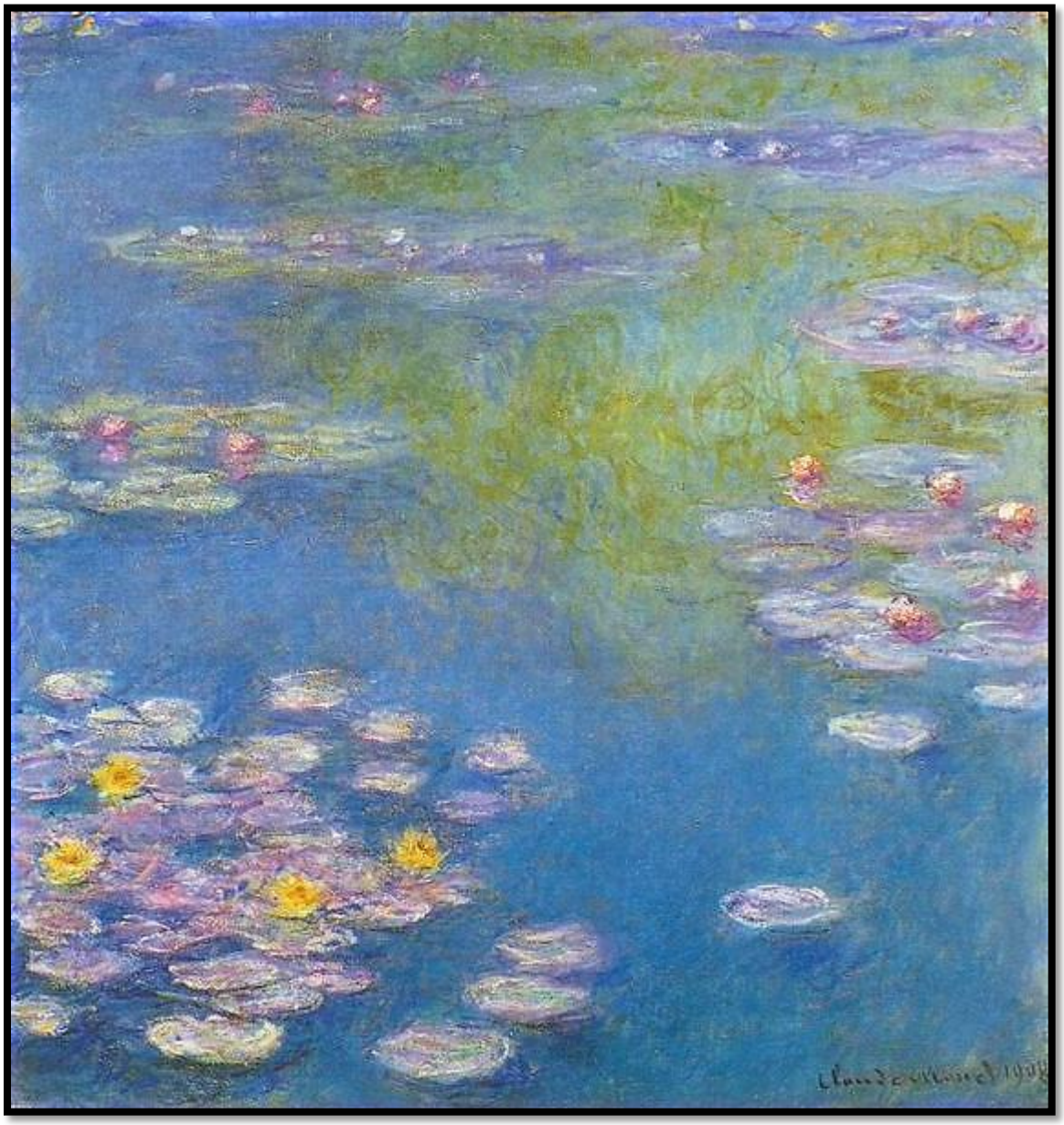

الزنبق المائي، مونيه

جوستاف كيليبوت (1849-1893م)، فنان تأثيري آخر مشهور برسم أحياء المدينة. بالرغم من أنه لا يستخدم دائما، ضربات فرشة "مانية".

لوحة جوستاف بعنوان "باريس: يوم ممطر"، عبارة عن منظر لتقاطع شوارع عريضة بالمدرينة، بعد إعادة تصميمها عام 1852م، بأمر من الامبراطور نابليون الثالث. الخديو

إسماعيل، فيما بعد، فعل نفس الشئ بمنطقة وسط البلد بالقاهرة. إذ كان هدفه، بناء قاهرة جديدة، أو باريس جديدة على النيل، وقد نجح في ذلك.

باريس في يوم ممطر، كيليبوت

لم يستخدم كيليبوت ضربات الفرشة المتقطعة المعروفة في الفن التأثيري. كما أنه لم يستخدم قواعد التكوين الفني. لكنه رتب المشهد بحيث يبدو عشوائيا بدون ترتيب. حافة الصورة تقطع الأشخاص كما تفعل الصور الفوتوغرافية في اللقطات العشوائية.

هنا، نجح الرسام في نقل انطباعه عن حياة الحضر في المدينة الجديدة. الفن التأثيري يسمى في بعض الأحيان، الفن الانطباعي. هذه لوحة أخرى ل "كيليبوت" أقرب لأسلوب مونيه من اللوحة السابقة، بعنوان "ريتشارد جالو وكلبه".

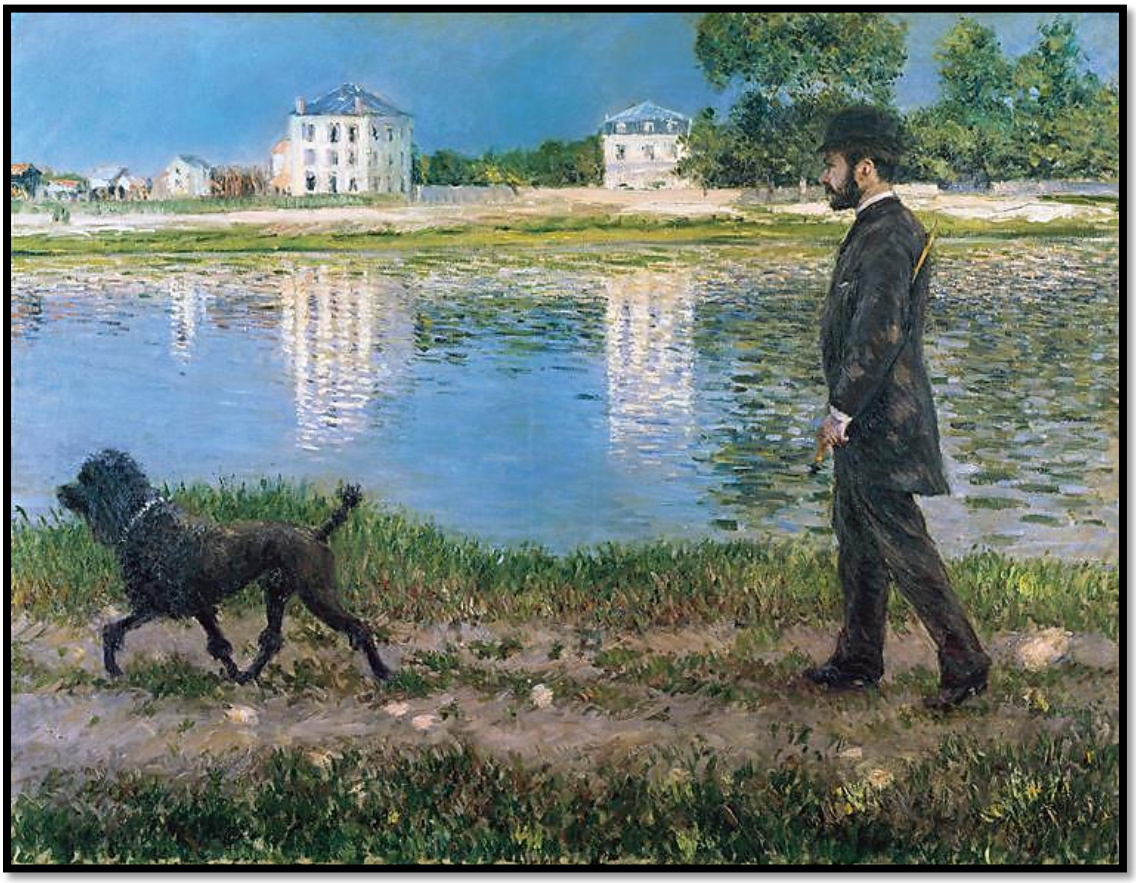

ريتشارد جالو وكلبه، كيليبوت

كميل بيزارو (1830-1903م)، هو فنان تأثيري. وجد هو الآخر شوارع باريس الفسيحة، مواضيع جذابة للوحاته. لوحته البانورامية بعنوان "قصر المسرح الفرنسي"، تصور أحد ميادين باريس المزدحمة بالمارة.

قصر المسرح الفرنسي، بيزارو

لا يبين بيزارو هنا تأثير الضوء والألوان. ولكنه كان مهتما بترتيب الأشكال وحركة الناس في يومها العادي. لكي يحقق ذلك، كان بيزارو يستخدم الفوتوغرافيا لتسجيل مواقع الأشخاص والعربات.

نجد هنا أيضا، أن حواف اللوحة تقطع المشهد وخصوصا من الجانبين عن قصد، لكي يقول لنا أن الحكاية لها بقية، وما تشاهدونه ليس كل شئ.

شوارع باريس في وقت الثلج، بيزارو

الحصاد.

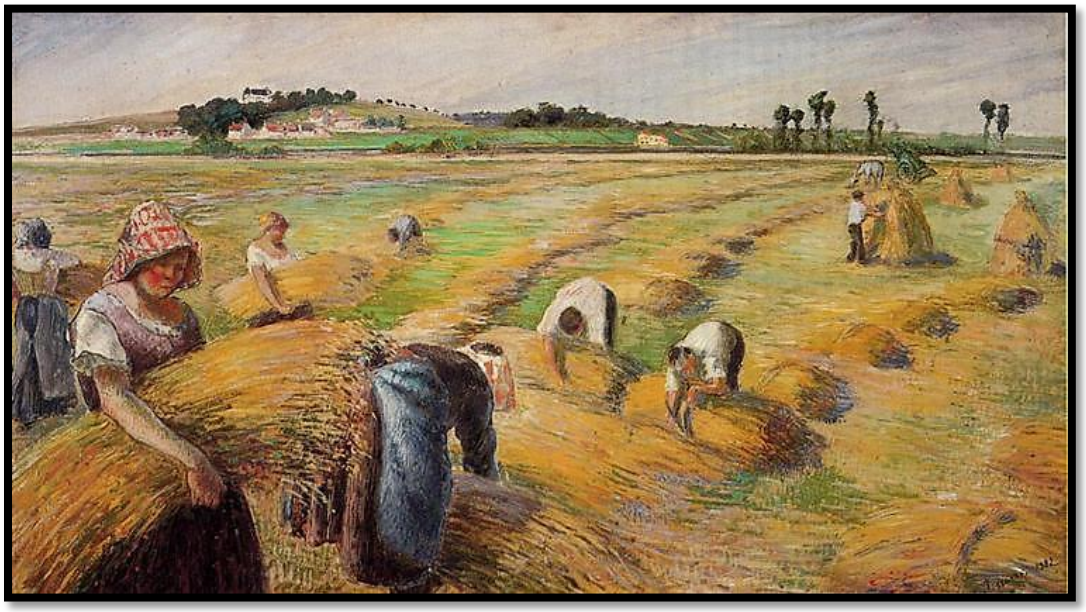

الحصاد، بيزارو

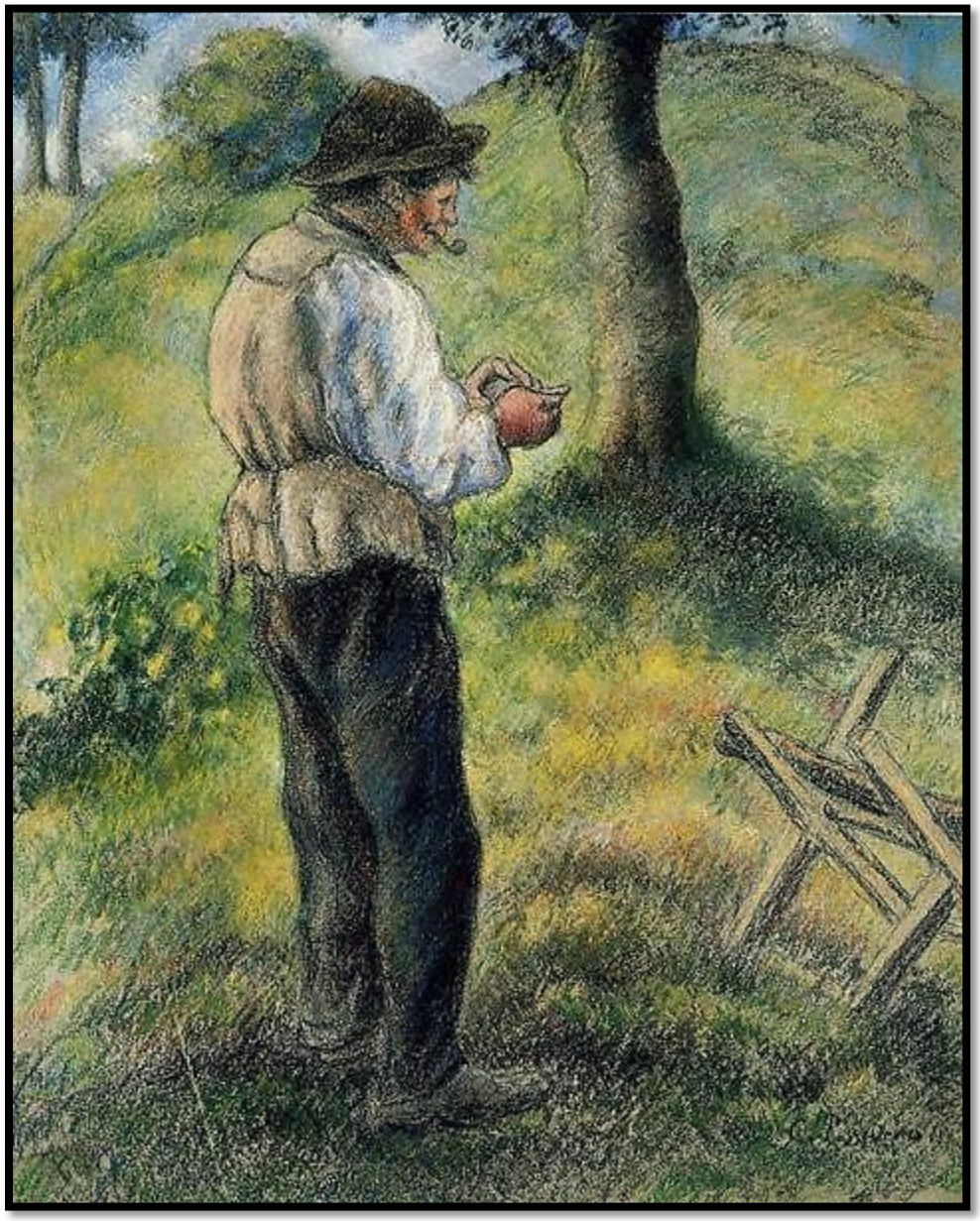

الأب ميلون يشعل غليونه، بيزارو

بيير أوغسط رينوار (1841-1919م)، هو فنان تأثيري جذبه أيضا، الوجه الجديد لمدينة باريس. مناظر المطاعم المكشوفة وحلبات الرقص في الخلاء والمقاهي والأوبرا والباليه وغيرها من مظاهر التمدن.

الرقص في مولان دو لا جاليت، رينوار

لوحة رينوار تعود لعام 1876م، هي معروضة الآن في متحف أورسيه في باريس. تعتبر أشهر اللوحات التأثيرية التي تصور الحفلات العامة في باريس. المشهد يصور حفلة هامة في صالة "مولان دو لاجاليت" شمال باريس.

في أواخر القرن التاسع عشر كان الباريسيون من الطبقة العاملة يتعطرون ويتأنقون في ثيابهم في أوقات العطلة الرسمية أو عطلة نهاية الأسبوع، ثم يقضون أوقاتهم في الرقص والشرب وتناول الحلويات في المساء. تمثل اللوحة لقطة من الواقع. مليئة بالضوء والألوان الزاهية البراقة.

المشهد يتدفق بالحيوية والبهجة. المشاهد يكاد يسمع صوت الموسيقى، وسط قهقهات الضحك ورنين الكؤوس. زين رينوار اللوحة كلها ببقع من ضوء الشمس والظلال، باهتة طافية عابرة. تذكرنا بقول المتنبي، وكأنه يصف هذا المشهد، في القصيدة التي مطلعها "مغاني الشعب طيبا في المغاني"، إلى أن يقول:

"غدونا تنفض الأغصان فيه ... على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عني ... وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي ... دنانير تفر من البنان
لها ثمر تشير إليك منه ... بأشربة وقفن بلا أواني
وأمواه يصل بها حصاها ... صليل الحلي في أيدي الغواني"

أختان في التراس. وداعة وبراءة متناهية.

أختان في التراس، رينوار

يقول رينوار عن أسلوبه التأثيري في الرسم:

"أنا أرتب الأشكال في لوحتي كما أحب. ثم أقوم بالرسم كالطفل. أنا أريد الأحمر فاقعا، يرن كالجرس. إذا لم يأت اللون كذلك، أضيف الكثير من الأحمر.

وأظل أضيف وأضيف،إلى أن آتي بما أريد. أنا لست أذكى من ذلك. ليست لدي قاعدة أو طريقة. وليس لدي أيضا سرا أبوح به. أنظر إلى الجسم العاري، وعندي صبغات عديدة. أبحث بينها إلى أن أجد الصبغة التي تجعل لون الجسم حي ينبض بالحياة.

إذا استطاع المشاهد شرح معنى اللوحة، فهذا يعني أنها ليست عملا فنيا. الفن في جملتين: يجب أن يكون فريدا، لا يمكن شرحه. العمل الفني، يجب أن يستحوزك، ويلتف حولك، ويحملك ويطير بك بعيدا. الفن، هو الأسلوب الذي به، ينقل الفنان إليك مشاعره وخلجاته. أنا لا أريد أن يشعر المشاهد، عندما يرى لوحتى، أنها مملة لا حياة فيها"

إيدوارد مانيه، وهو يختلف عن مونيه الذي تحدثنا عنه سابقا، قام هو أيضا برسم الحياة الليلية في مدينة باريس. يعتبر مانية حلقة وصل بين المدرسة الواقعية والمدرسة التأثيرية. أحد لوحاته التأثيرية الأخيرة، بعنوان "بار في فولي-بيجير".

بار في فولي-بيجير، مانيه

فولي بيجير (تنطق "فولي بيجيه")، هو "كوفي شوب" به قاعة موسيقى كبيرة، يعتبر أشهر مكان احتفالي لتجمع الباريسيين. يتردد عليه الكثير من الفنانين التأثيريين.

اللوحة رسمها مانيه عام 1882م. يضع في المقدمة، فتاة بار تقوم بإعداد كؤوس الشراب للمدعوين. هي موجودة داخل اللوحة وبالتالي داخل البار، لكنها تسرح بذهنها إلى العالم الخارجي.

الفتاة والبار وكل ما عليه من زجاجات وأواني، نجدها واضحة جلية (in focus). بينما الخلفية والزوار والثريا الكبيرة المتدلية من السقف، كما تعكسها المرآة، نجدها غير واضحة (out of focus). ضربات الفرشاه التأثيرية لا تخطئها العين. هذا يحول انتباه المشاهد للفتاة وذهنها الشارد.

الزمار، مانيه

محطة سكة حديد في انتظار القطار، مانيه

مونيه وعائلته في حديقة منزله، مانيه

إيدجار ديجا (1834-1917م)، فنان تأثيري آخر، قام برسم مشاهد الحفلات والتمتع بأوقات الفراغ في باريس. لكنه كان مهتما بصفة خاصة بحركة راقصي الباليه والأوبرا. أحد لوحاته بعنوان البروفة.

البروفة، ديجا

ليس هناك توازن بالنسبة لأشكال اللوحة. ديجا، قام بترتيب الأشكال بشكل عشوائي. المساحة الفارغة باللوحة، تدعوا مجموعة الفتيات في الخلف، إلى الاشتراك في البروفة مع أنغام الموسيقى. الراقصات تبدون كالفراشات المضيئة بالنوافذ الكبيرة.الأسلوب التأثيري واضح.

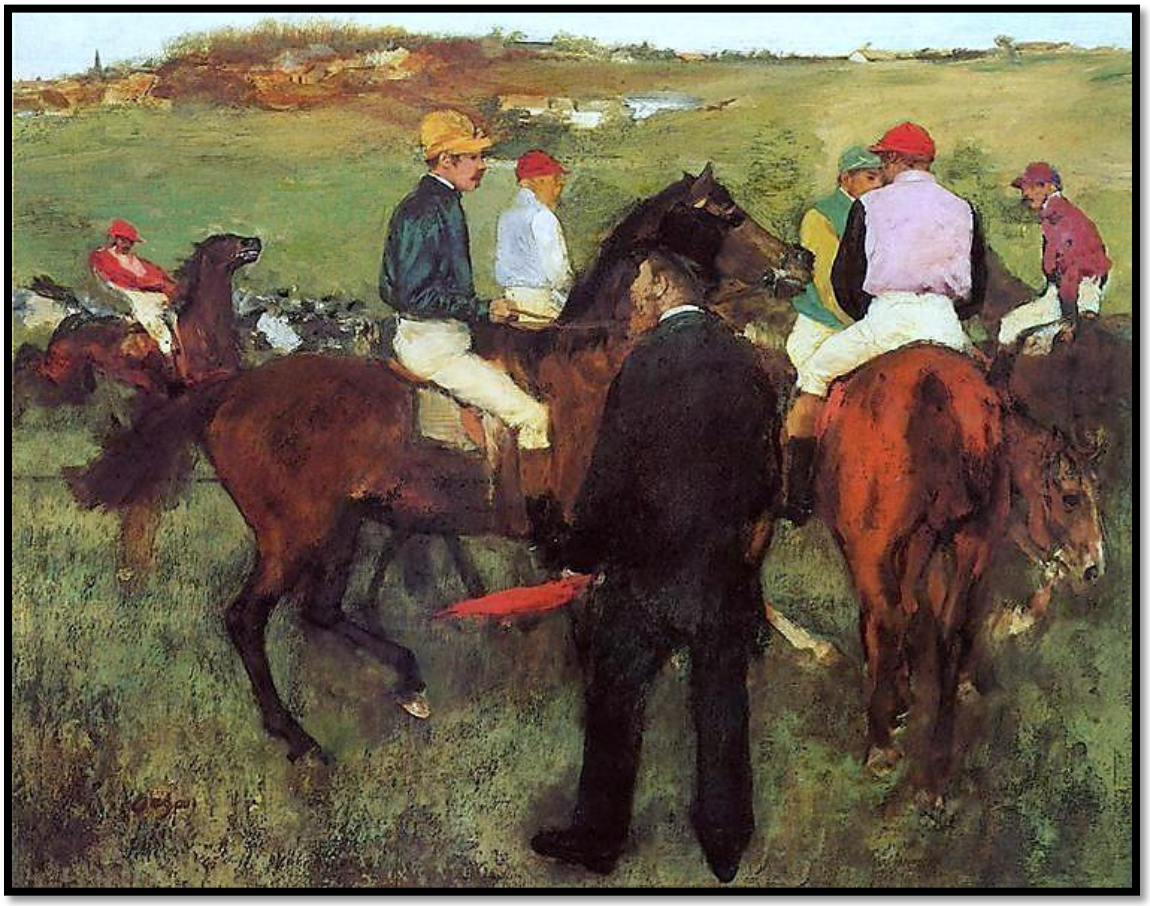

سباق خيل في لونجتشامب، ديجا

مشهد رائع من الباليه، لا يقل عن كونه سيمفونية موسيقية.

الباليه، ديجا

34

الفن - ما بعد التأثيرية(1)
فان جوخ

بحلول عام 1886م، أصبح النقاد والكثير من الجمهور متقبلين للرسامين التأثيريين، كفنانين حقيقيين. ولم تعد لوحاتهم تبدو كأعمال ساذجة أو خام أو ناقصة.

إلا أن قطاعا من التأثيريين والفنانين الشبان الذين تبعوهم، أصبحوا يعتقدون أن التأثيريين الأوائل، لم يفعلوا ما فيه الكفاية بالنسبة للفن. لقد اهتم التأثيريون الأوائل بالضوء وتأثيره على المشاهد، وأهملوا في سبيل ذلك الكثير من القواعد والعناصر المتعارف عليها في فن الرسم.

منذ عام 1880م، كان الفنانون يقومون بدراسة الفن بطريقة منهجية. دراسة عناصره الفنية مثل، الخط، النمط (Pattern)، النموذج الشكلي(Form)، واللون. من هؤلاء، "فينسنت فان جوخ"، هولندي المولد، والفرنسي "بول جوجان".

أيضا "جورج سورا" و"بول سيزان"، كلاهما من فرنسا، إلا أن أسلوبهما كان تحليليا أكثر من الباقين. ولأن جذور فن كل هؤلاء، لا تزال تأثيرية، أصبحوا يعرفون ب "ما بعد التأثيريين". أي الذين أتوا بعد التأثيريين.

هنري دي تولوز-لوتريك (1864-1901م)، الفرنسي، هو الأقرب إلى التأثيريين. كان شديد الإعجاب بالفنان التأثيري "ديجا"، وكان يشارك التأثيريين في الاهتمام بحياة المدينة والحضر. لكن أعماله، أضافت بعدا ساخرا أو كاريكاتيريا للفن التأثيري.

لعيب في جيناته أوقف نموه، وأصابه بشلل جزئي، أصبح تولوز-لوتريك، شبه منبوذ من المجتمع الراقي، الذي كان يشفع له اسمه دخوله. لكنه، بدلا من ذلك، أصبح عضوا دائما في عالم باريس الليلي، القريب من قاع المدينة. رواد الحانات والسكارى والبلطجية والمومسات والخارجين عن القانون، إلخ. موضوعاته مستوحاة من موسيقى الحانات الرخيصة والمقاهي وبيوت الدعارة.

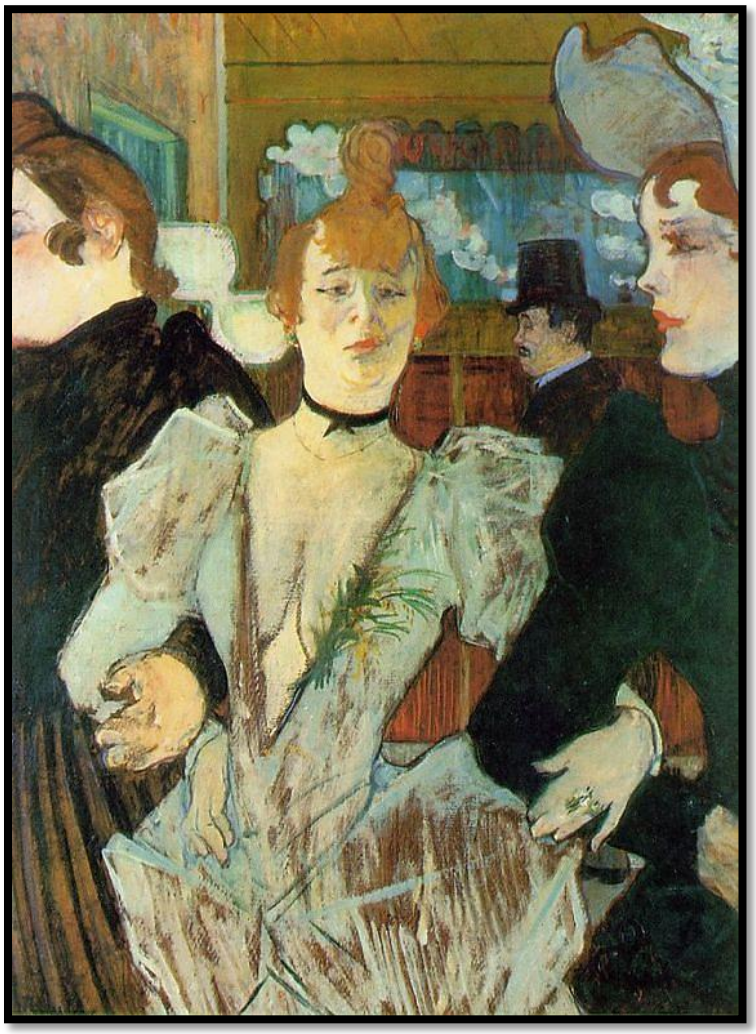

مشهد من مولان روج، تولوز لوتريك

مولان روج، تولوز لوتريك

في لوحة "مولان روج"، يظهر التأثر بالفنان التأثيري "ديجا"، وبفن الرسم الياباني، وكذلك بانحرافات الصور الفوتوغرافية الناتجة عن استخدام البعد البؤري للعدسة غير المناسب. فقد كان تولوز-لوتريك يضخم هذه العناصر في لوحته، لكي تأتي بالتأثير المطلوب.

قارن هذه اللوحة، بلوحة "رينوار" التي تصور الجو الطبيعي لتجمع الباريسيين بعنوان "لو مولان دي لا جاليه"، والتي تحدثنا عنها في الباب السابق. في لوحة تولوز-لوتريك، المشهد يصور حياة الليل، أضواء صناعية صارخة، موسيقى صاخبة، قسوة، تشكيلة مفاسد وخطايا، ووجوه تشبه الأقنعة.

هو نفسه موجود في خلفية اللوحة، يقف بجوار ابن عمه طويل القامة. الألوان الفاقعة والخطوط الواضحة الخارجية للأشكال، تزيد تأثيرها في عقل المشاهد.

الأسلوب الذي اتبعه "جورج سورا" (1851-1891م) في لوحاته، هو أيضا أسلوب لا يختلف عن الفن التأثيري، بالرغب من كونه أسلوبا مميزا. لقد استخدم طريقة منضبطة مضنية في الرسم تركز على تحليل الألوان. أسلوبه معروف بالتنقيطية (Pointillism). يقوم بتصوير الضوء وانعكاساته باستعمال لطخات صغيرة متضادة الألوان. أي أنه يحلل الضوء إلى مكوناته الأصلية.

أبدع سورا في استعمال هذه الطريقة بتوليفاتها الضخمة، ولطخات الألون الصافية المنفصلة عن بعضها، والتي يصعب على المشاهد فهمها، إن لم ينظر إلى اللوحة من على بعد كاف.

خلط الأصباغ لا يتم قبل الرسم، ولكن يأتي عن طريق وضع نقط من الألوان بجوار بعضها البعض على الكنفا نفسها. مثال ذلك، يمكن خلط اللون الأزرق باللون الأصفر لكي نحصل على اللون الأخضر على لوحة الألوان. أو وضع نقط من اللون الأزرق بجوار نقط من اللون الأصفر على الكنفا، فيراها المشاهد من مسافة مناسبة لون أخضر.

أسلوب التنقيطية، ظهر في المعرض الثامن والأخير للتأثيريين عام 1886م، عندما عرض سورا لوحته، "يوم أحد على جزيرة لاجراند جات".

يوم أحد على جزيرة لاجراند جات، سورا

اختار سورا موضعا ترفيهيا تأثيريا، وهو هنا يشارك التأثيريين في تحليله للضوء والألوان. لكنه يستخدم التنقيطية (الرسم بالنقط)، بعناية وحسابات دقيقة لرسم الأشكال.

يستخدم التكرار لخلق نماذج مسطحة توحي بالمساحات والعمق. إذا تأملت اللوحة سوف تكتشف أن لها عمق أو بعد ثالث. الأشكال مرتبة بعناية حتى تبدو كأنها تماثيل منحوته، وليست مرسومة.

أشعة الشمس تملأ اللوحة، الأشكال تمثل رتم وإيقاع بديع. يقول سورا: "هم يرون لوحة شعرية، أما أنا فلم أقم إلا بتطبيق أسلوبي، وهذا كل ما في الأمر."

في القرن التاسع عشر، تقدمت علوم فيزياء وكيمياء الألوان تقدما عظيما. وتفرعت العلوم إلى دراسة عين الإنسان ودرجة تأثرها بالضوء بموجاته مختلفة الطول والشدة. قام بعض العلماء بدراسة تأثير الألوان السيكولوجي على الإنسان (مستشفي المجانين يطلى باللون الأصفر لأسباب سيكلوجية). لا شك أن هذه المعارف الجديدة، ساعدت سورا في تطوير أسلوبه.

فمثلا، وجد أن الألوان الرئيسية ثلاثة، هي: الأحمر، الأصفر، الأزرق. الألوان الثانوية ثلاثة أيضا، هي: البرتقالي، البنفسجي، الأخضر. والألوان المكملة لبعضها هي: (الأحمر والأخضر)، (الأصفر والبنفسجي)، (الأزرق والبرتقالي).

وضع الألوان جنبا إلى جنب يؤثر في العين ودرجة احساسها بكل لون. على سبيل المثال، لو وضعنا لون أخضر فاتح، بجوار لون أخضر غامق، لظهر اللون الفاتح أفتح، والغامق أغمق.

كما أنه لو ظل شخص ما يبحلق لمدة في لون ما، وليكن الأخضر مثلا، ثم نظر إلى مساحة بيضاء، العين المجهدة سوف ترى اللون المكمل، وهو الأحمر في هذه الحالة. حاول تجربة هذه المعلومة بنفسك.

على النقيض من سورا، قام فينسنت فان جوخ (1853-1890م)، باستكشاف قدرة الألوان والأشكال المشوهة في لوحاته، على التعبير عن عواطفه في مواجهة الحياة.

لم ينجح فان جوخ إلا في بيع لوحة واحدة من أعماله في حياته. منذ وفاته وإلى اليوم، أخذ فنه وسمعته والإعجاب بعبقريته في الازدياد المضطرد وبشكل كبير.

الفنانون الذين أتوا من بعده، "الفوفية" أو الفن الوحشي، والفنانون التأثيريون الألمان، بنوا تعبيراتهم واستخدامهم للألوان على فن "فان جوخ". مثل هذا التأثير هو الذي يحدد أهمية الفنان. ولن نبالغ عندما نقول، إن "فان جوخ" اليوم، يعتبر، من أكثر الفنانين تقديرا واحتراما في تاريخ الفن كله. لهذا سوف استعرض قصة حياته باختصار، وهي قصة فريدة مثل فنه الفريد.

ولد فينسنت فان جوخ في جروت زندرت بهولندا عام 1853م. ابن قس بروتستانتي هولندي. التحق بمدرسة داخلية في زيفينبيرجين لمدة سنتين، ثم التحق بمدرسة الملك ويليم الثاني الثانوية في تيلبيرج لمدة سنتين أخريين.

كانت عائلة "فان جوخ"، تعمل بتجارة الفن وبيع اللوحات والتماثيل. أمضي أخوه الأصغر "ثيو فان جوخ" حياته كتاجر فني، يعرف الكثير عن فن الرسم. لذلك، كان له تأثير كبير علي فينسنت الفنان.

في عام 1869م، عندما بلغ السادسة عشرة من عمره، التحق بمؤسسة جووبيل وسي، وهي شركة لتجارة الفن في لاهاي. بدأ فان جوخ يتعرف على عالم الفن، وينحاز لبعض الأعمال ولبعض الفنانين. بقي فان جوخ مع مؤسسة "جووبيل وسي" سبع سنوات. في عام 1873م، نقل إلي فرع الشركة في لندن، وبقى هناك مدة سنتين.

خلال تلك الفترة، زار العديد من المعارض الفنية والمتاحف، وأصبح معجباً كثيراً بالكتاب البريطانيين أمثال جورج إليوت وتشارلز ديكينز .كان فان جوخ أيضاً معجباً بالنقاشين البريطانيين. أعمالهم ألهمت وأثرت في حياة فان جوخ الفنية اللاحقة.

أحب الفتاة أرسيولا، عندما طلبها للزواج، هزأت به وصدته في خشونة شديدة. مما جعله يصاب بما يشبه الهوس الديني. وبدأ يتكلم عن تجارة الفن باعتبارها سرقة منظمة. وكان يتشاجر مع الزبائن الذين يشترون أردأ اللوحات بأغلى الأسعار.

مما جعل الشركة تنقله إلي باريس. هناك تدهورت حالته النفسية، وأصيب بالاكتئاب. عندما علم أنه على وشك الفصل من الوظيفة، قدم استقالته عازماً علي تكريس حياته للخدمة الدينية.

بعد فترة قصيرة، قرر أن يعمل مبشرا بين عمال المناجم والفلاحين في إحدى قرى بلجيكا. هناك لاحظ الجحيم الذي يعيش فيه عمال المناجم. (قصة إميل زولا الرائعة، "جيرمينال"، تصور بؤس الطبقة العاملة وعمال المناجم في فرنسا في ذلك الوقت.)

حاول فان جوخ مساعدة العمال، استأجر لهم علي نفقته بيتا، للعلاج والتعلم. عندما حدثت كارثة انفجار أحد المناجم، هم فان جوخ إلي مداواة المصابين، وعايش المرضى بالتيفود. كان يتبرع لهم بملابسه وأغطيته. مما أثر في مظهره وجعله يعاني من البرد والجوع والهزال والحمى.

في غمرة هذا البؤس، كان يقف فان جوخ وسط العمال، وهو يلف جسده بالخيش. مما زاد من تعلق هؤلاء العمال به، حتي طردته السلطات الدينية قبل أن يمر عام واحد علي تسلمه لهذا العمل.

زادت أزمته النفسية، وكان يشعر بالفشل في كل ما أسند إليه من أعمال، بجانب فشله في حبه. لكنه قرر ألا يستسلم. كتب لأخيه ثيو ليقول له: سوف أنهض وأتناول من جديد فرشتي وأعود للرسم.

منذ ذلك الحين، آمن ثيو بأخيه فان جوخ، وأعطاه الفرصة لكي يخرج أعظم أعماله الفنية. لم ينقطع ثيو طيلة السنوات العشر التالية عن المعونة المالية لأخيه، وتشجيعه ومساعدته بكل استطاعته.

ببلوغ فان جوخ السابعة والعشرين من عمره، التحق بأكاديمية الفنون في مدينة انفري حيث بدأ حياته في عالم الألوان. استهل فان جوخ، الذي ينتمي لمدرسة ما بعد التأثيرية، رسوماته بتصوير مشاهد حزينة من الحياة الريفية الهولندية.

عكف فان جوخ علي رسم الفلاحين الهولنديين، وعمال المناجم والبؤساء. وهي المرحلة الهولندية، (1854-1855م). من هذه اللوحات، "آكلي البطاطس" عام 1885م.

آكلي البطاطس، فان جوخ

كتب فان جوخ كمًا هائلا من الرسائل والخواطر إلي شقيقه (ثيو). التي جُمعت في كتاب من ثلاثة أجزاء. أخبرتنا الكثير عن فنه ونفسه.

بعد ذلك، ذهب لكي يعيش مع أخيه ثيو في باريس، الذي سعد كثيراً بصحبتة. كذلك سعد بحياته الجديدة في باريس. انعكس ذلك على ألوانه، التي أصبحت زاهية براقة. تعرف خلال هذه الفترة علي عدد من الفنانين الشبان، منهم: تولوز-لوتريك و بول جو جان. وتأثر أيضا بالرسوم اليابانية.

استمرت إقامة فان جوخ الأخيرة في باريس مدة عامين، إلي أن قرر فجأة في فبراير عام 1888م، السفر إلي بلدة آرل بمقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا، حيث الشمس الساطعة طوال النهار والألوان المتوهجة.

جسر متحرك في آرل ومجموعة نساء غسالات، فان جوخ

عكف خلال العامين التاليين علي الرسم في سعادة و حماس لدرجة أن لوحاته في تلك الفترة تشع حيوية في ألوانها وأشكلها. مع انه كان يرسم بأسلوب لمسات الفرشاة المتعددة الألوان، إلا أن لمساته في تلك الفترة كانت أعرض وأقوي.

شرح طريقته في خطاب لأخيه يقول فيه: انني بدلاً من محاولة نقل الطبيعة بأمانة، استخدمت الألوان بحريه ودون تقيد، من أجل التعبير عن نفسي تعبيراً قوياً.

بعد الإنتقال إلى جنوب فرنسا عام 1888م، رسم فان جوخ لوحة "قهوة ليلية". بالرغم من أن الموضوع بسيط، إلا أن فان جوخ رسمه بطاقة متدفقة. في خطاب له لأخيه ثيو، قال فان جوخ، أنه يريد أن يدل بالرسم على مناخ متعارض رافض.

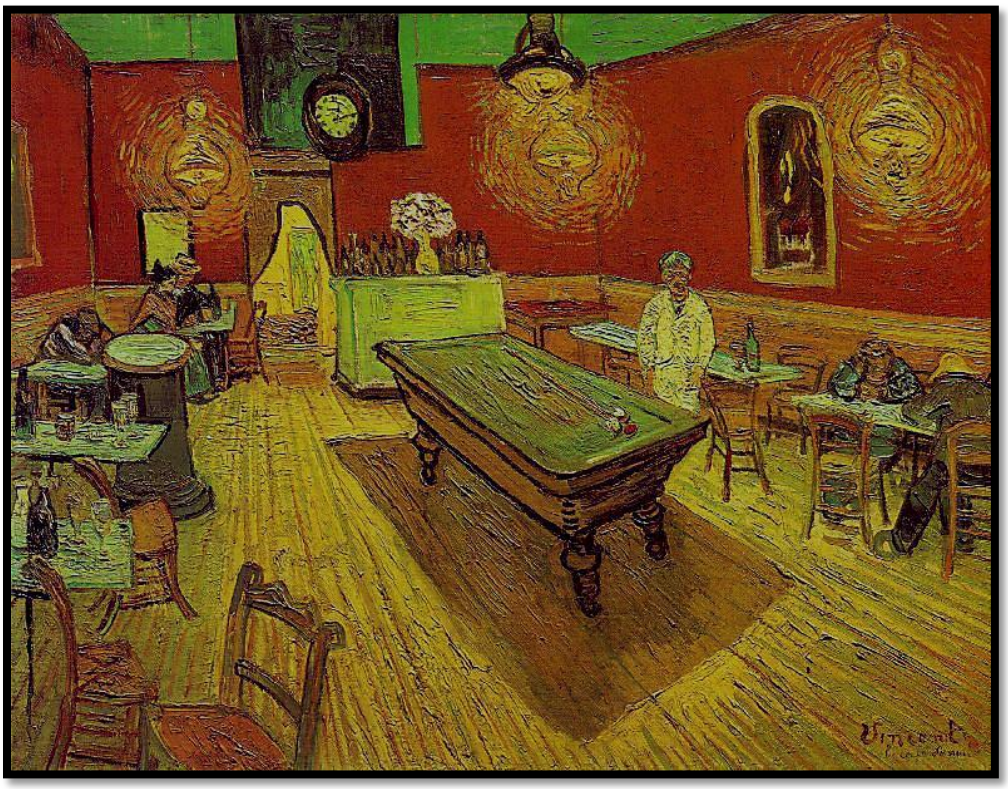

قهوة ليلية، فان جوخ

القهوة، مكان يذهب إليه الإنسان، كما يقول فان جوخ، لكي: إما ليدمر نفسه، أو لكي يصاب بالجنون، أو لكي يقترف جريمة. صاحب المقهى يقف كالشبح بجوار حافة طاولة البلياردو، التي تدل أبعادها على عمق الصالة. جنون المكان يدل عليه جنون الألوان. الفاقعة، المتجاورة، والتي تشعر بحدتها ولهيبها.

يقول فان جوخ وهو يصف هذه اللوحة: "أنا أحاول وصف مشاعر الإنسان المرعبة باللونين الأحمر والأخضر. الصالة حمراء بلون الدم، اللون الأصفر الداكن والأخضر، يصبغان طاولة البلياردو في الوسط.

هناك أربعة مصابيح ترسل الضوء البرتقالي والأخضر. أينما تذهب تجد تصادم وتعارض بين الأحمر والأخضر في الأشكال الهمجية، في المساحة الشبه خالية، في الصالة الكئيبة، في اللونين البنفسجي والأزرق.

الأحمر الدموي والأصفر المخضر لطاولة البلياردو، يتعارضان مع الأثاث الأخضر في المواجهة، الذي توضع عليه باقة زهور وردية اللون. المعطف الأبيض لصاحب المقهى، تحول إلى اللون الأصفر أو الأخضر الباهت."

لوحة أخرى تبين أسلوب فان جوخ في الرسم، هي لوحة "ليلة مضيئة بالنجوم". رسمها قبل وفاته بعام واحد. عندما كان لاجئا في سانت ريمي.

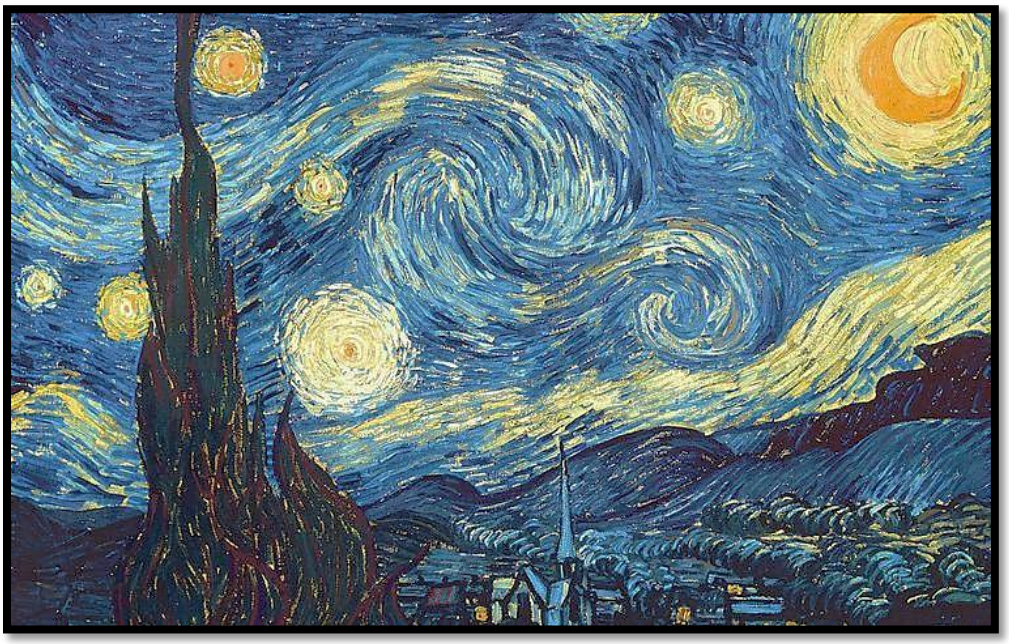

ليلة مضيئة بالنجوم، فان جوخ

فان جوخ، لم يصور لنا النجوم كما يراها المشاهد العادي. لكنه يشرح لنا احساسه بهذا الكون الفسيح والفضاء الرهيب. الكون ملئ بالدوامات والنجوم المتفجرة وبلايين المجرات والنجوم. الأرض والناس تبدو أقزاما تحتها.

الكنيسة في مركز القرية أسفل اللوحة، تبين لنا موقفه من الدين. أشجار السرو، هي نفسها التي تظهر من نافذة فان جوخ في "سانت بول دي موسول". اللون الأزرق الداكن الذي يصبغ اللوحة كلها يدل على هدوء النفس. لكن، ضربات الفرشة المضطربة تدل على شئ من الاكتئاب. هذه بعض لوحاته المشهورة.

المنزل الأصفر، عام 1888م، فان جوخ

حقل قمح به غربان، عام 1890م. لاحظ الطريق المسدود وسط حقول القمح. التي تذكرنا بأغنية عبد الحليم حافظ (طريقك مسدود مسدود ياولدي).

حقل قمح به غربان، فان جوخ

في أحد الخطابات لأخيه ثيو، قال فان جوخ: "في حياتي وفي أعمالي الفنية، قد لا أحتاج إلى عون الرب، لكنني لا أستطيع ذلك، عندما أريد التغلب على قوة الخلق التي لا تطاوعني وتعصي أمري". قوة الخلق التي يعنيها فان جوخ، هي قوة التعبير بالألوان.

"بدلا من محاولة تقليد الألوان الطبيعية كما أراها، أنا أستخدم الألوان للتعبير عما يدور في نفسي بقوة". فان جوخ هنا يستكشف قدرة الألوان وتشويه الأشكال على التعبير عن إحساسه الداخلي. السمك والشكل واتجاه ضربات فرشة الألوان، تخلق نظيرا آخر لقوة الألوان في التعبير.

هو دائما يحرك فرشته إلى الأمام وإلى الخلف، أو بزاوية قائمة، حتى يحصل على سطح يماثل النسيج. يضغط النقاط أو الخطوط مباشرة من أنابيب الألوان. ضربات الفرشة الجسورة التي تشبه الطرطشة، تحسن من شدة الألوان وقوتها.

في هذه المرحلة دعا "بول جوجان" إلى الإقامة معه وهو يحلم بإنشاء رابطة للفنانين. إلا أن هذه لم تكن فكرة صائبة. فهما شخصيتان مختلفتان.

جاء جوجان وجاءت معه المتاعب. احتدم الخلاف في الرأي بينهما بسبب جدوى إنشاء الرابطة. واتسع الخلاف والصخب والضجيج الذي يثيره جوجان، مما أدى إلي توتر أعصاب فان جوخ، الذي كان في أمس الحاجة للراحة والسكينة.

رحل جوجان تاركاً فان جوخ، يعاني من حالة الهياج الجنوني التي أصبحت تعاوده من حين لآخر. في أحد النوبات، قام بقطع أذنه، وأرسلها إلى محبوبته، دلالة على أنها لا يغلو عليها شئ.

بالطبع يمكننا تخيل مقدار الهلع الذي أصاب المحبوبة عندما وصلتها الرسالة. إنها فقط كانت تداعبه عندما طلبت أذنه. لم تكن تتصور أن المسكين سوف يلبي طلبها بصدق وأمانة. وكأن لسان حالها يقول: "ما تحبنيش بالشكل ده"

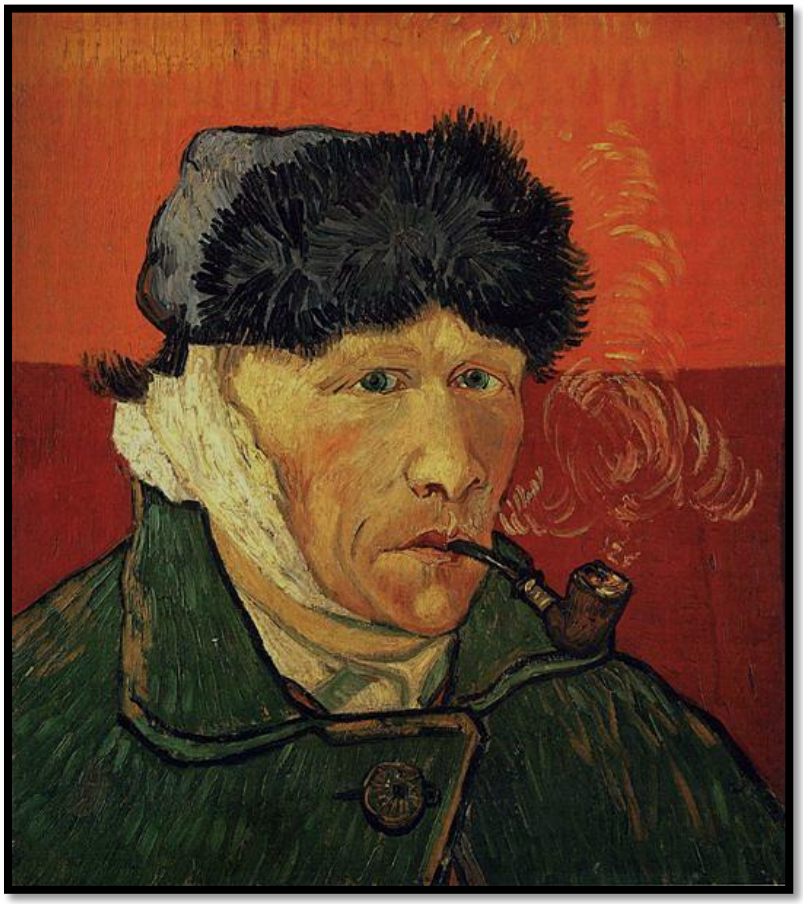

فان جوخ بعد أن قطع أذنه، فان جوخ

نقله أخوه ثيو إلى مستشفى للأمراض العقلية بالقرب من آرل. مكث هناك عام واحد، سمح له خلاله بالرسم. لوحاته في هذه المرحلة، تعكس شيئا من عنف نوبات الصرع التي كان يتعرض لها.

عندما نجح أخوه في بيع إحدي لوحاته بمبلغ 400 فرنك، ساعد هذا المبلغ على نقله إلى مصحة خاصة قرب باريس. يشرف عليها طبيب يدعى دكتور جاشيت. هو من هواة الفن، أمضى أوقاتاً طويلة في صحبته. لكن نوبات الصرع راحت تتوالى بانتظام. زادت حدة الاكتئاب وسئم فان جوخ الحياة.

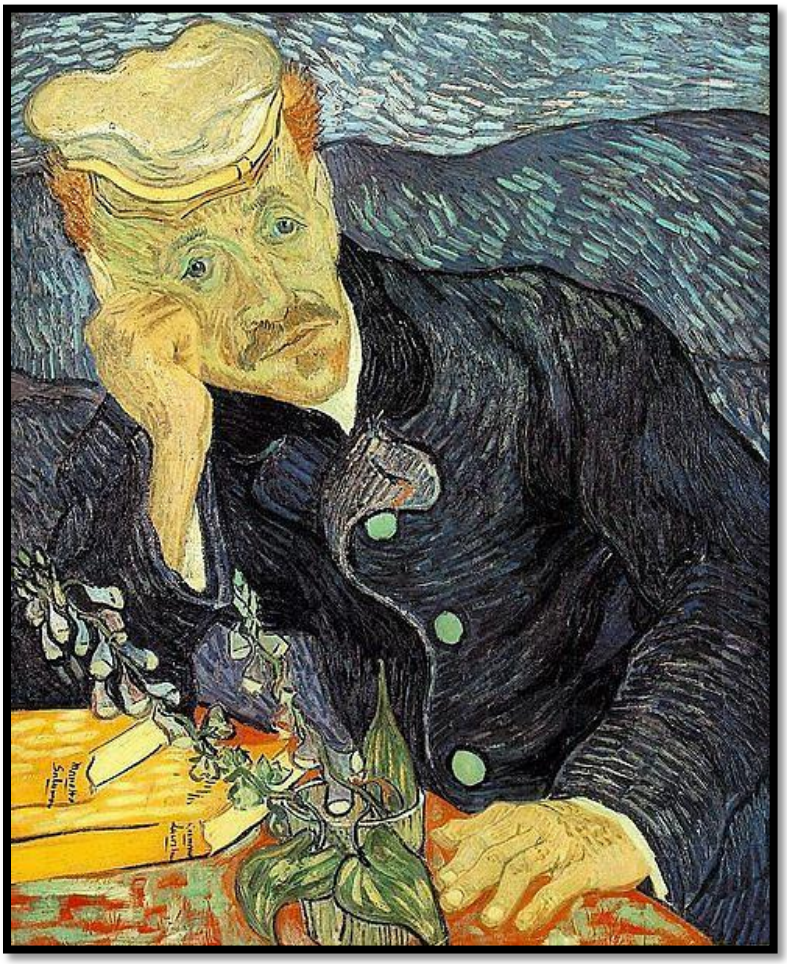

دكتور بول جاشيت، فان جوخ

في مساء يوم الأحد الموافق 27 يوليو 1890م، أخذ فينسنت فان جوخ مسدساً وأطلق علي صدره رصاصة. رغم إصابته، استطاع العودة إلي داره، قبل أن ينهار علي السرير.

مات فينسنت فان جوخ، من تداعيات تلوث الجرح، يوم 29 يوليو 1890م. في سن لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره، رسم أكثر من 700 لوحة، وحوالي 1000 اسكتش.

كتب فان جوخ إلى أخيه ثيو قبل أن يموت يقول: "ربما لا يكون الموت هو أصعب الأشياء في حياة الفنان. عندما أنظر إلى النجوم، أشعر دائما بأنني أحلم.

أسأل نفسي، لماذا لا تكون هذه النقط المضيئة في السماء، مثل النقط السوداء التي تمثل مدنا على الخريطة. كما أنني أستطيع أن آخذ القطار إلى "تاراسكون" أو إلى روين، أستطيع عن طريق الموت، أن أصل إلى هذه النجوم."

مات فان جوخ لكي يحي العالم ذكراه وكتابة اسمه في سجل الخالدين. ظل نكرة في حياته، لم يكن أحد يعرف شيئا عن فنه فيما عدا أخوه ثيو. الفنان الذي كان يعيش أياما بأكملها علي رغيف خبز واحد، والذي مات معدما هزيلا مهووسا، كتب اسمه في سجل الخالدين، وأصبحت لوحاته لا تقدر بملايين الدولارات. هذه بعض لوحات فان جوخ.

رجل يحرث وامرأة تزرع البطاطس، فان جوخ

حطابون وقت سقوط الثلج، فان جوخ

شارع يطل على مونتمارتر، فان جوخ

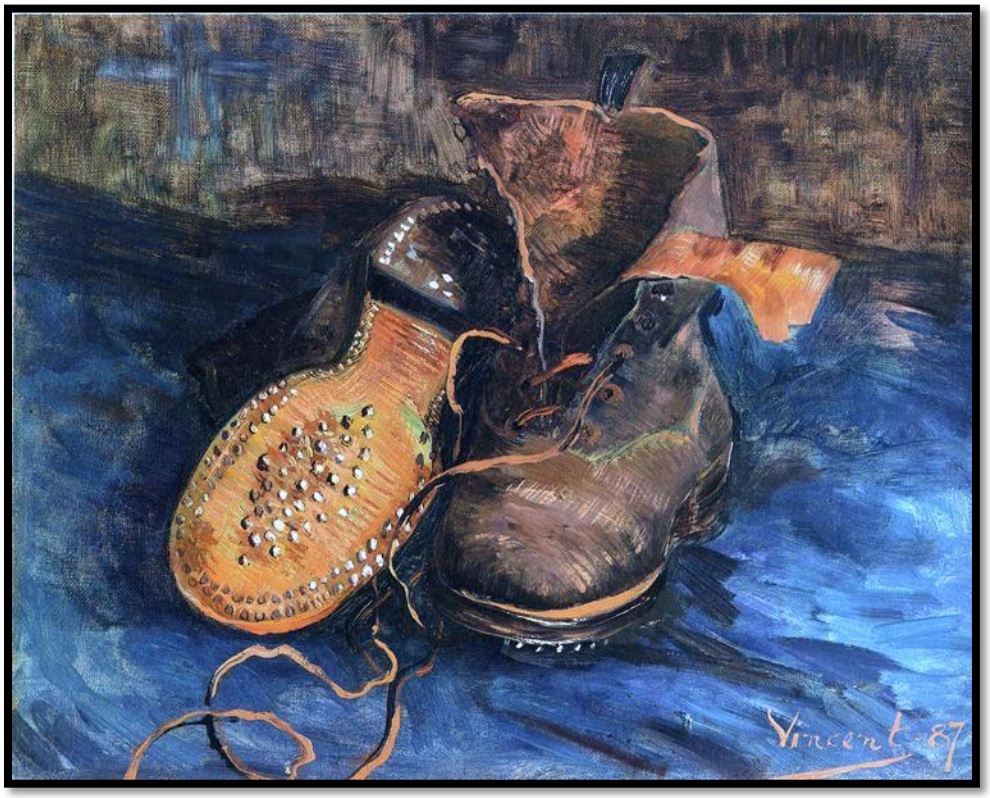

زوج أحذية، فان جوخ

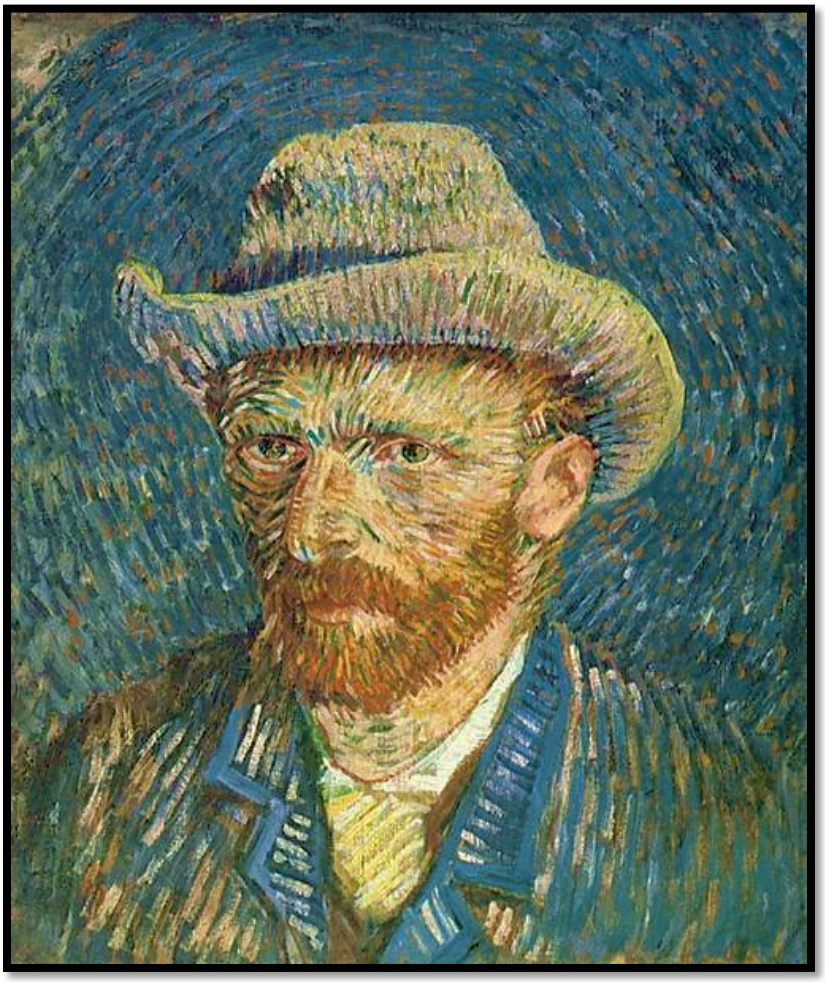

فان جوخ بريشته

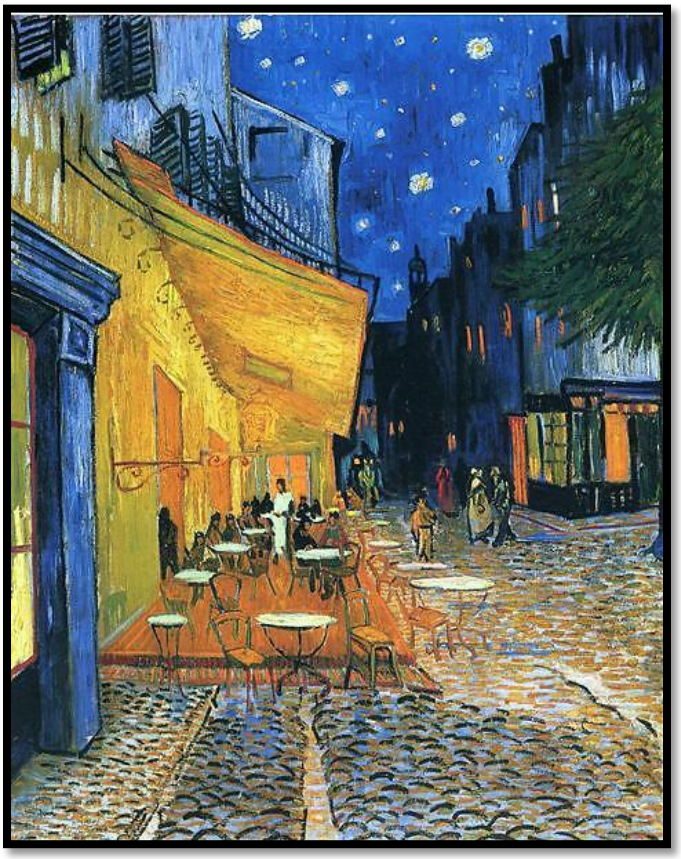

شرفة قهوة، فان جوخ

35

الفن - ما بعد التأثيرية(2)
جوجان – سيزان

بعد أن ظل يرسم كهاو، أخذ بول جوجان (1848-1903م) عدة دروس في فن الرسم مع الرسام بيسارو. بعد ذلك، ترك العمل المربح كسمسار، لكي يتفرغ عام 1883م للرسم.

مثل فان جوخ، رفض الرسم الموضوعي، الذي يتبع القواعد، وفضل عليه الرسم الشخصي أو الغير موضوعي، الذي لا يتبع القواعد، ويعتمد فقط على رأي وإحساس الفنان. بحلول عام 1886م، أصبح النقاد، والكثير من الجمهور، متقبلين للتأثيريين كفنانين حقيقيين. ولم تعد لوحاتهم تبدو كأعمال خام أو ناقصة.

تخلى جوجان أيضا عن أسلوب التأثيريين في معالجة الضوء والألوان، لأنه يعتقد بأن الألوان يجب أن تترك للتعبير عن خلجات النفس والشعور دون قيد أو شرط. على الرسام أن يحدد الألوان بنفسه وفقا لقوى الخلق داخله، لا أن يتبع قواعد صارمة. فان جوخ كان يستخدم ضربات الفرشة السميكة، بينما جوجان كان يوظف مساحات مفلطحة من الألوان، تذوب في بقع أو نماذج مجردة.

في عام 1886م، انتقل جوجان إلى "بونت-أفين"، في مقاطعة بريتاني شمال فرنسا. كان يعتقد أن هناك، سوف يجد حضارة بدائية لم تلوث، وجو التقوى الذي كان يهيمن في العصور الوسطى الكاثوليكية. هناك رسم لوحة بعنوان " يعقوب يصارع الملاك":

يعقوب يصارع الملاك، جوجان

نلاحظ هنا أن جوجان في هذه اللوحة، قد بعد عن "الواقعية" و"التأثيرية" معا. اللوحة تظهر نساء مقاطعة بريتاني، وقت خروجهن لتوهن من قداس الأحد، بعد سماعهن قصة يعقوب وصراعه مع الملاك. تلبسن الملابس السوداء والقبعات البيضاء. هنا نساء بريتاني يظهرن معا، مع صورة خيالية ليعقوب والملاك. الحقيقة والخيال كلاهما في اللوحة، يفصلهما جزع الشجرة.

مثل التأثيريين، قام جوجان بدراسة الرسم الياباني ورسومات الزجاج الملون، واقتبس منه المساحات اللونية والألوان القوية.

الأشخاص مقطوعة من الجانبين وفي أسفل اللوحة. مصدر الضوء غير واضح، وهي شيمة فن "الفوفية" أو "المدرسة الوحشية". جوجان تخلى عن الواقعية في توزيع الضوء، وركز جهده في تركيبة عناصر الصورة، لكي توجه انتباه المشاهد إلى الفكرة والرسالة التي تحملها.

الصورة ليست ما يراها عين الفنان التأثيري، ولكن ما يتذكره ويتخيله. وعليه، نجد جوجان هنا قد لوى المساحات والمنظور البصري، لكي يبرز الإيمان البريء للنساء. في نفس الوقت، رسم يعقوب والملاك في حجم صغير ، يتصارعان في حلبة محاطة بسور حجري وجزع الشجرة وحافة اللوحة. النساء يقمن بدور المتفرجات لهذا الصراع المقدس.

لاحظ هنا أن جوجان لم يستخدم خط الأفق، أو الضوء والظلال، أو الألوان الطبيعية. بدلا من ذلك، استخدم التجريد والنماذج النمطية. ألوان غير معالجة تملأ مساحات مفلطحة وأشكال محاطة بخطوط واضحة. القبعات البيضاء والملابس السوداء وحلبة النزال الحمراء.

بعد أن قضى جوجان بعض الوقت في صحبة فان جوخ في أرليز عام 1888م، أخذ يبحث عن موضوعات لكي يرسمها ومكان اقتصادي لكي يعيش فيه. وجد هذا في جزيرة تاهيتي في المحيط الهادي، أي في آخر الدنيا، وهي مستعمرة فرنسية منذ عام 1842م.

جزيرة تاهيتي جذبت جوجان، لأنها وفرت له حياة بدائية بعيدة عن الحياة المادية الأوروبية، وقريبة من الطبيعة. عند وصوله، وجد الجزيرة قد تلوثت بالاحتلال الفرنسي ولم تعد بكرا كما كانت من قبل. لكنه أراد أن يبقي تصوره للجنة البدائية، فانتقل إلى مناطق الريف في الجزيرة. وهناك أمكنه التعبير عن الحياة البدائية بألوان زاهية في سلسلة لوحات زيتية.

كانت حياة جوجان تغلفها المتاعب. صحته لم تكن على ما يرام، يعاني من مشاكل في القلب. في عام 1897م، بعد أن أضنته المتاعب، أقدم على الانتحار، بعد أن رسم لوحة بعنوان "من أين أتينا؟ ومن نحن؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟" لم ينجح في الانتحار، لكنه توفي بعد ذلك بسنوات قليلة عام 1903م.

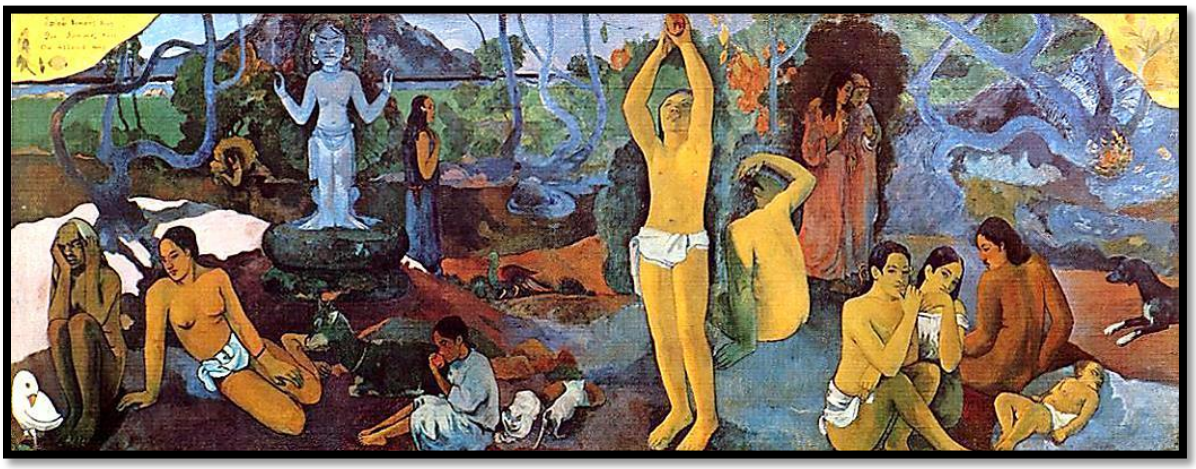

من أين أتينا، ...، جوجان

أهمية هذه اللوحة، هي أنها تعطينا ملخص عن أسلوب جوجان الفني وفلسفته في الحياة. المشهد استوائي، مليء بنساء الجزيرة وأطفالها. سطح الكنفا، فيما عدا الأشخاص، عبارة عن مساحات ألوان مسطحة.

في خطاب لصديقه "تشالز موريس"، يخبرنا جوجان عن معنى اللوحة.
إلى أين نحن ذاهبون؟ امرأة عجوزة تقترب من الوفاة.
من أين أتينا؟ نبدأ الحياة كطفل.
من نحن؟ رجل وامرأة بملابس داكنة بالقرب من شجرة المعرفة.
الباقي شخصيات تحيا حياتها البدائية.

بول سيزان (1839-1906م)، كان معجبا ب "يوجين ديلاكروا". إلا أنه تأثر بالتأثيريين وخصوصا إميل بيسارو. قبل، في البداية، نظرية التأثيريين في الألوان وفي موضوعاتهم المنتقاة من الحياة اليومية.

لكن دراسته للوحات الفنانين الكبار القدامى في متحف اللوفر، أقنعته أن التأثيريين تعوزهم الصيغ الشكلية والبناء الفني الرصين. لذلك، قرر سيزان أنه يريد أن يجعل الفن التأثيري أكثر صلابة، فن يقارن بفن الأقدمين.

أساس فن سيزان هو أسلوبه الفريد في دراسته للطبيعة، والذي نراه في لوحة "مونت سانت-فيكتور".

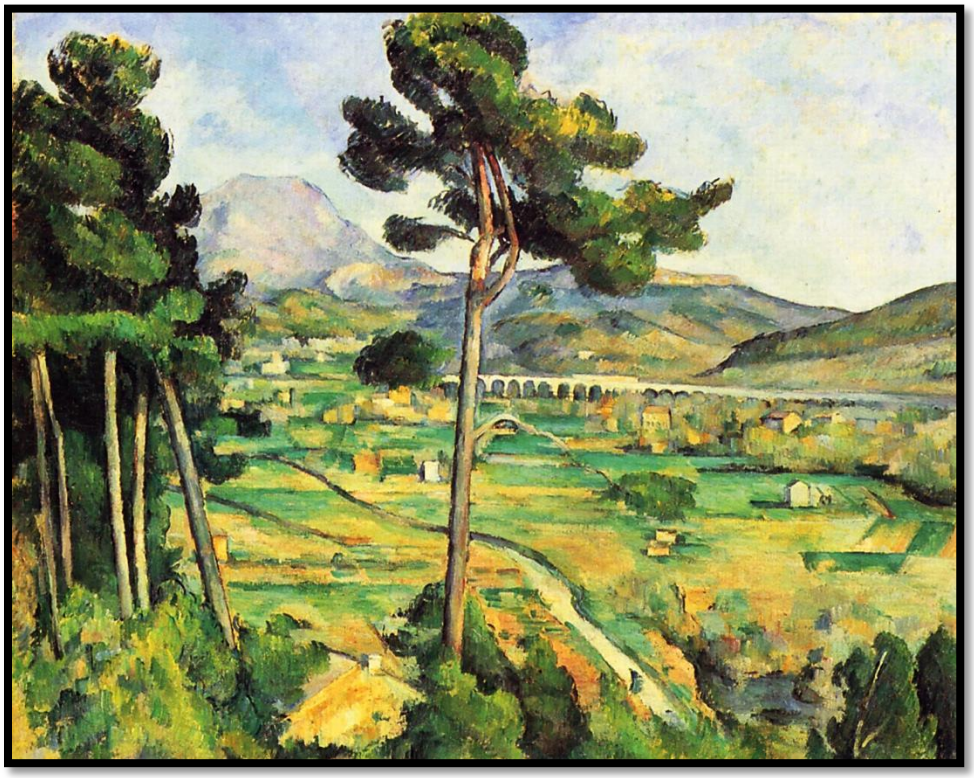

مونت سانت-فيكتور، سيزان

وهي أحد اللوحات التي رسمها للجبل القريب من بيته في "ايكس-ان-بروفونز". لم يكن هدف سيزان هنا محاكات الكاميرا ونقل المشهد بدقة. ولم يكن يقلد التأثيريين في نقل انطباعه للمشهد. لكنه، كان يبحث عن البناء الفني الذي يخفيه الإحساس والمشاهدة المباشرة.

لم تكن استجابة سيزان تلقائية مثل التأثيريين. إنه يستخدم الأسلوب التحليلي. فهو يرتب الخطوط والمساحات والألوان التي تكون المشهد كوحدة، بدلا من أن يستخدم المنظور البصري أو التدرج بين الضوء والظلام أو الأساليب التقليدية.

بول سيزان رجل خجول، انتقل إلى باريس عندما كان شابا. بالرغم من رغبة والده، اتجه إلى فن الرسم بدلا من مهنة المحاماة.

فن سيزان يعتبر فن حديث. تأثر بأسلوبه، الفن التكعيبي والفوفي (الوحشي). لم يحظ سيزان بالتقدير المناسب إلا في سنينه الأخيرة، وبعد معرضه الأول. عند وفاته، كان الكل مهتما بفنه.

أسلوب سيزان الحديث، يمثل نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة. لذلك، لم يكن فنه مفهوما لسنوات عديدة. بعد اشتراكه في المعرض الأول للفنانين التأثيريين، التمس الكثير من الفنانين منعه من عرض لوحاته، لأنها في نظرهم كانت مثيرة للجدل.

ينتسب سيزان إلى عائلة ثرية فرنسية. والده كان رجل بنوك ناجح، لذلك لم يكن سيزان في حاجة للتنازل عن فنه لكي يرضي المشترين وتجار اللوحات الفنية. والدته كانت سيدة رومانسية ساعدت ابنها وشجعته على مواصلة الرسم.

في عام 1852م، التحق سيزان بكلية البربون. هناك كون صداقات مع "إميل زولا" و "بابتستين بيلي". وظلوا الثلاثة أصدقاء لمدة طويلة. بعد عامين في مدرسة الحقوق، كان خلالها يحضر دروسا في الفن. لكنه لم يتحمل الدراسة الأكاديمية وترك باريس.

بعد ذلك، التحق سيزان بالأكاديمية السويسرية. هناك قابل الرسام كميل بيسارو. بعد خمسة شهور من المحاولة لكي يكون رساما في باريس بدون نجاح، عاد سيزان إلى "ايكس_ان_بروفينز" بطلب من والده.

في مسقط رأسه، التحق سيزان بمدرسة فنون محلية، وحاول العمل في البنوك بدون نجاح. ثم عاد ثانية إلى باريس لكي يعمل كرسام، وقام بإرسال العديد من لوحاته إلى الصالون الفرنسي للعرض السنوي.

في عام 1872م، كان سيزان يعيش مع صديقته "هورتينز فيك" في "بونتواز". لا يزال يرسم، ويقضي بعض الوقت مع صديقه الفنان بيسارو. في عام 1873م، قابل فان جوخ.

في عام 1877م، عرض سيزان 16 لوحة. لكنها قوبلت بالاحتقار من النقاد. لذلك، قرر عدم عرض لوحاته مرة أخرى مع الفنانين التأثيريين. في عام 1880م، قرر البعد عن الفن التأثيري. في عام 1886م، تزوج سيزان من خليلته، وورث ثروة طائلة بعد وفاة والده. من ثم، لم يعد يحتاج لبيع لوحاته لكي يعيش.

في عام 1895م، عرض لوحاته بنفسه في باريس. في عام 1900م، كانت لوحاته تعرض في كل أنحاء أوروبا. في عام 1906م، توفى بول سيزان من إلتهاب رئوي، ودفن في مقبرة في بلده.

استخدم بول سيزان ضربات الفرشة السريعة الكثيفة داخل الاستوديو في بداية حياته الفنية. بعد معرفته للفنان بيسارو، بدأ يرسم خارج الاستوديو ومن الطبيعة. نتيجة لذلك، تغير أسلوبه وبناؤه الفني، وأصبحت ألوانه أفتح، لكن ضربات فرشته لاتزال كثيفة.

اهتمام سيزان بالتكوين الفني، جعله يترك الكثير من لوحاته غير تامة، لصعوبة اكمالها من وجهة نظره. بعض اللوحات كان يستغرق اكمالها عدة شهور. كان اهتمام سيزان بالخطوط والمستويات والألوان وعلاقتها ببعض. وكان يوظفها لخلق العمق في اللوحة. كان يرى أن الألوان الباردة تتراجع وتتقهقر، بينما الألوان الدافئة تتقدم وتظهر.

في لوحة "مونت سينت فيكتور"، لم يستتخدم الانطباع المباشر مثل "مونيه". لكنه قام بتحليل المشهد، وما به من ألوان ومساحات. المساحة الرئيسية تمتد إلى خارج اللوحة، وتحتوي على عناصر صغيرة.

مثل الطرق والحقول والمنازل وجسر في أقصى اليمين. كل منها يشاهد من مكان مختلف، مثل أسلوب قدماء المصريين في الرسم (العين تشاهد من الأمام والوجه بروفيل جانبي).

فوق كل هذا، نجد أكبر مساحة، يمثلها الجبل، والذي يبدو قريبا. لكن مقدمة الصورة تبدو بعيدة. أي أنهما رسما من منظورين مختلفين. الألوان والنسبة والتناسب في المساحات نجدها متغيرة، وليست ثابته كالتي نشاهدها في الطبيعة أو في الصور الفوتوغرافية.

يقول سيزان وهو يصف أسلوبه في الرسم: "أنا أحول المشهد الطبيعي أمامي إلى أشكال هندسية، أسطوانة وكرة ومخروط. كلها أجزاء في وضع منظوري مناسب. بحيث تتجه جوانب الأشكال نحو مركز الانتباه في اللوحة.

الخطوط الموازية الأفقية تعطي اتساع. الخطوط العمودية على الأفق، تعطي عمق. لكن الطبيعة لها أبعاد ثلاثة، واللوحة لها بعدان. لذلك، وجب على الفنان أن يضيف للضوء في اللوحة، ترددات تتمثل في اللون الأحمر والأصفر وقدر مناسب من اللون الأزرق، حتى نعطي الانطباع بالهواء."

فن رسم الطبيعة الصامتة، الذي مارسه بول سيزان، يبين بوضوح أسلوبه المميز. فهو يقوم بترتيب وضع مجموعة محدودة العدد من الأشياء، بحيث تعطينا تأثير معين.

هو يستخدم أسلوبا تحليليا في ترتيب وملاحظة ووضع وتلوين الأشياء. بخلاف الأسلوب التأثيري، الذي يعتمد على الانطباع اللحظي. مما جعله يتخلي عن استخدام الفاكهة والزهور الحقيقية كموديلات، لأنها تفسد بسرعة ولا تعطيه الوقت الكافي لدراستها.

في لوحة "سلة تفاح"، نجد الأشكال قد فقدت شيئا من شكلها الطبيعي. الزجاجة أصبحت أقرب للاسطوانة، والفاكهة صارت أقرب للكرات المستديرة.

سلة تفاح، سيزان

استخدم سيزان الحدود وتجاور الألوان، لكي يؤكد صلابة كل شكل وفصله عن الأشكال المجاورة. حرف الطاولة غير مكتمل. الأشياء مرسومة من نقط مشاهدة مختلفة.

الزجاجة تميل عن الخط الرأسي والسلة تسكب ما فيها، والتفاح يكاد يسقط من الطاولة لولا فرش المائدة الأبيض والغير مفرود. هذا يحول المشهد من حالة السكون والصمت إلى الحركة والحياة. اللوحة تعطينا انطباعا بأن هناك شيئا على وشك الحدوث.

هذه اللوحة ليست لوحة ميته، وإنما لوحة بها روح وطاقة وضع. الحياة في اللوحة، لا تأتي من الأشياء المرسومة، وإنما تأتي من ترتيبها وتكوينها وتلوينها بطريقة معينة. لذلك، لا نعجب من وصف بول سيزان بأنه أبو الفن الحديث.

قامت إمارة قطر بشراء لوحة "لاعبي الورق" لبول سيزان عام 2011م، بمبلغ أكثر من ربع مليار دولار (مبلغ يتراوح ما بين 250 و 300 مليون دولار). هذا يعتبر أغلى ثمن للوحة فنية في تاريخ الفن الحديث حتى تاريخه.

لوحة لاعبي الورق، التي اشترتها حكومة قطر بربع مليار دولار.

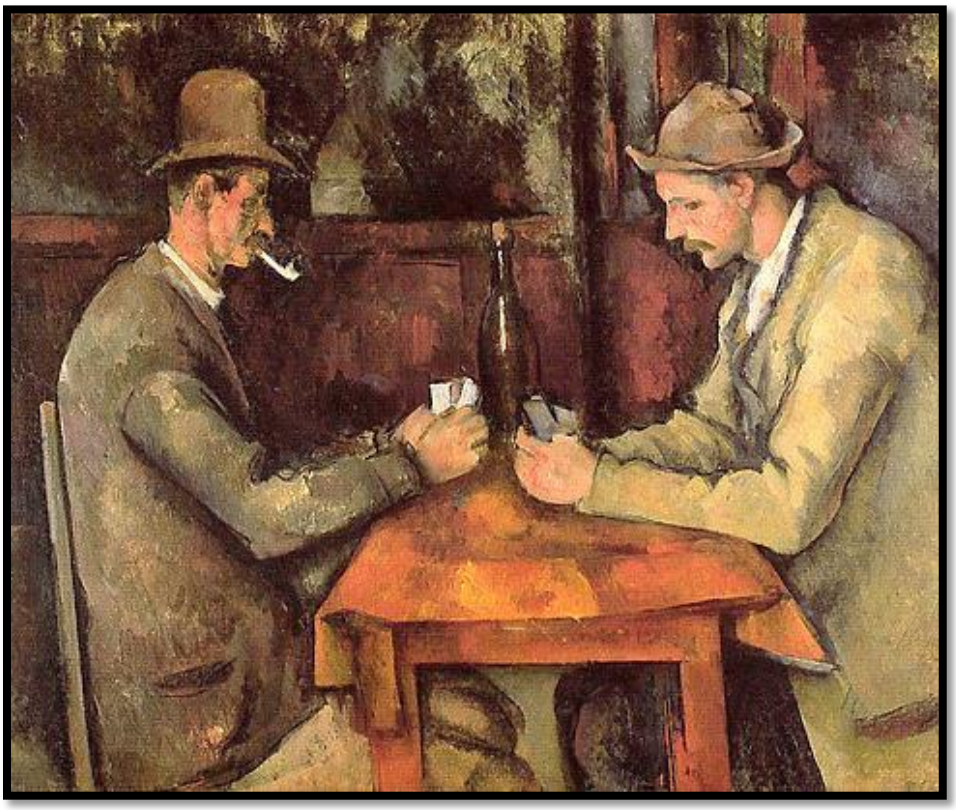

لاعبي الورق، سيزان

بعض لوحات بول سيزان:

سكرية وكمثرى وكوب أزرق، سيزان

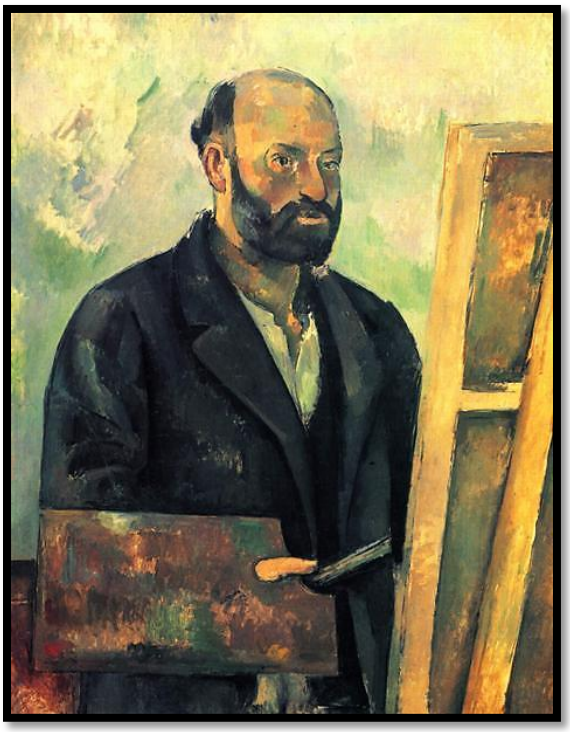

بورتريه شخصي، سيزان

طفلة ودمية، سيزان

36

الفن الرمزي

الفنانون التأثيريون والفنانون ما بعد التأثيرين، يستخدمون الإحساس والشعور كعناصر لوصف مشاهد الطبيعة. أي أن الطبيعة لاتزال هي نقطة التركيز ومركز الإلهام لكل أعمالهم.

مع نهاية القرن التاسع عشر، أصبح رسم مشاهد الطبيعة موضوع شخصي بحت. لم يعد الفنان ملزما بتقليد المناظر الطبيعية ونقلها كما تنقل الكاميرا الصورة. لكن الفنان أصبح هدفه، تمثيل مشاهد الطبيعية، وفقا لتفسيره وروحه الفنية المتوقدة.

أصبح الفنان الآن يرفض الصورة الضوئية للعالم المنظور، وارتمى في أحضان عالم الخيال والعقل الباطن. عالم الأشكال الغير حقيقية التي يخلقها خيال وتصور الفنان.

حيوانات رسمت عام 1941م، تومايو

في لوحة حيوانات تومايو، الألوان والخطوط والأشكال، لم تعد تطابق الصورة الحقيقية. بل أصبحت الرموز، أو لغة الأحلام، هي طريقة تفاعلنا مع هذا العالم المرئي. لم يعد الفنان كما كان من قبل، وإنما بات أشبه بالمتنبئ أو العراف أو النبي، يتكلم بلغة الإشارة ويبشر بالمستقبل.

الفنانون الذين يتبعون هذا الأسلوب، يسمون "الرمزيون"، وفنهم يسمى "الفن الرمزي". الرمزيون، سواء كانوا فنانين أو أدباء، ينظرون إلى الواقعية، في الفن أو الأدب، على أنها أسلوب بدائي.

ليس هدف الرمزيين، جعل المتلقي يرى ما يبدو ظاهرا واضحا للعيان. ولكن هدفهم، أن يجعلوه يرى ما يروه هم، ويحس بما يحسوا به هم.

يقول الشاعر "ريمبود" عام 1871م، الذي كان له تأثير بالغ على الفنانين الرمزيين، إن الفنان لكي يصل إلى ذروة الالهام والتجلي، عليه أن يصبح مختل العقل أو مجذوبا.

عليهم أن يعطلوا وظائف الحس عند الفنان، ويشلوا تفكيره العقلاني. لأنها وسائل تقوم بطمس الرؤية الفنية والالهام داخل عقل المبدع. الشعور الروحاني عند الفنان، يجب أن يحول عالم المنطق والفطرة السليمة إلى عالم الرموز. أي لكي تكون فنانا، يجب أن تكون مجذوبا أو مجنونا.

قد نلمس أشياء من الفن الرمزي في أعمال فان جوخ وجوجان. لكنها تظهر في شكل عناصر رمزية بدائية، تختلف في درجة بساطتها عن باقي الرمزيين.

الفنانون والكتاب الرمزيون، يضحون بالفن والأدب الهادف المفيد، في سبيل فن وأدب أكثر عمقا، مليء بالقيم الجمالية والأحاسيس المرهفة. الفن للفن والأدب للأدب هو شعار الفنانين والكتاب الرمزيين.

الفنان الفرنسي، "بيير بوفيس دي شافانيس" (1824-1898م)، هو رائد فن الرسم الرمزي. قام برفض الواقعية والتأثيرية، وشق طريقه بنفسه في القرن التاسع عشر.

يتسم فنه بالبعد عن الواقعية وصخب الحياة التي نعيشها. في لوحته بعنوان "البستان المقدس"، والتي كان لها تأثير بالغ على الفنان سيرات في لوحته "جراند جاتيه".

البستان المقدس، دي شافانيس

نجده قام بتوزيع أشكاله، التي تشبه الأصنام، في بستان هادئ، به ضريح كلاسيكي. حدود الأشكال بسيطة واضحة، كأنها موجودة في عالم لا يمر فيه الزمن. الهدوء وتجمد المشهد، يدلان على طقوس أبدية.

لاقى أسلوب بوفيس القبول لدى قطاع كبير من الفنانين. الأكاديمية الفرنسية المحافظة، رحبت بفنه. الفنانون الرمزيون أعجبوا بلوحاته واستقلاله عن عالم المادية والآلة والرأسمالية.

"جوستاف مورو" (1826-1898م)، هو أيضا من الفنانين الرمزيين. لكنه كان يميل إلى الموضوعات التي تعبر عن الأحلام، والتي تبعد كثيرا عن واقع كل يوم. أعماله تمتاز برصانة التكوين والألوان الرائعة، والخطوط المعقدة، والتفاصيل الدقيقة. لوحته بعنوان "جوبيتر وسيميلي":

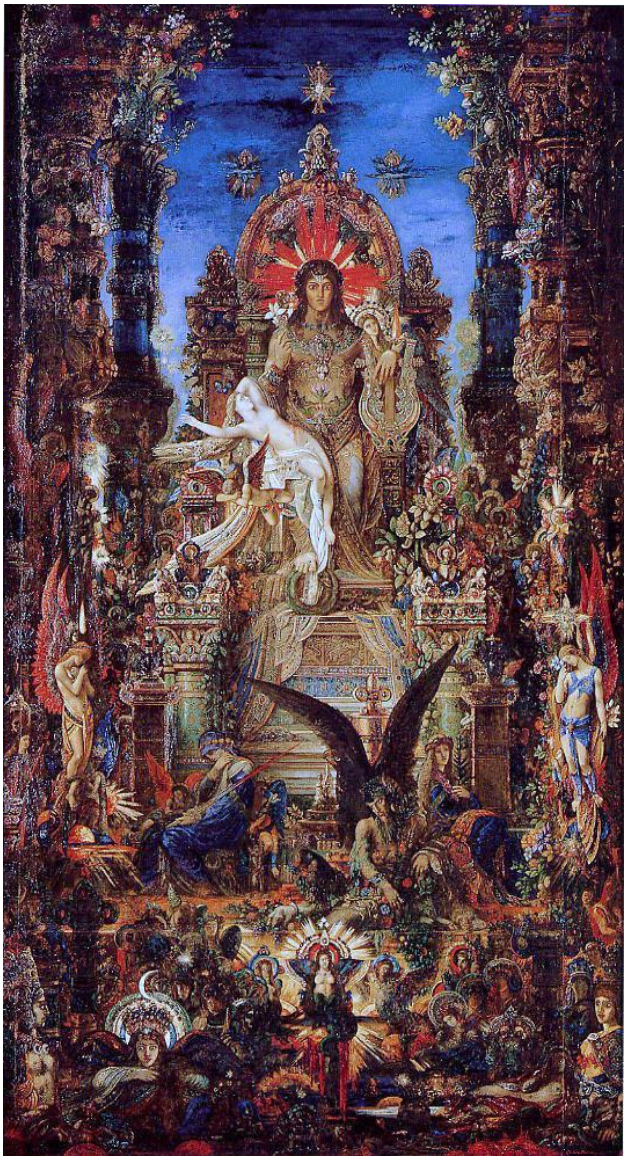

جوبتر وسيميلي، مورو

هي أحد لوحات مورو المكتملة. الفتاة الأرضية "سيميلي"، التي تظهر عارية في اللوحة، هي عشيقة الإله "جوبيتر"، جوبيتر هو نفسه الإله "زيوس" عند اليونان. كانت ترجو الإله لكي يظهر لها بكامل قداسته. وعندما فعل ذلك، لم تستطع المسكينة سيميلي تحمل الضياء، فماتت في الحال.

المشهد هنا، مثل مشاهد الأوبرا. "مورو" كان يعشق موسيقى فاجنر، وكان يحلم مثل فاجنر بوحدة الفنون وتكاملها. اللوحة تظهر القاعة الملكية لآلهة الأولمب. تسطع بالألوان الزاهية. العرش مرصع بالجواهر، يجلس عليه جوبيتر.

"أوديلون ريدون" (1840-1916م)، كان يشعر مثل مورو، بضغوط العالم الخارجي منذ طفولته، مما جعله يهرب إلى عالم الخيال. استخدم ريدون فرشة التأتيريين وضرباتهم المتقطعة، ولكن بهدف مختلف. في لوحته "سايكلوب":

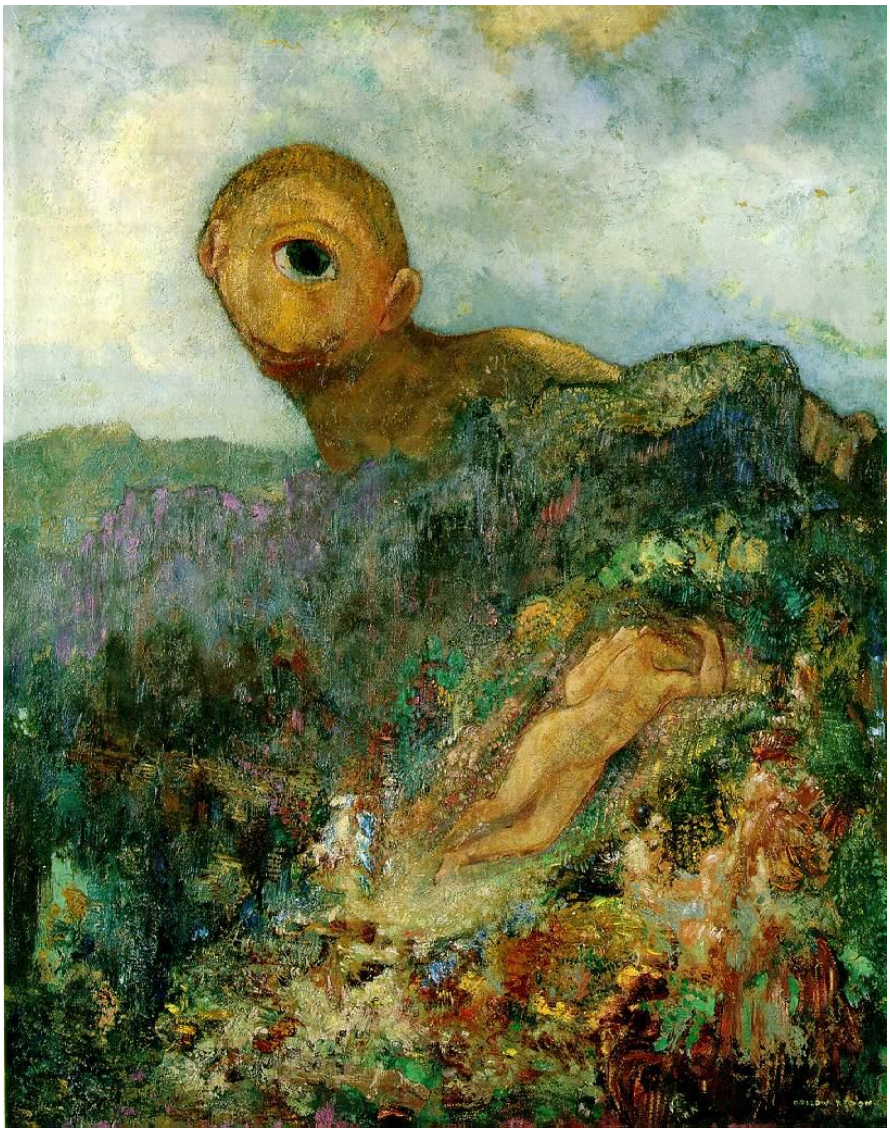

سايكلوب، ريدون

سيكلوب باليونانية تعني دائري العين. وهو مسخ من جنس الجبابرة، ذو عين واحدة وسط الجبهة. يوصفون بأنهم عمال مهرة. يصنعون الصواعق وأسلحة الآلهة.
ويحققون الأعمال الضخمة. جاءوا في قصة الأوديسة للشاعر اليوناني هومير، وقصة السندباد البحري في ألف ليلة وليلة.

هنا تخيل ريدون العملاق السايكلوب، وقام بصبغه بألوان زاهية تناسب المشهد. رأسه ذات عين واحده حالمة وابتسامة مرعبة، تطل علينا من وراء التلال. هذا أسلوب جديد يختلف تماما عن أسلوب الفنان "رفائيل" الذي قام برسم السايكلوب أيضا:

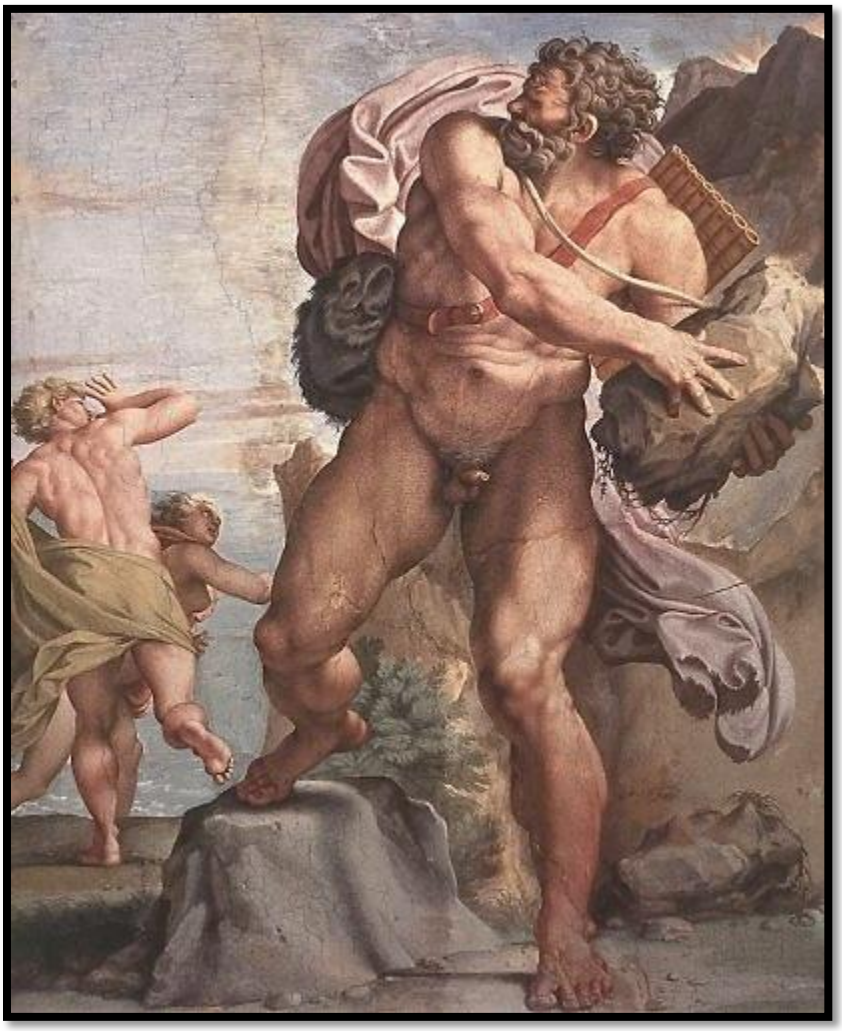

سيكلوب العملاق، رفائيل

الفنان "هنري روسو" (1844-1910م)، له عالمه الخيالي المختلف. جوجان ترك فرنسا ورحل آلاف الأميال عبر البحار الجنوبية، للهرب من الحضارة، والبحث عن البساطة والبراءة، التي وجدها بين أناس جزيرة تاهيتي البدائيين.

لكن هنري روسو وجد نفس الشئ وهو لم يغادر باريس. بالرغم من أن روسو، كان من الهواة الذين لم يتلقوا تدريبا على أيدي أساتذة فنانين كبار، إلا أنه قد أنتج فنا يصور الأحلام والخيال بأسلوب رائع، جعله مميزا عن باقي فناني عصره.

لقد استعاض عن قصوره الحرفي، بموهبة طبيعية رائعة في التكوين والتخيل، مستخدما أشكالا غامضة وسط أماكن استوائية. في لوحته "الغجرية النائمة":

الغجرية النائمة، روسو

الغجرية ترقد في الصحراء بالقرب من غدير، حيث الصمت المطبق. تحلم تحت ضوء خافت لبدر كامل الاستدارة. السماء صافية تتلألأ بها بعض النجوم. يظهر إلى جوار الغجرية أسد يشبه الدمية. وتظهر أيضا، آلة موسيقية وقلة ماء، وتمسك بيدها عصا. هل الأسد يمثل كابوسا ينضح من العقل الباطن؟ ماذا يريد الأسد؟ واضح أنه لا يريد افتراسها. ربما يريد أن يسر لها شيئا خطيرا في أذنها.

الحلم، روسو

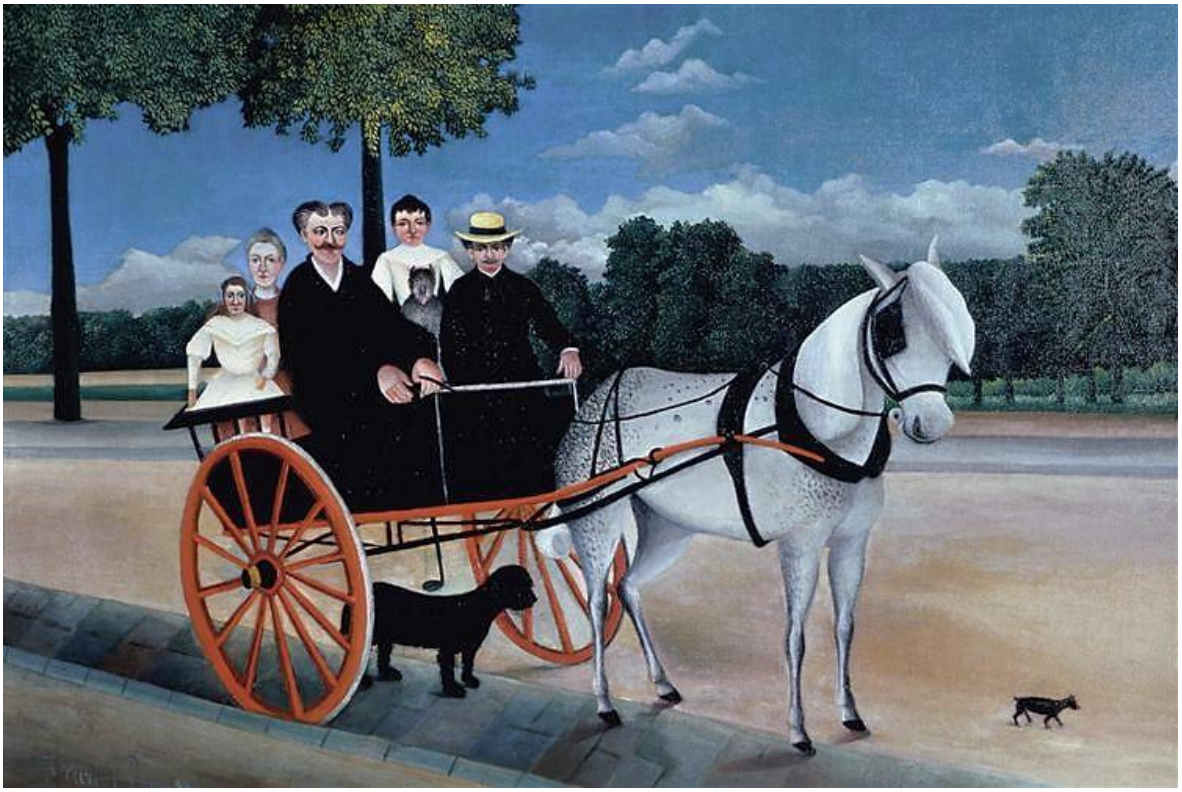

عربة بيتر جونيه، روسو

طيور الفلامنجو، روسو

ليس كل الفنانين الرمزيين فرنسيين. "أوبري بيردسلي" (1872-1898م)، فنان انجليزي، يعتبر حلقة وصل بين الفن الرمزي والفن "النوفي" أي الجديد.

في كتاب "سالومي" للأديب الانجليزي أسكار وايلد، رسم توضيحي بعنوان "تنورة الطاووس".

تنورة الطاووس، بيردسلي

نجد هذا الرسم أقرب إلى رسوم الديكورات، لكن بتكوين فني رائع. تأثير الفن الياباني واضح، بالرغم من أن بيردسلي قام بتطويعه لكي يناسب أسلوبه الفريد.

الفن الواقعي والتأثيري وما بعد التأثيري، كانت كلها تركز على الألوان. لكن بيردسلي، كان يركز على الخطوط والنماذج، الأبيض والأسود، ولا يستخدم الظلال. يستخدم الإيقاعات والهارموني مثل الموسيقى.

الفنان النرويجي "إيدوارد مونك" (1863-1944م)، هو أيضا من الفنانين الرمزيين. ولد في مدينة أسلو. كان مثل فان جوخ، يعاني من اضطرابات نفسية وعقلية.

شعر مونك بعمق المأساة الإنسانية. كان يعتقد بأن الإنسان ضعيف قليل الحيلة. أو كما كانت تقول جدتي: "يا ابني، الإنسان صوت فقط". الإنسان في رأي مونك، يقف عاجزا أمام آلام الحب، وحقيقة الموت.

تفترسه الغيرة، وتذله الوحدة، وتستعبده الرغبة، ويمزقه الخوف، ويستبد به اليأس. لذلك، أصبح الإنسان وآلامه، هي موضوع أو "تيمة" كل أعماله. ولأن تصوير محنة الإنسان، كانت هي هدف مونك، لذلك لم يجد الفن الواقعي أو التأثيري مناسبا له. لأنها فنون تركز فقط على تصوير العالم الظاهري.

استخدم مونك الأسلوب الرمزي. كان له أسلوبا خاصا في استخدام الألوان والخطوط وانحراف الأشكال للتعبير عن هدفه. تأثر بالفنان جوجان، وأنتج أعمالا عظيمة مليئة بالأحاسيس، تبعث على الالهام. أروع أعماله لوحة "الصرخة":

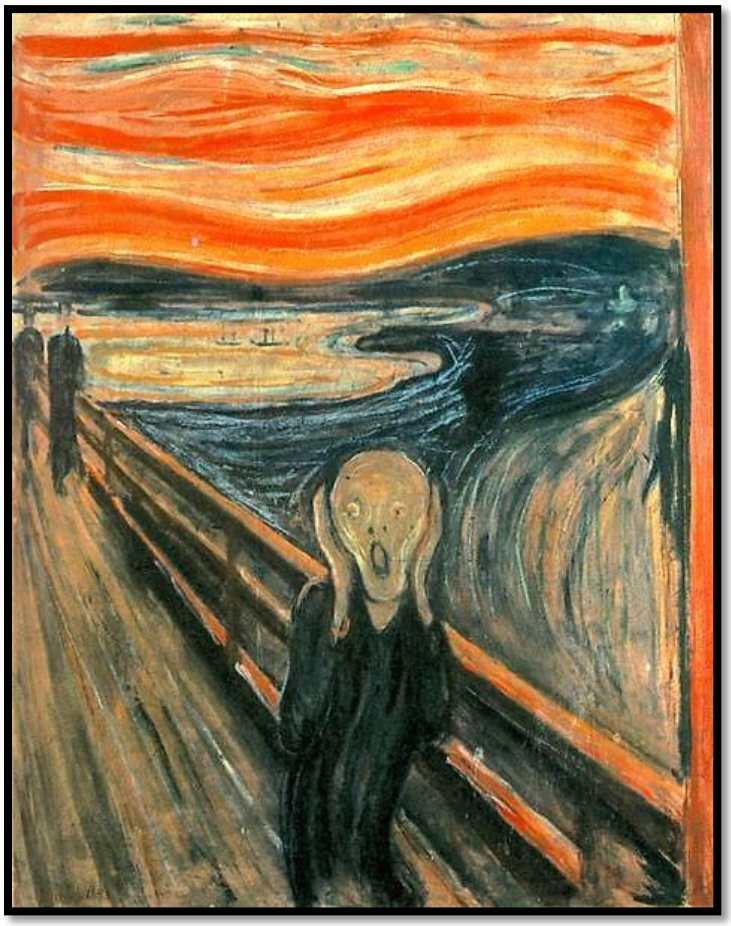

الصرخة، مونك

تبين لوحة الصرخة لمونك أسلوبة في الرسم. يظهر أمامنا رجل يقف على جسر. يأتـي من عالمنا، لكن مونك يجعله بعيدا جدا عن عالم الواقع.

الصرخة، لا تأتي فقط من فم الرجل، ولكن نراها حول رأسه وفي السماء وعلى الجسر وفي الماء. وحتى جسد الرجل يصرخ أيضا من الألم. كل الخطوط تقودك إلى رأس الرجل، والرأس تقودك إلى فمه حيث تنطلق الصرخة. كل شئ في الصورة يصرخ من أعماقه.

الرجل تحول إلى هيكل عظمي، يصرخ بأعلى صوته. فهل يملك شيئا آخر غير الصراخ؟ وهل نملك نحن شيئا آخر غير الصراخ في مواجهة الألم الغير محتمل؟ صدى الصرخة يتردد في كل مكان، تضخمة الألوان النارية الحمراء والصفراء. يقول مونك وهو يصف اللوحة:

"لقد توقفت وانحنيت عل الدرابزين، أكاد أموت من التعب. فوق الأفق الأزرق الداكن، تطفو السحب، حمراء في لون الدم وألسنة اللهب. صديقي الحميم انتحر في هذا المكان، وتركني وحيدا، أرتجف بالحزن والكرب. أصبحت الآن أرى الكون، لا شئ سوى صرخة أبدية."

مادونا، مونك

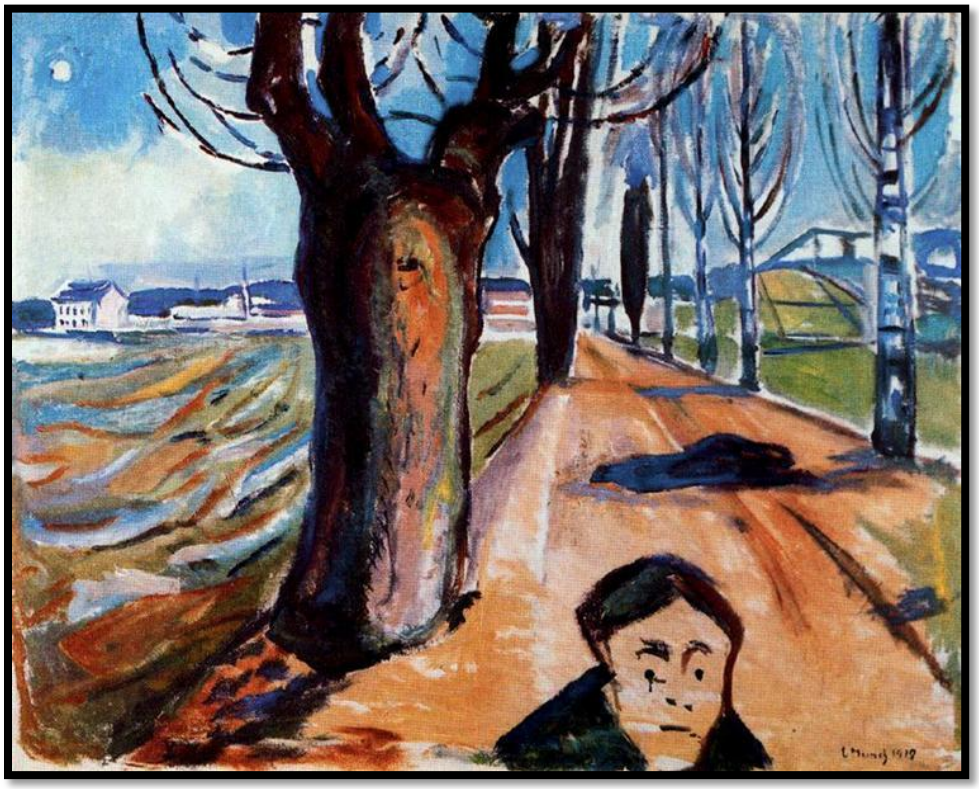

قاتل على الطريق، مونك

رقصة الحياة، مونك

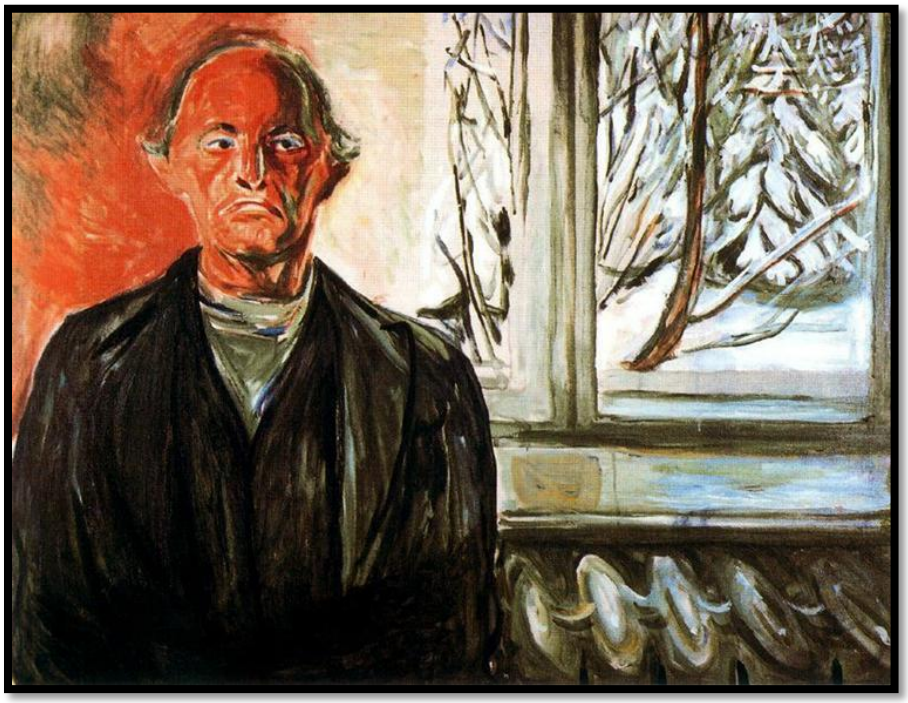

بورتريه شخصي، مونك

"فين دي سيكل"، تعبير بالفرنسية يعني نهاية القرن. ويرمز للحضارة والثقافة في نهاية القرن التاسع عشر. يدل أيضا على نمو الطبقة المتوسطة وازدهارها في تلك الفترة.

هذه الطبقة، التي هي عماد الديموقراطية في كل المجتمعات، أصبحت في نهاية القرن التاسع عشر، تتشوق إلى حياة الطبقة الأرسطقراطية، من رغد في العيش وتذوق للفنون.

إلا أن هذه الفترة، كانت مغرقة في المتعة الحسية والجنسية، والبحث عن الثروة والسلطة. وأصبحت الثقافة لا تحدها القيم والتقاليد. الهدف الرئيسي هو التمتع بالحياة إلى أقصى درجاتها.

أهم من يمثل هذه الفترة الزمنية المتوهجة من عمر الشعوب، "فين دي سيكل"، هو الموسيقار النمساوي جوستاف مالر (1860-1911م)، والفنان النمساوي "جوستاف كليميت" (1863-1918م). أحد لوحات كليميت بعنوان "القبلة":

القبلة، كليميت

اللوحة تمثل رجلا وامرأة يقبل ويحضن كل منهما الآخر. ما يظهر منهما أجزاء صغيرة. باقي الجسدين، يذوبان في مساحة لامعة مسرفة باللون الذهبي والزخرفة. وهو أسلوب يمت بصلة إلى الفن الجديد، يذكرنا بأعمال ديجا وفناني الحداثة.

الإلهة مينيرفا(أثينا)، كليميت

جوديث، كليميت

37

الفن – الحديث

النصف الأول من القرن العشرين، يمثل فترة اضطرابات وقلاقل عظيمة لم يشهد العالم مثلها في القسوة والبؤس. من بداية عام 1900 إلى نهاية 1945م، توسعت الدول الصناعية في مستعمراتها، اشتركت في حربين عالميتين، شاهدت قيام الشيوعية، والفاشية والنازية، أضف إلى ذلك ما قد كابدته من الكساد الاقتصادي العظيم.

شهدت هذه الفترة أيضا، تغيرات جذرية في الفنون. عندما تمرد الفنانون على القواعد الأولية للفن وعلى الصيغ والأشكال النهائية التي تمثله.

مع بداية القرن العشرين، كانت بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، إيطاليا، إسبانيا والبرتغال، كل منها لها موطئ قدم في أفريقيا. في آسيا، كانت بريطانيا تحكم الهند، هولندا تتحكم في أندونيسيا، فرنسا في الهند الصينية، وروسيا تحكم آسيا الوسطى وسيبيريا. اليابان بدأت في الصعود كقوة هائلة في المحيط الهادي.

هذه الدول، كانت دولا رأسمالية إمبريالية توسعية. أقامت المستعمرات لإمدادها بالمواد الخام. قامت بينها منافسة شديدة، أدت في النهاية إلى الصراع والحرب العالمية الأولى، التي بدأت عام 1914م، بين كتلتين عظيمتين: ألمانيا و(النمسا-المجر) وإيطاليا في جانب. روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمي في الجانب الآخر.

استمر القتل والخراب الناتج عن الحرب العالمية الأولى حتى عام 1918م. أكثر من 9 مليون جندي ماتوا في هذه الحرب البشعة، التي استخدمت فيها الغازات السامة أول مرة عام 1915م. الولايات المتحدة لم تدخل الحرب إلا مؤخرا عام 1917م.

الثورة الروسية التي اندلعت عام 1917م، أضافت إلى معاناة البشرية بعدا جديدا. عدم رضاء العمال عن حكومة نيقولا الثاني (1894-1917م)، قيصر روسيا، قاد إلى إضراب عام. ثم إلى تخلي نيقولا الثاني عن الحكم. في نهاية سنة 1917م، سيطر البلاشفة على كل البلاد.

البلاشفة، وهم فصيل اشتراكي ديموقراطي روسي بقيادة لينين (1870-1924م)، قاموا بتصعيد الثورة واستخدام العنف. عندما وصل لينين إلى الحكم، قام بتأميم الأراضي.

بعد حرب مدنية واسعة النطاق، نجح البلاشفة، اسمهم الآن الشيوعيون، في السيطرة على ما تبقى من روسيا وبعض دول شرق أوروبا. وأصبحت الدولة الجديدة تدعى "اتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية"، (USSR)، في عام 1923م.

في عام 1929م، ظهر الكساد العظيم، الذي كانت له آثار مدمرة على استقرار الدول الغربية، وخصوصا أنه جاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية.

في عام 1932م، بلغ حجم البطالة في بريطانيا 25%، في ألمانيا بلغت 40%. حجم الإنتاج في الولايات المتحدة، تقلص إلى 50%. هذه الكارثة الاقتصادية، إلى جانب فشل عصبة الأمم ومعاهدات السلام بعد الحرب العالمية الأولي، مهد كل ذلك الأرض لظهور قوى قومية استبدادية جديدة، حكمت العديد من الدول الأوروبية.

في إيطاليا، ترأس موسيليني (1883-1945م) نظام فاشي قومي. في الاتحاد السوفيتي، قام ستالين (1879-1953م)، بالسيطرة على البلاد عام 1929م. في ألمانيا، نجد هتلر(1889-1945م)، يقوم بتكوين حزب العمال الوطني الاشتراكي الألماني، وجعله يمثل حركة الجماهير الألمانية. ثم يقوم بعد ذلك بالقضاء على كل خصومه.

أسلوب قنص السلطة هذا الذي لا يرحم، أدى في النهاية إلى صراعات، قادت بدورها العالم إلى الحرب العالمية الثانية، التي بدأ يشتعل أتونها عام 1939م. بدأت الحرب العالمية الثانية، عندما غزت ألمانيا بولندا. بسبب ذلك، أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا. ثم تحولت إلى حرب عالمية لتشترك فيها العديد من الدول.

ألمانيا وإيطاليا، قامتا بمحاربة باقي أوروبا والإتحاد السوفيتي. اليابان، التي كانت تحارب إلى جانب ألمانيا وإيطاليا، غزت الصين واحتلت الهند الصينية. بعد هجوم

الطائرات اليابانية على ميناء بيرل هاربر في جزر هاواي، انضمت الولايات المتحدة لكي تحارب في صفوف بريطانيا وفرنسا.

انتهت الحرب العالمية الثانية عام 1945م، عندما هزم الحلفاء ألمانيا، وعندما ألقت الولايات المتحدة قنبلتين ذريتين، واحدة على هيروشيما والأخرى على ناجازاكي في اليابان.

لنا أن نتخيل ابان هذه الكوارث الاقتصادية والثورات والحروب التي لا ترحم والرعب الذري الذي يهدد بفناء البشرية، كم كان حجم المعاناة التي كابدها البشر.

الفنانون، بما لهم من إحساس مرهف، لابد أن تكون معاناتهم وآلامهم هي الأعظم من بين باقي أفراد المجتمع. لذلك كان عليهم أن يبحثوا عن تعريفات جديدة واستخدمات أخرى للفن، كمحاولة لتغيير هذا الواقع المؤلم، أو على الأقل الحلم بمستقبل أفضل.

في عام 1880م، كان يطلق على بعض الفنانين لقب الطلائع. وهو لقب مقتبس من العسكرية الفرنسية. ويعني الفنانون الذين يسبقون عصرهم ويرفضون الفن الكلاسيكي والأكاديمي التقليدي، ولا يدخرون جهدا في البحث عن صيغ وأساليب جديدة غير مألوفة. "ما بعد التأثيريين" كانوا هم أول من أطلق عليهم الطلائع.

الفنانون الطلائع في النصف الأول من القرن العشرين، أصبحوا قوة لا يستهان بها. ظهروا في الفن الأوروبي ضمن حركة فنية أوسع اسمها "الفن التعبيري". الفن التعبيري يعني الفن الذي يعبر به الفنان عن نفسه وإحساسه.

هذا يختلف عن مفهومنا للفن الغربي منذ عصر النهضة، الذي يركز على وصف الفنان للعالم الواقعي. أحد حركات الفن التعبيري التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين، هو المدرسة "الفوفية" أو الوحشية.

المدرسة الفوفية أو الوحشية، تهتم بالضوء والمساحات بدون استخدام الظلال والنور. اللون يعرض بدرجة واحدة بدون تدرج. وتعتمد أيضا على تبسيط الأشكال، مما جعلها تقترب من الرسوم البدائية. الأشكال بسيطة أو مجردة مثل نقوش الأرابيسك والزخارف النباتية.

بنى الفنانون الوحشيون أعمالهم الفنية، على إرث فنانين عظام مثل فان جوخ وجوجان. بل يمكننا القول أنهم تخطوا من سبقوهم في تحرير الألوان من خواصها الوصفية، واستخدموها في التعبير والبناء والتكوين الفني للوحة.

إنهم يعبرون عن الشعور الداخلي للفنان، بالألوان الصارخة وضربات الفرشاة الجريئة. الفنانون الوحشيون، لم ينجحوا في تكوين هيئة تمثلهم. لذلك، سرعان ما بدأت المدرسة الوحشية في التفكك والذبول.

في خلال خمس سنوات فقط، بدأ كل فنان وحشي يسلك طريقا خاصا به. لكن خلال هذه المدة القصيرة، أنتج الفنانون الوحشيون، لوحات رائعة، أضافت ثروة لا تقدر بثمن لعالم الفنون.

أشهر الفنانين الوحشيين هو الرسام "هنري ماتيس" (1869-1954م). كان ماتيس يعتقد أن الألوان تحمل معاني، ومن ثم لها دور أساسي في عالم الرسم. في أحد لوحاته التي رسمها مبكرا لزوجته أميلي، "إمرأة بقبعة"، نجده يظهرها في ألوان تباغت وتبهر المشاهد.

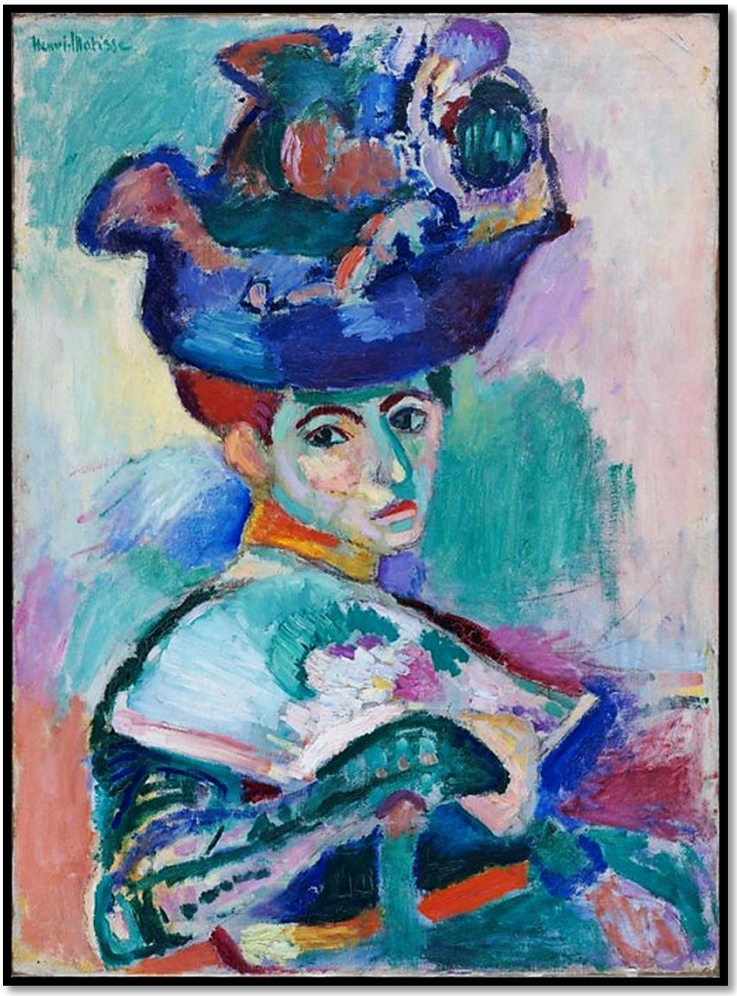

إمرأة بقبعة، ماتيس

هنا اللوحة كلها، وجه المرأة وملابسها والقبعة وخلفية الصورة، عبارة عن بقع ولمسات ألوان متجاورة بطريقة قد ينتج عنها في بعض الأحيان تعارض وتنافر. يفسر لنا ماتيس أسلوبه هنا بالآتي: "ما يميز الفن الوحشي ، هو أننا نرفض الألوان المقلدة للطبيعة. عن طريق الألوان الصافية النقية، يمكننا الحصول على تأثير أقوى".

بالنسبة لماتيس والفن الوحشي، الألوان هي العنصر الأساسي الذي يحمل المعنى في اللوحة. الألوان هنا ليست بهدف تقليد الطبيعة، ولكن لكي تؤثر بأسلوب ما في المشاهد.

التعبير في اللوحة، لا يأتي من تكشيرة في الوجه أو إيماءه هنا أو لفته هناك، ولكن التعبير يأتي من اللوحة كلها، بتكوين وترتيب أجزائها، واختيار ألوانها، والمساحات التي تشغل موضوعاتها. النسبة والتناسب وكل شئ له نصيبه من المشاركة. هارمنية الألوان وتنافرها، تعطينا التأثير المطلوب.

أيكاروس، ماتيس

أناناس، ماتيس

الفن الوحشي وجد القبول لدي الكثير من الفنانين. إلا أن الفنانين الألمان، أضافوا للفن الوحشي بعدا جديدا جعله أكثر وحشية. وهو التشويه الموجع للصيغ والأشكال المتعارف عليها. ربما يكون هذا أكثر ملاءمة للتعبير عن الآلام والعواطف والأحاسيس إبان الحرب العالمية الأولى.

أول مجموعة فنانين ألمان تبنوا فكرة الفن التعبيري والوحشي، تجمعوا في مدينة دريسدين عام 1905م بقيادة "إيرنست لوفيج كيرشنر" (1880-1938م). خلفية كيرشنر في الهندسة المعمارية والرسم وفن الجرافيت، غرست داخله إعجابا دفينا بالفن الألماني في القرون الوسطى. يقول كيرشنر واصفا أسلوب مدرسته:

"نحن كشبان، ننظر إلى المستقبل، نريد الحرية لأنفسنا، لكي نقاوم القوى والمفاهيم المستبدة والمسيطرة على العقول لمدة طويلة. أي واحد ينتج فنا، بناء على دوافعة الداخلية للخلق بأسلوب عفوي أصيل، هو فنان ينتمي لمجموعتنا"

ركز كيرشنر على تأثير الثورة الصناعية على المجتمعات. وتبنى موضعات مثل اغتراب الفرد في المدينة، بسبب الميكنة والإنتاج الجماعي، وضغوط الحرب العالمية الأولى.

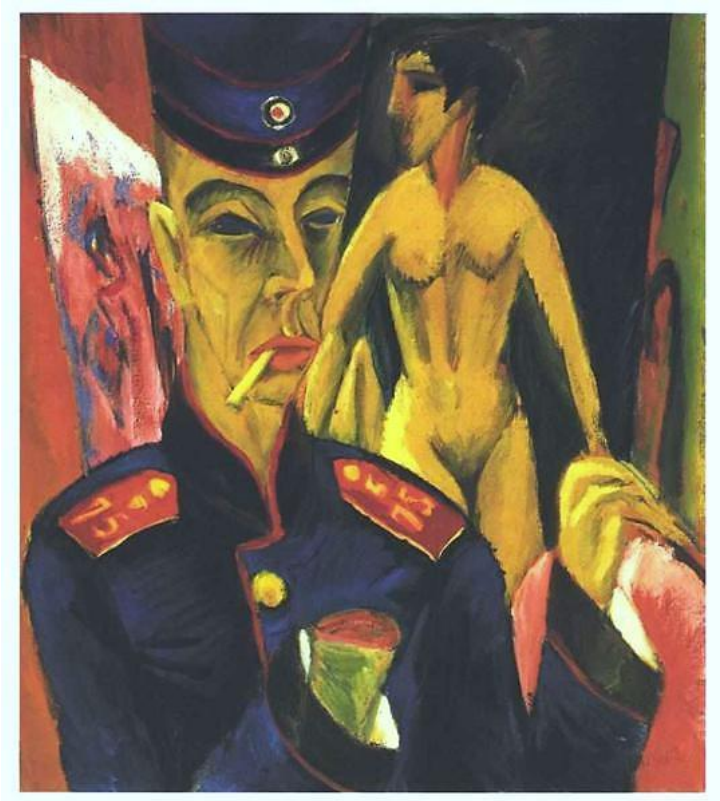

بورتريه لكيرشنر كجندي، كيرشنر

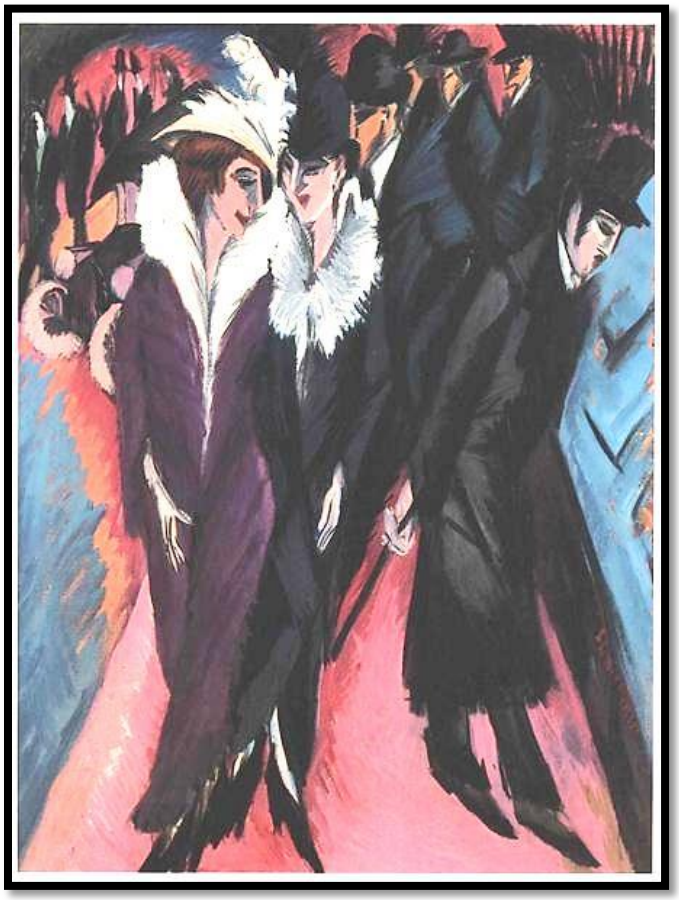

شارع في برلين، كيرشنر

لاحظ في اللوحة السابقة، النشاز والتنافر في التكوين والألوان. النساء في مقدمة اللوحة في الحجم الكبير يقتربن من شخص ما بريبة وحذر. المنظور الحاد للشارع يكاد يدفع النساء مباشرة إلى المشاهد ويجعلهن ينزلقن خارج اللوحة. أسلوب كيرشنر هنا يذكرنا بالرسام "إيدوارد مونك" صاحب لوحة الصرخة.

فنان آخر تعبيري ألماني هو "فاسيلي كاندينسكي" (1866-1944م). ولد في روسيا، ثم انتقل إلى ميونخ عام 1896م. كاندينسكي هو واحد من أوائل الفنانين الذين مارسوا الفن التجريدي كاملا. الفنان فاروق حسني، الوزير الأسبق للثقافة المصرية، هو فنان تجريدي أيضا مثل كاندينسكي.

لوحة تجريدية، فاروق حسني

ارتجال، كاندينسكي عام 1912م

كان كاندينسكي يغذي موهبته بنزعة صوفية وميل للعلوم الحديثة. كان مثقفا من الطراز الفريد، وقارئ نهم للفلسفة والتاريخ والأديان المقارنة وباقي الفنون، بالأخص الموسيقى. معرفته بتركيب الذرة، جعلته يعتقد بأن المادة ليس لها مضمون. لأن الذرة عبارة عن فراغ كبير بالنسبة لمكوناتها. مما جعله يشك في هذا العالم الملموس.

في القرن العشرين، واجهت المجتمعات في كل أنحاء العالم اكتشافات جديدة في العلوم، أدت إلى أسلوب جديد في التفكير، وأجبرت الإنسان على أن يعيد فحص طريقة فهمه لهذا العالم. كما جعلته يعيد تقييم مُثُله وقيمه العليا.

الفيزياء الكلاسيكية، التي وضع أصولها اسحق نيوتن (1642-1727م)، تقول بأن هذا العالم عبارة عن آلة ميكانيكية، تتكون من الزمن والفراغ والمادة.

في بداية القرن العشرين، بدأ العلماء يشكون في النظرة الميكانيكية للكون، فيما يعرف بالثورة الثانية في العلوم والتكنولوجيا. ساهم في هذه الثورة العلمية، علماء أمثال: ماكس بلانك (1858-1947م)، ألبرت أينشتين (1879-1955م)، إيرنست رازرفورد (1871-1937م)، ونيلز بور (1885-1962م).

كل عالم من هؤلاء، ساهم في هز الإيمان بحقيقة فهمنا للمادة، ومن ثم مهدوا جميعا إلى علوم حديثة وعالم جديدة من المعرفة. نظرية بلانك في الميكانيكا الكمية عام 1900م، والنسبية الخاصة لأينشتين، وتركيب الذرة لرازرفورد، وبور. كل هذا أدى إلى فهم جديد للمادة والطاقة.

لم يتخلف الفنانون أيضا عن هذا الركب. بل ساهموا بإعادة تقييمهم للنظريات الفنية الكلاسيكية. لذلك نجد معظم تاريخ الفن في القرن العشرين، ما هو إلا تاريخ رفض

للأساليب التقليدية. من الفنانين التعبيريين الذين تحدوا الأسلوب التقليدي، واتجهوا إلى التجريد بجرأة شديدة، هو الرسام "بابلو بيكاسو" (1881-1973م).

ولد في إسبانيا، وأجاد كل مدارس الرسم التقليدي التي ظهرت في القرن التاسع عشر. التحق بأكاديمية برشلونة للفنون الجميلة عام 1890م. مهارته الفائقة جعلته يجرب أنواع كثيرة من فنون التعبير، في إسبانيا ثم في باريس حيث استقر به المقام عام 1904م.

أهمية بيكاسو في تاريخ الفن، هو أنه ساهم في إيضاح طرق جديدة لكي نرى بها العالم غير مسبوقة. يعتبر من أغزر الفنانين إنتاجا، مارس تقريبا كل أنواع الفنون خلال عمره المديد.

بيكاسو، هو تجسيد للحداثة في الفن، بالرغم من تحوله من أسلوب لآخر . عندما استقر به المقام في باريس، كان أسلوبه هو الأسلوب التأثيري، وكانت توصف فترة انتاجه في ذلك الوقت بالفترة الزرقاء، التي كانت تعبر عن الحزن.

جيرترود ستين، بيكاسو 1906م

كان بيكاسو يبحث بدون كلل عن أسلوب جديد. وجد بعض الدلائل في الفن والتماثيل البدائية. بدأ بيكاسو يرسم لوحة لصديقته "جيرترود ستين" في بداية سنة 1906م. لكنه تركها بدون أن يكملها بعد 80 جلسة. ثم عاد لكي يرسم الرأس.

وجد بيكاسو أن هناك تفاوتا بين شكل الرأس وباقي الجسد. الرأس مفلطحة وليست بها تفاصيل كثيرة مثل التماثيل البدائية. بعين الفنان المرهف الحس، لم يجد هذا

التفاوت عيبا، ولكن وجده يضيف قوة شديدة لشكل البورتريه. هنا، اكتشف بيكاسو أسلوبا جديدا لرسم صورة الإنسان.

لوحة نساء أفينيون، بيكاسو 1907م

هذه اللوحة تبين بوضوح مدى تأثير الفن البدائي على بيكاسو. وتمثل بداية أسلوب جديد جذري لرسم الأشكال والصيغ في فراغ اللوحة. بدأ بيكاسو العمل في هذه اللوحة على أنها لوحة رمزية، اختار لها اسم "بيت دعارة فلسفي". يصور فيها رجلين زبونين، يختلطان مع نساء في غرفة استقبال في بيت دعارة بشارع "أفينيون" ببرشلونة. أحد الزباين كان بحارا، الآخر يحمل جمجمة كرمز للموت.

عندما أنهى بيكاسو رسم اللوحة، كان قد حزف من المشهد الرجلين، وبسّط تفاصيل الغرفة، لكي توحي بالستائر، ولكي تشبه رسوم "الحياة الساكنة" في مقدمة اللوحة. لأن بيكاسو كان يبحث عن أسلوب جديد لرسم هؤلاء النسوة الخمس داخل فراغ اللوحة، نجده هنا قد أظهر أجسادهن مكسرة، ومختلطة بمستويات تمثل الستائر وفراغات اللوحة.

هنا نستشف بداية الفن التكعيبي. المشاهد يرى الأجسام من مستويين مختلفين في نفس الوقت. يقول بيكاسو: " أنا أرسم الصيغ كما أعتقدها لا كما أراها".

الثلاث نساء على يسار اللوحة، رؤوسهن تشبه رأس "جيرترود ستين" في اللوحة السابقة لبيكاسو. المرأتان على يمين اللوحة تظهران في صورتين عنيفتين تجمعان بين القوة والبساطة. تبينان مدى تأثر بيكاسو بالفن البدائي الزنجي في هذه المرحلة، الذي قام بدراسته في متاحف باريس. بيكاسو وماتيس كانا متحمسين للفن البدائي، يقومان بجمع تحفه النادرة.

لعدة سنوات، لم يُطلع بيكاسو أحدا على لوحة الآنسات إلا لبعض الفنانين. من هؤلاء "جورجز براك" (1882-1963م)، وهو فنان فوفي أو وحشي. وجد براك لوحة بيكاسو تمثل تحولا خطيرا في عالم فن الرسم. لدرجة أنه قام بتغيير أسلوبه هو بناء على هذه اللوحة. ثم قام بيكاسو وبراك بصياغة أصول الفن التكعيبي عام 1908م.

يمثل الفن التكعيبي نقطة تحول خطيرة في عالم فن الرسم، ونقطة تحرر من الصور التقليدية التي هيمنت على العالم الغربي منذ عصر النهضة.

الفن التكعيبي يرفض التصوير الطبيعي للأشياء. يفضل تكوين الأشكال والصيغ في صور مجردة من العالم المرئي. يقوم الفنانون التكعيبيون باستخدام الأسلوب التحليلي لسيزان، ثم يقومون بتشريح المشاهد، وإعادة تكوينها في تصميمات جديدة لكي تكون موضوع جمالي جديد.

ثلاث موسيقيين بأقنعة، بيكاسو 1921م

جورنيكا، رائعة بيكاسو 1937م

لوحة جورنيكا، رائعة بيكاسو، رسمها عام 1937م. تصور مأساة الحروب بصفة عامة، وقصف الطائرات الحربية الألمانية والإيطالية لمدينة جورنيكا عام 1937م، بغرض الترويع خلال الحرب الأهلية الإسبانية.

رأس الإله فون إله الغابات، فون له رأس إنسان وجسد ماعز، لبيكاسو 1938م. لوحة من الصعب نسيانها :

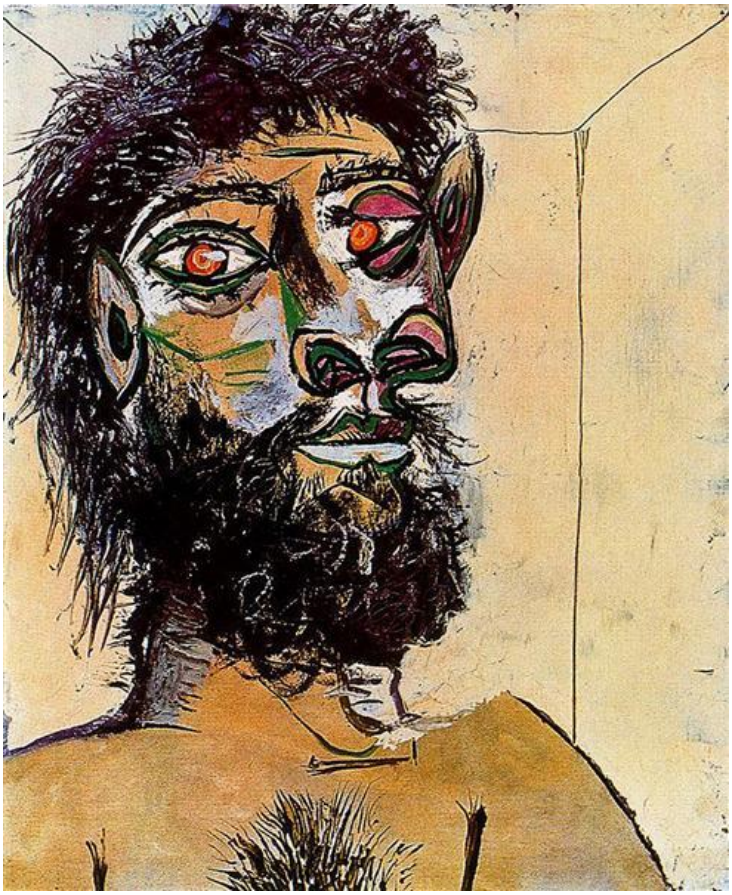

الإله فون، بيكاسو 1938م

إمرأة تجلس في كرسي، بيكاسو 1939م

الفن السيريالي، الذي يستكشف ويصور أغوار النفس والأحلام، بلغ أوجه في أعمال الفنان الإسباني سلفادور دالي (1904-1989م). أعماله تشمل: الرسم، النحت، تصميم المجوهرات، الأثاث المنزلي، والسينما.

قام دالي بدراسة الأعمال السيكلوجية الجنسية لكل من "ريتشارد فون كرافت إبينج" و "سيجماند فرويد". اخترع طريقة تساعده في رسم لوحاته، أسماها "طريقة البارانويا الحرجة". حاجة كده تشبه حافة الجنون.

يعتبر دالي حالة فريدة في تاريخ الفن التشكيلي. يتصف بالتمرد على المألوف، وهي حالة لازمته طيلة حياته. يملك مقدرة عالية على نقل ما يدور في عالم اللاوعي والعقل الباطن إلى لوحاته. كان مناهضا للدكتاتور فرانكو حاكم إسبانيا.

درس الفن الإيطالي الكلاسيكي وفن عصر النهضة وتأثر بالفنان ليوناردو دافنشي. أشهر أعماله، لوحة تمثل رجلا ينصهر وهو ممسك بشوكة وسكين، يتناول بها ما ينصهر من جسده المنساب على المائدة. إنسان يأكل نفسه.

أكل لحوم البشر، دالي

كان يكره التكنولوجيا والميكنة، يظهرها في أعماله بصورة بشعة. وكان يعتقد أن هذه الميكنة والتكنولوجيا هي التي تقضى على روح الإنسان وقدرته على الإبداع.

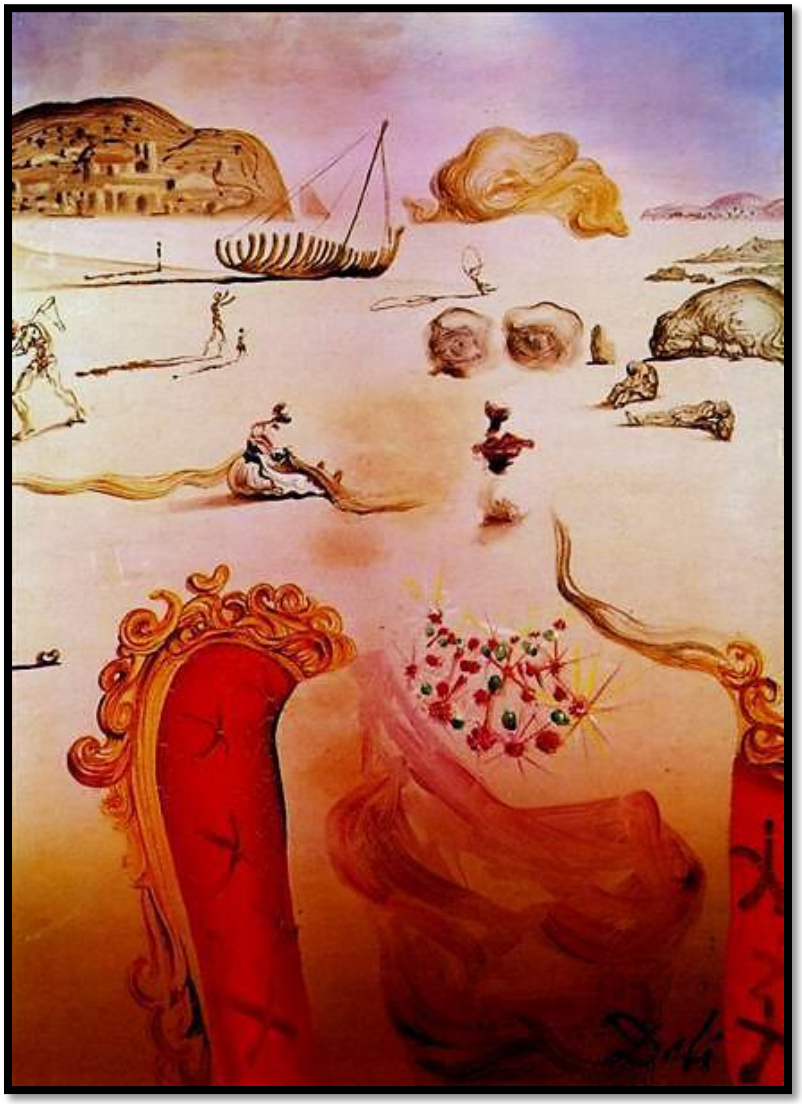

أشكال بارانويا-سيريالية، دالي

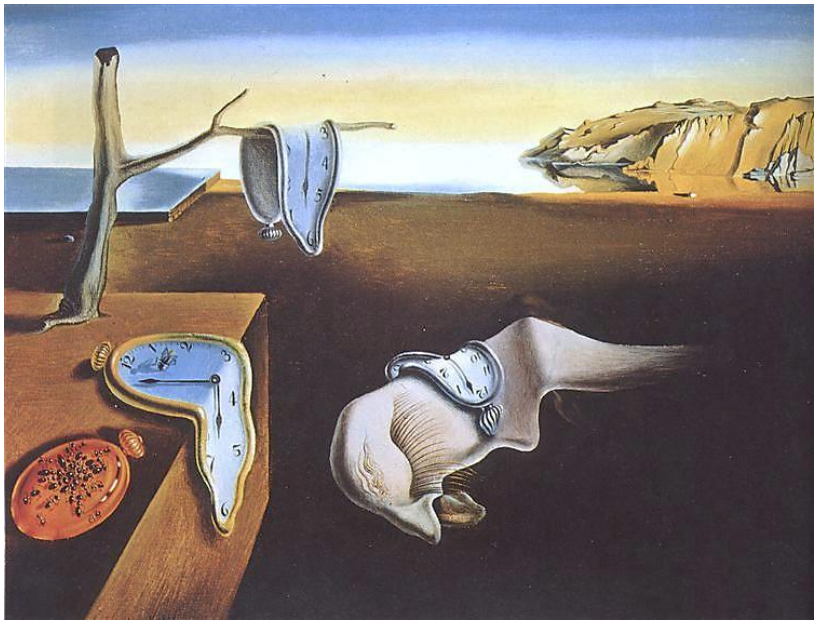

استمرار الذاكرة، دالي

هذه اللوحة تلخص أسلوب دالي الفريد. الذاكرة هنا مستمرة والزمن متوقف. الشمس التي لا تغرب، تضئ صحراء جرداء. مخلوق غير واضح الملامح على ظهره ساعة جيب منصهرة أو في حالة تحلل. الساعات الأخرى كلها منصهرة.

ساعة تتدلى من على فرع شجرة ميتة، أخرى تنبت من صخرة على شكل مكعب أملس. ساعة ثالثة تتدلى من حافة المكعب الصخري. ساعة رابعة ملقاة على الصخرة.

سرب من النمل يحوم على الساعة الصغيرة، وذبابة كبيرة تقف على وجه الساعة المجاورة. دالي يعتني بالتفاصيل الدقيقة، لكي يقنع المشاهد أن اللوحة تمثل أشياء حقيقية. اللوحة تبين بوضوح أنها من هلوسات العقل الباطن. وعلى المشاهد أن يفسرها كما يريد.

عادة السيرياليون يستخدمون طرق عديدة لكي يحرروا القوى الخلاقة داخلهم من سلطة الوعي الطاغية، التي شكلتها ضغوط مجتمعاتهم داخل نفوسهم. دالي كان يستخدم طريقة "البارانويا الحرجة" لكي يشجع التداعي الحر عند الفنان.

التداعي الحر، تقنية تحليل نفسي تعتمد على ترك المجال للشخص لكي يفصح عن الأفكار التي تتبادر إلى ذهنه دون تدخل أو توجيه من الخارج، لكي يتم استخدامها في تحليل وضعه الراهن.

الفنان الإسباني خوان ميرو (1893-1983م)، فنان سيريالي أتقن هذا الأسلوب. منذ البداية، أعمال ميرو تحتوي على عناصر خيالية وشئ من الهلوسة. بعد أن نصح الشعراء السيرياليون ميرو باستخدام الصدفة لخلق لوحات فنية، استخدم ميرو طريقة من اختراعه، تسمح له برسم لوحات مثل اللوحة المسماه "رسم":

رسم، ميرو

بدأ ميرو رسم هذه اللوحة، باستخدام ملصقات متفرقة ووضعها على اللوحة في تكوينات مختلفة. الملصقات أصبحت زخارف أعاد تشكيلها، ثم عمل منها مساحات قام بتلوينها فيما بعد.

يصف ميرو أسلوبه، بانه انتقال بين الوعي واللاوعي في رسم اللوحات. بدلا من أن أجلس لكي أرسم لوحة ما، أبدأ بالرسم. وأثناء الرسم، تبدأ الصورة في توكيد نفسها. أي أنها تبدأ تظهر كإمرأة مثلا أو طائر.

المرحل الأولى من الرسم، هي مرحلة تداعي حر، أي حرية اللاوعي وجعله يفعل ما يريد. المرحل الثانية، هي مرحلة الوعي والحسابات الدقيقة. قد تكون لوحة مثل اللوحة السابقة "رسم" ليس لها معنى يمكن شرحه، ولكنها بدون شك، تعبير عما يدور بالعقل الباطن الذي نعرف عنه القليل.

هذه بعض لوحات ميرو:

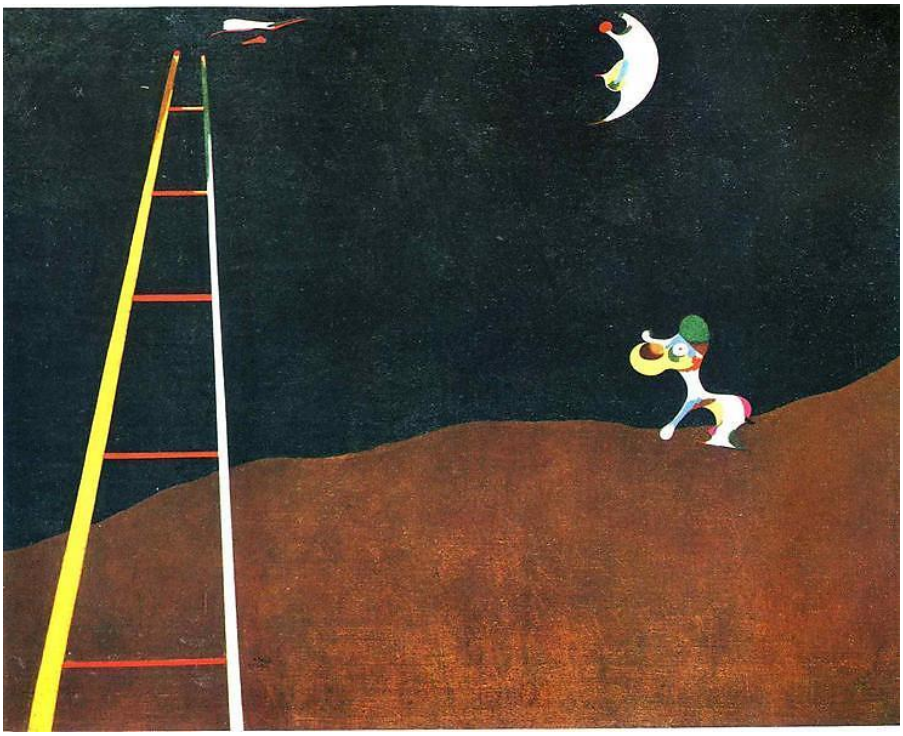

كلب ينبح للقمر، ميرو

أشكال رتمية، ميرو

أشكال وطيور بالليل، ميرو

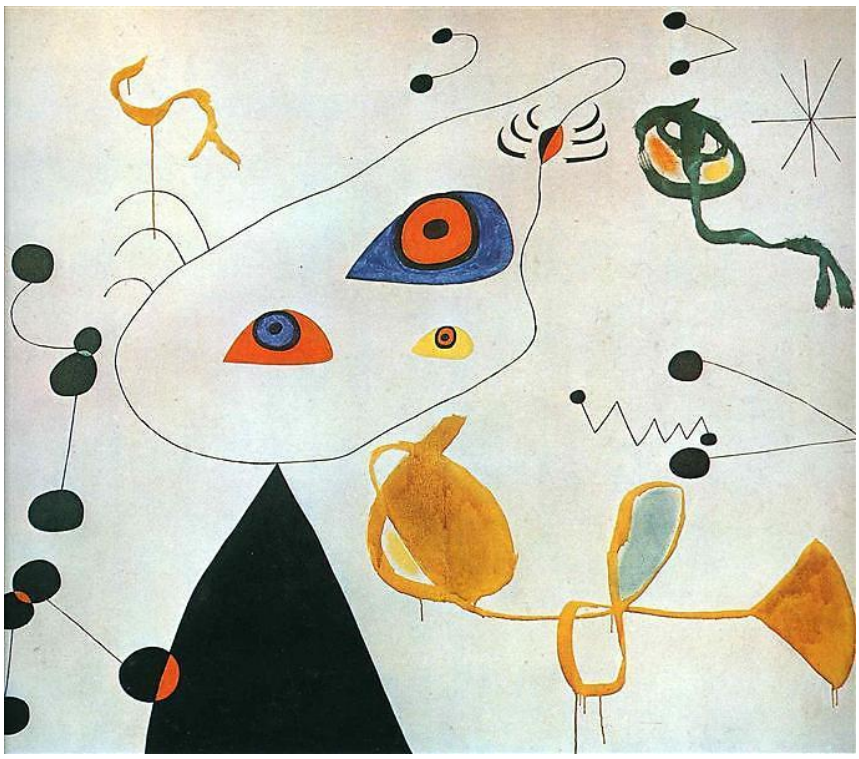

امرأة وطيور بالليل، ميرو

لكن أكثر الفنانين خيالا وجرأة على رسم العالم الغير منظور، عالم العقل الباطن، هو الرسام السويسري"بول كلي" (1879-1940م). هو مثل ميرو في استخدام "التداعي الحر"، لكنه كان يبحث عن الطبيعةالإنسانية المدفونة في الأشكال والرموز البدائية.

مثل عالم التحليل النفسي السويسري "كارل يونج"، يعتقد "بول كلي" بأن العقل الباطن به جزء موروث عن جدودنا الأقدمين. هذا الجزء يظهر في صورة أشكال ورموز بدائية. نجدها عند الشعوب والحضارات البدائية.

"كلي"، ابن موسيقي، هو نفسه عازف كمان مقتدر. يعتقد "كلي" بأن فن الرسم مثل الموسيقى. له القدرة على التعبير عن العواطف، من خلال الألوان والأشكال والخطوط.

يقول كلي: "الفن لا يعيد انتاج المنظور، ولكنه يجعله منظورا وواضحا. لقد اعتدنا سابقا على رسم الأشياء الواضحة أمامنا. أشياء نحب أن ننظر إليها ونراها. أما اليوم، فإننا نبحث عن الحقيقة، التي تقبع مختفية بين طيات الأشياء المرئية".

لكي يبحث "كلي" عن الحقيقة المختفية خلف العالم المنظور، قام بدراسة الطبيعة بشغف. وكان مهتما بعمليات التغير والنمو في الأحياء. جذور أعمال كلي، هي الطبيعة. لكن الطبيعة والحقيقة تتغير وتتشوه عند مرورها إلى العقل عن طريق الحواس.

عندما يبدأ كلي في رسم لوحة، يترك قلمه الرصاص أو الفرشاة لكي تقوده، إلى أن تظهر صورة. ثم يقوم هو بإكمال الفكرة.

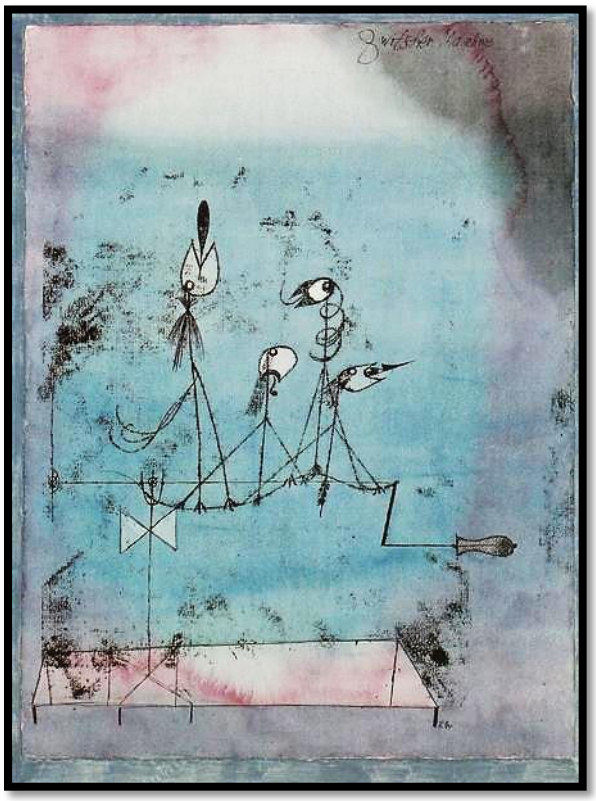

لوحة ماكينة التغريد، كلي

هنا من السهل التعرف على الطيور في اللوحة، بعكس لوحات ميرو. لكن كلي، يرسم الطيور بأسلوب بدائي يشابه رسوم الأطفال، مصبوغة داخل العمل الفني بصبغة شاعرية غنائية.

حجم لوحاته الصغيرة، تضخم التأثير على المشاهد. المشاهد عليه أن يقترب، لكي يحل رموز هذه الصيغ الرقيقة، ويدخل معها عالم الأحلام الغامضة. الآلة التي يظهر يدها في اللوحة، تضيف شيئا للمشهد.

ليس هناك فنان آخر في القرن العشرين، يقارن برصانة الرسام بول كلي. لأنه خلق عالما من الغموض والتساؤلات، يجبر المشاهد على البحث بنفسه عن تفسير للعمل الفني.

بعض لوحات بول كلي:

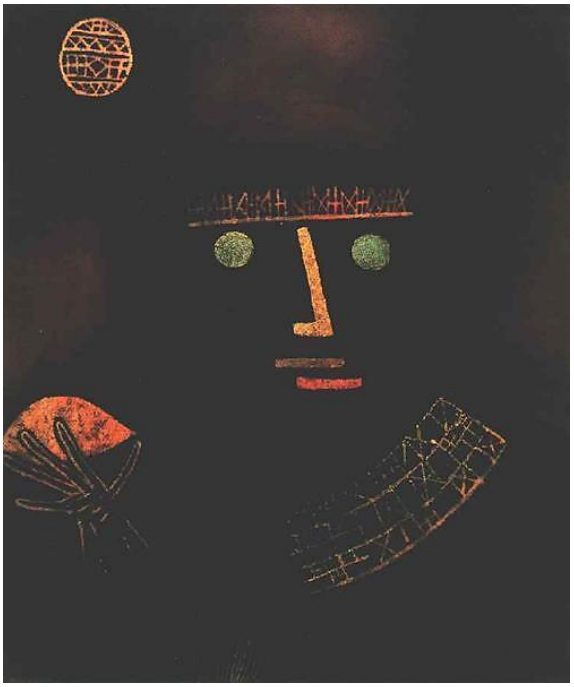

ملك زنجي، كلي

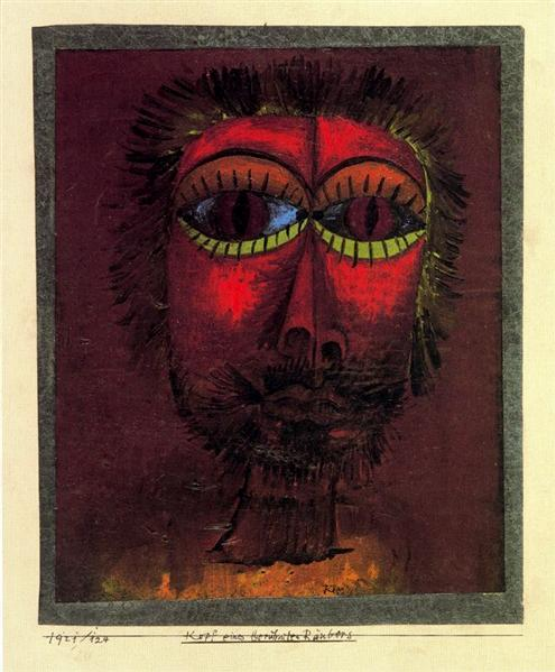

رأس قاطع طريق، كلي

38

خاتمة

بالطبع، الحديث عن الفن والفنانين لا ينتهي. أبواب هذا الكتاب نشرت في عدة مواقع على الإنترنت في صورة مقالات عن الفن والفنانين. كنت أحسبها لن تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة. وإذا بها تصل إلى 37 مقالة. ولولا الاقتصاد والاختزال، لتخطت تلك المقالات المئة وربما الألف في العدد.

أرجو أن أكون قد وفقت في تبسيط قضية الفن التشكيلي وتاريخه للسادة القراء. وأن أكون قد نجحت في فتح شهيتكم لهذا العالم الساحر، حتى تطلبوا المزيد. فشكرا لمروركم الكريم، ولا حرمنا الله من أمثالكم.

تعريف بالمؤلف

الاسم: محمد زكريا توفيق

المؤهلات: ماجستير فى الرياضة البحتة من كلية الهندسة جامعة نيويورك 1973م

ماجستير فى علوم الكمبيوتر من كلية العلوم جامعة نيويورك 1983م

دراسات فى الرياضيات التطبيقية تعادل الدكتوراه من معهد كورانت بجامعة نيويورك

الخبرة: أكثر من 40 سنة فى مجال الكمبيوتر حيث كان يعمل مديرا للتخطيط والبرمجة فى عدة بنوك أمريكية منها البنك الفدرالى الأمريكى.

نشرت له العديد من المقالات العلمية والثقافية والسياسية فى صحافة مصر والخارج

يعيش الآن فى مدينة نيويورك